مير بصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجزء الأول

دار الحكمة







أعلام الأدب في العراق الحديث

١

ISBN 1 - 898 209 - 456
الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street London NW1 IHJ. Tel: 071 - 3834037 / Fax: 071 - 3830116

مير بصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجُزْءُ الأَوَّلُ

تقديم

د. جليل العطيّة

دار الحكمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مير بصري رائد «فن التراجم» الأدب العربي الحديث

بقلم: د. جليل العطية

«١»

نشأ فنا السير والتراجم وترعرعا في أحضان علم التاريخ، وتأثرا بمفهوم الناس عنه على مرّ العصور، فكانا تسجيلاً للأعمال والأحداث.

وعندما تغيّر مفهوم التاريخ، وأصبحت له فلسفة خاصة، أنكر بعض الباحثين المحدثين أن تكون السيرة أو الترجمة جزءاً من التاريخ، وبين هؤلاء كولنجوود وتوينبي فهما يُخرجان من دائرة التاريخ ما يتصل بالسير الذاتية كاعترافات القديس أوغسطين وروسو أو حياة الملكة فكتوريا لستراتشي.

يقول توينبي: إن هذه الكتب تشتبك بالتاريخ لأنها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعية. وبعد أن يبين خصائص بعضهم يقول: إذا علقنا التاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ من حيث الطريقة.

على أننا إذا استبعدنا هذه النظرة الحديثة، وجدنا أن فن التراجم من ناحية عملية هو تاريخ في نشأته وغايته، ويمكن أن نقرر أنه: كلما كانت الترجمة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو متأثرة بها، فإن الترجمة تحقق هدفاً تاريخياً.

وكلما كانت الترجمة تفصل المترجم عن مجتمعه ووطنه، وتجعله الهدف الأسمى وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون هشة بل مبتسرة.

ولقد وعى ابن الجوزي ـ المؤرخ البغدادي الشهير ـ أن التاريخ عبارة عن مجموعة متنوعة من السير والتراجم عندما قال في مقدمة كتابه (شذور العقود): إن التواريخ وذِكر السير راحة للقلب وجلاء للهم وتنبيه للعقل فإنه.. إن شَرحتْ سيرة حازم علّمت حسن التدبير، وإن قَصّتْ قصة مفرط خوّفت من إهمال الحزم.

وفي القرون الماضية ركد فن التراجم وانكفأ، شأن ألوان الفنون والعلوم الأخرى، وفي بواكير القرن العشرين سار الكتّاب العرب باتجاهات مقاربة لما في الغرب، فتأثروا بالدراسات النقدية للنصوص، والنظريات النفسية، وأصبح بعضها أقرب إلى المظهر العلمي منه إلى المظهر الأدبي، وقلّت الرغبة في تاريخ الحياة نفسها.

ومن بين المحاولات ذات الطابع الأدبي في السيرة الحديثة يمكن الإشارة إلى (حياة الرافعي) للعريان، (وعبقريات العقاد، وجبران) لميخائيل نعيمة. وأرّخ زيدان وأحمد حسن الزيات والإسكندري وحنا فاخوري للأدب العربي في عصوره المختلفة، وقدّم خير الدين الزركلي كتابه «الأعلام» الذي عني فيه بترجمة المئات من أعلام العرب والمسلمين والمستعربين، غير أن ترجمته ـ على دقتها ـ كانت موجزة، لأنه أراد استيعاب أكبر قدر من الشخصيات في كتابه.

وفي العراق عني عدد قليل من الأدباء والمؤرخين بفن التراجم لمع منهم: رفائيل بطي (ـ ١٩٥٦م) وجعفر الخليلي (ـ ١٩٨٥م) ومير بصري.

والمؤسف أن الجهود المضنية التي بذلها بطي بقيت محدودة الفائدة، لأن التراجم المهمة التي كتبها بقيت مطوية في الصحف والمجلات ولم تجمع في كتب. أما الخليلي فإن كتابه (هكذا عرفتهم) بأجزائه الستة المطبوعة، يعدّ مرجعاً لا يستغني عنه كل مَن يرغب رصد الحركة الأدبية والثقافية خلال القرن الماضي، غير أن ما يؤخذ عليه ـ رحمه الله ـ أنه رسم لوحات انطباعية لمن عرفهم كأنه كتبها من الذاكرة، لأن معظمها تفتقد إلى التوثيق والتواريخ وما أشبه.

■٢■

ولد مير شاؤل بصري في بغداد في التاسع عشر من أيلول ١٩١١ في أسرة عراقية عريقة عرفت باسم «عوبديا»، وقد ذكر الرحالة بنيامين أنه التقى عمّ أبيه الذي كان يشغل منصب رئيس المحكمة الشرعية في بغداد سنة ١٨٤٨م. درس مير في مدرستي التعاون والأليانس، ولازم الأب أنستاس ماري الكرملي والدكتور مصطفى جواد حيث أخذ عنهما اللغة العربية، كما درس تاريخ العراق على عباس العزاوي والعروض على الشاعر محمود الملاح.

وعمل في الوظائف العامة والخاصة سنوات عديدة (ما بين ٢٨ ـ ١٩٥٢) أمضى شطراً منها في وزارة الخارجية. وقد أهلته كفاءته لتمثيل العراق في عدة مؤتمرات عقدت في نيويورك وباريس وغيرها. وبعد سنة ١٩٥٣ انصرف إلى الأعمال الحرة.

كان أثره الأدبي الأول شعراً منثوراً عنوانه الحرية (بغداد ١٩٢٨) على طريقة جبران والريحاني، وعمل في أوقات مختلفة محرراً اقتصادياً وباحثاً في الصحف والمؤسسات الاقتصادية العراقية.

أما المؤلفات التي أتيح له نشرها حتى الآن فهي:

مباحث في الاقتصاد العراقي (١٩٤٨)، رجال وظلال (١٩٥٥)، رسالة الأديب العربي (١٩٦٩)، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (١٩٧١)، أعلام اليهود في العراق الحديث (١٩٨٣)، أعلام السياسة في العراق الحديث (١٩٨٧)، أعلام الكرد (١٩٩١)، أغاني الحب والخلود (١٩٩١) وأنجز مؤلفات أخرى تنتظر النشر.

بقي مير بصري في بغداد يمارس نشاطه الأدبي والاقتصادي والروحي وبعد أن دخل العراق في بحر الانقلابات والاضطرابات، تعرض إلى الاعتقال والأذى (١٩٦٩) فاضطر إلى ترك وطنه (١٩٧٤). حيث استقر في لندن مواصلاً نشاطه الأدبي والاجتماعي بكل همة وتجرد وإخلاص وظل يحمل لوطنه في حنايا ضلوعه وخفقات قلبه، فمما قاله في بغداد:

على الأوطان في جبل وسهل ... سلام الله، عطر من سلام
بلادي حبها مددي وديني ... تغلغل في الجوارح والعظام
هي الأم التي خلقت كياني ... وجادت بالحشاشة والقوام
وأرهفت المشاعر في حنان ... وأوقدت القريحة بالضرام
ولقّنت المكارم والسجايا ... وأوحت بالخواطر والكلام
ونزهت الفؤاد من الدنايا ... ورفعت الضمير عن الملام
رضعت لبانها طفلاً صغيراً ... وذقت نعيمها منذ الفطام
عببت من الهواء الطلق صفواً ... ومن ماء ألذّ من المدام
وكحلت العيون بسحر حسن ... تلألأ في الضياء وفي الظلام
فيا للحسن من بغداد أضفى ... على الوديان وشياً والاكام
مغانٍ قد صفا فيها شرابي ... وراق العيش في عزّ المقام

تتوزع اهتمامات مير بصري بين الشعر والقصة والرواية وكتابة التراجم والملاحم والترجمة والبحوث الاقتصادية. وقارىء آثاره التي أتيح لها النشر يقرّ له بالجودة والمستوى الرفيع في كل الفنون المختلفة التي مارسها باعتراف كبار النقاد.

يعتقد بصري أن الشعر والأدب يجب أن يرميا إلى مثل أعلى وهو التفاهم البشري والتعاون ونشر الأخوّة والمحبة والسلام.

-٢-

ويبدو لي أنه وجد أن مؤرخي العراق قد قصّروا في فن التراجم، ولعله لمس من صديقيه الكرملي ومصطفى جواد التشجيع في الانصراف إلى هذا الفن، الذي لا يجرؤ على خوضه إلاّ مَن أحاط بعدة علوم وفنون في آن واحد!

فكان أن صرف أكثر من خمسة عقود من عمره وهو يدون ويوثق ويسجل تراجم

الشخصيـات التي سـاهمت في بنـاء نهضـة العـراق الحديث على مختلف مـذاهبهم ومشاربهم فكان كتابه الحالي (أعلام الأدب في العراق الحديث) ثمرة مجهود مضنٍ.

يشمل الكتاب على تـراجم نحو مائتين وخمسين أديبـاً وشاعراً ممّن كـان لهم الأثر في بناء كيان العـراق الأدبي والثقافي والفكري خلال أكثر من قرن. ويمكن اعتبـار الشاعر عبد الغفار الأخـرس المتوفى سنة ١٨٧٥م أقدمهم وفاة، وبينهم أدباء وشعـراء لا يزالون على قيد الحياة ـ أمدّ الله في أعمارهم.

قدم بصري لكتابه الضخم الذي شرفني بكتابة هذه المقدمة له، بتوطئة موجزة تناول فيها الأدب العـربي في عصور الانحطاط والنهضة والعهـد الانتقالي وختمها بـالعبارات الآتية:

أرجو أن تكون الصفحات التالية سجـلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام.

ولعمـري أنه تـواضع جمّ من قبلـه، فالعمل الـذي نهض بـه جبار، لا يقـوى على تقديمه بهذا الشكل المتقن، الموثق فرد!

على أن غَيرته على الأدب والأدبـاء ذللت له الصعوبات التي واجههـا في تأليف هذا السفر الفذّ.

ينفرد مير بصري عن كل مؤرخي التراجم بنقاء العبارة، ورشاقة الأسلوب والبعد عن التعمل والتصنع، يحيط بتاريخ العراق والعـرب إحاطة واسعة، وقد رزق ذاكـرة قوية، لا ينسى ما يقيّد ولا ما لا يقيّد وغلب عليه التواضع والحياد.

ومما ينفرد به إجـادته اللغة الفرنسية واطلاعه الـواسع على الأدب الفرنسي، وقد أفاد القارىء بمعلـومات غـزيرة عندمـا عقد مقارنـات واقتبس أشياء لها صلـة بالمترجم لهم وطائفة من شعراء فرنسة وأدبائها.

ولا أريد هنـا أن أكشف كل مـزايا هذا الكتـاب الموسوعي، فيكفـي أن ألمّح إلى أنه حفظ لنـا مختـارات شعـريـة مجهولـة لشعـراء لم يسعفهم الحظ بنشر نتـاجـاتهم خـلال حياتهم، كما أن معرفته بعدد منهم مكنتـه من الاطلاع على آرائهم وأفكارهم، وإذا كان الكتاب قـد اشتمل على تراجم المشهـورين المعروفين، فإن المؤلف قـدم لهم نماذج أدبية غير معروفة.

ختامـاً أبتهل إلى البـاري عزت قدرتـه أن يمدّ في عمـر الأستاذ مير بصري ليـواصل إتحاف المكتبة العربية بنتاجاته الأدبية والتاريخية. ولي الثقة بأن (أعلام الأدب في العراق الحديث) سيأخذ مكانته اللائقة في الخزانة العربية كواحد من أهم مراجع دراسة الأدب العربي الحديث.

المحتـــويات

عصر الانحطاط الأخير والعهد الانتقالي

عصر النهضة

الشعر

الشعر العامّي

عصر النهضة

النثر

الجزء الثاني
رجال الفقه والدين

الصحافة

الموجة الحديثة

شعر

الموجة الحديثة

نثر، تأريخ، قصص

الشعر الجديد

الشعر الحرّ

شعراء وأدباء

سجّلت تراجم الشعراء والأدباء الآتي ذكرهم في كتابي «أعلام الوطنية والقومية العربية» المعدّ للطبع :

(١) عبد المطّلب الحلي

(٢) خيري الهنداوي

(٣) محمد حسين آل كاشف الغطاء

(٤) محمد باقر الشبيبي

(٥) محمد مهدي البصير

(٦) عبد الرحمٰن البناء

(٧) محمد باقر الحلي

(٨) حمد فهمي المدرس

(٩) هبة الدين الشهرستاني

(١٠) أحمد عزت الأعظمي

(١١) ساطع الحصري

(١٢) محمد كاظم الخراساني

(١٣) محمد كاظم اليزدي

(١٤) محمد تقي الشيرازي

(١٥) فتح الله الأصفهاني

(١٦) محمد حسين النابيني

(١٧) مهدي الخالصي

(١٨) محمد الخالصي
(١٩) عبد الغفور البدري
(٢٠) إبراهيم صالح شكر
(٢١) علي الخطيب
(٢٢) عيسى عبد القادر
(٢٣) عبد الرحمٰن البزّاز.

سأصرف وجهي عن بلاد غدا بها   لسانيَ معقولاً وقلبيَ مقفلا
وإنّ صريح الحزم والرأي لامرىءٍ   إذا بلغته الشمس أن يتحوّلا

أبو تمام
(٨٠٤-٨٤٦م)

كن ابن مَن شئت واكتسب أدباً   يغنيك محموده عن النّسب
إنّ الفتى مَن يقول: ها أنَذا   ليس الفتى مَن يقول: كان أبي

أبو العتاهية
(٧٤٨-٨٢٦م)

إذا ورّث الجهّال أبناءهم غنى   وجاهاً فما أشقى بني الحكماء!

محمد حفني ناصف
(١٨٥٧-١٩١٩م)



المصادر والمظانّ

هيّئت لي معلومات وافية من الشعراء والأدباء الـذين عرفتهم ومن أصدقاء الراحلين والمتصلين بهم . ووجدت في الجرائد والمجـلات العراقية والعـربية خـلال نصف قرن أو يزيد أخباراً كثيرة حرية بالتدوين . وفي الكتاب أشعار لم تنشر أو نشرت في الصحف ولم تجمع في ديوان فآثرت إثباتها تخليداً لأصحابها .

وفيما يلي جدول ببعض المراجع والمظان التي قد يرغب المتتبع في الرجوع إليها زيادة في الفائدة :

(١) مير بصري : أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (بغداد ١٩٧١) .

(٢) إبراهيم الواعظ : الروض الأزهر (١٩٤٨) .

(٣) محمد مهدي البصير: نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (بغداد ١٩٤٦) .

(٤) خير الدين الزركلي : الأعلام (الطبعة الثالثة) .

(٥) محمد صالح السهروردي : لبّ الألباب (جزآن ، بغداد ١٩٣٣) .

(٦) عبد الرزاق الحسني : تأريخ الصحافة العراقية (١٩٣٥) .

(٧) عباس العزاوي : تأريخ الأدب العربي في العراق (بغداد ، جزءان ١٩٦١ - ٦٢) .

(٨) السيد حيدر الحسيني الحلي : العقد المفصل (جزآن) .

(٩) محمد بهجت الأثري : أعلام العراق (١٩٢٧) .

(١٠) رفائيل بطي : الأدب العصري في العراق العربي (جزآن ، القاهرة ١٩٢٣) .

(١١) رفائيل بطي : الصحافة في العراق (١٩٥٥) .

(١٢) مصطفى علي : أدب الرصافي (١٩٤٧) .

(١٣) مصطفى علي : الرصافي (الجزء الأول ١٩٤٨) .

(١٤) مصطفى علي : محاضرات عن معروف الرصافي (١٩٥٤) .

(١٥) جورج جبّوري: الكرملي الخالد (١٩٤٧).

(١٦) كوركيس عواد: معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء، بغداد ١٩٦٩).

(١٧) كوركيس عواد: الأب أنستاس ماري الكرملي (١٩٦٦).

(١٨) مصطفى جواد: المباحث اللغوية في العراق (١٩٥٥).

(١٩) الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦.

(٢٠) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠.

(٢١) السيد جعفر الحلي آل كمال الدين: سحر بابل وسجع البلابل (صيدا ١٩١٣).

(٢٢) عبد الغفار الأخرس: الطراز الأنفس في شعر الأخرس (الأستانة ١٨٨٧) نشره أحمد عزت الفاروقي.

(٢٣) عبد الله الجبوري: من شعرائنا المنسيين (بغداد ١٩٦٦).

(٢٤) محمد الهاشمي: سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (بغداد ١٩٥٩).

(٢٥) محمد مهدي البصير: البركان (بغداد ١٩٥٩).

(٢٦) أحمد الصافي النجفي: التيار (دمشق ١٩٤٦).

(٢٧) محمود الحبوبي: شاعر الحياة (النجف (١٩٦٩).

(٢٨) بدر شاكر السيّاب: قيثارة الريح (بغداد الطبعة الثانية ١٩٧١).

(٢٩) محمود العبطة: بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق (بغداد ١٩٦٥).

(٣٠) حافظ جميل: اللهب المقفّى (بغداد ١٩٦٦) نبض الوجدان (بغداد ١٩٥٧) أحلام الدوالي (بغداد ١٩٧٢).

(٣١) غازي عبد الحميد الكنين: شعراء العراق المعاصرون (جزآن ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨).

(٣٢) محمد رضا الشبيبي: ديوان الشبيبي (القاهرة ١٩٤٠).

(٣٣) محمد مهدي الجواهري: ديوان الجواهري (عدة طبعات).

(٣٤) محمد مهدي الجواهري: أيها الأرق (بغداد (١٩٧١).

(٣٥) محمد مهدي الجواهري: خلجات (بغداد ١٩٧٢).

(٣٦) نعمان ماهر الكنعاني: المعازف (بغداد ١٩٥٠).

(٣٧) نعمان ماهر الكنعاني: الشعر في ركاب الحرب (بغداد ١٩٤٨).

(٣٨) عبد الحسين الأزري: ديوان الحاج عبد الحسين الأزري (بيروت).

(٣٩) علي الشرقي: عواطف وعواصف (بغداد ١٩٥٣).

(٤٠) علي الشرقي: ديوان علي الشرقي (بغداد ١٩٧٩).

(٤١) معروف الرصافي: ديوان الرصافي (القاهرة ١٩٤٩).

(٤٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي (بغداد ١٩٨٠).

(٤٣) الدكتور محسن غياض: شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي (بغداد ١٩٧٦).

(٤٤) الدكتور داود سلوم: تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي (بغداد ١٩٥٩).

(٤٥) تذكرة الشعراء لعبد القادر الخطيبي الشهرباني (نشره الأب أنستاس الكرملي، بغداد ١٩٣٦).

(٤٦) الدكتور يوسف عز الدين: شعراء العراق في القرن العشرين (بغداد ١٩٦٩).

(٤٧) يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية (٤ أجزء، بيروت).

(٤٨) الدكتور شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر: في مصر (القاهرة ١٩٥٧).

(٤٩) الدكتور جمال الدين الرمادي: من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة ١٩٦٠).

(٥٠) محمود شكري الألوسي: المسك الأذفر (بغداد ١٩٣٠).

(٥١) مجلة كلية الآداب (العدد ١٨ : ١٩٧٤) بغداد، عدد خاص بأربعينية الدكتور محمد مهدي البصير.



توطئة
الأدب العربي في عصر الانحطاط

عرف العصر الذي تلا سقوط الدولة العباسية في العراق سنة ١٢٥٨م بعصر الانحطاط. فقد خمدت الحركة الأدبية وأصبح الشعر والنثر يتّسمان بالتقليد والإسفاف، وكادت المواضيع تقتصر على المدح والهجاء والرثاء والغزل والمراسلات الإخوانية. كسدت سوق الأدب وزال الإبداع والإشعاع في البلد الذي أنجب الفرزدق وابن المقفّع والأصمعي والجاحظ وبديع الزمان والحريري والفراهيدي وسيبويه وبشار وأبا نواس وأبا العتاهية وأبا تمّام وابن الرومي وابن المعتز والمتنبّي وابن خلكان وصفيّ الدين الحلي وأضرابهم من أساطين البلاغة والبيان والقريض.

ونبغ في عهد الانحطاط شعراء فرس وترك كانوا في طليعة أدباء الدولتين الفارسية والتركية، منهم، من رجال اللغة الفارسية: سلمان ساوجي، وخواجو كرمانو وعبيد زاكاني وحافظ، ومن رجال اللغة التركية: فضولي البغدادي المعروف في تركية بـ «رئيس الشعراء»، وقد توفي سنة ١٥٥٥م، وابنه فضلي، ورضائي وعهدي وشمسي، وحسيني المتصوف المتوفى سنة ١٥٧٧، وروحي المتوفى سنة ١٦٠٥، وغيرهم. ولا يزال الأدب التركماني مزدهراً في كركوك وأنحائها، ومن أعلامه عبد الله صافي المتوفى سنة ١٨٩٨، والشيخ رضا الطالباني المتوفى سنة ١٩١٠. وكان يعدّ أبلغ شعراء الكرد، لكنه كان ينظم باللغات التركية والفارسية والعربية أيضاً. وقد سافر إلى تركية، ومضى إلى القاهرة فعهد إليه بتدريس الفارسية لأنجال الخديوي إسماعيل، على ما قيل.

ولا بدّ من ذكر أحمد هاشم الألوسي البغدادي الأصل (١٨٨٥ ـ ١٩٣٣) الذي يعدّ من أعظم شعراء تركية في العهد الأخير، وقد عرف بشعره الرمزي وشعر الطبيعة والجمال. ومن شعراء التركمان في كركوك وأنحائها محمود هجري ددة (١٨٨١ ـ ١٩٥٢) وخضر لطفي (١٨٨٠ ـ ١٩٥٩) والأديب ناجي الهرمزي (١٨٨٧ ـ ١٩٥٢) ومحمد صادق (١٨٩١ ـ ١٩٦٧) والقاضي أحمد فائز (١٨٤٢ ـ ١٩١٨) صاحب المؤلفات باللغات العربية والتركية والكردية والفارسية.

ولعلّ خير أنموذج للأدب التركي في العراق في أوائل القرن التاسع عشر ما سجله كتاب «تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة المرحوم داود باشا والي

بغداد»، وهـو من تأليف أو ترجمة عبـد القادر الخطيبي الشهـراباني. عني بنشره الأب أنستـاس ماري الكـرملي سنة ١٩٣٦. ذكـر هذا الكتـاب تراجم مختصرة لنحـو خمسين شاعراً وكـاتباً عاشوا في عهد الـوالي، وجلّهم إن لم نقل كلهم، من النكرات المحسوبين على الأدب ومن موظفي الـولاية وكتابها. ولم يخلفـوا أثراً سـوى واحد هو رسـول حاوي مؤلف «دوحة الوزراء» في تأريخ ولاة بغداد، وقد توفي سنة ١٨٢٦.

أما الأدب الكردي فـانتعش في السليمانية وأنحائها، وكان من أعـلامه العالم الأديب رسول مستي الملقب بشيخ الحكماء (١٨٢٣ ـ ١٩٠٨) والشعـراء محمد المحوي (١٨٣٦ ــ ١٩٠٩) وأمين يُمْني (١٨٤٥ ــ ١٩٢١) وأحمد الملا قادر (١٨٥٤ ــ ١٩١٠) وأمين فيضي (تـوفي ١٩٢٨) وصـالح حريـق (١٨٦٦ ـ ١٩٠٩) وحسن البـامـرني (١٨٦٧ ـ ١٩٣٧) وأحمد مختـار الجاف (١٨٩٦ ــ ١٩٣٣) وعبـد الله كَـوران (حلبجـة ١٩٠٤ ـ ١٩٦٢) وفائق بيكاس (١٩٠٥ ـ ١٩٤٨). ولا بـدّ من ذكر الكاتب المربّي رفيق حلمي (١٨٩٨ ـ ١٩٦٠) وحسن فهمي الجاف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٣). وأشهر شعراء الكرد على الإطـلاق توفيق بيره مـرد (السليمانية ١٨٦٧ ــ ١٩٥٠). ولا ننسى الـوزيرين العـالمين المؤرخ محمـد أمين زكي (١٨٨٠ ــ ١٩٤٨) والبحـاثـة المحقق تـوفيق وهبي (١٨٩١ ـ ١٩٨٤) مـؤلف القامـوس الكردي الإنكليـزي المطبوع في لنـدن (بالاشتراك مع الميجـر أدموندس).

الأدب العربي في عصر الانحطاط

كان الأدب العربي في عصر الانحطاط مظهراً من مظاهر التقليد والجمود والجفاف. فشت العجمة في الفكر والبيان، وطغت اللهجة العامية، وغلبت التركية لغة الدواوين والطبقة الحاكمـة. على أن النجف بقيت واحـة عربيـة ازدهر فيها الفقـه وعلوم الـدين واللغة والشعر التقليدي. وكان أبرز ممثلي الأدب العربي في ذلك العهد:

(١) الشاعر المدّاح الشيخ كاظم الأزري (١٧٣٠ ـ الكاظمية ١٧٩٦).

(٢) الشيخ صالح التميمي (١٧٦٢ ـ ١٨٤٤) ولـد في الكاظمية ودرس في النجف ومدح بشعره الولاة والأشراف.

(٣) المؤرخ عثمان بن سنـد البصري (١٧٦٦ ــ ١٨٢٧) مؤلف «مطـالع السعـود في طيب أخبار الوالي داود».

(٤) الشاعر المجيـد عبد الباقي العمري (١٧٨٩ ــ ١٨٦١)، موصلي الأصل وكان معاوناً لوالي بغداد.

(٥) مفتي بغـداد عبد الغني جميل (١٧٨٠ ــ ١٨٦٣) من وجهاء عصره وأغنيـائه،

نظم الشعر واشتهر بمطارحاته مع عبد الغفار الأخرس، وقد نشرها المؤرخ عباس العزاوي.

(٦) الشاعر عمر رمضان الهيتي، توفي سنة ١٨٣٦ .

(٧) المفتي أبو الثناء محمود شهاب الدين الألوسي. (١٨٠٢ ــ ١٨٥٤) صاحب الرحلات والمقامات والتفسير المشهور.

(٨) الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري (١٨١٩ ــ ١٨٨٥) اشتهر بمدائحه للوالي علي رضا باشا.

(٩) العالم الأديب المؤرخ إبراهيم فصيح الحيدري ولد في بغداد (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣).

(١٠) الشاعر الشيخ حمّادي آل نوح الحلّي (نحو ١٨٢٥ ـ ١٩٠٧).

(١١) الشاعر أحمد عزت باشا العمري الفاروقي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٢) ولد في الموصل وعاش في بغداد واستانبول وطبع ديوان الأخرس في العاصمة التركية سنة ١٨٨٧ .

(١٢) الشاعر العاشق الشيخ عباس علي النجفي (١٨٢٨ ــ ١٨٥٨)، وهو صاحب القصيدة المشهورة:

عديني وامطلي وعدي، عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

(١٣) الشاعر أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩).

(١٤) الشاعر السيد حيدر بن سليمان الحلّي (١٨٣٠ ــ ١٨٨٧) مؤلف «العقد المفصّل» في مدائح آل كبّة. وقد اشتهر بمراثيه الحسينية الشجيّة.

(١٥) نعمان خير الدين الألوسي (١٨٣٦ ـ ١٨٩٩) وكان عالماً لغوياً أديباً.

(١٦) الشيخ جعفر الشرقي (١٨٤٤ ـ ١٨٩٢) الشاعر الفقيه، والد الشاعر الشهير علي الشرقي.

(١٧) السيد جعفر الحلي من آل كمال الدين (١٨٦١ ـ ١٨٩٧) نشر ديوان شعره بعنوان «سحر بابل وسجع البلابل» وطبع في صيدا.

وقد غالى الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه «نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر» في تقييم أدب ذلك العهد، فقال: «إن أدبنا . . . يمثل كل لون من ألوان الأدب العربي القديم وكلّ فن من فنونه . . .» وقال: إنه يمثّل حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية. وبالغ في نعت الشعراء، فهذا خليفة أبي نواس والآخر خليفة أبي العتاهية وذاك صنو ابن الفارض وقرين أبي تمّام، وهلمّ جرا.

كان الشعر بضاعة كاسدة لا تكاد تحظى بشيء من التقدير المادّي أو الأدبي. والمديح والرثاء زاخران بالمبالغات الصارخة، فكأن كل ممدوح نابغة عصره وسيّد مصره، وكل مرثيّ فاق الثقلين وغادر الأرض قفراً يباباً:

فالموت نقّاد على كفّه جواهر يختار منها الجياد!

ونرى السيد جعفر الحلي يرثي القتيل ويهنىء القاتل في نفس واحد، يرثي الشيخ مزعل ويهنىء أخاه خزعل خان الذي اغتاله وحلّ محله على دست إمارة عربستان. ثم نراه يمدح قاطع الطريق من عشيرة شمر فيصفه بالليث الذي أوكل رزقه ببراثنه!.

وخلاصة القول: إن شعر عصر الانحطاط يكاد يخلو من المعاني والأفكار الأصيلة والبوارق الصوفية واللمعات الذهنية واللمحات الوجدانية. وإذا كان يمتاز بسلامة اللغة والبلاغة في أحايين كثيرة، فإنه يتّسم بالجمود والتقليد والصرامة وضحل الخيال.

وقد ترجمت لشاعرين يمثلان عصر الانحطاط الأخير أحدهما بغدادي (عبد الغفار الأخرس) والآخر نجفي (إبراهيم الطباطبائي).

عصر النهضة

أطلّ فجر النهضة الأدبية في مطلع المائة العشرين، وكان في الطليعة من روّاده الشاعران جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي، ثم تبعهما عند إعلان الدستور التركي محمد رضا الشبيبي وأخوه محمد باقر وعلي الشرقي وخيري الهنداوي وكاظم الدجيلي ومحمود الملاح.

ونبغ من الكتّاب والعلماء محمود شكري الألوسي والأب أنستاس ماري الكرملي وفهمي المدرس ومحمد حسين كاشف الغطاء... ونشأت الصحافة سنة ١٩٠٨ مع إعلان الحرية، فبرز فيها عبد اللطيف ثنيّان وداود صليوا وإبراهيم صالح شكر وإبراهيم حلمي العمر، ثم رزوق غنام وعبد الغفور البدري ورفائيل بطّي وتوفيق السمعاني وسليم حسّون...

ويمكن القول: إن الأمة العربية «أمّة الشعر». فقد كان للشعر منذ الجاهلية المقام البارز والأثر البليغ في الحياة الاجتماعية والسياسية والنهضة العلمية والأدبية. وكان الشعر يقوم مقام المقالات الافتتاحية قبل أن توجد الصحافة مع مزيّة أخرى له هي سهولة الحفظ والنقل والتداول والخلود.

وقد قلت في البحث الذي قدمته بعنوان «دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي العصري» إلى مؤتمر الأدباء العرب السابع المعقود في بغداد في نيسان ١٩٦٩: «يضطلع الأديب بتبعة جسيمة في بناء مجتمعه والمجتمع العالمي. فالأديب الحق يحمل مشعل التقدم والنهوض لينير السبيل لأبناء أمته ووطنه. ولئن كان ذلك صحيحاً مذ وجد الأدب ووجدت رسالة الأديب، لقد أصبحت هذه الحقيقة أشدّ خطراً وأبلغ أثراً في المجتمع العربي الحديث الذي يمرّ، من الجهة الواحدة، بطور انتقال، طور امتدّ منذ

حقبة طويلة ولا يزال جارياً بدرجة متفاوتة وتفاعل ملحوظ في مختلف أقطار العروبة لأجل إزالة آثار التخلف واللحاق بموكب الأمم العاملة العاملة، ويخوض، من الجهة الأخرى، معركة ضارية فرضتها عليه قوى الاستعمار والرجعية . . . » .

وقلت إن الأدب العربي قام في العصور الماضية بدوره في بناء المجتمع وتوطيد أركانه، وكان من أقوى عناصر القوة والتماسك التي تربط بين أبناء الشعب العربي في أقطاره المنبسطة شرقاً وغرباً. وقد رأينا الشعراء والأدباء في العراق والوطن العربي أجمع في عصر النهضة الحديثة يلهبون مشاعر الأمة وينيرون لها طريق الحرية والاستقلال ويدعونها إلى اليقظة والانطلاق.

قامت معارك اجتماعية ووطنية وسياسية خاض غمارها الأدب وكان النصر فيها حليف قوى التقدم والعرفان. وحسبنا أن نذكر مثالاً معركة تحرير المرأة والسفور والحجاب التي احتدمت بين الأنصار والمعارضين. وقد تعرّض الزهاوي للمحنة لمقال كتبه في الدفاع عن المرأة فبقي حبيس داره أياماً خوفاً من سخط الجماهير، حتى ليخاطب زوجه قائلاً:

أبثينَ، إن أدنى العدوّ حمامي بمسدس يذكيه أو بحسام
فتجلدي عند الرزيّة واحسبي أني اجتمعت إليك في الأحلام

وقال الرصافي:

لقد غمطوا حق النساء فشدّدوا عليهنّ في حبس وطول ثواء
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا عليهنّ إلاّ خرجة بغطاء

ودعا شعراء النهضة إلى العلم والحرية. واتخذ كتّاب الرواية والقصة والمسرحية آثارهم أداة لرسالة الثقافة والاستقلال. ثم تشعبت نواحي الأدب في مناهجه وأهدافه، وظهر الشعر المنثور والحرّ ومذهب الرمزية والسّوريالية، واتّسع مجال الأثر الأدبي بنشوء البثّ الإذاعي والتلفزيوني ونقل الشعر والنثر العربي إلى اللغات الأخرى بعد أن مرّ دور الترجمة والتعريب.

وأرجو أن تكون الصفحات التالية سجلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة، وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام.

لندن، شباط ١٩٩٤

مير بصري

القصص الشعري

أولع شعراء الشباب في مطلع القرن العشرين بالقصص الشعري، وكانت قصصهم في الغالب ساذجة شجيّة تنتهي بالفواجع، وكأنّ الدهر مأساة لا تبقي على غنيّ ولا متنعّم. ولعلّ أولئك الشعراء قد تأثروا بمصطفى لطفي المنفلوطي، الأديب المصريّ الأنيق الذي كان له تأثير عظيم في النصف الأول من القرن في طول الأقطار العربية وعرضها.

حدثني عبّاس العزاوي أن الكتب والمجلات كانت ممنوعة في عهد الاستبداد الحميدي، ولم يسمح بورودها إلا بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وإطلاق حرية المطبوعات. أخذت المجلات والصحف المصرية كالمقتطف والهلال والمقتبس والزهور وغيرها ترد إلى بغداد فيتلقفها الشباب المتعلم ويطالعها بشغف ولهفة.

قال العزاوي: كنّا ننتظر وصول المجلات والكتب بنافد الصبر، فإذا تأخّر البريد مررنا بالمكتبات في سوق السراي كلّ يوم، بل كل ساعة، نسأل عنها ونستفسر عن أسباب التأخير. وكانت مقالات المنفلوطي التي تنشرها جريدة المؤيد تحظى باهتمامنا قبل غيرها، ولا سيما النظرات والعبرات والروايات المترجمة التي نشرت بعد ذلك كتباً مستقلة. فإذا وردت المؤيد أقبلنا على مطالعة مقالات المنفلوطي في المكتبة أو الطريق، ولم نصبر عن قراءتها حتى الوصول إلى الدار!

وللمنفلوطي نفسه قصص شعرية، منها منظومة «بين أسماء وعبد الله». تلك قصة أسماء بنت الصديق وولدها عبد الله بن الزبير الذي طلب لنفسه الخلافة فحاصره الحجاج بمكة وعرض عليه التسليم. لكن أمه أشارت عليه بالمضيّ في القتال حتى الموت:

إنّ أسماء في الورى خير أنثى ... صنعت في الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً ... تحت درع منسوجة من نجيع
قال: يا أمّ، قد عييت بأمري ... بين أسر مرٍّ وقتل فظيع
خانني الصحب والزمان، فما لي ... صاحب غير سيفيَ المطبوع
وأرى نجميَ الذي لاح قبلاً ... غاب عنّي ولم يعد لطلوع

بـــــذل القـــــوم لي الأمـــــان، فما لي غيره إن قبلتــــــــــــــــه مـن شفيــع
فـأجـــــابـت، والجفـن قفـــــر كـأن لم يكُ مـن قبلُ مــــوطنـــاً للـــدمـــوع:
لا تسلّـــم إلاّ الحيـــــــــــــاة وإلاّ هيكـــــلاً شـأنـــــــه وشـأن الجذوع
إنّ مـــــوتـــــاً في ســـاحـــــة الحرب خير لـك من عيش ذلّـــــة وخضـــــوع

وختم الشاعر قصيدته قائلاً:

وأتـى أمّــــــه النّعيُّ فجــــــادت بعـــد لأي بـــدمعهـــا الممنـــوع

ونظم المنفلـوطي أيضـاً رواية بـولس وفـرجيني لبرنـاردان دي سان بيير، وهي قصـة الطبيعة الساذجة والطفولة البريئة، ومطلعها:

يــا بني الفقـــر، ســلامـــاً عـــاطـــراً من بنـي الـــدّنيـــا عليكم وثنـــاء

نشأ الطفلان في جـزيرة نـائية، وتمتّعـا بمشرق الشمس ومغيبها، ولعبـا معاً في ظل الأشجار الوارفـة وعلى ضفاف الجداول الرقراقـة. وقد تبادلا الحبّ وعزمـا على الزواج، لكن الفتـاة مضت إلى فرنسـة للمطـالبة بإرث لها فلم تحصل على المال. ولما عـادت إلى جزيرتها حيث ينتظرها الحبيب هاج البحر وماج، فغرقت السفينة وجرفت المياه العروس العائدة جثة لا حياة فيها ألقتها على الساحل.

كان جميل صدقي الـزهاوي من مبتدعي القصص الشعري، وقـد نظم عدة قصائد في هـذا البـاب، منها: أرملـة الجنـدي، سليمى ودجلـة، طـاغية بغـداد، الغـريب المحتضر، على قبر ابنتها، أسماء، مقتل ليلى والربيع، سعـاد بعد زواجها، ليلى وسمير، إلخ.

فأسماء فتاة تهوى أحد الشبـان، لكنّ أهلها يزفّونها إلى شيخ فانٍ له ثـلاث نساء فلا تجد مخرجاً من مأساتها إلا بتناول السمّ والموت في ميعة الصبا.

وأرملة الجندي يعضها الفقر بنابه بعد وفـاة قرينها فتصاب بالسلّ ولا تنال الكفاف من القوت مع طفلها لضآلة راتب التقاعد الذي يصرف لها.

ويقف الرصافي بين شعراء الشباب في العراق على قمة عالية لا تصل إليها الأبصار. إن منظوماته القصصيـة قصائد رائعة تجمع جمال الشكل إلى سموّ المعنى ولطف الأداء. إننـا نقـرأ «المطلقة» و«أمّ اليتيم» و«الفقـر والسّقـام» و«اليتيم في العيـد»، فنحلّق مع الشاعر في عالم روحانيّ من الرحمة والمحبّة وتخفق قلوبنا بالعواطف الإنسانية الرفيعة.

هذه المرأة تئنّ في سكون الليل، وقد لفّها الظلام والـوحشة والفقر بدثار قاس أليم، وإلى جنبها طفل جـائع ينتظر رجـوع أبيه الذي قتـل في مذبحة همجيـة. وهذه الـزوجة المخلصة المحبوبة يطلّقها زوجها لزلـة لسانية بدرت منه يحيلها جمود المجتمع وجهله إلى مأساة لا مخرج منها.

وهذا الصبيّ اليتيم البائس، صبيح الوجه، شاحب اللون، يخرج في صباح العيد ملتفعاً بأسماله البالية فيزيد من أساه وحرمانه ضجيج الناس وفرحهم ولعب الصبيان الذين يرتدون الملابس الزاهية ويمضغون السكر والحلوى ويضحكون ويمرحون في فيض من السعادة والهناء. . .

أما موشّح الفقر والسّقام فهو أنّة المضنى الكئيب ترتفع في الظلام يطلقها الفقير المريض الذي لا يجد طبّاً لعلّته ولا نفقة لأسرته. بشير الكادح الذي كان يسعى طول النهار ليكسب قوتاً زهيداً وليعيل أخته العانس أقعده المرض عن العمل:

إنّ سقماً به وعقماً ألمّا تركاه يذوب يوماً فيوما
فهو حيناً يشكو إلى السّقم عُدْما وهو يشكو حيناً إلى العُدْم سقماً

باكياً من كليهما بانتحاب

وفي ليلة زمجرت العاصفة واكفهرّ أديم السماء والتمع البرق ودوّى هزيم الرعد، قضى بشير نحبه. ولم تلبث أخته أن تبعته إلى رحاب الموت، منطلقة من قبضة الحياة القاسية الشديدة.

لقد أبدع الرصافي الشاعر في تصوير قسوة الطبيعة وثورة عناصرها الهوج وسخرية القدر، وتجسيم الموت الذي ينشب مخالبه كالوحش الضاري في بني الفقر على الفراش البالي وفي ضياء السراج الضعيف. وبرع في الإفصاح عن رزايا الفقر وأوصاب المرض وسعار الجوع، ووصف عبرات الأرامل والأيتام وأنين المكلومين الذي يقطع الأحشاء بسيف مثلّم ويهز نياط القلب، والليل ساج حالك السواد، وكأنّ نجومه تصيخ إلى الزفرات المجمجمة. وبرع في تصوير البيت الخاوي المتهدّم الذي ينوء بأثقال البؤس، والجسم الهزيل الشاحب الذي يهدّه الجوع والسقام، والطفولة التي تشكو ضراوة الدهر قبل أن يتفتّح ذهنها لحقيقة الوجود، تغذيها أمها بالدموع إذا أعوز الخبز. والجمال الذي يذوي من الوجد في عنفوان الشباب، وذلّ مجتمع البؤس وتضامنه وتعاطفه وتبادله العون والحنان والنزر مما يمتلكه من حطام الأرض، وشموخ مجتمع الغنى والبذخ وعدم مبالاته واستهانته بالدموع والدماء، أليس كلّ ذلك وكثير غير ذلك قد عبّر عنه شاعرنا ألطف تعبير، ينفذ إلى مكامن ا لنفس البشرية ويثير فيها أسمى العواصف والعواصف؟ وهل عجب أن يرسم الرصافي صورة حية للحزن، وهو القائل:

أنا للحزن دائماً ذو انتساب؟

إنّ الرصافي يروي قصص الأسى والألم والموت بصيغة المتكلّم، فهو قد رآها وسمعها وعاشها، أصغى إلى أنين الملهوفين وسأل عمّا أصابهم وخفف من آلامهم وودعهم يوم مماتهم الوداع الأخير وسكب على قبورهم دمعة حرّى صادقة هامعة من جفن قريح.

وقد كان إبراهيم صالح شكر، وهو الأديب الذوّاقة، معجباً باستعارات الرصافي

وتشبيهاته يعدّها من الروائع . استشهد بقوله في «أمّ اليتيم» :

أرى فحمة الظلماء عند أنينها　　فأعجب منها كيف لم تتضرّمِ

فقال ـ على ما أذكر ـ إن شاعرنا قد شبّه الأنين ضمناً بالنار فعجب كيف لم تضطرم فحمة الظلماء .

ومن تشبيهاته الأخرى في نفس القصيدة خفوق أنين الأرملة في قلبه كرنّة الدرهم في قلب الفقير المترب . ثم شبّه تقطّع أحشائه بضربة سيف مثلّم ، ولا يخفى ما تسببه ثلمات حدّ السيف من الألم عند تمزيقها الأعصاب . ثم انظر إلى الأحزان التي هاجت فاغرة الفم ، وإلى الدار التي هوى بها زلزال الخطوب إلى حضيض الشقاء ، وإلى العين التي سال دمعها بكاءً ونظرتها تبتسم ، وهلمّ جرا .

إنّ خيري الهنداوي صديق الرصافي وعشيره لا يرقى مرقاة صاحبه ، لكنه مع ذلك يحسن نسج القصة الشعرية وحبك وقائعها . ففي قصيدته «فتاة سلانيك» يروي حديث حبيبين عاشا زماناً في بلهنية الصّبا وصفاء السلم والوداد ، حتى نشبت الحرب . ومضى الفتى إلى ساحة الوغى فقتل وأسرت الفتاة الحزينة .

وقصيدته «زينب وخالد» أو «فتاة بغداد وفتاها» ملحمة المآسي والأحزان . ومن زينب؟ ـ هي فتاة عربية نشأت في أحضان الفضيلة والعزّ والدلال :

فجاءت كغصن البان يورق ناضراً　　وكالشمس إلاّ أنها ليس تغرب

خرجت ذات يوم مع صديقاتها في نزهة ، فالتقت بفتاها جالساً في ظلّ دوحة . وقعت عينه عليها :

فجنّ بها حباً ، ولم يدر قبلها　　بأن الهوى يأتي الفتى وهو يلعب

ورأته هي أيضاً فهامت به حباً :

مضت ومضى للحيّ ، كلٌّ مولّه　　بصاحبه يدعو الرشاد فيعزب

ومرض خالد وقد تيّمه الحبّ ،

ينوح كما ناح الحمام صبابة　　ويشهق من فرط الغرام وينحب

وعرفت أمه بالسرّ الذي يطوي عليه جوانحه ، فخطبت له الحبيبة وهيّئت أسباب الزواج . غير أنّ القدر يقف للمحبّ السعيد بالمرصاد ، فقد جاء جند جنكيز واقتادوا خالداً وزجّوه في السجن ، ثم ساقوه إلى سيواس . وماذا كانت جنايته؟

لقد كان صبّاً بالعراق وأهله　　يثور إذا سيموا الهوان ويشغب
يدافع عن أحسابهم وحقوقهم　　ويطعن في صدر العدوّ ويضرب
وهل ريبة أن ذبّ عن مجد قومه　　فتى عن بنيّات العلى لا ينكب؟

أعـدلاً يـرى الأقـوام حبس ابن حـرّة ... يغـار على مجد العـراق ويغضب؟
إذا كـان في حب الـديـار جـريـرة ... فكلّ فتى فـوق البسيطـة مـذنب!

وبعد أعوام قضـاها في المنفى البعيد، عاد بطل قصّتنـا فوجد أمه قـد ماتت. وأمدّه صديق وفيّ بالنّقود فاقترن أخيراً بحبيبته زينب. لكنه عاد إلى العمل السياسي لتخليص بلاده من ربقـة الاحتلال، فقبض عليـه، وهو في غمـرة أفراح ختـان طفله، وسيق إلى المعتقل النائي مكبلاً بالحديد. وابتلي بالسلّ فقضى نحبه بعيداً عن أهله وأصحابه.

إيه، أيها الشاعر. لقـد أحكمت حلقات المأساة، وأعرت الأيام مخلبـاً ونابـاً فلا تهدأ حتى تنشب أظفارهـا بالأرملة واليتيـم وتختم الفاجعة بـلا رحمة ولا تلكّؤ. وتخاطب الأم طفلها وهي تشعر بدنو الأجل:

بنيّ، إذا مـا مـتّ مَن لـك راحـم ... ومـن بـك يعنى أم لأجلـك يتعـب؟
بنيّ، يتيماً أنت بعـدي مسيّبـاً ... تعيش كما عـاش اليتيـم المسيّب
بنيّ، لقـد هـان الـردى بعـد خـالـد ... ولكنـه في يتـم نفسـك يصعـب

وجاءت جـاراتها في الصباح فـوجدنها ميّتة وطفلهـا يعول باكيـاً. وشغلوا بـدفنها، فسهوا عن الطفل الذي خرج من الدار يسير على غير هدى حتى غرق في دجلة.

وهذا كـاظم الدجيلي وقصيدته «بـوليس بغداد»، فهل نستطيع أن ننعتها بـالقصة؟ إنها إلى الحكاية أقرب وبالسّرد أوثق نسباً.

يستهلّ الدجيلي قصيدته بـوصف مجلس شراب، فيصف الخمرة التي تميت الأحزان والخلاّن الذين اختلسوا لحظـات من السعادة والصفاء. وإذا بالشرطـة تداهمهم وتلقي بهم في غيـابة السجن. وهنـاك يلتقي الشاعـر بأبناء البـؤس الذين أنـاخ عليهم الظلم بكلكله: الفتاة المعسرة التي لم يخنها ضميرها، والمرأة البـاكية التي ترضع طفلها في ذلك المكان الموحش، ولكل منهما قصة عذاب وشقاء.

ومن قصص كـاظم الدجيلي الشعـري قصيدتـه «مريم وحسّـان» وهي تروي قصـة «رومية مـن غيد بغدان» (أي بغـداد) زارته قبيل الفجـر ترفل في حلـة لا كـمّ لها ولا ردن وتتهادى في سيرها غنجاً. لكن عصابة شريرة اختطفتها. وجاءها جندي تركي فاتهمها بالخلاعـة، لكن رجلاً شهماً استطاع إنقـاذها. غير أن الجنـود قبضوا عليه وسـاقوه إلى القـاضي الـذي أمـر بحبسـه، وقضى الفتى نحبـه في السجن. ورأت مـريم جنـازتـه فصعقت وسقطت ميتة هي الأخرى!

وهي قصة متهافتة نظماً ومعنىً وسياقاً؛ ولا شك أنه نظمها في مستهلّ شبابه.

ويلقي إبراهيم منيب الباجه جي دلوه بين الدلاء، فينظم قصيدته «إقبال وإدبار».

فتـاة مـن الأعـراب هيفـاء مُعْصِرُ ... يقـال لها في سـالف الـدهـر مَنْـوَرُ

ولعلّه استعار كلمة «معصر» من عمر بن أبي ربيعة فأساء فهم معناها، فالمعصر هي التي تقدم بها العمر وليست الغيداء الشابة.

وصف حسنها وحياءها وسحر عينيها وتورّد خديها ولين عطفيها وشقرة شعرها. نشأت في قصر منيف وترعرعت في بحبوحة العزّ في ظل أب نبيل حكيم. وأتى ظالم شرير من الغرب يريد خطف الفتاة، فقتل أباها بخنجره وفرّ هارباً. واستغرقت منور في جزعها وحزنها، فوضعت نهاية لحياتها بأن رمت نفسها من سطح الدار. ثم تبعتها أمها إذ ألقت بنفسها في بئر عند قبر ابنتها!

أما عبد الرحمٰن البناء فروى في «فتاة العرب» قصة رمزية تشير إلى اعتداء الدول الغربية على السلطنة العثمانية الهرمة وتكالبها على تمزيق أشلائها.

قال البناء:

قضت حقبة في عالم الشرق زينبُ ... لها المجد أمّ والفخار لها أب

عاشت زينب في صفاء ونعمة تجرّ ذيول الدلال وتمرح في روضة الشباب. تاهت يوماً في الصحراء، فلم تشعر إلا والليل قد أسبل على الكون رواقه الحالك. وأجالت طرفها في حيرة ووجوم، فرأت شبحاً قادماً خالته في بادىء الأمر صديقاً، ولما اقترب منها وجدته شيخاً أجرب من الغرب، دميم الخلقة، أحدب الظهر، أشعث الشعر. هددها بمديته فلم تغنِ عنها ضراعتها، وسلبها ملابسها وحليها. ولما طلع الصبح عادت إلى أهلها، وكانوا في أسى وقلق على مصيرها، فنادت أمها بالويل والثبور، وأهابت بالقوم إلى الثأر لابنتها:

أراكم حيارى ليس فيكم حميّة ... على طفلة من أمة الشرق تسلب
فقدتم بهذا الجبن كلّ مزيّة ... وعام بكم في لجّة الذلّ مركب
ألا فانهضوا واسعوا وجدّوا وسارعوا ... وكرّوا على دفع الأذى وتقرّبوا
حناناً حناناً، أيّها الأمّة التي ... لها عند أخذ الثار عزم مجرّب
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهم ... لهم هيبة منها المقادير ترهب؟
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهمُ: ... إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب؟

وفي منظومة أخرى يروي عبد الرحمٰن البنّاء قصة لبنى الفتاة الجميلة التي درجت في حجر أمّها الحنون. وقد ماتت الأم، واقترن الأب بامرأة شرسة خبيثة كرهت لبنى وسامتها الذلّ والعذاب، ثم لم تتورّع أن خنقتها في حندس الليل!

وماذا فعل الأب؟ لام زوجته،

ثم نادى عليّ بالنعش حتى ... ندفن الميت في المقابر دفنا
فأتوه بالنعش سرّاً، وفيه ... ليس يدري أقصى الأنام وأدنى

وضعــوهـــا بـــالنعش مـن غير غسلٍ ثـم ســـــاروا بها مسير الهوينـــــا
ثمّ آبـــوا بجمعهـم بعـــدمـــا قـــدْ تـــركـوهـــا في ظلمـــة اللحـــد وَسْنى
ثم قـــالـوا من مكـرهـم حين عــادوا : ربِّ إنّـــا إليـك نـــرجـع ، إنّـــا

وهي كما نرى قصة متهافتة متفكّكـة العرى ، سقيمة اللفظ والسياق والمعنى ، لكنّها تهوّل صورة اجتماعيـة فظّة من صـور المجتمع العراقي في العصـور المظلمة ، وتـدعو إلى التأمل والاعتبار والإصلاح .

ولا بـدّ لنـا بعد ذلك أن نـذكـر قصيـدة الفتـاة المخدوعـة والشرطي الأثيم لمحمـد الهاشمي . لقد أحبَّ صالح الشرطي فتاة طاهرة الذيل ، جميلة القسمات (شأن القصص الرائجة في ذلك العهـد) . وشجعته أمّها العجوز الماكرة ، لكن الفتـاة أوجست منه ريبة وأحسّت أنه يريد اللهو بها لا الزواج منها . قالت الأم :

واضيعتي بعـــد عمـــر قـــد وقعت بـــه على تجاريـب إدبــــــار و إقبــــــال
دعي ، ابنتي ، هـــذه الأفكـار واتّئـــدي فـإنّ غشّك لم يخطـــــر على بـــــالي
وهـل سمعـت بـأم تخدع ابنتهـــــــا كيما تبيـت على حـــــزن وبلبـــــال؟
مـــاذا يـــريبك منـــه؟ إنـــه لفتى مـــؤدب النفس لا جـــافٍ ولا ســـال
زيـن الشمائل يسبي القلب منظـــــره يحدّث العين عـن فضـل وإجـــــلال
لـــو لم يحبّك حبّ الصـدق كـان لـــه عـــذر بهجـرك هجـر المعـرض القـالي

ولما قضى الأثيم منها وطراً لم يكتفِ بهجرها ، بل أخبر بأنها بنت مريبة فأخذت قسراً إلى المباءة العـامة . وشاء الشـاعر بعد ذلك أن يحبـك المأساة من جميع أطرافهـا ، فابتلى الفتاة المسكينة بالسلّ وسرعان ما أدركها الموت .

إنّ القـاسم المشترك بين شعراء النهضـة الأدبيـة الحديثـة كان ، ولا ريب ، الشعـور الإنسـاني والعطف على مجتمع البـائسين . عبّر عن ذلـك الـرصـافي ، وعبّر عن ذلك الزهاوي الذي قال :

يـا شعـــر أنت ، إذا وصفتك مـــوجـزاً شكـــوى الكظيم ونفثـــة المصـــدور

وعبّر عن ذلك محمد الهاشمي إذ قال :

سـألقي نظـــرة ملئت حنـــانـــاً على البـــؤســـاء مـن طَـــرْفٍ خشـــوع
يعيـش الأغنيـــــاء على رخـــــاءٍ ونحـن نعيش في بـــــؤس وجـــــوع
تنـــام عيـــونهم بـــالليل ، لكـن عيـــون البـــائسين بـــلا هجـــوع

ولقد اضطلع الشعر العربي في عصر النهضة برسالة سامية لحفز الهمم وطلب العلم والإصلاح وتحريـر المرأة واستقلال الوطن . ولا ريب أن القصـص المنظومة كـانت جزءاً هادفاً من شعر النهضة الاجتماعية في مطلع القرن العشرين .

عصر
الانحطاط الأخير
والعهد الانتقالي

عبد الغفـار الأخـرس

ولـد في الموصل وعاش في بغـداد وتـوفي في البصرة، وكـان همزة الوصل بين القـرنين التاسع عشر والعشرين. فلقـد اتصل بداود باشا آخر ولاة المماليـك الذي عزل ونفي في سنة ١٨٣١ ومدح السيـد عبد الرحمن النقيب الـذي ولي رئاسة الحكومة الـوقتية في سنة ١٩٢٠ وتوفي سنة ١٩٢٧.

ذلكم السيـد عبد الغفـار عبد الـواحد وهب المعـروف بالأخـرس لحبسة كـانت في لسانه، ولعله كان أنبه شعراء بغـداد ذكراً وأبعدهم صيتاً في عصر الانحطاط. وقد ردّد ذكر عقلة لسانـه في شعره فقال من قصيدة يمدح أبا الهدى الصيـادي الرفاعي حين زار بغداد سنة ١٨٦٧، وقد اشتهر بعد ذلك بصلته الوثقى بالسلطان عبد الحميد الثاني:

فهـو عـن مـدح سـواكـم أخـرس ... وبكـم أفصح حـزب الشعـرا

وقال يمدح المفتي أبا الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي:

وقـد أخـرستني من عـلاك فصـاحـة ... ألست تـراني أخـرس النطق أبكما؟

وقال:

هـذا لسـاني يعـوقـه ثقـل ... وذاك عنـدي من أعظـم النـوب

فلـو تسببت في معـالجتي ... لنلـت أجـراً بـذلك السبب

ولـد الأخرس في الموصـل في نحو سنـة ١٨٠٥ وقـدم بغداد شـابـاً ولم يلبث أن ولج محافلها الأدبية واتصل بالوالي داود باشـا الذي كان يعطف على العلماء والأدباء. وديوان الأخرس الذي جمعـه أحمد عزت باشا الفـاروقي وطبعه في الأستانة سنـة ١٨٨٧ قد ضمّ مقطوعتين للشـاعر قالها في عهد هـذا الوالي، أولاهما بيتان قالهما «حينما حبسـه المرحوم داود باشا من جهة مـا زوّره عن عبد الرحمن باشا والي الموصل وكان ذلـك سبباً لاتصاله به»:

أقـول للشـامت لما بـدا ... يكثـر بـالتعنيـف والشين

اليس يكفيني فخـاراً وقـد ... أصبحـت في قيـد وزيـرين؟

ولا نعلم شيئاً عمّا زوره الأخرس عن والي الموصل فكان سبباً لسجنه في بغداد واتصاله بواليها. أما المقطوعة الثانية فقصتها أنه كان واقفاً بين يدي داود باشا فأعطاه عريضة وأمره بأن يتلوها ويلخصها فارتجل البيتين الآتيين:

فديتك لا ترجو لنطقي تكلما … فإن يراعي عن لساني يترجم
غرقت ببحر من نوالك سيدي … فكيف غريق عائم يتكلم؟

ويروي جامع الديوان في ترجمته للشاعر أن داود باشا أرسله في صباه إلى بعض بلاد الهند ليصلحوا لسانه، فقال له الطبيب: أنا أعالج لسانك بدواء فإما أن ينطلق و إما أن تموت، فقال: لا أبيع كلي ببعضي وقفل راجعاً إلى بغداد. ولا ندري مبلغ صحة هذه الرواية، فظاهرها يدل على الصناعة والتنميق. ولم يكن مألوفاً إرسال المرضى للعلاج في خارج البلاد، وكانت صلة الوالي داود باشا في آخر عهده غير طيبة بالمقيم البريطاني في بغداد وبحكومة الهند. وديوان الأخرس على كل حال خال من أية قصيدة في مدح داود باشا في إبّان ولايته، لكن الشاعر مدحه بقصيدة طويلة بعد عزله أنفذها إليه إلى الأستانة، ومطلعها:

بوادي الغضا للمالكية أربع … سقتها الحيا منّا جفون وأدمع

ويقول منها:

فهل أنت مثلي قد أضرّ بك الهوى … وهل لك قلب لا أبا لك موجع؟
لئن نشرت طي الغرام الذي لها … فقد طويت مني على الوجد أضلع

ومنها:

أراني مقيماً بالعراق على ظما … ولا منهل للظامئين ومرتع
وكيف بورد الماء والماء آجن … يبلّ به هذا الغليل و ينقع؟
لعلّ وما يجدي لعلّ وربما … غمائم غمّ أطبقت تتقشع
يعود زمان مرّ حلو مذاقه … وشمل أحبّائي كما كان يجمع
فقد كنت لا أعطي الحوادث مقودي … وإني لريب الدهر لا أتوجع
كأني صفاة زادها الدهر قسوة … من الصمّ لا تبلى ولا تتصدع
فسالمت حرب النائبات فلم تزل … تقود زمامي حيث شاءت فأتبع
وكنت إذا طاشت[1] سهام قسيّها … وقتني الردى من صنع (داود) أدرع

ثم يذكر جود الوزير وفضله وبأسه ويقول:

أبا حسن، هل أوبة بعد غيبة … فللبدر في الدنيا مغيب ومطلع
لئن خليت منك البلاد التي خلت … فلم يخل من ذكرى جميلك موضع
ففي كل أرض من أياديك ديمة … وروض إذا ما أجدب الناس ممرع

---

(١) لعل الكلمة «راشت» فهي أدل على المعنى.

وهـو لا يفتأ يذكـر داود باشـا في شعره بعـد أعـوام طويلـة، فإذا مدح السيـد علي النقيب قال:

فبـــورك مـن لا زال يـــورثني الغنـى وذكــــرني أيـــام داود ذي الأيــــدي

وإذا ذكر ابتلاءه بحرفة الأدب قال:

وليس لي حــــرفـــة ســـوى أدب جـم ونظـم القـــــريض والخطـب
مـن بعــــد داود لا حــــرمت منى فقــــــد مضت دولـــــة الأدب

لقد مضت دولـة الوزيـر داود باشـا لكن دولة الأدب لم تمض، فقـد وجد الشـاعر الأخـرس من بعده حماة ورعـاة كالسيـد محمـود نقيب الأشراف والمفتي أبي الثناء محمـود شهاب الـدين الألوسي ومحمد أمين الـواعظ والشاعـر عبد الباقي العمـري والسيد علي النقيب وولديـه سلمان وعبد الرحمن وعبد الغني الجميل وابنـه محمّد وغيرهم من أشراف بغـداد وعلمائها الـذين حبـوه بعطفهم وجودهم واتخذوه نـديماً وزينة لـدواوينهم. ومن الغرابة أن صلة الشاعر قد قطعت بالموصل مسقط رأسه أو كادت، فديوانه الضخم لا يحوي سوى قصيدة واحدة يمدح بها رئيس علماء الموصل عبد الله الفاروقي. لكنه وجد بـديلاً طيبـاً في البصرة التي زارها غير مـرة ومدح أشرافهـا ونقباءهـا واستمتع برفـدهم وودهم.

كـان الأخرس لطيفـاً ظـريفـاً يضفي مع رفيقه عبـد الله الخيـاط (المتـوفى نحو سنـة ١٨٩٠) على مجالس بغداد ودواوينهـا رائعاً من النوادر والفكاهـات. وقد اعتبر الشعر تجارة يروج سوقها حيناً ويكسد أحياناً، فقال يخاطب السيد علي نقيب أشراف بغداد:

تـــاجـــرت في شعـــــري إليك، وإنما نفق القـــريض لـــديك بعــد كســـاده

وقال يمدح ولده السيد عبد الرحمن الكيلاني:

ربحـت فيكـم تجارة شعــــــــــري لا رمــــاهـــــا في غيركم بــــالكســــاد

وقال في مدح عبد الغني جميل:

أتــــــاجــــــر في شعــــري، وكل تجارة من الشعــــر إلا في عــــلاك لفي خسر

وقال يرثي عبد الواحد جلبي من أعيان البصرة:

وقــد كـــان فيك الشعــر ينفق ســوقــه لــــديك ويبتـــاع الثنـــاء ويشتري

ردّد هذا المعنى كثيراً في شعره لكنه كان مع ذلك عزيز النفس أبيّها، فإذا هنأ الشاعر عبد الباقي العمري بمنصبه الكبير قال:

ســـواي يـــروم المال مكترثـــاً بـــه ويـــرغب في غير الـــذي أنـــا راغب
وإنـك أدرى النـــاس فيما أريــــده وأعلمهـم فيما لـــه أنـــا طـــالـب

وإذا سمت نفسه إلى المعالي اعتذر فقال:

أسفـــاً للشعـــر، لا حـظ لـــه　　في زمـــان الجهل والقـــوم اللئـــام

وقال:

لــــو تنبهـت لها مجتهــــداً　　كيف بـالحظ إذا مـا الحظ نـامـا؟

أو رأى المقـــدور فينـــا رأيـــه　　مـا تكلفت نهوضــاً وقيـامـا

وهو لا يفتأ يندب جور الزمان وظلمه فيقول:

وإن فـاض دمعي لا أزال أريقـــه　　فمن كبـد تصلى ومن لـوعـة تصلي

وجـور زمـان لـو أرى فيـه منصفـاً　　لحاكمتـه فيـه إلى حكـم عـدل

أمثلي يطـوف الأرض شرقـاً ومغـربـاً　　على أرب يـرضى من الكثـر بـالقلّ؟

وتقـذفني الأسفـار في كل وجهـة　　فمن مهمـه وعـر إلى مهمـه سهل

وتحرمنـي الأيـام مـا أستحقـه　　فـلا كـانـت الأيـام إذ ذاك في حلّ

وأرجع أختـار الإقـامـة خـامـلاً　　حليف الجهـول الـوغـد والحاسـد النـذل

يطـاولني من لست أرضـاه مـوطئـاً　　وأكـرم نعلي أن أقيس بـه نعلي

وفـاخـرني من يحسب الجهل فخـره　　ونـاظـرني مـن لم يكن شكلـه شكلي

فتبـاً لـدهـر تستـذلّ قـرومـه　　وتستكبر الأنـذال فيـه وتستعلي

أقـامـوا مقـامي مـن جهلت بـزعمهم　　فما قـام في عقـد هنـاك ولا حلّ

ولـو طلبـوا مثلي لعـزّ وجـوده　　ومـا وجـدوا مثلي وأنّـى لهم مثلي؟

إلى مَ أمنّـي نفس حـرّ أبيـة　　شـديـد عليهـا في الـدنى مـوقف الـذلّ؟

ويثور وهو الساكن الهادىء فيصرخ قائلاً:

تـركـت لكم، أعيـان بغـداد، منـزلاً　　تجور عليـه النـائبـات وتعتـدي

ففيم مقـامي عنـدكـم ظـامىء الحشـا　　ولا أنـا بـالـواني ولا بـالمقيّـد

وإني عـزيـز النفس لـو تعـرفـونني　　ولي بينكـم ذلّ الأسير المصفّـد

ويقول:

وســاء زمـان بعـد أن سرّهـا بهم　　فماذا يـلاقي الحرّ في الـزمـن الـوغـد؟

ويقول أيضاً:

نتنفّس عـن وجـد تـوقـد جمره　　فأجـرى مسيل الـدمع ينهـلّ قطـره

وبـات يعـاني الهم ليس ببـارح　　على قلبـه إقـدامـه ومكـرّه

تمنّى ومـا يغني التمنّي مطـالبـاً　　حـريّ بها لـولا الـدنيّـة دهـره

ودون أمـانيـه عـوائق جمة　　يضيق لها في المنـزل الـرحب صـدره

تحمـل أعبـاء المتـاعب والتقى　　على غـرّة صرف الـزمـان وصبره

وأشقى بنـي هـذا الـزمـان أريبـه　　وأتعب مَـن فيـه من النـاس حـرّه

ويقول:

إذا الحرّ ألفى الضيم شرط حياته رأى الرأي فيها أن يموت ويقبرا

ولكنه بالرغم من كل ذلك رضخ لجور الدهر واستسلم لظروف الزمان. ولقد قيل: «إن سيّد نفسه يرث الآلام» فاطمأن شاعرنا إلى الدعة والخمول واتخذ ممدوحيه أسياداً يسترفد رفدهم ويعيش في ذراهم ولا يأنف أن يقول في بعضهم:

أراني - والخطوب إذا ألمت - رجعت إلى جميل أبي جميل
كأن الله وكله برزقي وحولني على نعم الوكيل

ويقول أيضاً:

كفاني المهمات عبد الغني وذلك من بعض أفضاله
فإن نلت مالاً فمن جاهه وإن نلت جاهاً فمن ماله

إن شعر عبد الغفار الأخرس مثال لشعر عصر الانحطاط الأدبي، فهو شعر جامد جافّ يغلب عليه روح المحاكاة والتقليد ويكاد يخلو من الإشراق والانطلاق والابتكار. ويمكن القول إنّ قيمته قد أصبحت تاريخية أكثر منها أدبية. أما مواضيعه فتقتصر على المديح والتهنئة والرثاء والغزل والبكاء على الطلول وقد تتناول شيئاً من الوصف والهجاء شابتها المبالغة المستهجنة وشانها الإسراف الممجوج والتكرار المملّ. وهذا أخرسنا يهنىء السيد سليمان بنقابة الأشراف فلا يملك إلا أن يردد قول أبي العتاهية:

أتتك النقابة تسعى إليك تجرّ من التيه أذيالها
إذا لم تكن أنت أهلاً لها من الأنجبين فمن ذا لها؟

وهو يكثر في نسيبه من وصف المحبوب بالجؤذر والغزال والمتيم بالأسد الضرغام ويتساءل كيف يتسنى للغزال أن يتصيّد الأسد محاكياً في ذلك ابن الفارض الذي قال:

هل سمعتم أو رأيتم أسداً صاده لحظ مهاة أو ظبي؟

فإذا عرضت له مناسبة للإبداع - وقلما تعرض له - لم يستطع التحليق في شعره كما في وصفه للباخرة حين استقلها عائداً من البصرة فلم يقل فيها إلا أبياتاً متهافتة:

قد ركبنا بمركب الدخان وبلغنا به أقاصي الأماني
حين دارت أفلاكه واستدارت فهي مثل الأفلاك بالدوران

إلخ . .

ولا يخلو ديوان الأخرس مع ذلك من الشعر الطريف، فمن ذلك وصفه لسرقة داره قبيل عيد الفطر.

يا ليلة في آخر الشهر قد جئت بعد الصوم بالفطر
كشف الصباح لنا حوادثها وتكشفت عن مضمر الغدر
أصبحت منها غير مفتقر أبداً إلى حرس على وكر

ثم يصف منزله الذي «أخذوا مساحته يوماً فما أوفى على شبر» ويصف صبيته الغرّ

الوجوه، السود الحظوظ الذين فرحوا بالغلائل الحمر فجرت دموعهم لضياعها، ويصف حليلته «نظيرة الخنساء» التي أسرفت في ندب أشيائها المسروقة وفقرها المدقع فيخاطبها قائلاً:

هل كنت قبل اليوم في سعة ومـلابس من سندس خضر؟
أو ما ذكرت العمر كيف مضى؟ لا كان ذاك العمر من عمر!

تلك قصيدة الأخرس في سرقة داره. ومن الطرافة أن نقابلها بقصيدة للشاعر الفرنسي كليمان مارو (١٤٩٧ ـ ١٥٤٤) Clément Marot في موضوع مماثل. يخاطب مارو ملك فرنسا عن سرقة داره، فيقول: إن سوء الحظ لا يأتي وحده بل يجلب معه مصيبتين أو ثلاث مصائب. ثم يقول إنه كان له خادم سكّير كذّاب جشع يجمع في نفسه كلّ الصفات المقيتة. وقد علم أن للشاعر كيساً ضخماً من النقود فابتدر غفلة منه وسرق دراهمه وملابسه، ثم امتطى ظهر حصان سيّده ومضى في الصباح الباكر دون أن يودّعه.

على أثر ذلك مرض الشاعر مرضاً شديداً ألزمه الفراش ثلاثة أشهر، ولم يبق منه سوى الفكر الذي يندب وينتحب. ولم ينفعه أطباء الملك الذين يعودونه ويتفقّدون صحته. ويمضي إلى القول إنه يخجل أن يطلب من الملك إعطاءه المال، لكن الدائنين يلحّون عليه مطالبين بدفع ديونه. وأخيراً يعد الملك بأن يفي صلته بمدائحه.

ومن جميل شعر الأخرس في الغزل:

إذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع لمن أشتكي حالي لمن أتوجع؟
غرامي غريمي وهو لا شك قاتلي وكم ذلّ من يهوى غراماً ويخضع
أباح دمي بين الورى من أحبه فقلت وقلبي بالجوى يتقطع
دموعي شهود أن قلبي يحبه وحق الهوى عن حبه لست أرجع
وراموا سلوّي في هواه عواذلي وحق هواه لست أصغي وأسمع...
وأصبحت كالمجنون في حيّ عامر بليلى ومن وجدي أهيم وأولع
فلو زارني في النوم طيف خياله لكنت بطيف منه أرضى وأقنع

وقوله:

إلاّ يا فؤاداً قد أضرّ به النوى وأشجاه برق للحبيب لموع
إذا ما دعاك الصبر يوماً عصيته وأنت لما يقضي الغرام مطيع
كتمت الهوى دهراً فباحت بسره عيون وأفشت ما كتمت دموع
ويا منزلاً للّهو أبعده النوى ألِلمدنف النائي إليك رجوع؟
تذكرت فيك العيش، والغصن يانع وريق، وشمل الظاعنين جميع

وقوله:

زيد لوماً فزاد في الحبّ وجدا ... مستهام تخيّل الغيّ رشدا
مازح الحب مرة فأراه ... أن هزل الغرام يصبح جدّا
ورمى قلبه بجذوة نار ... أوقدته بلاعج الشوق وقدا

وقوله من موشح :

حبذا مجلسنا من مجلس ... جامع كل غريب وعجيب
نغم العود وشعر الأخرس ... ومحبّ مستهام وحبيب
يتعاطون حياة الأنفس ... في بديع اللفظ والمعنى الغريب
بابليّ السحر معسول الجنى ... أين هذا واشتيار العسل؟
وإذا مرّ نسيم بيننا ... قلت هذا ويحكم من غزلي

وقوله وهو في البصرة وقد حنّ إلى بغداد :

فيا زمن الصبا، هل من رجوع ... ويا عهد الشباب متى تعود؟
سلام الله أحبابي عليكم ... إلى بغداد يحملها البريد
يهيّج لوعتي وجد طريف ... لكم ويشوقني وجد تليد
فهل أخبرتم أني بحال ... يساء بها من الناس الحسود؟ . . .

وقوله :

من معيد لي أياماً مضت ... كان فيها الغيّ لو أنصفت رشدا؟
أهصر الغصن إذا ما كان قدّاً ... وأشمّ الورد إذ ما كان خدّا
كم أهاج الشوق من وجد بها ... كلما جدده الذكر استجدّا
وجرى دمعي من الوجد فما ... يملك الطرف لجاري الدمع ردّا . . .

وقوله يتحسر على الشباب :

ذهبت لذاذات الصبا وتصرّمت ... أوقات أنسك في الزمان الغابر
وإذا امرؤ فقد الشباب فما له ... في اللهو بعد مشيبه من عاذر
ولقد أقول لطامع برجوعها ... كيف اقتناصك للغزال النافر؟

وقوله في الشوق والوداع :

تحنّ نياق الظاعنين، وما لها ... تحنّ وفي القلب المشوق حنين
أبالنوق ما بالنازحين من الأسى ... ووجد بأحشاء الضلوع كمين؟
ولما التقينا للوداع عشيّة ... وباحت بأسرار الغرام عيون
بذلت لها من هذه العين عبرة ... وإني بها لولا الفراق ضنين
فلا القلب لما أزمع القلب صابر ... ولا الدمع من يوم الفراق مصون
فلولاك ما قاسيت، يا غاية المنى ... حوادث تقسو مرة وتلين
إذا كنت لا تدرين ما الشوق بالحشا ... سليني عن الأشواق كيف تكون
جننت بذكر العامرية، والهوى ... جنون، ولكن الجنون فنون

ومن بديع حكمياته:

نؤمل أن يطول بنا الثواء ونطمع بالبقاء ولا بقاء
وتغرينا المطامع بالأماني وما يجري القضاء كما نشاء
تحدثنا بآمال طوال وليس حديثها إلا افتراء
وإن حياتنا الدنيا غرور وسعي بالتكلف واعتناء
نسرّ بها نساء به ونشقى ومن عجب نسرّ بها نساء
ونضحك آمنين، ولو عقلنا لحقّ لنا التغابن والبكاء
إلى مَ يصدّنا لعب ولهو عن العظة التي فيها ارعواء
وتنذرنا المنون ونحن صمّ إذا ما أسمع الصمّ النداء
ظهرنا للوجود وكل شيء له بدء لعمرك وانتهاء
لئن ذهبت أوائلنا ذهاباً فأولنا وآخرنا سواء
نودّع كل آونة حبيباً يعزّ على مفارقه العزاء
تسير به المنايا لا المطايا إلى حيث السعادة والشقاء
ولو يفدى فديناه ولكن أسير الموت ليس له فداء

وقوله:

وما حيلة الإنسان في ما ينوبه إذا كان أمر الله فيه مقدرا
وهبك اتقيت الرزء حيث رأيته فكيف بمن يأتيك من حيث لا ترى؟
ونحن مع المقدور نجري إلى مدى وليس لنا في الأمر أن نتخيّرا

وقوله:

نؤمل في الدنيا حياة هنيئة وما نحن إلا عرضة للمصائب
ونغترّ في برق المنى وهو خلّب وهيهات ما في الآل ماء لشارب
نصدّق آمالاً محال بلوغها ومن أعجب الأشياء تصديق كاذب
تسالمنا الأيام والقصد حربنا وما هي إلا خدعة من محارب
ونطمع أن تبقى ويبقى نعيمها فلم يبق منها غير حسرة خائب

أولع الأخرس بالخمر حتى شبهه الدكتور محمد مهدي البصير بأبي نواس ولكن أين هو منه؟ فالنواسي مجدّد في عصره، مبتكر في شعره، مفرد في وصفه، أما الأخرس فببغاء تردد معاني الأقدمين وأخيلتهم.

قال الأخرس:

أعندك علم بأن الهموم على خاطر المرء مثل الجرب
ولا من دواء لأدوائها ولا برء منها كبنت العنب
وحشر مع الغانيات الحسان إذا حشر المرء مع من أحب
وإني فقير إلى قهوة ومن لي بها مثل ذوب الذهب

تقوّي العظام وتشفي السقام ... ويذهب عن شاربيها النصب
إذا مزجت بابن ماء السماء ... تولّد منها لآلي الحبب

وقال:

قد نحرنا الزقّ يوم العيد نحرا ... وأذبنا بلجين الكأس تبرا
وتخيلنا الحميّا لهبا ... وحسبنا أنها بالماء تورى
قال لي الساقي وقد طاف بها: ... هي خمر وتراها أنت جمرا
يا نديماً قد سقاني كأسه ... اسقنيها في الهوى أخرى وأخرى
إن أحلى العيش ما مرّ على ... روضة غناء والكاسات تترى
ويد المزن وأزهار الربى ... نشرت من بعد ذاك الطيّ نشرا
لا تخف من وزرها في شربها ... أو تخشى مع عفو الله وزرا؟
راحة الأرواح بالراح التي ... لم تدع للهمّ في الأحشاء ذكرا

وقال:

إذا ما الشيخ في الكأس احتساها ... غدا في الحال أنشط من غلام
لئن عللتني يا صاح يوماً ... بأحبابي فعللني بجام
ومن لي بالكرى يوماً، لعلي ... أرى طيف المليحة في المنام
وما أنسى لها في الركب قولي ... وقد نظرت لأجفان دوام
نحولي ما بخصرك من نحول ... وسقمي ما بطرفك من سقام

وقال:

قام يجلوها وبرد الليل معلم ... خمرة ما اجتمعت يوماً مع الهم
فهي تبر في لجين ذائب ... أو كنار في فؤاد الماء تضرم
نظم المزج عليها حبباً ... رصع الياقوت بالدرّ المنظّم
مرة يجلو بها العيش وفي ... مثلها قد يحمد الدهر المذمم
من رأى يا قوم منكم قبلها ... قبل هذا أن نوراً يتجسّم
فهي سرّ منعت سرّ الضيا ... في ضمير الليل من أن يتكتم
قدمت في عصرها حتى لقد ... أوشكت تخبرنا عمّا تقدم

وقال:

جلا في الكأس جالية الهموم ... وقام يميس بالقدّ القويم
وقد فرش الربيع لنا بساطاً ... من الأزهار مختلف الرقوم
بحيث الأفق مغبر الحواشي ... ووجه الأرض مخضر الأديم
هنالك تطلع الأقمار فيها ... شموس الراح في الليل البهيم
كأن حبابها نظمت نجوماً ... رجمت بها شياطين الهموم
وقد كانت تدار عليّ راح ... تعيد الروح في الجسد الرميم
أخذت بكأسها وطربت فيها ... فسلني كيف شئت عن النعيم

بحيث الشمس طالعة مدامي   وبدر التمّ يومئذٍ نديمي . . .

تلك أيام صفت للشاعر فنعم فيها بالحب والمدام، لكنه علم أنها لا تدوم وأن «الهوى أكبر داع للهوان» في «زمان من حقه أن يذمّا» فقال :

تركت الهوى بعد المشيب لأهله   وراجعني حلم لسلمي يصارم
وما أنسَ لا أنسى زماناً قضيته   وعود الصبا ريّان والعيش ناعم

وبث شكواه فقال :

شكوتك ما يلقى فؤادي من الأسى   وما كل مَن أشكو إليه رحيم
فؤاد شجاه ما شجا كل وامق   وما هو بعد الراحلين مقيم
أرى صبوة المشتاق دائمة الهوى   فما بال صبر الصب ليس يدوم؟

ثم استكان وعلل النفس وقال :

هذي هي الدنيا كما تريانها   حرم اللبيب وفاز فيها الأحمق
فصبرت فيها والخطوب متاحة   لا ضاجر منها ولا أنا مشفق
حتى رأيت النائبات تقول لي :   عجباً لصبرك كيف لا يتمزق!

أشرف الشاعر على السبعين من عمره، لكنه لم يترك قرض الشعر ولم يركن إلى العزلة والانزواء ولم يملّ الضرب في الأرض في سبيل بلغة العيش. ولعل آخر قصائده تهنئة السيد سلمان الكيلاني بنقابة الأشراف وورود الفرمان السلطاني بها إليه. وشدّ الرحال إلى البصرة فمرض فيها وأدرك حمامه في عشية عيد الأضحى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ليوم الأحد ١٧ كانون الثاني ١٨٧٥ م.

وقد طبع ديوانه بعد وفاته بعناية أحمد عزت العمري الفاروقي، ونشر عباس العزاوي مجموعة له في شعر عبد الغني جميل وما قاله الأخرس فيه وطبعها ببغداد سنة ١٩٤٩ .

ولم يكد يمضي على وفاة شاعرنا الأخرس ثلث قرن ونحو ذلك حتى هبت على الشعر العربي نسمات جديدة ولاحت طلائع النهضة الأدبية الحديثة في وادي الرافدين، فكأنما بينه وبين الشعراء الذين تلوه دهر طويل .

إبراهيم الطباطبائي

الشاعر السيد إبراهيم بن حسين بن رضا بن السيد مهدي بحر العلوم الحسني الطباطبائي. اشتهر جدّه العلامة محمد المهدي بن مرتضى المعروف ببحر العلوم (١٧٤٢ ـ ١٧٩٧)، كما كان أبوه حسين (١٨٠٦ ـ ١٨٨٩) من شعراء عصره. ولد في النجف سنة ١٨٣٢، ودرس على والده الشاعر الفقيه. ونظم الشعر فتفوّق فيه وكان أستاذ عبد المحسن الكاظمي الذي لازمه حين قصد الطباطبائي الكاظمية وأقام فيها سنتين (١٨٨٧ ـ ٨٩). وتتلمذ عليه شعراء آخرون منهم محمد السماوي.

وقد توفي بالنجف سنة ١٩٠١، وطبع ديوانه سنة ١٩١٤ مصدّراً بمقدمة للشيخ علي الشرقي. قال الدكتور محمد مهدي البصير: «امتاز بخلال حميدة وصفات طيبة أهمها... اعتزازه بالعروبة وسرعة خاطره... وقوة حافظته... وخفة طبعه التي خلقت منه صورة مصغّرة لعمر ابن أبي ربيعة من حيث حبه للجمال وافتتانه به وتحدثه عنه...».

تبرّم بحاجته ورقة حاله، وهو الأبيّ المترفع، فقال:

لقد قسم الله رزق الورى ... وقتّر بالرزق أقساميَه
فما زلت أشكره حامداً ... وأقتل بالصبر آماليه
وهل نافعي أنني شاعر ... تضرّ وتنفع أشعاريه؟
أديباً وتدركني حرفة الأديب، ... فتعساً لآدابيه!

وشعره قديم الطراز، حسن الديباجة، أكثره في الغزل والفخر والوصف والمدح والرثاء والحكم والمواعظ.

ومن رقيق نظمه قوله:

أخي، هل راجع ليل فينظمنا ... بشطّ دجلة نظم العقد إخوانا؟
بتنا على البدر حيث النجم يرمقنا ... بطرفه في ضمير الليل نُدْمانا
بمجلس مشرف الأطراف مرتفع ... عالٍ تطول به الجلاّس كيوانا
يا حيّ دجلة، والجرفان قد طفحا ... فيضاً يسيل على الرَّضراض عِقْيانا

نسرّح اللحظ في مجرى سبائكها فيصدر الطرف دون الورد حيرانا
لو كنت تطلبنا، والملتقى كثب، لما طلبت حياةً دون لقيانا
مضت بتلك الليالي الصالحات لنا نوىً شطون تمدّ البحر أشطانا
أحبابنا، إن تهن فيكم وسائلنا، فحسبنا كلّ شيء بعدكم هانا
هلاّ نكون كما كنا وكان لنا، فإنما العيش ما كنّا وما كانا

وقيل في ترجمة الطباطبائي أنه كان مكثراً من النظم، ولكنه لم يتخذه يوماً حرفة ولا جعله لنفسه ساعة مهنة يكتسب بها نشباً أو يلتمس بها من العيش سبباً.

كان سريع الخاطر، حاضر البديهة، متفتّح القريحة، أكّد علي الشرقي أنه ربما ارتجل القصيدة التي تتألف من مئة بيت في مجلس واحد، كما فعل بعده تلميذه عبد المحسن الكاظمي. وقال محمد مهدي البصير أنه كان قويّ الحفظ، ، حديد الذاكرة، أملى شعره كله على ولده السيد حسن وكان راسخاً في ذهنه. وكان إلى ذلك رقيق الطبع، خفيف الروح، تأسره الصباحة وتستهويه الملاحة.

من شعر إبراهيم الطباطبائي في جبل عامل:

أين السهول من جبال عامل حكت مناط الشهب بالشواهل
أخاشب رواسب شوامخ بواذخ فوارع مواثل
عادية، بل قبل عاد رسخت معاقلاً للفضل والفواضل
يحجب قرن الشمس مشمخرّها حتى ترى الهجير كالأصائل
إذا النّسيم استنّ في ربوعها صحّ سقيم الروض في الخمائل

وقال يرثي الشاعر السيد حيدر الحلي:

لقد غلب الجرح أن يستطبّ، فمن أين أدمل فيك الجراحا؟!
أرح فلغيرك هذا الرواح برحت ولست أطيق البراحا
أحيدر، زأراً بغيل القريض عسى أن تغضّ الكلاب النباحا

وإذا ذكر الشاعر إبراهيم الطباطبائي وآله فلا بدّ من ذكر مأساة غرامية سجّلها التاريخ إلى جانب قصص المجنون وليلى وروميو وجولييت وغيرهم من المحبّين. روى هذه المأساة محمد مهدي البصير ورواها قبله وبعده كثير من الأدباء.

كان الفتى الشاعر الوسيم عبّاس علي النجفي (١٨٢٦ ـ ١٨٦٠) تلميذاً للسيد حسين الطباطبائي (والد إبراهيم) فأحبّ ابنته وقال فيها قصيدته الشهيرة:

عِديني وامطلي وعدي، عِديني وديني بالصبابة فهي ديني

ومُنّي قبـل بينك بـــــالأمـــــاني فـــــإنّ منيّتـــــي في أنْ تبينـــــي

ومنها :

صِلي دَنِفـــــاً بحبّك أوقفتـــــه نـــواكِ على شفـــا جـــرف المَنـــون
أمـــا لنـــواكُـمُ أمـــد فيقضى إذا لم تُقْـضَ عنـــدكُـمُ ديـــوني؟
وكنـت أظـن أنّ لكـم وفـــــاءً، لقـــد خـــابت، لعمـــر أبي، ظنـــوني
هبـــوني أنّ لي ذنبـــاً، ومـــا لي ســـوى كلفي بكم ذنـب، هبـــوني
ألست بكـم أكـــابـــر كلّ هـــولِ وأحمل في هـــواكم كـلّ هُـــونِ؟
أصـــون هـــواكـم، والـــدمع يهمي دمـــاً، فيبـــوح بـــالسرّ المصـــون
يمينـــاً لا سلـــوتُهُم يمينـــاً وشلّـت إن سلـــوتُهُمُ يميني،
إذا مـــا الليل جـنّ بكيتُ شجـــواً وطـــارحت الحمائم في الغصـــون
ولـــو أبقت لي الـــزفـرات صـوتـــاً لأسكتُّ السّـــواجع بـــالحنين . . .

وقيل إن الأستاذ ارتضى بعبّاس صهـراً، لكن أبناءه الأربعة ـ ومنهم إبـراهيم ـ أنفوا من هذه المصاهرة فأهانوا الشاعر العاشق وضربوه ضرباً مبرّحاً .

وتوفّي عباس شاباً في الرابعة والثلاثين من عمره .

شهاب الدين المليسي

الشاعـر شهاب الـدين العلـوي المليسي المعروف بـالسيد شهـاب الموصلي، ولد في الموصل سنة ١٨١٥ . وسافر في شبابه إلى بغداد والبصرة، وقضى فيهما نحواً من أربعين سنة ثم عاد إلى مسقط رأسه .

نظم الشعر المهلهـل في الأغراض القديمـة كالمديح والـرثاء ومـا ماثلهما . وقـد ذكره عبـاس العزاوي في الجزء الثـاني من «تاريـخ الأدب العربي في العـراق»، فقال : إن لـه قصائد كثيرة هي شعـر مناسبات، منهـا في الأستاذين أحمد شاكـر الألوسي ونعمان خير الدين الألوسي، وله أبيات في تقريظ جـريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق . وكـانت بينه وبين نـاصيف اليازجي مـراسـلات، وله قصـائد في رثاء الشيخ أحمد نـور الأنصـاري قاضي البصرة والسيـد سلمان النقيب وغيرهما . وقد مـدح والي بغداد محمـد نامق باشا الكبير.

وتوفي بالموصل سنة ١٩٠٧ (وقيل ١٩٠٤) .

من شعره : قال يؤرخ تعيين عبد الباقي الألوسي قاضياً لكركوك (١٨٧٧) :

هــو عبــد البــاقي الــذي ببقــاه | قــد رمى بــالفنــاء أهل النفــاق
قــد أتى مسعــداً وجــاء معيــداً | أملي لــــلإثمار والإيـــــراق
كلّ وقت إليــه شــوقي جــديــد | والليـــالي قــد أخلفت إطـــلاقي
علقت نفســـه بكسب المعـــالي | والمعـــالي من أنفس الأعـــلاق
وارث عـن أبي الثنــــاء أبيـــــه | في المبــاني روح المعــاني الــدقــاق
قــد تحلّت بـــه الشريعـــة جيــداً | وتحلّى الأعنــاق بــالأطـــواق
لقيت شهـــر زور للـــزور منـــه | مــاحياً مــاحقاً شــديد المحــاق . . .

إلخ . . .

وقال السيد شهاب الدين من قصيدة له في تقريظ كتاب مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي :

حــديقـــة أثمــرت أوراقهـــا حكماً | لنــا شمار يخهــا امتــدّت وقــد ينعَتْ
فمـن يشأ يتفكّـــهُ في منــاقبهـــا | ومن يشأ يتفقّـــه بـــالّـــذي شرعت
طــالعْ تقــابِلْكَ مــرآة الــزمــان بها | وانظــر إلى صــورة الدنيــا وقــد نصعت
كم أودعت نبــذاً للسّمع قــد عَــذُبَتْ | وِرْداً ومن قلب ذاك الصــدر قــد نبعت
مخاضرات بها الحضّــــار راغبـــة | غــابت عن الــراغب المفضــال وامتنعت

إلخ . . .

الشيخ حمّادي آل نوح

الشاعر محمد بن سلمان بن نوح الغريبي الكعبي المعروف باسم الشيخ حمّادي نوح، ولد في الحلة في سنة ١٨٢٥ وتأدب فيها وقرض الشعر. كان وثيق الصلة بآل قزوين كبير العلاقة بالإمام السيد حسن الشيرازي الذي ترك النجف في نحو سنة ١٨٣٥ ليقيم في سامرّاء.

اشتهر بمدائحه وتهانئه ومراثيه، فكان يقصد المحمّرة ليمدح شيوخها و يفوز بعطاياهم، كما كان يمدح آل القزويني الذين يكرمونه و يصلونه وسواهم من رجال عصره.

لكنه عرف بنسكه وتقاه وشعره الصوفي الذي يسبّح الذات الإلهية و يمجّدها حتى دعاه الدكتور محمد مهدي البصير «خليفة ابن الفارض». وقال إن الشيخ حمادي كان جليل القدر، رفيع المنزلة، محترماً عند أدباء عصره، ولم يكن يحفل بشعر أحد عدا السيد

حيدر الحلي. وكان متمكناً من اللغة، سئل عن القاموس فأشار إلى صدره وقال: هذا هو القاموس. وتوفي في الحلة في آذار ١٩٠٧.

قال البصير إن شعره يكثر فيه الغريب ويغلب عليه الغموض. ومن شعره في تقديس الله:

شمّر الوهم أن ينال ثناكا ... فخبا دون شارقات علاكا
خرق الغيب فالتوى الوهم صالٍ ... قبس النور من سناء بهاكا...
بك، يا حيرة البصائر، ضلّت ... فِكَرٌ منك حاولت إدراكا
حاولت كنه ذي الجلال، ولكن ... عبرت في دجى الضلال عداكا

إلخ...

محمد سعيد الإسكافي

الشاعر محمد سعيد الإسكافي النجفي المعروف بالإسكافي وهو الشيخ محمد سعيد ابن محمود سعيد نائب كليدار الروضة الحيدرية، ولد في النجف في ١٧ تشرين الثاني ١٨٣٤. ودرس العلوم الدينية والعربية، وأخذ الأدب عن خاله الشاعر الشهير عبّاس الملاّ علي المتوفى سنة ١٨٦٠ صاحب القصيدة المشهورة:

عديني وامطلي وعدي، عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

نشأ شاعراً فكانت له مساجلات أدبية مع أدباء عصره، ومدح آل بحر العلوم وآل كاشف الغطاء وغيرهم كما مدح والي بغداد سرّي باشا (١٨٩٠ - ٩١). وقد ترجم لهذا الشاعر ونشر نماذج من شعره محمد علي اليعقوبي وعلي الخاقاني وسلمان هادي الطعمة، وذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق.

هاجر إلى كربلاء في عقد الثمانين من القرن التاسع عشر وأدركه الحمام فيها في ١٤ آب ١٩٠١.

نظم الشيخ محمد سعيد الشعر بالعربية والفارسية. ومن شعره في الغزل:

فؤادي لوصل الغانيات مشوق ... فللشوق عندي زفرة وشهيق
بنفسي من البيض الحسان خريدة ... فؤادي بها دون الحسان علوق
إلى مثلها يرنو الحليم صبابة ... إذا ما انثنت كالغصن وهو رشيق

وقال:

تذكرت عهداً بالحمى راق لي دهراً ... فهاجت تباريح الغرام لي الذكرى

وأومض من وادي الغضا لمع بارق فأذكى لنيران الغضا في الحشا جمرا
فيا حبذا تلك المغاني، وإن نأت، ويا ما أحيلى العيش فيها وإن مرّا
فيا طالما بالأنس كانت أواهلاً وإن هي أمست بعد موحشة قفرا

الشيخ محمد حسن كبّة

التاجر الوجيه والشاعر الفقيه الشيخ محمد حسن من آل كبّة من بيوت بغداد القديمة التي تنتسب إلى ربيعة، وهو بيت تجارة وأدب ورعاية للشعر والإحسان. ومحمد حسن ابن محمد صالح بن مصطفى بن درويش علي بن جعفر بن علي بن معروف، ولد في الكاظمية في حزيران ١٨٥٣، ونشأ في بغداد نشأة أبناء الأشراف. وعمل في التجارة، فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، انقطع إلى العلم والأدب. وتتلمذ على علماء النجف والكاظمية، ثم رحل إلى سامراء سنة ١٨٨٩، ودرس على فقيه عصره محمد حسن الشيرازي الحسني (المتوفّى سنة ١٨٩٤). ولازم بعد ذلك الشيخ محمد تقي الشيرازي، ونال الإجازة في علوم الدين. ووضع مصنفات كثيرة، طبع منها بعد وفاته: الأحكام الشرعية في المواريث الجعفرية (١٩٣١) إلخ.

وتوفي في سامراء في ٢١ حزيران ١٩١٨.

نظم محمد حسن كبّة الشعر، وكانت له مطارحات أدبية مع رجال عصره، ولا سيّما محمد سعيد الحبوبي، نشر معظمها في «العقد المفصّل» الذي ألفه السيد حيدر الحسيني الحلي المتوفى سنة ١٨٨٧ في مناقب آل كبّة وطبع ببغداد سنة ١٩١٣ ـ ١٤. وقد وصفه الدكتور محمد مهدي البصير فقال إنه كان كريم الطبع، سمح الكفّ، أريحي الروح، حاضر البديهة، رقيق الخيال، مشبوب الحسّ، محباً للأدب وأهله حباً جماً. وقال إن شعره في جملته يجمع بين الرقة والمتانة ونقاء الديباجة والجزالة.

وهو والد الشيخ محمد مهدي كبّة رئيس حزب الاستقلال.

من شعره في الغزل:

نحن قوم إذا نظرنا صبونا وإذا ما سلا الورى ما سلونا
فتنتنا بحسنها وجنات ككؤوس الطّلى صفاءً ولونا
وجفون رشقننا بنبال نحن منها، لولا الهوى، ما دنونا

وقال أيضاً:

عليك سلام الله ما ذرّ شارق وما أنّ مشتاق وما حنّ وامق
وما تيّمتني في هواك صبابة وما علقت بالقلب منك علائق
وما سجعت في أثل سَلْع حمامة كأني وإياها مشوق وشائق

وقال:

ضـــاع قلـب المولّـــه المفتـــون | بـــــربى الكــــرخ لا ربى جيرون
فـــانشـــداه بين الظعـــون فـإني | خلتـــه ســـار بين تلك الظعـــون
يـا غـزالاً تـاقت لـــه النفس شـوقـاً | لا لغيـــدِ من الظبـــاء العِينِ
أنت ليـلاي والــرصــافـة نجـدي | وأنـــا في هـــواك كـــالمجنـــون

وقال أيضاً:

الصبر غـــار وأنجـــد الـــدمعُ | من نـــاظـــري فـاعشـــوشب الــربع
والقلـب حيـث نـأى الخليـط نـأى | رفقـــاً بـــه، فلـــه الهوى طبـع
-تّـام تــرشـق بـاللحـاظ حَشـاً | مـــا مسّهـــا لـــولا النّـــوى صـــدع

وقال من قصيدة في رثاء والده:

أأبيَّ، كيـف تـــذوق عيني لحظـــة | نـــومـــاً وكيـف من المدامع تجمـــد
أم كيـف قلبـي لا يـــذوب ومهجتـي | كمـــداً بنـــار الحزن لا تتـــوقّـــد
وظعنـت عـن غـضّ النسيـم إلى البلى، | يـــا ليت لـــو أنّي مكـــانك أُلْحَدُ!
وتـــركـت مَن تحنـــو عليـــه رقّـــة | أسفـــاً يحنّ إلى لقـــاك وينشـــد

ومن شعره الغزليّ:

كم ليلـةٍ من ليـالي الشـوق مقمـرة | هبّت بها نسمات الشّــوق والشغـف
سهـــرتها محصيـــاً منهـــا كـــواكبهـــا | مـــراعيـــاً بـــدرهـــا مـن شـــدّة الـــدنف
فمـــذ أبت مقلتي إلاّ انسكـــاب دمٍ | وأشرفـت كبــدي الحرّى على التلـف،
قـال النـديم: على مَ الـوجـد؟ قلت لـه: | نعم، تـذكّـرت مَن قـد حلّ بـالنجف
فقطّعت قلبـي الـــذكـــرى وبـــرّح بي | شـــوق ملحّ وتـــوق أوهنـــا كتفي

محمد سعيد الحبّوبي

محمد سعيد الحبوبي من كبار شعراء العصر الأخير ولد في النجف في ١٩ نيسان ١٨٥٠ وتوفي بمدينة النـاصرية وهو على رأس متطوعة العشائر لصدّ الزحف البريطاني في ١٥ حزيران ١٩١٥. وقد أوردت ترجمته في كتـابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» المطبوع في بغداد سنة ١٩٧١.

طبع ديوانه الكامل بعناية وزارة الثقافة والإعلام في بغداد سنة ١٩٨٠ وتحقيق ابن أخيه عبد الغفار الحبوبي. وهو محمد سعيد بن محمود بن قاسم بن كاظم بن حسين بن

حمزة بن مصطفى الـذي ينتهي نسبـه إلى الحسن السبط بن الإمـام علي بن أبي طـالب. ومصطفى أول مَن تلقب «حبّوبي». وأصل الأسرة من الحجاز نزح جدها حميضة بن أبي نمي الأول إلى العراق سنة ١٣١٨م، ثم استوطنت النجف منذ عهد بعيد.

كان محمود أبو الشاعر مزارعاً يمتلك أراضي بالقرب من الكوفة والمسيّب، ثم ذهب إلى حائل يمارس التجـارة مع بعض أقاربه. وقـد التحق محمد سعيد بأبيـه في حائل من أعمال نجد، وكـانت تـابعة لحكم أمـراء آل رشيد، وظل فيهـا ثلاث سنـوات وعاد إلى النجف سنة ١٨٦٧. وانصرف إلى الشعـر، حضر المجالس الأدبية فجال فيهـا وصال. وكان يزور بغداد فيتصل بصديقه محمد حسن كبّة ويحضر ندوات الأدب. ثم انقطع إلى الفقـه وعلوم الـدين، فدرس على علماء كثيرين منهم الشيـوخ محمد حسين الكـاظمي ومحمد الشربياني ورضا الهمداني ومـوسى شرارة ومهدي الحكيم ومحمد طه نجف. وقال جامع ديوانه عبد الغفار الحبوبي إنه زامل أيام الدراسة السيد جمال الدين الأفغاني الذي مكث في النجف أربع سنوات يدرس الفلسفة والتصوّف.

ثم ترك نظم الشعـر وانصرف عنه انصرافاً كلياً إثـر حادثة حدثت لـه مع الملاّ كاظم الخراساني (الآخوند). قال جعفر الخليلي إنه ناقش الملا في مسألة تتعلق بعلم الأصول، وألح في المناقشة حتى قال له الخراساني: إنك رجل شاعر، فما أنت والمسائل الأصولية؟ ومنذ ذلك اليوم قرّر الحبوبي تطليق الشعر لينصرف إلى الفقه.

وقد قال الدكتور إبراهيم علي أبـو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر» وهو يتحدّث عن مصطفى لطفي المنفلـوطي الذي درس في ا لأزهر ثم انقطع إلى الأدب، إن علماء الأزهر كـان فيهـم مَن يعتقد أن الأديب لا يكون عالماً، وربما كـانوا يرمون الشيخ محمد عبده بذلك أيضاً لغلبة البيان على منطقه وجريان الأدب في دمه.

ولما دخلت تـركيـة الحرب واحتلّ الإنكليـز البصرة في تشرين الثـاني ١٩١٤، دعـا الحبوبي إلى الجهـاد في صفوف الترك. وخـرج من النجف يتبعـه المجاهدون فـذهب إلى سـاحـة الحرب في الشعيبـة. لكن القـائد سليمان عسكري بـك اندحـر أمـام القـوات البريطانية وانتحر، فقصد الحبوبي الناصرية واشتدّ عليه المرض فتوفي بها.

رثاه الشيخ جواد الشبيبي فقال:

فقيـــــد المسلمين غـــــداة أودى   حسبـت الـــــديـن بينهم فقيـــــدا

وقال علي الشرقي:

حماة الحمى قـــد شيّعـــوك إلى الثغـــر   فبـــالـــرغـم أن يستقبلـــوك إلى القبر
وشـــاؤوك لـــلأوطـــان ظهـراً ممنعـــاً   ومـــا شعـــروا إلاّ بقـــاصمـــة الظهـــر

وممن رثـاه أيضاً من الشعـراء جـواد البلاغـي وعبد الحسين الحويـزي ومحمـد رضـا الشبيبي ومحمد مهدي البصير.

شعر الحبوبي :

من رقيق شعره :

مـــــا لقلبي تهزّه الأشـــــواق؟ خبّرينـــــا : أهكـــذا العشّـــاق؟
كـلّ يـــوم لنـــا فـــؤاد مـــذاب ودمـــوع على الطلـــول تُـــراق
عجباً كيف تـدّعي الـورْق وجـدي ولـدمعي بجيـدهـا أطـواق؟
كم لنـا بـالحمى معـاهـد أنس والصّبـا يـانـع الجنى رقـراق . . .
فـارحمي ، يـا أُمَيْمُ ، لـوعـة صبّ شفّـه الـوجـد بعـدكم والفـراق
كـاد يقضي من الصبـابـة لـولا أن تحامـاه في الـوداع العنـاق

وصف شاعرنا الخمرة وقال فيها القصائد والموشحات ولم يخرج في خمرياته عن معاني الأولين . فالخمرة لديـه بيضاء كالشمس أو حمراء كالياقوت ، شـذا أنفاسها يعطر الجوّ ، عتقها القسّ في ديره سنين طوالاً فأدركت عهد الملوك الغابرين وشهدت دولهم دولة بعد دولـة . والخمرة تلطف الطبـاع وتبهج وتخدر الأحـاسيس ، وهي علاج للنفس الحزينـة وتردّ الروح إلى الجسـوم الراقدة في القبور. وقد قـال عبد الغفار الحبوبي أن عمّـه لم يعاقر الخمرة ولم تسلب لبّـه ، وقد وصفها عن مخيّلة خـلاقة وحسّ فني فجاءت كأنها منتـزعة من الواقع . وقد قال الحبوبي نفسه :

لا تخل ، ويـكَ ، ومـن يسمـع يخَلْ أنني بـالـراح مشغـوف الفـؤاد
أو بمهضـوم الحشـا سـاهـي المقل أخجلت قـامتـه السّمـر الصّعـاد
أو بـربـات خـدور وكلـل يتفنّـن بقـرب وبعـاد
إنّ لي مـن شرفي بُـرْداً ضفـى هـو من دون الهوى مـرتهني
غير أني رمـت نهج الظُّـرَفـا : عفـة النفس وفسق الألسن

والحقيقة أن الحبوبي قرأ شعر أبي نواس وصحبـه فتمثّله وقلد معانيه أحسن تقليد ولم يخرج في خمريـاته على جمالها الفني وتـركيبها المتين بـرأي جديـد أو فكرة طـريفة . وهـو يذهب أحياناً مذهب الصوفية وينهج سبيل ابن الفارض فيقول :

وقـد شفّـت فما ظهـرت لـراءٍ فكـان خفـاؤهـا فـرط الظهـور

ويقول :

وانْعَتْنُهـا ويـكَ في ألقـابها فهـي رَوْح وهـي رُوح وهـي راح

وذكر ناشر الديوان أن عمه قلما تطرق إلى الشعر الديني أو القومي ، فخلا شعره من المدائح النبوية والمراثي الحسينية خلافاً لرجال عصره ومصره .

جواد الشبيبي

شاعر يعدّ في الطبقة الأولى من شعراء المدرسة القديمة في العراق، وهو والد الشعراء محمد رضا ومحمد باقر ومحمد حسين ورئيس غرفة تجارة بغداد محمد جعفر الشبيبي.

وهو محمد جواد بن محمد بن شبيب بن راضي بن إبراهيم بن صقر، ولد في بغداد في ٧ كانون الثاني ١٨٦٥، وكان أبوه الشيخ محمد مقيماً بها فراراً من سطوة بعض شيوخ المنتفق. ولم تمض على ولادته أيام قليلة حتى توفي والده، فأخذته أمّه إلى أبيها الشيخ صادق أطيمش في الشطرة، ونشأ الطفل اليتيم في رعايته.

ولما شبّ عن الطوق قصد النجف سنة ١٨٨٠ فدرس على علمائها اللغة والأدب وعلوم الدين. وكان من أساتذته السيد عبد الكريم الأعرجي والشيخ أحمد المشهدي والسيد مهدي الحكيم ومحمد الطباطبائي، وتخرّج في الشعر على الشيخ محسن الخضري، والسيد محمد سعيد الحبّوبي.

وانصرف جواد الشبيبي إلى الشعر والأدب فبرز في النظم والترسّل. وكانت له مساجلات مع أبناء جيله كالسيد جعفر كمال الدين الحلي (١٨٦١ ـ ١٨٩٨) وعبد الحسين الجواهري وهادي كاشف الغطاء وعبد الكريم الجزائري. واستعان به المشير أحمد فيضي باشا وكيل والي بغداد (١٩٠٢ ـ ٠٤)، عند مروره بالنجف على رأس حملة عسكرية، في تحرير رسائل إلى شيوخ القبائل تحذيراً لهم من التمرّد والعصيان وترغيباً في الطاعة والإخلاد إلى السكينة.

وكان على وقاره حاضر البديهة، حلو الفكاهة، لطيف الدعابة. قال جعفر الخليلي: «وكان الشيخ جواد الشبيبي هو المجلّي في الغالب بشعره ونثره ونوادره وسرعة خاطره. وقد قيل أن نوادره الأدبية وتحفه الفنية من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة لو تصدّى أحد لجمعها». ثم قال: «. . . كان العلماء كثيراً ما يتخذون من قلمه ترجماناً للاعراب عن رغباتهم ومقترحاتهم، فيبعثون بها للباب العالي باسطنبول، أو يخاطبون بها الولاة ببغداد. وكثيراً ما يقصده أرباب الحاجة ممّن يريدون أن يسجلوا وصيّتهم بعد مماتهم، أو يريدون وقف أملاكهم أو تأسيس شركة لهم أو إجراء بيع أو شراء على الوجه الشرعيّ فيما بينهم، فيدبّج لهم بإنشائه وخطه وثيقة حسبها من القيمة الشرعية والعرفية أن يقال إنها من وضع الشيخ جواد الشبيبي. فقد عرف ببراعة إنشائه كما عرف بحسن خطه، ليس في النجف فحسب وإنما في جميع الأوساط الأدبية في العراق. وكثيراً ما كان ينظم الشعر الجيّد ويعطيه لمن ينتحله لنفسه لغرض من الأغراض».

وقد أقام جواد الشبيبي متنقلاً بين النجف وبغداد. وامتدّ به العمر، وسما أنجاله في عالم الشعر والأدب وتقلدوا المراكز الرفيعة في السياسة والتجارة والمال. وتوفي ببغداد في أوّل آذار ١٩٤٤.

مؤلفاته وشعره:

ترك تآليف خطية لم يهيّأ لها الطبع، منها ديوان شعره الذي جمعه محمود الحبّوبي، ومجموعة مراسلاته وقد سمّاها «الروض الممطور بالدرّ المنثور». وله كتاب في تراجم أدباء العصر، وآخر في حياة الشيخ خزعل آل الشيخ جابر أمير المحمّرة، ونبذة في الأصول إلخ.

وشعره رصين الديباجة، واضح الأسلوب يشتمل على المعاني القديمة والأغراض الاجتماعية والإخوانية والوطنية. فمن مدحه للسيد حسين القزويني:

أمنيع أركان الفتوّه … وربيع روّاد المروّه
وابن الزعامة والكرامة … والإمامة والنبوّه
ومن الإله بجدّه … وأبيه في القرآن نَوَّهْ
قد، والنبيّ محمّد، … أصبحت للإسلام قدوه

ومن رثائه للسيد المومأ إليه أيضاً:

أصغت لرعدٍ أوقر السّمع هائله … فقلت: نعيّ في السماء زلازله
سما صوته حتى إذا استوعب السّما … تحدّر في الأرض العريضة وابله

ومن شعره يخاطب السيدة أم كلثوم:

قمريَّة الدّوح يا ذات الترانيم … مع النسور على ورد الردى حومي
سيري مع الجحفل الجرار خافقة … وسابقي فوقه سرب القشاعيم
وناوحي الأمة الثكلى فقد رزئت … بلادها بالمطاعين المطاعيم
ما في العراق اذا استقريتِ بقعته، … أذن تصيخ لأفكار الأناغيم

وقال شاكياً متألماً لحال أبناء الشعب:

يا ماطل الوعد، ما هٰذي الأساطير؟ … زادت على السّمع هاتيك المعاذير
العدل منك سمعناه ولم نره … والجور منك أمام العين منظور
إن قلتَ: عصري عصر النور مفتخراً … فظلمة الظلم ما في فجرها نور
وهل يفيد جمال الوجه ناظره، … والبرقع الدكن فيه الحسن مستور؟

حتى يقول:

يا حارث الأرض والسّاقي وباذرها، … قتّر إذا نفع المحروم تقتير
إذا أتاك رجال الخرص فَالْقَهُمْ … بطلعة برقت منها الأسارير
إن باغتوك بنار شبّها غضب … وسعّرتها من العسف الأعاصير،

فـاحفـظ بقـايـا حبـوب منهُمُ سقطت، فللبقـــايـــا ببغـــدادٍ منـــاقير
طــارت من الغـرب، والأطماع أجنحـــة، والغـــايـــة الشرق، واللّفـظ الـدّنــانير

وقال في نهضة العرب:

يــا عــربُ، أين جيــادكـم، وهي التي لم يثنهـــا في الـــروع جـــذب عنـــان
النـــاشرات من السبيـب مـــراوحــــاً يخفقن فـــوق منـــاكـب الفـــرســـان
سل عـن جـــوانبهـــا: إلى كـم غـــرّبت مـــا بين ذي قـــار إلى حلــــوان؟

أما نثره فناصع الديباجة، واضح البيـان، قديم الأسلوب، كثيراً ما يزينه بالسجع. وقد نقل له عبد المحسن شلاش نصّ رسالـة حررها باسم المشير أحمد فيضي باشا، قال منها:

«ليعلم مَن وعت أذنـه من قبـائل جزيـرة العـرب وعموم أهل القـرى والطّنب، أن مـرهـب الـدول، خلف الســلاطين الأول، نـاشر العـدل في الأرض، معــدن البسط والقبض، صـان الله تعالى ببركة وجـوده بيضة الإسـلام من الصدع، وجعلكـم كسائر رعايـاه ملقين له بالطاعـة والسّمع. أمرنا بالصفح عن الماضي، وسرنـا نحوكم لننشيء الإصلاح بينكم والتراضي، ونخمد نيران الفتن، وننهج بكم أوضح سنن، فوطأنا، ولله الحمـد، أرضاً مـا لسوى المسلمين بها وطأة قـدم، ولا لغير الموحّـدين يخفق في بقاعهـا علم. ورأينـا أن نقـرع أبـواب مسـامعكـم بخطـاب الإرشـاد، ونجمع شملكم، أيها المسلمـون، على الصفـاء والاتحاد. مـا جئنـاكم إلا لنختبر صفـاتكم ونحقن دمـاءكم ونحكم بالقرآن الشريـف والسنّة النبويّة ونؤلف بين قلـوبكم، ومن العدل التأليف بين الرعيّة.

دعـوا الشحنـاء والبغضاء واجتنبـوا المغـازي وسفك الـدماء، فأنتم ملّـة واحـدة، والمسلمون أخوة سواء. وادخلوا حقيقة في مجاز الإيفاء لتغمركم الحاقة في الرّضى من بعد تلك الواقعة. ولا تصيروا أغماد سيوفكم هـواديكم فتضعفون، وفوق الضعف تشمتون أعاديكم الكافرين. . . ».

من شعر الشيخ جواد الشبيبي:

قال يتألم من داء الشيخوخة:

طبيبي، مـــا عـــرفـت عيـــاء دائي وأنـت معـــالـج الـــداء العيــــاء
وبي ألم يـــــــــؤرّقنـــي، فتعـــى يميني فيـــه عـن جـــذب الــرداء
وحمّى خـــالطت عـــرقـــاً بجسمي فبـــاتـــا مـــزمعين على اصطــلائي
وكنـت خلقـت مـن مـــــاء وطينٍ فهـــا أنـــا صرت مـن نـــار ومـــاء
مللت العـــائديـن وقـــد أمـــالـــوا إليّ رقـــاب إخـــوان الصفـــاء

وقالوا: إنّ صحّته ترقّت، ... فقلتُ: أرى انحطاطي بارتقائي
وقالوا: قد شفيت، فقلت: كفّوا ... فمن عللي تعاليل الشفاء
أرى شبحاً يسير أمام عيني ... لغايته فأحسبه ورائي
وآخر عن مظاله تنحّى ... وأكره في مغادرة الشقاء . . .

وقال الشيخ جواد:

ألا قتل الإنسان، ماذا يريده ... وقد جاز حدّ المسرفين، أما يكفي؟
أبى أن يساوي نوعه في شؤونه، ... فجار على صنف ورقّ على صنف
وعالج، لا عن حكمة، ضعف نفسه. ... متى عولج الضعف المبرّح بالضعف؟

وقال:

عمّ السؤال، فلات حينَ سؤال ... أو ما كفتك قرائن الأحوال؟
انظر بتاريخ الزمان الخالي ... نظرات عينك في الزمان الخالي
تجدِ الظروف هي الظروف، وإنّما ... تتفاوت النظرات بالأجيال
يتخالف الإنسان في أخلاقه ... إمّا اغتدى متوافق الأشكال
والملح والعذب الفرات كلاهما ... ماء ولا كالبارد السّلسال
والدّوح نبت والثمار مناسب ... والكرم أكرم من عروق الضّال
والأرض تلك الأرض ما إن بدّلت ... بقوارع الأرجاف والزّلزال . . .
واحسرتا خلت البلاد، فهل بها ... من شاغل هذا الفراغ الخالي؟
تركوه مغزى يستهان، وإنهم، ... لو يشعرون، ربائق الأنفال
لا يفلتون براءةً من شعبهم، ... والمري من دمه دم القِيفَال[1]
جهل النّصيح عليَّ أثقل موضعاً ... من غلظة اللوّام والعذّال
رمق السّراب فجرّدت أثوابه ... عنه ليسبح في عباب الآل
واستعمر الجوّ البعيد خياله ... فبنى على الأوهام والآمال
حرث الجبال، وتلك ضيعة أشعب ... يستصعد التيّار من أوشال
عقد المنى سرجاً على متوهّم ... فجرى ولكن في مجال خيال
وكأنّه شحذ الهلال مهنّداً ... أو جاء معتقلاً مذنّب «هالي»

ثم قال:

---

(١) القيفال عرق في الذراع يفصد.

قــالـــوا: أتتك من المشيب غــلائل ... جــــدد تطــــرّز في نهى وجــــلال

فتَعَــرَّ عن بُـرْد الشبــاب، فإنــه ... صــدىء المفـاضــة، أقتم السّربــال

حتّى إذا مــلأ القميص معــاطفي، ... أبصرت منــــه طــــرائق الإذلال

فطفقت أهتـف، والمســامع لا تعي: ... مَـن لي بــــردّ بــــرودِيَ الأسمال؟

بــرد الشبــاب، لأنـت نشـرقي التي ... فيهـــا فللت مضـــارب الأهـــوال

لــو في متــون العيس همّي لانثنت ... ملســاً رمين الأرض بــالأثقــال

ولــو أنها بــالطّـود عــاديَّ الــذرى ... لا نهار عـن دعص النّقـــا المنهـــال

وقال يتشوّق إلى أصحاب له في النجف:

أروح على جمر الغـــرام كما أغـــدو ... فـلا الـدمع يطفيه ولا يسكـن الـوقـد

وحيّرني النّـائي، ومــوطنــه ا لحَشَــا، ... فـلا قـربــه قـرب ولا بعــده بعــد

أحبّـاي بـالـوادي المقـدّس، أخـذكم ... عليَّ طــــريق الصبر ليس لـــه ردّ

تـــذكّـــركم قلبي فطــار شراره ... كأنّ حصــاة القلب يقــرعهــا زنـد

وطلّق عيني غمضهــا، فهي بعــدكم ... تعــدّ الليــالي والشهــور وتعتــدّ

تحبّب لي نجــداً عـــروبــة أصلكم ... وأين مـن المغمـوس في دجلــةٍ نجــد؟

تنسّمتُ فيهــا نسمــة مـن ريــاضكم ... يعطّـرهــا شيح الجزيـرة والــرنـد

على ضــوء هــاتيك الثنــايا زواهيــاً ... أطـالع صحفـاً من عنـاوينها المجد

خطــوط بأقــلام الــرمـاح مشجّـراً ... بها النّسب الــوضّــاح والحسب العــدّ

يلــذّ بعيني السّهـــد في ذكــريــاتهم ... كأنّ مــذاق السّهــد في مقلتي شهــد

ومـن ظلمات اللّيـل بحــــر يخيفني ... فـــــلا الجزر ينجيني ولا يُعْبَر المدّ

أرى ســاحل الإصبــاح يَبْيَضّ رملــه ... فيضربـــه مــوج الظــلام ويســودّ

بماذا أخـوض البحـر، والبحـر هـائج، ... ولا ســاعــد يقـوى عليــه ولا زنــد

أمـــانيّ نفسي أجهـــدتني تعلّـــلاً، ... وإنَّ التمنّي جهــد مَـن لا لــه جهــد

وقال أيضاً:

يســائلني عن مــوطن العـدل جــائر ... ويعلم أنّ العــدل مــوطنــه اللّحــد

على يـــده أدلاه بـــالحفـــرة التي ... تبلّج فيهــا الحقّ وابتسم الــرشــد

ويسـألني عـن كنـــز درّي مخاتـل ... وفي يــده ممــا احتفظت بــه عقــد

لــو انبسطت كفّـي على قــدر حقهــا ... أقمت عليـــه الحدّ لـــو أمكـن الحدّ

وقال جواد الشبيبي من قصيدة له بعنوان «تَنهّدات» :

عبر الزمان استحلبت عبراتي ... وألانت الأيام صدر قناتي
أنّي أعان على الجهاد بواحد ... وخطوبها يملأن ستّ جهاتي
أنّى التفتُّ رأيت خطباً هائلاً ... فكأنما الأهوال في لفتاتي
وإذا أردت صراعها في نهضة ... عاقتني الأيام عن نهضاتي
نفسي لماء الرافدين يسيلها ... نفس يصعّده جَوَى الزّفرات
يحيا به خصمي فأشرق بالرّدى ... وأُذاد عنه وفيه ماء حياتي
لا دجلتي أمّ السّيول بدجلتي ... كلاّ ولا هذا الفرات فراتي

ثم يقول :

ليَ من جَنَاي ـ وما اقترفتُ جناية ـ ... أشواكه والقطف عند جناتي
وا ضيعة الأكفاء بعد مناصب ... حفظت مقاعدها لغير كفاة
ولوا الأمور، ولو أطاعوا رشدهم ... لسعوا وراء الحقّ سعي ولاة
من كل كاسٍ يستجدّ لنفسه ... حللاً ولكن من جلود عراة
النّاهبي رمق الضعيف وقوته ... والقاتلي الأوقات بالشّهوات
قطعوا البلاد ومنهمُ أوصالها ... والقطع يؤلم من أكفّ جفاة
سكروا بخمر غرورهم والعامل (م) ... المجهود بين الموت والسّكرات
غزوا المصايف والهوى يقتادهم ... لمسارح الفتيان والفتيات
هم أغنموا مغزوّهم وتراجعوا، ... أفهذه العُقبى من الغزوات؟
مال تكفّلت الجباة بعسفهم ... إحضاره لخزائن اللّذّات
نهب من الحُجُرات صِيحَ به، وفي ... عزف القيان يُرَدُّ للحجرات
طارت شعاعاً فيه أيدٍ لم تزل ... مخضوبة بالراح في الحانات . . .

عبد المحسن الكاظمي

الشاعر العربي الذي عرف بالارتجال وطول النفس وجزالة الألفاظ، ولد في بغداد يوم الأربعاء ٣ كانون الثاني ١٨٦٦، وهو عبد المحسن بن محمد بن علي بن محسن بن محمد بن صالح بن علي بن هادي النخعي. وقد درس في مسقط رأسه ومارس التجارة والزراعة زمناً، ثم انصرف إلى مطالعة الكتب الأدبية وحفظ الشعر والنظم.

وقدم جمال الدين الأفغاني منفياً من إيران سنة ١٨٩١ فلازمه الكاظمي وأخذ عنه

وتشرّب منه مبادىء الإصلاح. ولما خرج الأفغاني من بغداد أصبح الكاظمي موضع ريبة وتعقيب، فلاذ بالوكالة الإيرانية ثم غادر الزوراء خفية إلى البصرة ومنها إلى أبي شهر في الخليج العربي.

وقد عاد إلى بغداد بعد ذلك، ثم رحل من العراق سنة ١٨٩٧ فقصد إيران والهند، وألقى عصا الترحال في القاهرة (١٨٩٩). ونال الحظوة لدى الشيخ محمد عبده، واتصل بالمحافل الأدبية والقومية فكان موضع التجلّة والاحترام.

وقيل إن محمود سامي البارودي الذي عرف الكاظمي وقرّبه إليه بعد عودته من منفاه في جزيرة سيلان، قسّم شعراء عصره إلى طبقات فاستثنى الكاظمي واكتفى بالقول إنه «أمّة في الشعر وحده».

لكنه ضاق بمعيشته ولم يصب منها الكفاف. وقد قال وليّ الدين يكن في «تجاريبه»:

«علم من أعلام العراق، هو أبو القصائد المحبّرة والقوافي المحكمة، نزيل بمصر، مقيم في دار حزنه يعالج أيامه ويعاني شدائدها. وليس بمصر مَن يقول له: أين أصبحت، أيّها الأديب العظيم؟».

وتوفي في القاهرة في أول أيار ١٩٣٥.

طبع الجزء الأول من ديوانه في دمشق (١٩٣٩) والثاني في القاهرة (١٩٤٨). ونشرت له: معلّقات الكاظمي (١٩٢٤) عراقيّات الكاظمي (١٩٦٠). وله كتب نثرية منها: البيان الصادق في كشف الحقائق، تنبيه الغافلين.

شعره:

من شعراء الطبقة الأولى، في شعره أنفاس البداوة ومتانة المدرسة القديمة. أما مواضيعه فأغلبها قومي وطني، يدعو فيها العرب إلى اليقظة والنهوض وينعى عليهم الغفلة والجمود.

هامَ الكاظمي بالحرية فقال:

مهما تباعد فهو منك قريب ... يوم له بين الضلوع دبيب
فإذا تباعد فالحبيب مبغّض ... وإذا تقارب فالعدوّ حبيب
لا فرق بين المشرقين سوى الذي ... يصفو به هذا وذاك يشوب
كالشمس ما بين الأنام مشاعة ... ولها شروق مرة وغروب

واستنهض همّة قومه فقال:

سيروا بنـــا عنقـــاً وشـــدّا   سيروا بنـــا ممسىً ومغـــدى
سيروا فـــــرادى او ثنـى   والجمع للغـــايـــات أجـــدى
لا يقعـــدنَّ بعـــزمنـــا   يـــوم يـــرينـــا الهزل جـــدّا

حتى يقول نادباً حال وطنه :

بـــالله، يـــا وطني، أجب   مـــا بـــال قلبك ليس يهدا؟
كـــلٌّ يبـــلّ غليلـــه   ممـــا رجـــاه وأنت تصـــدا
يـــرضيك تصبح للخـــراب   وكنت للعمـــران مهـــدا؟
يـــا أيها الـــوطن الـــذي   نـــادى بنيـــه واستمـــدّا
وأسرّ نـــــاراً كلما   قيل احمدي تـــزداد وقـــدا
ورمـى بكلتـي مقلتيـــه   ولم يجد مـن ذاك بـــدّا
يـــدعـــو كهـــولهم كما   يـــدعـــوهم شيبـــاً ومُـــرْدا
لـــك مـــن بنيـــك النّجـب   كـل غضنفـــر وفّى وفـــدّى
روّح فـــــؤادك واسترح   فبنـــوك لا يـألـــون جهـــدا. . .

أحبّ الكاظمي البلاد العربية قاطبة، وتوزّع قلبه بين موطنه العراق ومسكنه مصر. قال يحنّ إلى مسقط رأسه :

ألا خبر مـن ثنـــايـــا العـــراق   يطلـع أو زورة تطـــــرق؟
هل الـــدار بعـــدي كعهـــدي بها   يبـــاكـــرهـــا العـــارض المغـــدق
أم البين أسلمهـــــا للبلى   وعـــاث بها الـــذئب والخرنـق
رعـى الله أهــل الحفـــــاظ الألى   كما لقـي القلـب فيهـم لَقُـــوا
أحبّـــاي، هـل كلـف شيّق   ينـــاشـــده الكلف الشّيّق
وإن خفـق البـــدر نحـــو الحمى   نـــزت كبـــدي نحـــوكم تخفـق
على حـــرق أضلعي تلتـــوي   ومـن علـق أدمعـي تـــدفـق

وقال يبارك مصر ويشكرها على رعايتها له :

تعـدّت صروف الـدهـر مصر وأهلهـا   ولا زال في أرجـــائهـــا البشر يسطـع
نعـم، أهـل مصرٍ، أنتمُ خير أمـــة   ومـــا الخير إلاّ منكم يتفـــرّع
لقـــد شـاع عنكـم كل فضل وسـؤدد   وسـوف نـرى للفخـر مـا هـو أشيع

وتمنّى لو كان العالم بأسره عرباً :

ليـت الأنـــام جميعهم عـــرب   شبّـوا وشـابـوا بعـدمـا اكتهلـوا
أوليـــت كـــل المالكين لهم   عـــرق بـــذاك الأصل يتّصـل!

وقال يحنّ إلى مسقط رأسه بغداد:

أبغـــداد، لا فـــاتتك مني تحيّـــة يفسّر منهـــا مـــا أراد المفسّر
حنينـــاً إلى تلك البقـــاع، إلى التي تطيب، إلى تلك التي هي أطهـــر
حنيناً إلى الـزّوْرا، حنينـاً إلى الصّبا، حنينـاً إلى العـود الـذي هـو أنضر
حنينـاً إلى تلك القـرى وإلى الـذي يعشّي بهاتيك القـرى ويبكّـر
حنينــــاً إلى أرض حييت بتربها، ويـــا ليتني في ذلك الترب أُقْبَرُ
هنـاك شبـابي قـد تقضّى، وهـا هنـا مشيبي، وفي الحالين أشكـو وأشكـر
لقـــد زعمـــوا أني نسيت، وأنني غـــدوت بهٰذي دون تلك أفكّـــر
وكيف تـراني نـاسيـاً ذكـر مـوطنٍ لـه مـورد في كل سمع ومصـدر؟
منى النفس أن يلقى العـراق وعـزّه مـن الخير مـا يهوى ومـا يتخيّر

مات عبد المحسن الكاظمي في مصر، فرثاه معروف الرصافي قائلاً:

أيها النـادبـون، غيريَ غُـرُّوا: بـــرح اليـــوم للّبيب الخفـــاءُ
يُكْـرَمُ المَيْـت بـالثنـاء، وتحيـا عنـدكـم في المَهـانـة الأحيـاء
إن جفتنـا بـلادنـا فهي حِبٌّ، ومـن الحِبّ يستلـذّ الجفـاء
لم نَحُل عـن عهـودهـا مـذ جفتنـا، بل لها الـودّ عنـدنـا والـوفـاء
إنّما هـــذه المواطـن أمّ مُسْتَحَقٌّ لها علينـا الـولاء

وقال الزهاوي:

يـا بلبـل الشعـراء، مـالك صـامتـاً من بعـد تغـريـد بشعـرك مُشْجِنِ
قـد سرت قبلي للـرّدى متعجّـلاً ولعلّـني بـك لاحـق ولعلّني

وقال إبـراهيم عبد القادر المازني: «وجـاء الكاظمي إلى مصر، وكان الأدب فيهـا قد أخذ يشيح بوجهه عن زيف المقلّدين والعابثين من المتأخرين، وينثني راجعاً إلى الشعر الجيّـد والشعراء المخلصين، فنـزل منـزل الكـرامة بين فحـول ذلك العصر. وزيّنت لـه الإقامة ففعل، وعاش في مصر كريماً أبيـاً لا يمتهن نفسه ولا يهين شعره. ولم يعرف عنه قطّ أنـه مدح أحـداً مبتـدئاً، وإنما كان يشكـر المستحق على الصنيع الحسن. واشتهـر بـالقـدرة على الارتجال مع المحـافظة على طبقـة شعـره. والارتجال عسير، وقـد تسعف القريحة بالبيت، ولكن الكاظمي كان يسحّ بالعشرات ولا يقصر عن المئات. ولا شك أن ضخامة محفوظه من اللغة والشعر، وطول اعتيـاده الإملاء حين ينظم، كانا ممّا أعاناه على الارتجال. ولكن كثرة المحفوظ وحدهـا لا تكفي وعادة الإملاء لا تغني، ولا بدّ من استعداد خاص حتى تسعف القريحة وتؤاتي السليقة . . .

«وقد تغيّرت الدنيا في الشرق بسرعة تغيّراً ترك الكاظمي غريباً فيها. فهو لا يحسن إلا أن يقول الشعر، ولا يستطيع مع هذا أن يتكسّب به، وقد فطره الله على العزوف الشديد والإباء المرّ. فلا قدرة له على التزلّف والمصانعة، ولا قبول منه لحسنة أو صدقة أو معونة في صورة من الصور. . . وكان المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده يرعاه ويتفقده بانتظام، وظلّ مواظباً على ذلك كاتماً له حتى توفي. . . فلما مات الشيخ محمد عبده اضطربت حياة الكاظمي واصطلحت عليه الفاقة والعلة، ولكنه احتملهما وصبر على بلائهما صبر الحرّ الكريم. وبلغ من أمره في ذلك أن كثيرين من ثقاته كانوا يجهلون مكان بيته في العام الأخير من حياته، لفرط تكتمه حقيقة حاله وإخفائها حتى عن أقرب الناس إليه وأصدقهم ودّاً له».

هذا وقد قال الكاظمي معبّراً عن إبائه وتعفّفه:

لو على قدر همّتي واعتزامي — صال نطقي بلغت كلّ مرامي
همّة ترهق النجوم وعزم — ضارب في الجبال والآكام
وأراني أرى القلوب رواءً — غير قلب ما بين جنبي ظام
وإبائي يرى من الضيم أن يحمل (م) — في الدهر منّة للغمام . . .
ليس عيش الفتى زخاريف لبس — وشراب مصفّق وطعام
إنما العيش أن تكون عظيماً — عالي الذكر في الأمور العظام
ليت أمي، إذ بشّرت بغلام — بعد لأي، لا بُشِّرتْ بغلام
ولدتني مجسّماً من إباءٍ — وجلال ورفعة واحتشام
فترعرعت بين أكرم قوم — شمخوا عزّة على الأقوام
ولأن أدبرت حظوظي أضحت — حسناتي تعدّ من آثامي
أيّها المشفقون، إنّ فؤادي — أقصدته بها تصيب المرامي
فاثأروني بمهجتي أو دعوني، — أنا عرّضتُ مهجتي للسّقام

حتى يقول:

ألمي إن خلوت من آلامي — وسقامي متى فقدت سقامي
ما شكت لي الضنى عظامي لكن — قام يشكو لي الضنى من عظامي
فإذا كانت الحياة كهذي — فعلى هذه الحياة سلامي

تحدث عبد المحسن الكاظمي عن نشأته الأدبية فقال: «أدخلت في أوائل صباي بمكتب فقيهة بالبلدة، ثم خرجت منه إلى معلم فارسي لأدرس اللغة الفارسية، لأن آبائي تجار، وللعراق صلة تجارية بإيران والأفغان والهند، والتخاطب التجاري باللغة

الفـارسيـة في هـذه البـلاد كثير. فمكثت عنـده ستـة أشهـر أمكنني بعـدهـا أن أقـرأ وأكتب . . . وذهبت إلى معلم عربي، ولكن ما لبثت أن خرجت من عنده. ثم أخذت أنظر في المخطوطات العربية والفارسية . . .

ولما بلغت الثانية عشرة مـن حياتي تطفّلت على موائد العلم بالكـاظمية . وكان أخي محمد حسين مشتهـراً بالأدب، فأخـذت أطلع مثله على كتب الأدب، ولكن الأسـاتذة كـانوا ينهـونني عن ذلك بحجة أن هـذه الكتب تشغل الطـالب عن العلم وتؤخّـره في تحصيله . فلم أستمع إليهم، ووجدت في نفسي شـوقاً إلى الأدب والشعر، وصرت أكبّ على مطالعته في يومي الخميس والجمعة، وأكتـب القصائد القديمة وأحفظها سراً حتى حفظت عشرة آلاف بيت . وحدث أن أخي وزميلاً لـه كانا يوماً يتطـارحان الشعر وأيّهما غلب يكسب الـرهان . وكان الاتفـاق بين الفريقين على أن زمـلاء الرئيسين يتطـارحون الشعـر، فإذا عجز فـريق منهم أنشـد الـرئيس بدلـه . ولما جـاء الدور عليّ بـدأت بهذا البيت :

أنـــا الـــذي نظـــر الأعمى إلى أدبي وأسمعـت كلماتي مَـن بـــــــه صمم

واسترسلت في المطـارحـة حتى عجـز الـزملاء والـرئيسـان . ومن ذاك الـوقت كـان المتطارحـون يتنافسون عليّ ، وكـانت سنّي وقتئذٍ ستـة عشر عاماً . وقـد نظمت قصيدة غزلية يبلغ عدد أبياتها ٥٥ بيتاً لا أذكر منها الآن غير الشطر الأول، وهو:

أيها الرامي وما أجرى دما . . .

وبعدهـا نظمت عدة قصائد . ولكن أول قصيـدة ظهرت لي كانت رثـاء لأحد علماء العراق . وذلك أنه كان من العادة عندنا ، إذا أريد رثاء أحد الموتى ، وقف منشد خاص لتلاوة ما نظمـه الشعراء من القصائد . وكلما أتى إلى قصيـدة ، قال له الحاضرون : لمن؟ فيقول : لفلان . فيردّون : أنعم وأكرم . أما إذا لم يرد الشاعر ذكر اسمه فإن المنشد يجيب الحاضرين عن سؤالهم بقوله : لبعض المحبّين .

«فلما أتى دور قصيدتي في ذلك اليوم الذي أريد رثـاء العالم فيه ، لم ينسبها المنشد إلي لأنّي صغير. وكان هنـاك في هذه الأثنـاء أديب كبير يدعى السيـد إبراهيم الطبـاطبائي فنسب الحاضرون هذه القصيدة إليـه . فحزنت وطربت في آن واحد . حـزنت لأنّ قومي لا يفرّقون بين قائل وقائل، وطربت لاشتباه شعري بشعر أديب كبير. ولكن لم تمض مدّة حتى ظهر اسمي، وانقلبت الآية فصار الناس ينسبون إليّ كلّ ما يستحسنون . . . » .

عبـد المحسن الكاظمي :

ارتأى الـدكتـور إبـراهيم السـامـرائي أن الشعـراء الـذين نشأوا في المواطن الشيعيـة كالنجف وكربلاء والكاظمية والحلة قد تأثروا بالشريـف الرضيّ نقيب الطالبيين (٩٧٠ ـ

١٠١٥م) ودعبل الخزاعي (٧٦٥ ــ ٨٦٠م) والسيد الحميري (٧٢٣ ــ ٧٨٩م)، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء عبد المحسن الكاظمي وجواد الشبيبي وولداه محمد رضا ومحمد باقر وغيرهم. وقد رأى السامرائي تأثير قدماء شعراء الشيعة ظاهراً في الطريقة التقليدية والروح البدوية ومراثي آل البيت.

والحقيقة أن لشعر الشيعة طابعاً خاصاً يتمثل في المراثي عامة وخصائص الحزن والتفجّع. على أن شعراء العصر الحديث فتحت لهم آفاق جديدة وسّعت شمول معانيهم ومواضيعهم مع احتفاظهم بالأساليب التقليدية القديمة، فقلّ تأثير الشريف الرضيّ وأمثاله من القدماء في شعرهم.

***

عبد المحسن الكاظمي: ممّن أخذ عنهم في النظم في صباه أخوه الأكبر الشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى في رشت من أعمال إيران سنة ١٩٣٦، والشيخ جابر الكاظمي المتوفى سنة ١٨٩٩، والسيد إبراهيم الطباطبائي الشاعر الشهير.

الكاظمي وثورة الحجاز سنة ١٩١٦:

نهض الشريف حسين وأعلن ثورته العربية الكبرى على الأتراك خلال الحرب العظمى، فاستبشر بها الوطنيون العرب، ومنهم عبد المحسن الكاظمي الذي حيّا الثورة وقادتها بقصائد عامرة ومدح الملك حسين وأنجاله ورجاله أمثال جعفر العسكري ومولود مخلص وفؤاد الخطيب. قال في الملك حسين:

هــذا الحسين وذاك أوّل مَن دعــا ... والرأس أولى بالعلا أن ترأسا...
ذو عــزمــة جعل الإلــه شباتها ... نقماً تصبّ على الطغاة وأيؤسا

وقال أيضاً:

مليك، وهل للعرب مثل حسينها ... مليك تــوالى مَنّــه وأبٌ بــرّ؟
أتحيي رجاء العرب من بعد موته، ... أسيفك أمضى أم عزيمتك البكر؟

وكان الكاظمي في شعره من دعاة الحركة الوطنية المصرية ومريدي زعيمها سعد زغلول، مدحه في حياته ورثاه عند وفاته.

ورحب الكاظمي بمبادىء الرئيس وودرو ولسن وعدّها وسيلة لتحرير الشعوب، فقال يخاطبه:

عمـرت مجالسنـا بـذكـرك وانحنى ... لـرفيع قـدرك سـائر المعمـور
وأراك قـد حمّلت مـن أعبـائهـا ... مـا فـوق طـاقـة ألبهـا وثبير
طهّـرت وجـه الأرض من بغي الـورى، ... ولـربّ مـاء كـان غير طهـور. . .

شعر عبد المحسن الكاظمي :

في شعر الكاظمي جزالة وفيه جرس موسيقيّ عذب كأنّه صدى من ألحان الأجيال الغافية في الصحراء. ولكنّك تفتقد في ذلك الشعر تلك الطراوة وذلك الوهج اللذين تلمسهما في شعر المجدّدين من معاصريه كشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي. ولعلَّ الأمر يرجع إلى تطويله في قصائده وتكراره للمعاني واستعماله لحوشيّ الألفاظ وضيق آفاقه وثقافته القديمة. فإذا حلّلنا قصيدته :

سيروا بنـا عنقـاً وشـدّا ... سيروا بنـا ممسى ومغـدى

نجد أنها في أبياتها الستة والتسعين لا تخرج عن حثّ الأمة على التقدم والسير إلى الأمام ومجانبة التخلّف وتحفيز الهمم والالتفاف حول الوطن.

تفتّحت شاعرية الكاظمي واكتملت في العراق في أواخر القرن التاسع عشر قبل رحيله إلى مصر ومعايشته للنهضة الأدبية التي حمل لواءها البارودي وإسماعيل صبري وخلفاؤهم من بعدهم، فكان أقرب إلى شعراء عصر الانحطاط المتأخّر كحيدر الحلّي وإبراهيم الطباطبائي وجعفر الحلّي ومحمد سعيد الحبّوبي. وقد أفاد من اتصاله بجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في التطلّع إلى آفاق فكرية جديدة كالنزوع إلى الحرية والدعوة إلى النهضة والعلم والعدالة والاستقلال والدفاع عن الإسلام وذكر الشرق، وهو الاصطلاح الذي انتشر في مصر سابقاً لذكر العروبة وانتقل منها إلى العراق.

قال الكاظمي :

مهما تبـاعـد فهـو منك قـريب ... يـوم لـه بين الضلـوع دبيب
لا فـرق بين المشرقين سـوى الـذي ... يصفـو بـه هـذا وذاك يشـوب
هيهـات يصبيني سـوى حـرّيـة ... يصبو الشبـاب لـذكـرهـا والشيب
حـريـة الأمصـار أنت حبيبـة ... في حبّهـا يستعـذب التعـذيب
يـا حبَّـذا يـوم الجمال وحبـذا ... يـوم الـوصـال وأجـره المكسـوب
يـوم يعـود بـه لنـا استقـلالنـا ... ويـردّ فيـه حقّنـا المغصـوب
حتّـام نحتمـل المذلّـة طـوعـاً ... ولنـا بـآفـاق البـلاد وثـوب؟
لا فـاتنـا عـزّ الحيـاة ولا عـدت ... شعبـاً تُـذِلُّ بها الحيـاة شعـوب

وقال :

سيروا إلى الـــــــوطـن الموقّـى بــــالنقــــائب والمفـــدّى
يـــا حبّـــذا وطـن أعـــاد الفضـل في الـــدنيـــا وأبــدى
يـــا حبـــذا وطـن يغنّـى بـــاسمـــه أبـــداً وَيُحْدَى
أوطـــاننـــا أرواحنـــا بـل إنها بـــالـــروح تفــدى
أبـــداً نطـــالب بـــالحقــوق حقـــوقنـــا أو نستردّا
أبـــداً نجـــاهـــد دونها ونكـــافح الخصـم الألـــدّا

وقال :

سيروا نُشِـــدْ لـــديـــارنـــا عــــدلاً يهدّ الظلـم هـــدّا
مـــا كـلّ مَن ســـاس الأنـــام قضـى فـــريضتهـــا وأدّى
شتّـــان مـن ســـاس الـــورى عــدلاً ومن بهم استبــدّا . . .
يـــا حبّـــذا العَلَـمُ الـــذي إن تقصر الأعـــلام مـــدّا . . .

ومن قصائده الشهيرة «العينيّة» التي تبلغ أبياتها ١١٤ عداً. يستهلّها الشاعر بمعنى عزيـز على شعراء الجاهلية، وهـو إدارة الطرف في الأرض البلقع والبكـاء على الطلول، وذكر الأحبّة الذين مضوا، والشوق إلى أيام القصف والهناء، والأسى لساعة الوداع. ثم يذكر سفره بالباخرة تاركاً المطايا في بواديها واقتحامه جيوش الأمواج التي ترتفع إلى عنان السماء، حتى وصوله إلى مصر، يجاذبه الحنين إلى وطنه في بـلاد الـرافدين والاستبشـار ببلوغه وطن الحريـة والنهوض. لكنه يشكو مقامه في دار الغربـة وضياع مثله في خضمّ الحياة الـدفّاقة. ويمضي إلى الإشـادة بمصر وأهلها الذين يصفهم بأنهم خير أمـة يتفرّع منها الخير والفضل والسؤدد. ويدعوهم إلى شحـذ هممهم وشدّ عرى أوطانهم والدفاع عن عزّهـا ومنعتها. ويتلذّذ حينـاً بالفخر بنفسه، وهـو الأريحيّ السّميذع الذي يـزعزع فكره أبطال الوغى، ويقول :

وكيف أخـــاف الخطب يســـودّ ليلـــه وأسيـــاف عـــزمي في دجـى الخطب لُمَّعُ
فكـم غمّـــة كشّفتهـــا وعظيمـــة تسنّمتهـــا، والليل أســـود أسفـع

وينتقل من ذلك إلى مهاجمة المنـدّدين بالإسـلام المتحاملين عليه من رجـال الغرب، وفي مقـدمتهم السياسي الأديب الفـرنسيّ جبرائيل هـانوتـو Gabriel Hanotaux الذي تعرّض للدين الإسلامي فردّ عليه محمد عبده وأفحمه.

والحقيقة أن الكاظمي في شعره جسر يصـل عصر الانحطاط بعصر النهضة الجديد ويضفي ثوباً من الديبـاجة القديمة على المعاني التي أخذ يردّدهـا شعراء الأمة المتفتحة على حياة العصر، المتحفّزة إلى الوثوب واليقظة من غفوة الأجيال.

أحمد الفخري

شاعـر الموصل وقاضيهـا السيد أحمد الفخـري، وهو ابن محمود بـن محمّد أمين بن محمّـد بن حامـد بن فخر الـدين بن يحيى، ينتهي نسبه إلى النقيب السيـد فخر الـدين الأعرجي الحسينـي. ولد في الموصل سنة ١٨٥٨ وتعلّـم في كتاتيبها وحفظ القـرآن، ثم درس العلـوم العربيـة والـدينية على علماء عصره كـالملا علي الحصيري وعبـد الوهـاب الجوادي والشيخ محمد النقشبندي. قال الشعر وهـو يافع، ثم برع فيه وتفوّق. ووظّف في المحكمة الشرعيـة كاتباً وأصبح رئيسـاً لكتّابها ودرّس في المدارس الأهلية والـرسمية. وعيّن على أثر احتـلال الموصل قاضياً (أول أيـار ١٩١٩) ونهض بمنصب القضاء حتى عيّن وزيـراً للعـدليـة في وزارة جعفـر العسكـري (٢٢ ت٢ ١٩٢٣ ــ ٣ آب ١٩٢٤). وانتخب نـائباً عن بلـده في المجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٤) وأعيـد بعد تخليـه عن الـوزارة قاضيـاً للموصل (٢ أيلـول ١٩٢٤) حتى تأليف مجلس الأمة العـراقي إذ اختير عضـواً في مجلس الأعيان (تموز ١٩٢٥). وأدركتـه الـوفاة في الموصل في ٩ تشرين الثـاني ١٩٢٦.

وقد عني بجمع شعره المتفرّق الأديب الفـاضل السيد علي العلوي الذي استطاع أن يدوّن له نحواً من ١١٠ قصائد ومقطوعـات في زهاء ٢٤٢٠ بيتاً. وصفه السيد العلويّ فقـال: «كان وسيم الطلعـة، معتدل القـامة، عـذب الصوت، كـريم الخلق، أنيس المحضر، سريع الخاطـر، حـاضر البـديهة، يـرسـل النكـات من دون تكلف فيطـرب لبراعتها الحضور، متواضعاً، محبّاً للغناء، مغرماً بالصوت الجميل».

كانت الموصل في القـرن التاسع عشر وأوائل القـرن العشرين في عزلـة وانزواء، فلئن كانت جزءاً من العـراق، لقد كانت أقرب إلى حلب منها إلى بغداد. وكـانت الرحلة إلى بغداد بطـريق القوافل أو طريق الأرمـاث النهرية طويلـة شاقة، فكـانت الحدباء أوثق صلة بحلب الشهبـاء تتصل بها بأسباب تجاريـة وأواصر فكريـة وروحية. فـلا بدع أن حـرمت الموصل النهضـة الأدبية والـوطنيـة التي لاحت بـوادرها في بغـداد قبيل إعـلان الدستور العثماني.

إن بلدة أبي تمّام قـد غطت في نوم عميق خـلال عصور الانحطـاط، فلم ينشأ فيها سوى نظـامين لهجوا بـالمدائح والمراثي، حتى إذا ما بزغ فجـر القرن التـاسع عشر، ظهر شاعـران لهما شأنهما في ذلك العهد، وهما عبـد الباقي العمـري وعبد الغفـار الأخرس، لكن كليهما نزح إلى بغـداد وتفتحت شاعريتـه فيها. وعرفت الموصل بعـد ذلك شعراء مقلّـدين كأحمد عزت الفـاروقي (المتـوفى سنة ١٨٩٢) والسيـد شهـاب الدين العلـوي المليسي (المتـوفى سنة ١٩٠٧) وداود الملاح (المتـوفى سنـة ١٩١١) والشيخ محمّد ضيـاء الدين الشعار (المتوفى سنة ١٩١٢) ونجيب جلميران (المتوفى سنة ١٩١٧).

في تلك البيئة المغلقة المنطوية على نفسها نشأ شاعرنا الفخري وقال الشعر، فنظم المدائح الإلهية والنبوية ونسج القصائد الصوفية والوجدانية وأجاد في الوصفيات والإخوانيات وجانب من المدائح والمراثي والموشحات والتخاميس. وقد أدرك القرن العشرين وأصبح وزيراً وعيناً في الحكومة الوطنية وعاصر الزهاوي والرصافي وسائر أساطين النهضة الأدبية الحديثة، لكنه كان أقرب بشعره إلى عصر الانحطاط السالف وأدنى نسباً إلى ابن الفارض وأقرانه من شعراء التصوّف والغزل الأقدمين، ذلكم أحمد الفخري الذي يقول:

هـذا الغـرام وتلـك حـاجـر ... والـدمع ليس عليـه حـاجـر
وبـروقهـم لاحـت فـما ... لسحـاب دمعك غير مـاطـر؟
أخـلا فـؤادك أم حـلا ... لـك غيرهم أم أنـت صـابـر؟
أم مـاء عينـك جفّ مـن ... حـرّ الصبـابـة في الضمائر
أم رمـت كتمان الهوى ... والحبّ ليس عليـه سـاتـر
وإلى مَ تكتـم لـوعـةً ... شهـدت عليك بها الظـواهـر
وعلى مَ لا تبـدي الجوى ... أمـن الملامـة أنت حـاذر؟
إن كـان حبّك صـادقـاً ... فـدع العـذول ولا تحاذر
اي والـذي أحيـا بأسرار ... الهوى منّـي السّرائر
أنـا عـاشق أنـا مغـرم ... أنـا ذو هـوى في القلب ثـائر
كيف الحيـاة بـلا هـوى ... إنّ الهوى أحـد العنـاصر
في الحبّ طـاب تهتّـكي ... فهتكـت عـن سرّي الستـائر
لا أرعـوي، لا ألتـوي ... لا أنثني بمـلام زاجـر
مـاذا يقـال سـوى الـذي ... قـد قيل في مجنـون عـامـر؟

وليس من ريب أن الشعر الصوفي في العهود المحافظة المتزمّتة تنفيس عن المشاعر الملتهبة، فإذا قرأت شعر الفخري الوجداني لم تدر أين ينتهي الحبّ الإلهي ليبدأ الإحساس العاطفي.

وشعر الفخري راتب النسق، مفرد النغم، قديم الوحي في معناه ومبناه، بيد أنه يفيض بالبوارق الوجدانية التي تهزّ النفس واللوامع الفكرية التي يرتاح لها الذهن. يختلط فيه الغزل المكرّر المبتذل بعاطفة حب صوفية تنبثق من صميم القلب، وتعبق موشحاته بأنفاس الأندلس الزكيّة.

يؤمن الفخري بالحبّ ولا يخشى فيه لوم اللائم ولا تقريح العذول، فاستمع إليه يقول:

إن كـان حبّك صـادقـاً ... فـدع العـذول ولا تحاذر

وهو يجاهد نفسه في الغرام فيوماً يذعن لها ويوماً يتغلب عليها:

لاح للنفس غيّهـا من هـداهـا ... ونُهاهـا عـن الهوى قـد نهاهـا
وصحت بعـد سكـرة الجهـل، لكن ... بعـد فيهـا بقيّـة مـن صبـاهـا
هـي تـأبـى إلاّ الغـرام وأأبـى ... أن أرى الـذلّ بـاتبـاع هـواهـا
فتراهـا طـوراً تميل عِنـاني ... وتـراني طـوراً أطيل عَنَـاهـا

وقد نقل تفجّع الخنساء ونحيبها إلى لوعة العشق والهيام فقال :

ومـا ذرَّ قـرن الشمس إلاّ ذكـرتها ... وأذكـرهـا في وقت كـلّ غـروب
وأذكـرهـا مـا بين ذاك وهـذه ... وبـالليـل أحـلامي وعنـد هبـوبي
وقـد شفّني شـوقي وأبـلاني الهوى ... وأعيـا الـذي بي طبّ كلّ طبيـب
وأعجب أني لا أمـوت صبـابـةً ... ومـا كمـد في عـاشق بعجيـب
وكـلّ محبّ قـد سـلا، غير أنني ... غـريـب الهوى، يـا ويح كلّ قـريب!
وكم لام فيهـا مـن أخ ذي نصيحـة ... فقلـت لـه : اقصر، أنت غير مصيـب
أتأمـر إنسـانـاً بفُـرقـة قلبـه؟ ... أتصلـح أجسـام بغير قلـوب؟

وعارض ابن زيدون في نونيّته فقال :

جـدّ الهوى ومضـى حكم القضـا فينـا ... فهل لنـا في الضَّنى آسٍ يـواسينـا؟
هيهـات مـا مـن دواء للغـرام، فقـد ... عـالجت نفسي من داء الهوى حينـا
وكيف ننسـى حبيبـاً روحنـا امتـزجت ... بحبّـه وهـواه كـاد يضنينـا؟
قـد لاح كـالبـدر، والأبصـار شـاخصـة ... إليـه، فـاحتلّ دون الحيّ نـادينـا. . .

والموصل التي لبثت تغطّ في نوم هادىء هنيء متمسّكـة بأهداب التقوى والورع، لم تزل على مرّ العصور تلتمس متعها البريئة ونزهاتها الجميلة في زيارة قبور الأولياء والخروج إلى ضواحي دجلة التـي يسبغ عليها الربيع أثواب الخضرة والبهـاء لعقد مجالس الطرب والحبور بين الماء والخضراء وتحت زرقة السماء. فهذا محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل الذي نبغ بعد شاعرنا الفخري يصف أنس الربيع فيقول :

لقـد ألبست قـدّ الـربيع يـد المزنِ ... مـلابس خضراً ذات لـونٍ على لـون
تفتحـت الأكمام عـن كـل زهـرة ... وزهـرة قلبي في كمائم مـن حـزن
نسيت، ومـا أنسـى، بشـاطىء دجلـة ... لـواعـج وجـد حـرّكتهـا يـد اللّحن
نسيت، ومـا أنسـى، أحـاديث صبـوةٍ ... يـردّدهـا سجـع الحمائم في أذني

ولئن كـان العبيدي قـد تـذكـر حبّه في مجالس الـربيع البهيّـة فـاستسلم إلى الوجـد والأسى، إنّ الفخري قد ألقى بروحه في تيّار الفرح والجمال الشامل فقال :

ويـوم تجلّى في الـربيـع نهاره ... بُعَيْـدَ حَيـاً أحيـا الـربـوع انهماره
وقـد كست الأزهـار حلّـة وشيهـا ... أديم الحِمَـى فـازدان منهـا اخضراره
فنـزّهـت في وجـه البسيطـة نـاظـري ... فـراق لـديـه حسنـه وازدهـاره
وجلتُ بـأكنـاف الحمى متنـزّهـاً ... وقـد فـاح نشراً شيحـه وعـراره

وملت أريح النفس في ظل ربـوةٍ يحلّي لجينَ الـورد فيهـا نضـاره

وهل يتمّ السرور في مجالس الطرب بغير العود والمزهر؟ فلنصغ إلى شاعرنا يقول :

لـو تسمع العـود تـدري مـا الهوى وتـرى للـروح أسرار وَجـدٍ أودعـت وتـرا
أريشـة بيـد العـوّاد تخفـق أم ذي مهجـة الصّبّ ، ليت الصبّ قد شعـرا
وتلك أوتـار عـود دُقَّ فـاضطـربت أم ذي عـروق شجيّ بـالهوى استعـرا
يجسّ جسّ طبيب نبض ذي مـرضٍ عـوداً يبثّ أنينـاً يفلـق الحجـرا

والمعنى في البيت الثاني (أريشة بيد العوّاد . . .) ينظر إلى قـول الشاعر الدكتور نقولا فيّاض :

ليس «البيـانـو» الـذي بـاتت تكهـربـه يـداك أطـوع مـن قلبي وأفكـاري
لَمَسْتـه فتمشى السحـر بي فكما تهتـز أوتـاره تهتـزّ أوتـاري
أصـابـع العـاج هٰـذي تلعبين بها أم تلعبين بـأسماع وأبصـار؟

وقديماً قال ابن الرومي :

غلط النّـاس ، لست تلعب بـالشّطـرنج لكـن بـأنفس اللّعبـاء
لك مكـر يـدبّ في القـوم أخفى مـن دبيب الغـذاء في الأعضـاء

والفخري ، بعـد ذلك ، شاعر مـؤمن ، سعيد بإيمانه ، قـويّ النفس بالله ، فلنستمع إليه يتضرّع إلى العزّة الإلٰهية ويقول :

أيـا ربّ ، مـا لي غير لطفك خيمـة تقيني ممّـا أتّقيـه من الـدهـر
أيـا ربّ ، ظلّلني بفضلـك واحْمِـني بعـزّك واشرح لي بنـور الهدى صـدري
أيـا ربّ ، واضرب لي سرادق عـزة على عمـد التـوفيـق في طنب النّصر
أيـا ربّ ، وامـدد لي رواق عنـايـةٍ على خيمـة العليـاء في سـاحـة الفخـر
أيـا ربّ ، واجعلني بفسطـاط نعمـةٍ أعيش بها في راحـة سـائر العمـر

ولقد رأينا شاعرنا مولعاً بالبديـع مغالياً في المحسّنات اللفظية ، يطرّز شعره بالتشابيه والاستعارات الكثيرة . ففي هذه الضراعة إلى العزة الربانية جسّم الرحمة والعناية والتوفيق والنعمة بالخيمة التي تقي من الخوف وتؤمّن من الشر والعذاب ، فذكر السرادق والعمد والطنب والرواق . ورأيناه في قصائد أخرى يقرن فعل النهي بالنُّهى والحجى فيقول :

ونُهاهـا عـن الهوى قـد نَهَاهـا

ويجمع فعل الرؤية بالوتر قائلاً :

لـو تسمع العـود تـدري مـا الهوى وتـرى للـروح أسرار وجـد أودعـت وتـرا

وأمثلة ذلك كثير في شعره .

ومن لطيف شعره في النزاع بين هوى النفس وحبّ الله قوله :

عجبت لها تجفو، وتدري بوصلها   حياتي وأني حيث تجفو شهيدها
فقال النهى: لا تعجبنّ فحب ما   سوى الله نار في حشاك وقودها
سأترك للمولى سواه، فإن تكن   حياتي على خَلْق فلست أريدها

لكنه لا يلبث أن يستسلم إلى الهوى فيقول:

كلّ يوم يموت بالشوق قلبي   وبذكرى الحبيب يبعث حيَّا
أيها الناصح الخليّ اتّبعني   في الهوى أهْدِكَ الصراط السّويّا
كيف يصحو ويقبل النّصح صبّ   خامرته من الغرام حُمَيَّا؟

وامتزجت روحه بروح الحبيبة هياماً:

روحان بعضهما ببعضٍ هامتا   وجداً، ولا إحساس للأشباح
روح إلى روح تزفّ، وإنما   ذاك الزفاف بعالم الأرواح

ومن موشحاته الجميلة أنشودة الحبّ التي قال منها:

ذهبت في الكون أنفاس الصَّبا   بحديث سلسلته أدمعي

سلسل الدمع حديث الشوق عن
مقل أحرمها البين الوسن
عن فؤاد يوم جرعاء افتتن

بهوى من جرّعوه العطبا   بنواهم جرعاً في جرع

والصبا أهدى حياة الأنفس
إذ بعَرْف من شذاهم قد كُسِي
ثم عادت نفسه من نفس

بسموم وهي تحكي لهبا   عن سعير الشوق بين الأضلع...

ونراه في هذا الموشح وهو الشاعر الوجداني يغرق في الصناعة ويلبس ثوب المحدّث الفقيه. ثم يعود إلى حديث الهوى والحنين فيقول:

لم أكن قبل غرامي أعلم
أن جرح القلب لا يلتئم
لائمي، بالله جز حيّهُمْ

وتبصّر ثم عنّف من صبا   ليس من يبصر كالمستمع

نظرات أعقبتها حسرات
في فؤادي كم لها من زفرات
هذه العين وتلك العبرات

فاسألَنْها زند وجدي هل خبا   مذ صبا قلبي لوادي الأجرع؟

أنـــــــا والليـل، إذا الليـل سجـى،
في هـــــواهـم بين خـــــوفٍ ورجـــــا
فـإذا مـــــا رقـــــد النـــــاس دجـى

وقضـى بـــــــالأمـن كـلٌّ مـأربـــــا أتجافى عـن لـــــــذيـــــــذ المضجـع

لا تقـل: غـــــاب ولا قـــــربٌ ولا
كـلّ بـــــدر بـــــازغ إن أفـــــلا
هل تـــــرى أنّـــــا قطعنـــــا الأمـــــلا؟

لا، وإنّ عـــــزّ لقـــــاهم مطلبـــــا مـــــا قلعنـــــا منـــــه سنّ الطمـع

إنّ أحمد الفخري قـد عاش في العصر الحديث، لكنه في شعـره وغزله وتصوفـه كان يمتّ بصلة النسب الـروحي إلى أصحاب الموشحات الأندلسيّـة وإلى ابن الفارض وابن النبيه من أبناء القرون الخالية.

علي البـنّاء

الأُسْطَهْ علي البنّـاء الشاعـر الأمّي البغدادي تـرجم له علي عـلاء الديـن الألوسي في «الدر المنتثر» ونشر جانباً من شعره، قال:

«هـو أعجوبـة بغداد في هـذا العصر، فإنـه ينظم الشعر مـع كونـه أمياً لا يقـرأ ولا يكتب، ومشغول بصنعة البناء بعمله مكتسب».

ولد علي البنـاء سنة ١٨٤٩، وامتهن حرفـة البناء، ونظم الشعـر الفصيح. وكانت وفاته ببغداد في ٢٤ نيسان ١٩١٨.

وشعره تقليديّ جامد لا تتعدّى أغراضه المدح والرثاء وغيرهما. منه قوله:

أوجهك هـــــذا أم سنـــــا الشمـس لامع من الشرق بـادٍ أم هـو البـدر سـاطع؟
وذاك شـــــذاك النـــــافع العطـــــر نـــــافح ببغـــــداد أم نـــــوع من الطيب ضـــــايع
وهـــــذي معـــــاليك التـي وازر العلى عـــــلاهـــــا فأضحت وهـي شهب طـــــوالع
يسرّ حـــــديث المجـــــد يـــــوم إيـــــابـــــه بمـــــدحي لعليـــــاهـم تسرّ المســـــامع
لقـــــد كـــــان وجـــــه العيش أسـود كـــــالحاً ببعـــــدك فهـــــو اليـــــوم أبيـض نـــــاصع

وقال في قصيدة له يمدح الوالي ناظم باشا عند قدومه إلى بغداد:

إليـك من الأمّـيّ وافتك مـــــدحـــــة سرى ذكـرهـــــا في نجـدهـــــا والتهـــــائم

وقد دعي أحياناً علي المعمار البغدادي.

ذكـر لنـا التاريـخ الأدبي عدداً من الشعـراء الأميين منهم طـرفـة بن العبـد وغيره في الجاهليـة. أما في العصر العبـاسي فكان أشهـرهـم نصر بن أحمد المعـروف بالخبـز أرزّي

المتوفّى سنة ٩٣٩م. كان يخبز خبز الآرز في مربد البصرة وينشد أشعاره الغزلية والناس يزدحمون على دكانه يأكلون خبزه ويستمعون إلى شعره.

عبد القادر العبادي

الشاعر عبد القادر بن عبد الله البزّاز العبادي المعروف بـ «عبد القادر شنّون»، عرف بالهجاء المقذع وروح الفكاهة والمجون، قال إبراهيم الواعظ:

إن كنت تهجو بأبيات منمّقة فإنني سوف أهجو هجو شنّون

ولد في بغداد سنة ١٨٦٥، ودرس على نعمان خير الدين ومحمود شكري الألوسيّين. ومال إلى النظم والظرافة شاباً، فلازم الفكه البغدادي الشهير عبد الله الخياط المتوفّى سنة ١٨٨٩ وحضر معه مجالس الأشراف ودواوين رجال الفضل والأدب.

ورحل إلى مدن العراق كالحلة والبصرة وحواضر الخليج، وزار الكويت والبحرين والحجاز انتجاعاً للرزق، ومدح الشيوخ والسراة. وعيّن قاضياً للقطيف فأصبح، كما قال عبد الله الجبوري في كتابه «من شعرائنا المنسيّين» (١٩٦٦)، ممدوحاً بعد أن كان مادحاً. لكن القضاء في تلك البلدة النائية لم يستقم له إلا شهوراً، وعاد إلى بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨.

عمل في الصحافة فتولى تحرير القسم العربي من جريدة الإرشاد التي أصدرها حسين فريد في شباط ١٩٠٩. ثم مضى إلى البصرة وحرّر جريدة إظهار الحقّ (أول حزيران ١٩٠٩)، وكان صاحبها قاسم جلميران. وعيّن كاتباً في المحكمة الشرعية براتب حسن، فقال ـ على ما رواه عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق (١٩٦٢): «إن حظّي لا يحتمل مثل هذا الراتب، وهو مؤذن بقرب أجلي واستيفاء رزقي». وقد توفي بعد أشهر قليلة في البصرة في ٣ تشرين الثاني ١٩١٠ مصاباً بمرض الهيضة.

عاش عبد القادر شنّون بائساً عاثر الجدّ، ومات منسياً وتفرّق معظم شعره.

ولعلّه كان من حيث الفقر وسوء الحظّ والظرف والإقذاع في الهجاء أشبه بالشاعر المصري محمد إمام العبد (١٨٦١ ـ ١٩١١) صاحب حافظ إبراهيم، الذي قال:

أنا ليل، وكل حسناء شمس، فاقتراني بها من المستحيل!

شعره:

قال عبد القادر العبادي في جسر بغداد سنة ١٩٠٢:

هي الحضارة ما تعلو به الرتب وما سوى العدل في الدنيا لها سبب

وقد تخلّص إلى مدح السلطان عبد الحميد الثاني ووالي بغداد نامق باشا الصغير، ثم ذكر تشييده جسراً على دجلة:

كل البدائع جاءت في صناعته ... مستبدع الصنع، مأموناً به العطب
كأنه، ووضوح في طرائقه، ... مهنّد منتضى في متنه شطب
إن قال واصفه: فاق الحديد، فلا ... تعجب، فربّ حديدٍ فاقه الخشب

إلخ...

وقال في منارة سوق الغزل، وهي من بقايا جامع الخلفاء:

عُجْ بالرصافة وابكِ ربعها البالي ... وقف بجامعها إن كنت ذا بال
وانظر بعينيك في أطراف ساحته، ... هلاّ تجد أثراً من شامخ عال
فذي منارته في الجوّ شامخة ... كم أخبرت عنه في حالٍ وفي قال
جميلة ما رأى الرائي كرفعتها ... قامت على ساق تبجيل وإجلال
غريبة الشكل لا زالت تخبّرنا ... تغيّر الدهر من حال إلى حال
قد عشعش الذلّ في أعلى دوائرها ... من بعد عزّتها في حال إقبال
تمنطقت باسم بانيها مفاخرة ... أمثالها في زخاريف وأشكال

لقد أحبّ الكتاب واتخذه صديقاً وسميراً فقال:

كتابي، لا أروم سوى كتابي، ... فكم خفّفت فيه هموم ما بي
أجيل الطرف فيه فيجتلي لي ... مخائل حكمة في كلّ باب
إذا غمزت قناة الدهر قلبي ... أداوي في مباحثه مصابي
لئن أخطأت في فكري ببحثٍ ... ففيه قد هُدِيتُ إلى الصواب
وإن شاهدت من قومي جفاءً ... يسلّيني بأقوال عذاب

ولا ندري هل ملك كتاباً في حياته، وهو البائس الفقير، أم كان في المتربة كصاحبه جعفر الحلّي الذي قال:

ملكت فكرتي بِكار المعاني ... وإلى الآن ما ملكتُ كتابا!

وكان عبد القادر شنّون كثير التحسّر على آثار المجد العربي، يبكي على أطلالها ويسترجع ما مضى من صورها وأشكالها، فقال في المستنصرية:

يا دار، ما بال ربع العلم ينعاكِ ... فما دها في الورى أعلى مزاياك
يا دار علم عفت منها معالمها ... يد الخمول، فمن أفتى فأغواك؟
لهفي على ربعك المأنوس إذ خليت ... منه أفاضل حلّوا في ثناياك
لهفي على حلقات العلم ما صنعت ... أبحاث علمهم في ظلّ جدواك

وقال يندب أطلال سامراء:

هــذي مبــانيهــم، فأيـن البــاني؟ فتكـت بها وبــه يــد الحدثــان
خلت الــديــار فليس تلقى بينهــا غير الــوحــوش ومجمع الغــربــان
غــدرت بها أيــدي الــزمــان، كأنها لم تحوِ مـن حـــور ومـن ولـــدان

وأعلن الـدستور العثماني فـاستقبلـه شاعـرنـا، كما استقبلـه غيره من رجال الشعـر والأدب، بالبشر والأمل، وحيّا مطلع عصر الحرية فقال:

ألا إن عصراً جــاء بــالحقّ مشرقــاً هــو العصر لا عصر من الظلم أغبر
رعى الله عصراً فيــه للحــرّ راحــة يقــول فــلا يخشـى الأنــام ويظهــر
يبيت قــريــر العين، غير مفكّــر بما كــان قبل اليــوم فيــه مفكّــر

عبد المهدي الحافظ

عبد المهدي بن صالح بن حبيب الحافظ من أعيان كربلاء وتجارها وأدبائها، ينسب إلى أسرة خفاجية استوطنت المشهد الحسيني. وقد ولـد في كربلاء ودرس في معاهدها، وأخـذ العـروض عن الشـاعـر الشيخ كـاظم الهرّ، وتعلم اللغـات التركيـة والفـارسيـة والفرنسية.

انتخب رئيساً لبلدية كربلاء، ثم ناب عنها في مجلس النواب العثماني من كانون الأول ١٩٠٨ إلى كانون الثاني ١٩١٢. وتوفي بكربلاء في شباط ١٩١٦.

نقل عباس العزاوي في الجزء الثامن من كتابـه «تاريخ العراق بين احتلالين» إن عبد المهدي الحافظ كان ذكياً ذا سلطة وجرأة، تـزعم في أثناء الحرب العظمى حركة انتقاض على السلطـات التركيـة، فأهين الموظفـون وأخــرجـوا من الحاضرة ولم يعـادوا إليهـا إلا بمساعدة حكومة بغداد.

وترجم له سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعـراء من كربلاء»، فقال إنه شبّ شاعراً متوقد الـذهن، بليغ البيان، واسع الاطلاع، حفظ عيون الشعر العـربي، وكان خطيباً مفوّهاً. وكان ديوانه المطلّ على الـروضة الحسينية محط أنظار رجالات البلد وملتقى أهل الأدب...

امتاز شعره بالرقة والعاطفـة المرهفة. ونظم قصائدة في الغزل والتشبيب على الطريقة القديمة، منها قوله:

إلى الله أشكــو مــا أقــاسي من الجوى غــداة استقلّت بــالحبيب ركــائبــه
وأقفــر ربع طــالما كــان حــاليــاً بــه فخلت أكنــافــه ومــلاعبــه
فبتُّ أقــاسي ليلـــة مكفهــرّة وليس ســوى الشِّعْـرَى بها مَنْ أخـاطبـه
أكفكف فيهـا الـدمع، والـدمع مـرسل كغيـث همى لما ارجحنّت كتــائبــه

وأنـدب عيشـاً حـرّمتـه يـد النّـوى وعـاث بـه من جـائر الـدهـر لاعبـه
وأذكـــر داراً طـــالما بتّ آنســـاً بها بأغنّ مـاطـل الـوعـد كـاذبـه
غـريـــر إذا مـــا قصّر الليـل وصلـه أمـدّت ليـاليـنـا القصـار ذوائبـه . . .
فمن لي بـــربع غـــاب عنـــه ربيعـــه ومَن لي بقلـب ودّعتـــه حبـــائبـــه

حـدّثني أحمد حامـد الصرّاف أن الحاج عبد المهـدي توفّي كهـلاً وكان ينظم الشعـر الرائق باللغة الفارسية .

محمد رضا الأصفهاني

الشاعر الفقيـه محمد رضا الأصفهاني النجفي ، وهو ابن محمد حسين بن محمـد باقر بن محمّد تقي . عـرفت أسرته بالزعـامة الدينية في أصفهـان ، وأمهم بنت الشيخ جعفر كاشف الغطـاء . وجدّه الشيخ محمد تقي صـاحب كتاب هدايـة المسترشدين في شرح معالم الدين .

ولد محمـد رضا في النجف سنـة ١٨٧٠ ودرس في معاهـدها . وقـد نظم شعراً كثيراً وألّف كتباً منها : نقض فلسفة داروين (في جزءين) ، الـردّ على البهائية ، وقاية الأذهان (في أصول الفقه) ، إلخ .

توفّي بمدينة أصفهـان سنة ١٩٤٣ . وكانت له في شبابه صحبة ومطـارحات شعرية مع السيد جعفر الحلّي المتوفى سنة ١٨٩٧ ، فكتب إليه الأصفهاني معاتباً ومداعباً :

حللـتُ حِمى الحلّيّ ألتمس القِـــرى فكـــان قـــراه الهجـــو والشتـم والسّبُّ
جـــزاء سنمار جـــزاني ، ولم أكـن لأصحـب إلاّه إذا خـــانني الصَّحْـبُ
ولم يـــرعَ لي حـقّ الإخـــاء وسبّني ومـــا كـــان لي إلا محبّتـــه ذنب . . .
وكـــان لآمـــالي ربيعـــاً ومـــربعـــاً إذا مـا الـورى قـد عمّهـا القحط والجدب
فقـل لأبي يحيـى ، وإن هـــو ملّني : وإحســانِكـم مـــا ملّكم منّـي القلب
(صـــدودكم وصـل وسخطكم رضـــا وجـــوركم عـــدل وبغضكـم حبّ)

فأجابه الحلّي بقصيدة قال منها :

وحقّكُـم مـــا ازورّ لي عنكـم جنبُ ولا حلـن أحـــوالي ولا انقلب القلـب
صبـوت إليكـم قبل أن أعـرف الصّبـا ومـا كنـت لـولا طيب إحسـانكـم أصبـو
رأيتكـــم أحنـــى وأعطـــف مـــن أبي عليّ وأوفى الصحب إن خـــانني الصحب
فقلت لنفسي : هـــا هنـــا ويحكِ احبسي فهـذا المكـان الـرحب والمنـزل الخصب

وقـال في الأصفهـاني بعض أدباء النجف : «وللشيـخ آغا رضـا . . . حظ وافـر من الأدب ، وباع طـويل في النظم والنثر ، وشعر رائق جمع فيـه بين ظرافة الفرس وفصـاحة العرب» .

وقال الـدكتور علي الوردي في مقدمـة الجزء الثالث من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» إن مجلة المقتطف كـانت تنشر مقالات متسلسلة في شرح نظرية داروين بقلم الـدكتور شبلي شميل. وحين وصلت المجلـة إلى العراق، انبرى لها بعض علماء الدين في النجف يردّون عليها ويفنّدونها، وكان أنشطهم في ذلك الشيخ آغا رضا الأصفهاني والشيخ جواد البلاغي، وألفوا في ذلـك كتباً ضخمة بأسلوبهم الجدلي. وقد أرسل أحدهم كتـابه في نقـد النظرية إلى شبلي شميل، ظنـاً منه أن هـذا الرجل سيقتنع بسقم النظرية بعد قراءته للكتـاب وسيعلن تركه لها، لكن شبلي شميل أرسل إليه جواباً مقتضباً هذا هو: «عذرك جهلك، والسلام».

عبد الحسين الحويزي

الشاعر الشيـخ عبد الحسين بن عمران الحويزي ولد في النجـف في حزيران ١٨٧٠ من أسرةٍ هاجر جدّها الأعلى من الحويزة وأقامت في الغريّ منذ سنة ١٨٣١. درس على إبراهيم آل بحر العلوم الطباطبائي ومحمد حسين الكشوان وغيرهما من العلماء والأدباء.

وامتهن البزازة تجارة والـده، ثمّ بارت تجارته فمضى إلى كربـلاء في سنة ١٩١٧ وأقام فيها يعاني البؤس وشظف العيش ويتكسّب بشعره.

وتـوفي بكـربـلاء في آب ١٩٥٧. وقـد نشر جزآن من ديـوان الحويـزي (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)، كما نشرت له ملحمة باسم «فريدة البيان» (١٩٥٥) في مدح الرسول الأعظم وآل البيت.

وشعر الحويزي تقليدي قديم الطابع مـواضيعه المدح والرثاء والغزل والهجاء والفخر وما ماثلها من الأغـراض. وذكر سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعـراء من كربلاء» أنه عاصر الحبـوبي والزهاوي والرصـافي والهنداوي وغيرهم من مشاهير الشعراء وكـانت له معهم صولات وجولات في ميدان الأدب.

من شعره في ثورة العشرين:

أيطلق شعبنـــا للـــزحف ســـاقـــا ... وكم خطـب لـــه الحدثـــان ســـاقـــا
لقـــد عقـــد الضغـــائن فيـــه خصم ... بخـــدعتـــه ليحتـلّ العـــراقـــا
فـأورى فتنـــــة عميـــــاء شبّـت ... ليصلي حـــزب جيرتـــه احتراقـــا

إلخ...

الملاّ عثمان الموصليّ

من أذكياء المكفوفين وآيات الفطنة وحسن التصرّف، الملا عثمان الموصلي المولويّ، كان حافظاً مقرئاً وموسيقياً شاعراً يجيد اللعب بالشّطرنج والعزف على العود وآلات الطرب.

وهو عثمان بن عبد الله السقّاء ابن فتحي بن عليوي آل الطحّان. ورجّح الدكتور عادل البكري، الذي ألّف كتاباً فيه سنة ١٩٦٦، أنه ابن عبد الله بن محمّد بن جرجيس من البوعلوان إحدى فرق الدليم.

ولد عثمان بالموصل سنة ١٨٥٤ لأسرة فقيرة، وفجع بوفاة والده وعمره سبعة أعوام، وكان قبل ذلك قد أصيب بالجدري ففقد بصره. وتعهده الوجيه محمود بن سليمان العمري بالرعاية، فهيّأ له حفظ القرآن وتعلّم مبادىء اللغة. ومضى بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٨٨١ بصحبة أحمد عزّت باشا ابن محمود العمري ودرس على الشيخ داود النقشبندي وبهاء الحق. ودرس المقام وأصول الغناء على مغنّي الموصل، ثم اتصل بالمشهورين من رجال الفنّ في بغداد وأخذ عنهم.

ذهب إلى الحجّ، ثم عاد إلى الموصل سنة ١٨٨٦، وقصد استانبول (١٨٨٩)، وقفل راجعاً إلى بغداد. وشدّ الرحال مرة ثانية إلى قاعدة السلطنة والخلافة، وعرج على مصر سنة ١٨٩٥ فلبث فيها خمسة أعوام طبع في أثنائها كتبه وأصدر في القاهرة مجلة «المعارف» (١٨٩٧).

وفي سنة ١٩٠٠ مضى إلى استانبول، ثم قصد الشام وبقي فيها من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٠٩. وأدّى فريضة الحج ثانية، وعاد إلى دمشق، ثم زار بيروت وإستانبول ودمشق وحلب، حتى عاد أخيراً إلى الموصل في حزيران ١٩١٣.

أخذ عنه فريق من المغنّين والموسيقيين في مصر ودمشق، منهم الشيخ سيّد درويش ومحمد كامل الخلعي وعلي محمود وأحمد أبو خليل القبّاني. وعلت له شهرة في دار الخلافة في قراءة الموالد وإحياء حفلات الذكر ومجالس الصوفية.

قدم بغداد في نيسان ١٩١٤ فعيّن شيخاً للقرّاء بمدرسة جامع المراديّة. وعرفت بغداد فضله، فكان محور حلقاتها وواسطة عقد أنديتها والمجلّي في محافل الأنس والطرب. ذكره إبراهيم الواعظ في «الروض الأزهر» بمناسبة عقد قرانه في تشرين الأول ١٩١٤، قال:

«ثم بعد أيام شرّف حضرة بلبل القسطنطينيّة ومصر والشام والعراق، الذي ذاع صيته حتى علا الآفاق، الأكمل اللوذعيّ والشاعر الألمعيّ المولويّ الملاّ عثمان أفندي الموصليّ حفظه الله إلى دارنا. وبعد تلاوة عشر من الكلام القديم، قال مؤرّخاً عام

القران، وفي الأبيات:

زفــافك، فـرع المصطفـى وابن مصطفى، زفـاف على الـزُّهْـر السّـواري بــه الفخـرُ
تـوخّيت شمس الفضل عن جعفـر الهدى غـــدت لك شمساً حيثُ أنت لها البـــدر
شقيقك إسماعيـل أبــدي لـــه الهَنَــا وذلك بعـــدي حيث لي عنـــدكم ذكـــر
بعـــرسك هتّـــان المنى قـــال أرّخـــوا: زفـــافك، إبـــراهيم، شـــحّ بـــه خير»

وقامت الثـورة العراقيـة سنة ١٩٢٠ فكـان للملاّ عثمان مـواقف فيها محمـودة شعراً وخطابة. وأدركته الوفاة ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣.

وقد أقيم لـه تمثال في مسقط رأسه الموصل سنة ١٩٧٠. رثـاه عند وفاته عبـد الرحمٰن البنّاء بقصيدة مطلعها:

رحلت، والصـــدر بـــالإيمان مـــلآن، في ذمّـــــــــة الله شيـخ العلـم عثمان

مؤلّفاته:

من مؤلفاتـه المطبوعة في استانبـول والقاهرة: الأبكار الحسان في مـدح سيّد الأكوان (١٨٩٥) تخميس لاميّة البوصيري (١٨٩٥) المراثي الموصليّـة (١٨٩٧) مجموعة سعادة الدارين (١٨٩٨). ونشر أيضاً: الأجوبة العراقية لأبي الثناء الألوسيّ (١٨٩٠) التر ياق الفاروقي (ديوان عبد الباقي العمري الفاروقي، ١٨٩٨)، إلخ.

قال عثمان الموصلي يمدح يوسف السويدي:

سلمنــــــا الخطـــوب ونلنـــــا المرام ومقـــــدامنـــــــا حـــلّ دار السّـــــــلام
تنـــاديـــــه أربـــــابنـــــا مـــــرحبـــاً وأهــــــلاً وسهــــــــلاً بمُــــزوي الأوام
بـــــآبـــــائه ضـــــاء نـــــور الهدى وفيـــــه سنحظى بصفـــــــو المقـــــام

وقال فيه أيضاً:

رســـالـــــة البرق قــــد جـــاءت مبشّرة أهــــدت إلينـــــا سروراً آخــــر الــــزمن
أنجى الإلٰـــــه عـــــزيــــز المصر وانكشفت عنـــه الظنـــون وخـــابــت فــرقـــة الضغن

ومن شعره الصوفيّ، قال:

بني المصطفـى، قلب المتيّم قـــد أبـــدى لكم فـــرط وجـــد لا لسلمى ولا سعـــدى

وقال:

قلبي بحبّكـم، والله قـــد جـــــذبـــــا، وظــلّ فيكم عـن الأغيـــــار محتجبـــــــا

ذكره الدكتور مصطفى جواد في بحث له عن الغناء والمغنين في العراق فقال: «... ومـلا عثمان الموصلي الضرير كـان من أعـلام المغنين والموسيقاريـن، وله فيهـا تأليف، ويحسن قراءة المولد النبوي.

وكان من الخطباء المصاقيع في الحركة الوطنية بالعراق. أدركته، وكان يضع على رأسه القلنسوة المولوية البيضاء من اللّبد، توفي قبل عدة سنين».

وقال محمد هاشم الرجب استاذ المقام العراقي في معهد الفنون الجميلة ببغداد:

«الشيخ عثمان الموصلي... وهو إمام أهل الفن في هذا المضمار (أي مضمار المقام العراقي) يبتدع القطعة ببراعة في الاسلوب ودقة في الأداء. يجيد الغناء بأفانينه، يرتجل الشعر الرصين في المناسبات حسب البحور اللازمة لكل مقام، كما يحسن الضرب على العود والنفخ بالناي والعزف على القانون. وهو كفيف».

وقال جلال الحنفي: «كان كثير الاسفار في البلاد والتجوّل فيها. وكان صوته غليظاً أجشّ وفيه بحّة ــ وإلى الملا عثمان تنسب عشرات التنزيلات والاشغال المولوية المستعملة اليوم في الموالد النبوية».

وذكره أيضاً ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون: أخبارهم ومجالسهم» باسم الشيخ عثمان البصير، فقال انه كان يتولّى تدريس علم التجويد والقراءات في جامع الخفافين ببغداد. ثم قال: «وكان حسن الصوت والأداء يخلب الألباب ويسحر العقول بنغماته الشجيّة، فضلاً عن كونه كان عالماً فاضلاً وشاعراً... وله إلمام في الموسيقى، وكان يحسن قراءة المولد النبويّ».

حدثني محمود صبحي الدفتري عن ذكاء الملا عثمان الموصلي فقال انه كان يعرف الناس من صوتهم أو لمسة يدهم.

قال الدفتري: سافر أبي فؤاد إلى استانبول سنة ١٩٠٥، فكان يجتمع دائماً بصديقيه موسى كاظم الباجه جي ووفيق الربيعي، فيأخذون الملا عثمان إلى بعض الأندية أو المقاهي ويتمتعون بفكاهاته ولطائفه. وذهبوا مرة إلى المسجد الذي كان يعظ فيه ويقرأ الأذكار، فلما أطال وأسهب، نبّهوه إلى وجودهم، فقال منغماً في أثناء ترتيله:

يا فؤاد، يا موسى، يا وفيق، إنني أنتهي قريباً، فانتظروني. وحسب الأتراك الموجودون في المسجد أن ذلك من جملة التراتيل فكانوا يردّون على أقواله: آمين، آمين!

ولم يلتقِ محمود صبحي نفسه بملاّ عثمان إلا في سنة ١٩٢٠. كان يسير بصحبة أحد أصدقائه، فتقدم محمود صبحي وسلّم عليه وصافحه قائلاً إنني أتشرّف برؤيتك لأول مرة، ايها الملا المحترم، ولكنني سمعت عنك الشيء الكثير من والدي. وتمايل جسمه يميناً ويساراً على عادته حين يفكّر، ثم قال على البديهة:

أوراق إخلاصي، إذا ما كتبت، تنشر في البلدان حسن الأسطر
كلّها محفوظة في مهجتي ومهجتي عند فؤاد الدفتري

الشيخ محمّد السّماوي

من شعراء المدرسة القديمة في العراق وذوي البصر بالكتب والمخطوطات القاضي الفقيه، وهو ـــ كما سمّى نفسه في تقريظ قديم لكتاب «الروض الأزهر» الذي ألفه مصطفى نور الدين الواعظ ونشره ولده ابراهيم الواعظ ـ محمد ابن الشيخ طاهر التركي الفضلي الشهير بالسماوتلي، ولد في بلدة السماوة على الفرات سنة ١٨٧٦ . ولما بلغ العاشرة من عمره أرسله والده إلى النجف فدرس في معاهدها، ثم قصد سامراء ولازم عالمها الامام حسن الشيرازي. وعاد إلى مسقط رأسه سنة ١٨٩٧، ولبث متنقلاً بين السماوة والنجف حتى سنة ١٩١٣ حين قصد بغداد إذ أصبح عضواً في مجلس الولاية.

احتلّ الانكليز العاصمة العراقية سنة ١٩١٧ فبارحها إلى النجف، وعين قاضياً شرعياً بها في ٢٤ آذار ١٩٢١ . ونقل قاضياً لكربلاء (حزيران ١٩٢٤) فبغداد (آب ١٩٢٥)، وعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري (١٩٢٦). وأعيد قاضياً جعفرياً في بغداد (كانون الاول ١٩٣١) فالنجف (شباط ١٩٣٤)، حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٣٥ .

وقد قيل إنه فصل من الخدمة وفقاً لأحكام قانون ذيل قانون انضباط الموظفين بناءً على مسعى السيد محمد الصدر، فداعبه محمد علي اليعقوبي قائلاً، بحسب رواية جعفر الخليلي:

قل للسّماوي الذي فلك (القضاء) به يدور
الناس تضربها (الذيول) وأنت تضربك (الصدور).

وسكن السماويّ النجف بعد ذلك منصرفاً إلى عالم الكتب. وانتخب عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في ايار ١٩٤٩ . وأدركه الحمام في النجف في ١٦ تشرين الاول ١٩٥٠.

شعره ومؤلفاته:

نظم محمد السماوي الشعر، وهو في ميعة الصبا، فأكثر منه في الغزل والاخوانيات، ثم اقتصر في نظمه على مدح النبي وآله.

ومن مصنفاته: شجرة الرياض في مدح النبي الفيّاض (١٩١٢) ثمرة الشجرة في مدح العترة المطهّرة (١٩١٣) إبصار العين، في أنصار الحسين (١٩٢٣) ظرافة الأحلام (١٩٤١) تاريخ المعصومين، صدا الفؤاد (١٩٤١) عنوان الشرف في وشي النجف (١٩٤١) مجالي اللطف بأرض الطفّ (١٩٤١) وشائج السرّاء في شأن سامرّاء (١٩٤١) الكواكب السماوية في شرح قصيدة الفرزدق العلوية (١٩٤١) موجز تواريخ أهل البيت (١٩٦١) الخ . . .

ومن مؤلفاته المخطوطة: الطليعة في شعراء الشيعة (ثلاثة مجلدات) قرط السّمع (أرجوزة في الربع المجيّب). ونشر كتاب المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة الخ... لابن الجوزي (١٩٣٠) ومقتل الحسين للموفّق الخوارزمي (في جزءين، ١٩٤٨).

نهج في شعره على الطريقة القديمة، فاستهلّ أماديحه متغزّلاً، كما قال في مدح الرسول الأعظم:

أخجلتَ جيد الريم بالالتفاتْ	وفقت سلّ السيف بالانصلات
بسمت زهواً بشتيت اللّمى	فأيّ شمل لم تدعه شتات؟
تقوّل الناس بتحقيقه	والله قد أنبت ذاك النبات
ثغر إذا لُحْنَ ثناياه لي	عجبتُ للؤلؤ وسط الفرات
جلا علينا فمه خمرة	فهاك، يا ساقي كأسي، وهات

وقال في مدح علي السجَّاد بن الحسين:

أبْدِلي مِمَّ احورار المُقَلِ	أهو من كحل بها أم كحلِ؟
بتُّ منها، وهي سكرى، ثملاً	هل سمعتم ثملاً من ثمل؟
تلفت نفسي، أما يرأف بي	ساحر الأجفان أو يعطف لي؟

وقال يتلهف على الشباب المدبر:

أبعد أن عرّى الصبا أفراسَهُ	تطلب إيناس الهوى أو ناسَهُ؟
خفّض عليك فالمشيب قد أتى	يضحك منك كاشراً أضراسه
لم تدع الخمسون منك جانباً	إلاّ وهدّ مرها أساسه
سوّد لي غضّ الشباب كُتَبَهُ	وبيّض الشَّيبُ بها قرطاسه...

وقال متغزّلاً في مطلع قصيدة له مدح بها السيد مصطفى نور الدين الواعظ مفتي الحلة:

صليني، يا أميمُ، كما قطعتِ	وعاصي العاذلين كما أطعتِ
فديتك قد شربت بماء وجهي	رضاك فما رضيت وما قبلت
أتيتك أشتكي فصفحت عني	كأنّك ما رأيت وما سمعت
تقولين: السلوّ به حقيق	عفا الرحمن عنك، لقد ظلمت
سلوّي مثل وصلك مستحيل	فإن أسلو، ولن أسلو، وصلت
أجدّك هل علمت طويل ليلي	فإني قد سهرت وما سهرت...

وقال في النجف :

ألمّ على ذكوات النجف | ولاحظ بطرفك تلك الطُّرَفْ
هواءً نقياً تحفّ النفوس | بطيب هدايا له أو تحف
وترباً زكياً يودّ الفؤاد | يلاصقه من وراء الشغف
وعرفاً ذكياً يغير الكبا | إذا الأنف ناشقه وائتنف . . .
وإخوان صدق رقيقي الطباع | تكاد طباعهُمُ ترتشف
كماة كرام يرون الشرف | بفرط الشجاعة أو بالسّرف
يؤلّفهم جامع من ولا | عليّ إذا ما القبيل اختلف
كأن الجماهير حول الضريح | حجيج بمكة ذات الشرف
كأنّ صفوفهم في الصلاة | أكاليل درّ بتاج تُضف
كأن العلوم إذا دارسوا | بحار بأفكارهم تغترف
سل الصحن كم فيه من لائذ | يقول عليّ له : لا تخف
وكم فيه من مستقيل يقال | له قد عفا الله عمّا سلف
وكم فيه من ذاكر ربّه | تقرّب بالمرتضى فازدلف

ونظم محمد السماوي أراجيز في تاريخ النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء ، قال في مطلعها :

أحمد من قد أنشأ السماءا | والأرض وامتازهما إنشاءا
واختصّ بعض الخلق دون بعض | بفضله من السما والأرض . . .

قال جعفر الخليلي : «لم يعرف التاريخ عالماً في العصور المتأخرة أحاط بالكتب القديمة وتواريخها ومواضيعها وقيمة الكتب الأثرية ونفاستها كالشيخ محمد السماوي . . . فهو في عصورنا المتأخرة كمحمد بن اسحق (ابن النديم) صاحب الفهرست في عصره ، فقد كان السماوي مرجعاً فذاً في تثمين الكتب القديمة ومظانّ وجودها . . . وقد جاءته هذه الملكة من افناء عمره الطويل في جمع الكتب ، والمخطوطات بصورة خاصة ، وللكتاب في نفسه منزلة ما حاكاها شيء معزّة وحباً وتقديساً .

ولقد روى الراوون عنه ، على سبيل الفكاهة ، قوله : إنه عمل قاضياً اكثر من ثلاثين سنة (كذا) ، وكان يجنّب نفسه الاتصال بغير أصدقائه الخلّص المتقين ، وكان يرفض قبول أية هدية من أي شخص . . . حذراً من أن تشوب حكمه شائبة من العواطف . لقد قال : «لقد حاول الكثير إغرائي بشتى الطرق فلم يفلحوا لأنهم لم يكتشفوا نقطة الضعف في نفسي ، ولو عرفوا قيمة الكتب عندي ومنزلتها في نفسي لأفسدوا لي برشوة الكتب كل أحكامي !»

وكانت له مكتبة نفيسة جمع فيها المطبوعات والمخطوطات النادرة، ولقد طالما نسخ الكتب بخطه وجلّدها بيده ليضمّها إلى خزانته. وقد بيعت بعد وفاته وتفرقت مجلّداتها.

وللشيخ محمد السماوي رسائل ذات الديباجة القديمة، منها ما كتبه في مقدمة رسالة إلى المفتي السيد مصطفى نور الدين الواعظ سنة ١٨٩٨:

كفى حزناً أني أرى الورد حاضراً ‏ ‏ ‏ لديّ ولكن لا سبيل إلى الورد
وما كنت أخشى أن تكون منيّتي ‏ ‏ ‏ بكفّ أعزّ الناس كلّهم عندي

السلام الذي تهدّلت أغصانه النواضر، وتهلّلت غمائمه المواطر، وتنافحت نسائمه العواطر، فضاء برقه، وضاع عبقه، وارتاح ودقه. والتحية التي تحيي القريض، وتشفي المريض، وتبرد القلب الرميض، وتلبس ثوب المجد الطويل العريض، فهي أقرّ على العين من رؤية الروض الأريض. والثناء الذي عذب رقيق لفظه وملح حرّ معناه، وحلا بيته على كل سمع ولذّ مغناه، فهو أنظر من برد الشباب، وأنضر من مواصلة الأحباب، يهديها وينيرها ويسديها:

مغرم ما تنفّست نسمات الجوّ (م) ‏ ‏ ‏ إلا وهيّجت أنفاسه
وإذا ما الوميض لاح تلظّى ‏ ‏ ‏ وثنى طرفه وأطرق راسه

وهي طويلة نشر نصّها في كتاب الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر لناشره ابراهيم الواعظ. وختمت الرسالة بقصيدة طويلة في مدح المفتي، ومطلعها:

صليني، يا أميم، كما قطعتِ ‏ ‏ ‏ وعاصي العاذلين كما أطعتِ

حتى يقول:

همام قد تفرّع من همام ‏ ‏ ‏ بأصل طيّب في المجد بَحْتِ
لقد غرسته دوحة آل فهر ‏ ‏ ‏ بأطيب تربة وأعزّ نبت
أطاب الخلق منه حسن خلق ‏ ‏ ‏ وزان الصّمت منه حسن سَمْتِ
تجمّع في علاه كلّ وصف ‏ ‏ ‏ وحاز على علاه كلّ نعت

الخ. . . .

رضا الهندي

الشاعر رضا الهندي ابن السيد محمد بن هاشم الموسوي، ولد في النجف سنة ١٨٧٣، ودرس على محمد كاظم الخراساني المعروف بـ«الأخوند». وقد تفقّه في علوم الدين وقرض الشعر فجوّده.

كتب عنـه جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابـه «هكذا عـرفتهم» فقـال إنه بـارع النكتة، لطيف المحضر، لم تنحصر صفـاته بالأدب، بل كان فقيهاً غـزير المادة، واسع الاطلاع، لـه في العلوم الدينيـة، ولا سيما الردود على الذيـن تناولوا الـدين الاسلامي، جولات وصولات . . . وقال انه ولع بالبـديع ولعاً كبيراً، ووضع «مقامات» هي شعر إذا شئتها شعراً ببحور مختلفـة وقوافٍ متنوعة، وهي نثر إذا شئتها نثـراً مسجّعاً أو مرسلاً. وله تواريخ شعرية غريبة في بابها، ومن قصائده التي اشتهرت «الكوثرية»، ومطلعها:

أمفلّـج ثغـــرك أم جـــوهـــر ورحيـق رضـــابك أم سكّـــر؟
قـــد قـــال لثغـــرك صـــانعـــه: «إنـــا أعطينـــاك الكـــوثـــر».

وروى جعفر الخليلي طـرفاً من لطائف رضـا الهندي، ومنها أنه حكّمـه ذات يوم في قضية أدبيـة ـ وكـان يحسب نفسه محقاً فيهـا ـ فحكم لخصمـه. وغضب الخليلي لذلك الحكم، فقال له الهندي: «إذا كنت تريد العراك وكنت شجاعاً، فيجب أن تبحث عن «تركي» حادّ المزاج لا أن تقصد «هندياً» بارد الطبع مثلي».

توفي السيد رضا الهندي في حزيران ١٩٤٣ في الفيصلية.

طبعت قصيـدتـه الكـوثـريـة في مـدح أمير المؤمنين علي بن ابي طـالب، وطبع من مؤلفاته: بلغة الراحل، الميزان العادل بين الحق والباطل (١٩١٣).

عبد الحقّ الأعظمي

عبد الحقّ حقّي الأعظمي الشاعر الأديب ولـد في الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٨٧٣ ودرس في معاهدها. ثم مضى إلى الهند، وهـو شاب، فعهد اليه بالتدريس في كلية عليكـره (وهي مدرسة أنشأهـا في تلك المدينة سنة ١٨٦٤ السر السيـد أحمد خان ليجمع فيهـا التعليم الاسـلامي القـديم إلى العلـوم العصرية، وقـد رفعت الى مصـاف الجامعات سنة ١٩٢٠).

عـاد الأعظمي إلى بغـداد بعـد الحرب العظمـى الاولى ونشر شعـره في المجـلات والجرائد. وألف: أعجب العجب من أحوال العرب (طبع بالقاهرة، ١٩٢٢).

أثنى عليه الشيخ محمـد رشيد رضا صاحب مجلـة «المنار»، وقد عرفـه حين زار الهند سنة ١٩١٣ وقال إن الأعظمي كان مدرس اللغة العربية في مدرسة العلوم الكلية.

سافر إلى مكّة فوافته منيّته بها سنة ١٩٢٤، كما يستفاد من رثاء له بتوقيع «زهير» نشر في جريدة الضاد البغدادية لصاحبها محمد صالح سليم السهروردي (في العدد الخامس المؤرخ ٢٥ آب ١٩٢٤)، ومطلعه:

بكى العـــراق بـــدمـع ســـال منسكبـــا ... على الــــذي يتّم الأقـــلام والأدبـــا . . .

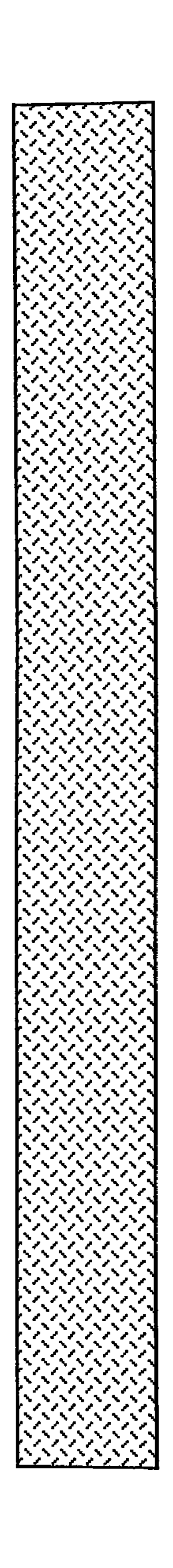
تـــالله قـد كـــان عبـــد الحقّ بـدر هــدى ... يهدي الـــورى غير أنّ اليـــوم قـد غـــربـــا

العلم مـن بعـــده قـــــد بـــات منكسراً ... والشعـــر من بعـــده قـد صـــار منعطبـــا

والأعظميـــة في ثـــوب الحداد غـــدت ... تقـــول : أين نـــزيـل الهنـــد قـــد ذهبـــا؟

منّـــا عليـك ســــلام كلما قـــرئت ... قصـــائد لك كـــانت تسحـــر الأدبـــا





عصر النهضة
الشعــر



جميل صدقي الزهاوي

شاعر النهضة الأدبية جميل صدقي بن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهاوي ولد ببغداد في ١٨ حزيران ١٨٦٣ وتوفي بها في ٢٣ شباط ١٩٣٦ . كان نائباً في مجلس النواب التركي وعضواً في مجلس الاعيان العراقي . وقد ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» ترجمة وافية . اهتم الزهاوي بتحرير المرأة واتخذ شعره أداة للدعوة إلى تثقيفها وانهاضها . وكانت شقيقته الآنسة أسماء الزهاوي من رائدات النهضة النسائية ، إذ أسست «جمعية النهضة النسائية» في بغداد سنة ١٩٢٤ وانتخبت رئيسة لها . وعهدت بنيابة الرئاسة إلى السيدة نعيمة قرينة نوري السعيد .

عيّن الزهاوي على أثر احتلال بغداد عضواً بمجلس المعارف في أول ايلول ١٩١٨ واستمّر فيه إلى ٣١ تموز ١٩٢١ . واختير في ١٩ شباط ١٩٢٠ مدرساً للّغة العربية بمدرسة الحقوق . وعيّن رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية في نظارة العدلية في أول آذار ١٩٢٠ حتى الغاء اللجنة في ٣٠ حزيران ١٩٢١ .

انتخب نائباً عن المنتفق في مجلس المبعوثان (١٩١٢) وناب عن بغداد في المجلس الذي تلاه . وقد عاد إلى بغداد قبيل نشوب حرب ١٩١٤ فبقي فيها ولم يعد إلى استانبول لحضور جلسات المجلس النيابي بخلاف زميله معروف الرصافي نائب المنتفق الذي لبث في العاصمة التركية إلى سنة ١٩١٩ .

وقد اشترك الزهاوي مراراً في مناقشات المجلس ، فاعترض على جباية الضرائب من دور الفقراء واعفاء قصور الأمراء ووصيفات آل عثمان . وانتصر لحرية الصحافة عند بحث قانون المطبوعات فقال : أثبت تاريخ الأمم أنه كلما اشتد تضييق الخناق على حملة الأقلام والأفكار كان الانفجار عظيماً . وطالب الحكومة بجعل الأحكام العرفية تابعة للتمييز . وطلب جعل اللغة العربية لغة رسمية للمحاكم في العراق تحقيقاً للعدالة ولغة التدريس في المدارس . ودعا إلى تأسيس كلية طبية في بغداد أسوة بدمشق . وناقش شؤون الزراعة ودعا إلى العناية بها .

وذكر سليمان فيضي في مذكراته «في غمرة النضال» أن بعض القادة البحريين أوقفوا أوقافاً تصرف غلتها للأئمة الذين يقرأون البخاري في السفن الحربية . قال الزهاوي عند المذاكرة في ميزانية القوة البحرية إن البواخر تسير بالبخار لا بالبخاري وطالب بإنفاق

تلك الغلة على نشر التعليم ليتقن الناس استعمال البخار.

وفي مناسبة اخرى قال الزهاوي إن الآية الكريمة ﴿إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ لا تعني بالصالحين العبّاد والنسّاك بل تعني الصالحين لإعمارها، وقوبلت كلماته بالضجيج والاستنكار والتكفير.

وكان في العهد الملكي عضواً بمجلس الأعيان (الشيوخ) (١٩٢٥ ــ ٢٩) فكانت الكلمات التي ألقاها ينصبّ معظمها على شؤون لغوية ولفظية. . ولما انتهت عضويته في المجلس، وقد سقط بالقرعة، ولم تجدّد قال يخاطب نفسه:

سقطت فلا تحزن على ما فقدته، فما أنت بين السّاقطين بأوّل
فكم من وزير كان قبلك قد هوى (كجلمود صخر حطّه السّيل من عَلِ).

الزهاوي المتشكك:

كان الزهاوي متشككاً فحيناً مؤمناً وحيناً جاحداً وتارة اخرى لا أدريّاً. وقد استهوته نظرية التطوّر (أو كما كانت تدعى آنئذٍ: نظرية النشوء والارتقاء)، فطالع آراء داروين وهكسلي وغيرهما كما ترجمها «المقتطف» وعبّر عنها الدكتور شبلي شميّل والدكتور يعقوب صروف وفرح أنطون وإسماعيل مظهر. ونظم هذه الآراء في قصائده رغبة منه في التجديد كما نظم سواها من الأفكار العلمية والأخلاقية.

ولم يفهم نظرية داروين على حقيقتها، فظنّ أن الإنسان حسب نظرية التطور متحدّر من القرد فقال:

رجعت إلى الماضي البعيد بفكرتي وقلت لقرد الغاب: يالك من قرد
تقلبت في الأصلاب دهراً وبعده نسلت ابنك الإنسان نادرة الوُلْد

وقال أيضاً يخاطب الإنسان:

هل أنت إلاّ واحد من القرود في النسب؟
ألم تكن وأنت في طور الجنين ذا ذنب
مشابهاً جنين حيوان لو اسطاع وثب؟

وعلماء التطور إنما قالوا ان جدّ الإنسان والقرد كان واحداً قبل مئات الملايين من السنين، ثم اختلف النسلان على مرّ الدهور فأنجبا الإنسان والقرد في خط متواز كلاً منهما بمعزل عن الآخر. وقد قلت في ذلك:

يا قرود الغاب، نقريك السلام،
جدّنا كان لكم نعم الرفيق
أخرج الصوت شبيهاً بالكلام،

تـــرك الأدغـــال وارتـــاد الطـــريق . . .
زرع القمــح وأنـــــواع النبـــــات ،
شيّـــد الـــدور وقـــد أحيى الفـــلاة ،
وتعــــالى سيّـــــد الأرض المطــــاع .
ومضى يـــومـــاً إلى الغـــاب البعيـــد
فأتـى بـــالقـــرد في طـــوق الحديـــد
هـــزأةً يسلـــو بـــه هم الصراع . . .

آمن الزهاوي بالعقل واتخذه نبراس الـوجود وحاول أن يستغني به عن الإيمان . لكن العقل قاصر يعجز عن ادراك منشأ الكون وخـاتمته وتصوّر اللانهاية المكانيـة والزمانية . وحار العقل في تعليل انبثاق الحياة وتطورها ، فاكتفى الزهاوي بأن قال :

مـــا حيـــاة قـــديمهـــا غير بـــاد ... لـــك الا تطـــــــــــوّر في الجماد

وقال :

رقيـت مـن الجماد فصرت حيــــــــــاً ... تميّـــز بـــالـــدراســـة والـــذكـــاء

وبينا نراه يكبر سلطان العقل إذا به يقول :

للكـــــون فيما بـــــــدا لي ... ظـــــواهـــــر وخفــــايـــــا
مـــــا قـــــام فينـــــا حكيم ... يحلّ بعض القضـــــايـــــا . . .

وهو يمعن في الإنكـار في «نزغـاته» التي نشرهـا هلال ناجي في القـاهرة (الـزهاوي وديوانه المفقود ، ١٩٦٣) فيقول :

تـــــوقّفتُ لا أدري تجاه الحقـــــائق ... أأنّي خلقـت الله أم هــــو خــــالقي؟
لئن وثـق الجمهـــور بـــالله خـــالقـــاً ... فـــــربَّ حكيـم بينهـم غير واثـق!

لكنه في آخر الأمر يرتدّ نادماً ويستغفر قائلاً :

أنـــا فيما أبـــديتـــه من مقـــال ... مخطىء ليس لي أقـلّ استنـــــاد
شهـــد الله والملائكـــة الأبــــرار ... أنّي ركبـت غير السّـــــــــداد . . .

وكذلك كان الزهاوي مؤمناً جاحدا لا أدريًّا ، حكيماً حائراً متردداً ، جمع العبقرية في نقائضه وتقلباته .

جميل صدقي الزهاوي
روايـة ليـلـى وسميـر :

(نظمها سنة ١٩٢٧ ونشرها في مجلة لغة العرب)

يفتتح المشهد الأول بزينب تغني اغنية النوم لابنتها ليلى حين كانت طفلة :

نعست بعد الرضاع ... وللنعاس دواعي
تغفين فوق ذراعي ... والآن في المهد نامي

وهي أغنية رقيقة ساذجة العواطف تمثل نفس الشاعر الوجداني المحب للطفولة والبشرية .

ثم تكبر ليلى فيحبها الفتى سمير وتبادله الحب . ويلتقي الحبيبان على شاطىء دجلة في ليلة قمراء ويتحدثان في أمر الزواج . لكن الشيخ عبد الله رجل الدين الكهل الذي طلق نساءه الثلاث واحدة بعد واحدة يرسل الخطابات إلى أم ليلى فتردهنّ . ويحرّض الشيخ الوالي على سمير متهماً إياه بالطعن في الذات السلطانية ، فلا يجد سمير مناصاً من الهجرة إلى خارج العراق وتقديم الشكوى إلى السلطان فيأمر هذا واليه بالكف عن تعقيب الفتى البغدادي .

يعود سمير إلى ليلاه ويستعد لعقد قرانه . لكن الرجل المسمي رجب الذي يتظاهر بصداقة سمير ويكشف أسراره للشيخ عبد الله يكتب نشرة مقلداً خط سمير وفيها حثّ على الثورة باسم الحرية . ويتهم سمير بالجريمة ويقبض عليه ، بينما تمرض زوجته بعد ولادة عسيرة وتقضي نحبها . ويختتم شاعرنا روايته بقصائد حزينة أولاها لليلى في ساعة موتها ، والثانية لزينب على قبر ابنتها . ويطلق سراح سمير بعد اعلان الدستور واطلاق الحريات ، وقد مضى على نفيه عامان ، فيعود ليرى طفله لأول مرة ويسمع خبر موت زوجته ، فيلقي على جدثها قصيدة شجية :

هل ما أراه قبر ليلى ... ماثلاً يبدو أمامي
كذبوا فإنك في ظلام ... القبر يوماً لم تنامي . . .
سيظل طرفي هامياً ... يسقي ثراك على الدوام
ويظل قلبي خافقاً ... مما يقاسي وهو دامي

نوادر الزهاوي :

كان جميل صدقي الزهاوي في شبابه وكهولته مرحاً بعيداً عن التزمت واصطناع الوقار.

قال ناجي شوكت في كتابه «سيرة وذكريات ثمانين عاماً» : «كنت خلال هذه الفترة (سنة ١٩١٦) أتردد على دار العم مراد سليمان في أغلب الليالي . وكانت الدار المذكورة تضم من المداومين الدائمين السادة جميل صدقي الزهاوي وأحمد القيماقجي (من ظرفاء بغداد المعروفين) وعزّت الفارسي وعبد الرزاق الشيخ قاسم والدكتور سامي سليمان . وكان الزهاوي يسمعنا من شعره كلّ طريف ولذيذ ، كما كان يسمعنا عن آرائه في الكون والعلم كلّ غريب ، أما القيماقجي فكان يبتكر لنا الحكايات المضحكة التي تدخل السرور على قلوبنا» .

ثم يذكر ناجي شوكت سهرات ليالي الجمعة في دار مراد سليمان الواقعة في الصليخ ،

وهي سهرات أنس وطرب. قال: «وكان الزهاوي ينقلب في مثل هذه الليالي التي تمتد حتى الصباح إلى شخصية أخرى لا تمت إلى العلم والشعر بصلة. وعند الفجر كنّا نشكّل دائرة (حلقة) حول الزهاوي رحمه الله ونردّد الأغنية المعروفة «يا مسعد الصبحية»..

ومن النوادر التي تروى عن الزهاوي أنه شوهد ذات ليلة في استانبول يسير في بعض الشوارع المشبوهة، وكان آنذاك يرتدي الجبّة والعمامة.

فرآه شرطّي من شرطة الآداب وقال له: أيها الخوجة (الملاّ)، ماذا أتى بك إلى هنا؟ وأصرَّ على أخذه إلى دار المشيخة الإسلامية. لكن شاعرنا تصنّع جهل اللغة التركية وأجاب بالفارسية أنه غريب وقد ضلّ طريقه. فأخذه الشرطي إلى دار السفارة الإيرانية وأخلى سبيله.

وكان الزهاوي يداوم الحضور في بغداد في مجلس محمد باشا الداغستاني. وكان لهذا القائد حديقة كبيرة ملاصقة لداره، وفيها أقفاص للأسود والحيوانات الضارية الأخرى. وكان من الذين يحضرون المجلس مدير الشرطة التركي، وهو رجل ضخم الجثة، شديد البأس، يبالغ في أحاديثه ويروي عن نفسه قصص بطولة عجيبة. وضاق الزهاوي ذرعاً بمفاخراته، فقال ذات يوم في المجلس الحافل: «هل تعلمون أن هرتز فلد العالم الألماني قد اكتشف في خرائب سامّراء آثاراً غريبة؟ وقد وجد في ضمنها صندوقاً أكل الدهر عليه وشرب ففضّه ووجد في داخله صندوقاً ثانياً وثالثاً ورابعاً...»

وظلّ الزهاوي يواصل وصف الصناديق المحفوظة أحدها في داخل الآخر، فقال له الحاضرون: «وماذا كان في داخل الصندوق الأخير؟» قال: «وجد العالم في الصندوق الأخير ورقة عليها كتابة، فأكبّ على حلّ طلاسمها، فإذا فيها: لعن الله الكاذبين!».

وغضب مدير الشرطة وتحدى الزهاوي أن ينزل معه إلى قفص الأسد فيصارعه. وقبل الزهاوي التحدّي، فقام مدير الشرطة ونزع معطفه وقميصه واستعد للدخول في قفص الضواري، لكن الزهاوي أسرع بترك المجلس والخروج هارباً. وقد ضاق الزهاوي ذرعاً بأحد الكذابين فقال فيه:

ومدّعٍ بحياة البحر معرفةً ... ما حازها أحد في الأعصر الأولِ
فقلتُ: صف لي كيف الحوت ممتحناً، ... فقال لي: الحوت ذو قرنين كالجمل

وكان أصدقاء الزهاوي كثيراً ما يقسون في مداعبته. فمن ذلك أنه كان يحضر مجلس مراد سليمان صباح الجمعة، فأعدّوا له مهزلة أحكموا نسج خيوطها للسخرية منه. كان في بغداد رجل مهرّج يقلّد أصوات النساء، فاستدعي وكلّف أن يرتدي الملابس النسائية ويضع على وجهه النقاب ويأتي إلى دار مراد بك صباح الجمعة ليطلب مواجهة الشاعر الفيلسوف.

وفي ذلك الصباح، والمجلس حافل بزوّاره من أعيان بغداد وأدبائها، والزهاوي

جالس يبهر الحاضرين بشعره ونوادره، إذا بامرأة محجبة تدخل إلى باحة الدار وتصرخ بصوت نسائي رفيع: «اين جميل الزهاوي؟ لقد وعد بزيارتي مراراً وأخلف وعده..» واستمّرت على الصراخ بكلام في هذا المعنى، والزهاوي يقول: «والله لا أعرفها، ولم أرها من قبل»، ويطلب من صاحب الدار أن يجدوا له مخبأ وأن يصرفوا تلك المرأة الرعناء.

وبعد ضحك طويل هدّأوا من روعه وجاؤوا بالمرأة وأمروها برفع حجابها، فإذا هي رجل يسعى.

وكان الزهاوي يقرأ شعراً له في مجلس محمود صبحي الدفتري فانتقده عارف حكمت. فقال الزهاوي: إذا دخل عارف في الأدب فإننا نخرج عن الأدب!

ونظم الشاعر قصيدة وأبردها إلى مجلة الهلال المصرية للنشر، ولم يكد يرميها في صندوق البريد حتى بدا له أن يغيّر كلمة فيها، فأسرع إلى الدكتور فائق شاكر مدير البريد والبرق العام وقال له: أرسلتُ قصيدة بالبريد إلى مجلة الهلال في القاهرة اليوم وأريد أن أصحّح بعض أبياتها، فأرجو أن تأمر باستخراج الرسالة واعادتها إليّ. قال المدير العام: إن استخراج رسالتك، يا استاذ، من بين آلاف الرسائل المبردة أمر عسير والأفضل أن تردفها برسالة ثانية تصحّح فيها ما تريد تصحيحه. قال الزهاوي: ولكنني لا أريد صاحب «الهلال» ومحرريها أن يعلموا أنني أصحح قصائدي بعد نظمها!.

واضطر الدكتور فائق شاكر أن يأمر موظفيه بفرز الرسائل المبردة إلى مصر واستخراج رسالة الزهاوي وإعادتها إليه.

وقد حيّا الفنانات والفنانين المصريين الذين قدموا إلى العراق، وعمره يقارب السبعين، بقصائد عاطفية كفاطمة رشدي ويوسف وهبي ومحمد عبد الوهاب ونادرة وأم كلثوم وغيرهم.

وقال:

ليس الحديث عن الهوى   من شاعر شيخ جريرة

واعترض عليه بعض المتزمّتين فقال:

يريدون أن أحيا بعيداً عن الهوى   فلا تبتغي عيني الحسان النواهدا
يريدون أن لا أهبط الروض منصتاً   لشادٍ وأن لا أطرّي الزهر حامدا
وما كنت في دنيا إليّ حبيبة،   وإن كدت استوفي الثمانين، زاهدا
أجل، كنت عيناً في زماني ونائباً   ولكنني ما كنت للذوق فاقدا

الزهاوي في مهرجان الفردوسي:

أوفد الزهاوي لتمثيل العراق في مهرجان الفردوسي الذي أقيم في طهران في تشرين الأول ١٩٣٤، وكان معه «تلميذه» أحمد حامد الصرّاف.

ألقى الزهاوي قصيدة رائعة بالفارسية في المحفل الذي عقد برعاية رضا شاه بهلوي وحضور رجال الدولة والادب والمستشرقين. وكان قد أعدّ القصيدة في بغداد قبل سفره وقرأها على فهمي المدرّس فاستحسنها. ولما فرغ الزهاوي من القائها ضجّ المجلس بالتصفيق، وقام إليه الصدر الأعظم رئيس وزراء إيران فقبّل يده تقديراً لأدبه واعترافاً بفضله.

عاد الزهاوي إلى الفندق فاستدعى إليه الصّراف وقال له: يا ولدي أحمد، هل رأيت الصدر الأعظم وما فعله حينما فرغت من انشاد قصيدتي؟ قال: أجل، يا استاذ، رأيته يسحب يدك على ملأ من القوم ويقبّلها. قال الزهاوي: احفظ ذلك جيداً، يا ولدي، فأنت شاهدي الوحيد في بغداد!

حدثني أحمد حامد الصرّاف ان عبد الاحد حبّوش أصدر مجلة أدبية باسم «الزنبقة» سنة ١٩٢٢، فقال له: أرجو أن تعرفني بالزهاوي لكي أسأله نشر شعره في مجلتي.

قال الصراف: اخذت عدد المجلة فوجدته مصدراً بقصيدة لمعروف الرصافي، فقلت لصاحبي: هلّم نذهب إليه الآن. وذهبا إلى داره، فأعطى الصراف العدد إلى الخادم وقال له: إذا جلسنا بضع دقائق فجيء به وسلمه إلى الاستاذ.

وقدم الصراف صاحبه إلى الزهاوي وقال انه من الشباب الناهض المثقف، وقد أصدر مجلة أدبية راقية، وهو يرجوك أن تعطيه شيئاً من شعرك الجديد لنشره.

سرّ الزهاوي ورحّب بالأديب وقال له: اننا بحاجة إلى مثل هذه المجلات كي لا نكون عالة على المصريين واللبنانيين....

وفي تلك اللحظة دخل الخادم وقدم المجلة إلى الزهاوي، فقال الصّراف: هذا عدد المجلة واسمها «الزنبقة».

وأخذها الشاعر وفتح صفحتها الاولى فوجد قصيدة الرصافي تحتل منها محل الصدارة، فقذف بها في الهواء حيث دارت دورتين أو ثلاثاً ثم سقطت على الأرض. وقال: يا رجل، إذا كنت من أتباع الرصافي المعجبين به فلم تأتي إليّ وتريد نشر قصائدي؟ ألا تعلم أن في أوروبة لكل شاعر أتباعاً، فالذي يتأثر خطى فكتور هوغو لا يقصد لامارتين، وهكذا؟..

وخرج حبوش خجلاً يجرّ أذيال الخيبة.

وأقول: زرت جميل صدقي الزهاوي مرتين أو ثلاثاً قبيل وفاته في داره ببغداد في الشارع الذي سمّي بعد ذلك باسمه. وكان يشكو كثرة متاعبه الأدبية، ويقول ان نظم الشعر يؤرقه ويهّد من قواه. وقال مرة ان مجلة «الهلال» سألته عن رأيه في شؤون أدبية واجتماعية وماله علاقة بنهضة الشرق، وهو يعاني تعباً في الردّ وفي ارشاد الأدباء والمتأدبين الذين يتوافدون عليه للاستماع إلى آرائه. ومع ذلك فهو يشعر بواجب أدبي عليه في رعاية الجيل الطالع وتوجيهه بالرغم من شيخوخته وعجزه.

معروف الرصافي

شاعر العراق معروف بن عبد الغني بن محمود ينتمي إلى قبيلة الجبارة القاطنة في أنحاء كركوك . ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ وتوفي بها في ١٦ آذار ١٩٤٥ . أقام الرصافي دولة للشعر في القرن العشرين وخلّد اسمه بين الشعراء الأفذاذ كالفرزدق وجرير وأبي تمام والمتنبي ، فسارت قصائده مسير الأمثال في الاقطار العربية وسحرت أجيالاً من شداة الادب . شبهه عبد القادر المغربي بالبحتري في مزية السهولة ونمنمة الديباجة ، ولكن أين البحتري من معاني الرصافي والآفاق الرحيبة التي فتحتها النهضة الحديثة في ذهنه العبقري؟

وردت ترجمته الوافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» .

حينما ألفت الحكومة الوطنية في العراق لأول مرة منذ العهد العباسي السالف وأسند العرش إلى الملك فيصل الهاشمي ، أراد العاهل القادم إلى وطنه الجديد إشراك اتباع المذهب الشيعي في الحكم شيئاً فشيئاً بعد أن كانوا بمعزل عنه في العهد التركي المتعصب لسنّيته . ولم يجد الملك ولا الانكليز رجالاً من الشيعة يليقون للمناصب الإدارية والوزارية أو يرضون بتبوّئها ، فدعوا إلى الوزارة بعض رجال الدين والوجاهة الذين رفضوها في بداية الأمر ثم قبلوها . والتفتوا إلى الشعراء والادباء من الكهول والشباب ، فهيّىء لمحمد حسن أبي المحاسن ومحمد رضا الشبيبي وأمثالهما أن يصبحوا من وزراء الدولة . أما الشعراء من أهل السنّة فلم يلوا من المناصب سوى التدريس وعضوية مجلس المعارف ، واللجان العلمية ، وكانوا بعد ذلك نواباً وأعياناً . وكان ذلك مدعاة لتذمر الزهاوي والرصافي وأمثالهما الذين نفسوا على زملائهم من الشيعة مناصبهم الوزارية .

شعر الرصافي أكثر من سواه باستهانة الملك والحكومة بأمره وعدم منحه ما يستحقه من التبجيل والإكرام . ومع أنه ظل يمدح ويرثي في كل مناسبة عرضت فإنه لم يترك التذمر والتمرد حين يجتمع بأصحابه وأخصائه . وقال سنة ١٩٢٢ يخاطب رجال الحكم :

يا مبعديَّ بظلم عن مناصبهم ... وقاطعين إلى ما أبتغي طرقي
علمت كلّ خفيّ من ضمائركم ... وما علمت الذي ترضون من خُلقِ
ماذا يوافقكم من شأن صاحبكم ... حتى يكون لديكم جائز السَّبق؟
إن كان عقل فإني عاقل فَطِن ... أو كان حمق فإني أحمق الحُمقِ

وقال أيضاً متجنّياً ناقماً :

لنا ملك وليس له رعايا ... وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح ... ومملكة وليس لها نقود

أيكفينـــا مـن الـــدّولات إنّـــا تعلّق في الـــديـــار لنـــا البنـــود؟
وكم عنـــد الحكـــومـــة من رجـــال تـــراهـم ســـادة وهـم العبيـــد
كـــلاب لـــلأجـــانب هـم ولكن على أبنـــاء جلـــدتهم أســـود

وقال:

علـم ودستـــور ومجلس أمّـــة كـــلٌّ عـن المعنـى الصحيـح محرّف
أسماء ليس لنـــا ســوى ألفـــاظهـا أمـــا معـــانيهـــا فليست تُعـرفُ

وقال:

دار ذا الـــدهـــر مـــداره فـــرأى النـــاس ازوراره
كـم وزيـــر هـــو كـــالـــوِزْر على ظهـــر الـــوزارة!

وزار المس جرترود بلّ يعـرض اخلاصه ويطلب الإقالة والعـون، ثم يقول في الوقت نفسه:

لقـد جمع الـدهـر المكـايـد كلهـا بقـــدر كبير صيغ مـن معـــدن الخُبْث
فصـــاغ طبـاع الانكليـز من الـذي تقـاطـر في الانبيق كـالمطـر الـدَّثِ . .

وحاول مغـادرة العراق. فردّه عبد المحسن السعـدون رئيس الوزراء الذي كـان يودّه ويرعاه. وقد شكا إليه حاله فقال:

أعبـــد المحسن السعـــدون، إنـي أراك منـــاط أسبـــاب الـــرجـــاء
لـــذلك قـــد أتيت إليك أشكـــو رثـــاثـــة بـــزّتي وبلى كســـائي
فقـــد رقّـت ثيـــابي اليـــوم حتّـى تكـــاد تـــذوب من مـسّ الهواء

ومـا هذه النقمـة وذلك التمـرّد سوى مظهـر من مظاهـر العبقـرية التي تعتقـد أنها مستهان بأمـرها غير حائزة للتقـدير الذي تستحقـه. لكن الحكومة لم تغفل أمـره، فقد عيّنته مفتشـاً بوزارة المعارف واستـاذاً بدار المعلمين العاليـة، ثم انتخبته نـائباً في مجلس النواب بالرغم من معـارضته وتركه بغداد إلى بلده الفلوجة ليقيم فيهـا في رعاية الوجهاء من آل عريم.

وكان راتبـه يكفي لسـدّ رمقه وهـو الفرد الذي لا عـائلة لـه ينفق عليهـا. ولم يعدم أصدقاء أوفياء ومحبين مقدّرين لشأنه يسعفونـه ويرعونه بلا منّ، ومنهـم فخري الجميل وعبد اللطيف المنديل وخالد سليمان وحكمت سليمان ومظهر الشاوي.

ولما رأى نوري السعيد، الـذي طالما مدحه الـرصافي وهجاه، ان راتبه التقـاعدي لا يقوم بأوده خصّـص له جعلاً من المخصصـات السّرية يـذهب به إليـه صديقـه محمود السنوي في كل شهر. ومع ذلك هجاه فقال:

ان نـوري السعيـد قـد كـان قبـلاً آدميـاً فـردٌ بـالمسخ قـردا

ولم تقم حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية سنة ١٩٤١ حتى بادر إلى تأييدها والتنديد برجال الحكم السابقين.

لقـد كان الـرصافي كسـواه من الشعـراء متردداً بين السلب والإيجاب، يرضى حيناً ويغضب أحيانـاً لدواع نفسية وظروف طارئة، مفيـداً من الفرص العارضـة وناقماً عليها ضائقاً بها ذرعاً في آن واحد.

وقد قـال مصطفى علي مؤرخ الرصافي وراويـة شعره ان الرصافي يعـاف الذل ويأبى الاستعباد ويأنف من الدنيّة، ويكره الاستعمار ويجتويه فلا يرضاه لبلاده ولا لأمتّه. وقد حاربه ما وسعه أن يحاربه ولم يهادنه حتى فارق دنياه. وقال مصطفى علي ان الرصافي في شعره الـذي ندّد فيـه بالـوضع السياسي في البلـد إنما كان لـرغبة منـه في مصارحـة أمته والامتناع عن غشّها فيقول خلافاً لما كان يـرى، فلم يكتم ما كان يشعر به بل كان يعلنه ويـذيعه لما طبع عليـه من الصـدق والاخلاص والشغف بـالحقيقـة. واستشهد بقـول الرصافي:

أمـا الحيـاة فشيء لا قـرار لـه يحيـا بي المرء مـوقـوتـاً إلى حين

سيّـان عنـدي أجـاء الموت مخترمـاً من قبل عشريـن أم من بعـد تسعين

ولقد حاول بعض الادبـاء والمتأدبين بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أن يقولـوا إن الرصافي كان مضطهداً في العهـد الملكي معوزاً لا يجد من التقدير والـرعاية ما قد كـان أهلاً له. والحقيقة أنـه بالرغم من تنديـده بالملك ووزرائه في عهد الانتداب لم يفصل من منـاصبه الرسمية ولم يحرم من النيابة. وقيل انه كان في خـلال الحرب العالمية الثانية يبيع السكاير لسدّ رمقه. وحقيقة الأمـر ان راتبه التقاعدي والمخصصات السّرية التي كـانت تقدم له والاعانات السخيّة التي تـرده من محبّيه والمعجبين به كانت تزيد عـن حاجة رجل فرد لم يعرف بالإفراط، لـولا أن خادمه عبد كان يستولي على مـاله ويسطو على المآكل النفيسة التي تهدى إليه، كما ذكر ذلك تفصيـلاً مؤرخه مصطفى علي. وقد حـذر الرصافي كثيراً من خيانة خادمه، فلم يهتمّ ولم يطرده.

أما قضية بيعـه للسكاير فالحقيقـة ان صديقة الشاعـر أنور شاؤل، وقد كـان محامياً لشركة طبّـارة وعبود صاحبـة معامل السكايـر، رأى أن يفيد الرصـافي بعد أن أصبحت السكاير تباع بأسعار باذخة في السوق السوداء، فحمل الشركة على تخصيص كمية منها له في كل شهـر. وكانت تباع هذه السكـاير مباشرة ويقدم فـرق أثمانها إلى الرصافي دون مشاركة أو جهد منه.

وضع الرصافي قصصاً شعـرية استوحى مواضيعها من البيئة العـراقية المحلية. ونرى في الوقت نفسه الشاعـر المصري الكبير اللبناني الأصل خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩)

ينظم قصصاً متعددة، غير أنه استمدّ مواضيعه من مصادر أجنبية وتاريخية كمقتل بزرجمهر ونيرون وشيخ أثينا وفتاة الجبل الاسود الخ.

محمد رضا الشبيبي

نابغة من نوابغ الشعراء المتأخرين وزعيم وطني معروف المنزلة، ولد محمد رضا الشبيبي في النجف في ٦ ايار ١٨٨٩ وتوفي في بغداد في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٥. تولى وزارة المعارف مراراً وكان رئيساً لمجلس الاعيان ورئيساً لمجلس النواب وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ومجمع اللغة العربية في القاهرة ورئيساً للمجمع العلمي العراقي. ومنحته جامعة القاهرة سنة ١٩٥٠ مرتبة الدكتوراه الفخرية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية. ترجمت له ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية».

قالت المس بيلّ في رسالة لها إلى أبيها تأريخها ٤ كانون الأول ١٩٢٠ أنها حظيت بزيارة ممتعة من الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي عرفته سنة ١٩١٨. وقد ذهب فجأة إلى الحجاز وسورية حيث كتب مقالات شديدة ضدّ بريطانية في الصحف المحلية منتقداً طريقة حكمها لهذه البلاد. ويظهر أنه أصيب بخيبة أمل من جراء استقرار السوريين في ظل الحكم الفرنسي، فأتى يعبر عن قناعته بأن ما يفعله الانكليز هنا هو الصحيح. وقالت إنه رجل معروف وله قلم ساحر، فإذا تعاون معنا مجازفاً بأن يدعوه المتطرفون انكليزياً فقد يكون ذا قيمة لا تقدر.

الشبيبي والمجالس الادبية
في صيدا والشام:

قضى محمد رضا الشبيبي في ربوع الشام شهوراً سنة ١٩٢٠ فاجتمع بأدبائها من الشباب الناهض الذي حلم بالوحدة العربية واستبشر بقيام الحكومة الفيصلية. وعقد المجالس الأدبية في صيدا مع سليمان الظاهر وأحمد عارف الزين وأحمد رضا وأديب الزين والدكتور شريف عسيران وغيرهم. وقال فيها قصيدته:

عروس من البلدان ليس لها مهر ... ومصر سبتني لا الصعيد ولا مصر

والتقى في دمشق بشفيق جبري وخير الدين الزركلي وسائر ادبائها فقال قصيدته:

ببغداد أشتاق الشآم، وها أنا ... إلى الكرخ من بغداد جمّ التشوق

فباراها شفيق جبري قائلاً:

أحنّ إلى بغداد من أرض جِلّقِ ... وأسأل أهل الشام عن كلّ معرق

ونظم جبري قصيدته:

شط المزار فربع دجلة نازح ... دون العراق سباسب وأباطح

قال إنـه القى هذه القصيـدة في سهرة بـدار الزركلي، فلما فـرغ من إنشادهـا ظهرت الكآبة على وجه الشبيبي وقال: لولا أن قصيدتك أبكتنا لصفّقنا لكل بيت.

ثم قضى الفرنسيون على الحكومة العربية وأخرجوا فيصلاً، فذهبت الآمال وتبددت الاحلام. فقال الشبيبي قصيدته «دمشق وبغداد» ومطلعها:

مـــاذا بنـا وبـــذي الـــديـار يـــرادُ؟ فقـــــدت دمشـق وقبلهـــا بغـــدادُ

محمد رضا الشبيبي يعالج شؤون القطر:

قدم محمـد رضا الشبيبي قبيل وفـاته (في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٥) مـذكرة إلى رئيس الوزراء عبـد الرحمن البزاز أوضح فيها القضـايا والمشاكل الخطيرة التي تواجههـا البلاد. وأشـار إلى الأحـداث والكوارث التـي حلت بها نتيجة تصـارع الآراء وتضـارب الاهـواء وتشجيع التفرقة، وطالب بإجراء الانتخابات ليقول الشعب كلمته في الحكم. وقال ان الوحـدة العربية هـدف يتم باستفتاء الشعب عليه، وأشـار إلى أخطار الطائفيـة المقنعة التي تفتّ بعضد الـوحدةالوطنيـة. وقال ان الشعب العراقي انتقض أكثر من مرة على سيـاسة التفـرقة النكـراء وعمل منـذ ثورتـه الاولى سنـة ١٩٢٠ على اقامـة حكم وطني ديمقراطي يسهم بإقامته وينعم في خيراته أبناء الشعب كافة لا يفرقهم عنصر أو دين أو مذهب. وشجب بعد ذلك سيـاسة المحاباة التي كانت نتيجتها تبـوّء المقربين لمناصب الدولة وهم محرومون غالباً من المؤهلات والكفايات والاخلاص.

وطالب الشبيبي في مذكرته بدرس القضية الكردية درساً دقيقاً لصيانة الوحدة الوطنية وحقن الدماء وإعـادة السلام والطمأنينة إلى الربوع الشمالية لأن العـرب والاكراد شركاء في هذا الوطن يتقـاسمون غرمه وغنمه. ودعا إلى تحرير النقـابات من الضغط السياسي وتوكيد حقوق العمال. ثم التفت إلى الاشتراكية ونـادى بلزوم مراعاة الواقع في شأنها، إذ أن تطبيقها بقرارات ١٤ تموز ١٩٦٤ قـد أدى إلى تخبط الاوضاع المالية وارتبـاكها وزيادة البطالة وقلة الانتـاج وتبذير أموال الدولة وتهريب رؤوس الأموال وعجـز الميزانية. ودعا إلى الديمقراطية الاقتصادية قائلاً إنه «النظام الـذي يلائم ظروفنا وحاجاتنا» وان الفروق الاقتصادية الواسعة خرق للعدالة الاجتماعية التي نؤمن بها.

وذكر انـه يمكن العمل على تقليل تلك الفروق عن طريق تـوزيع الضرائب وزيادة مكاسب الطبقة العاملة ووضع خطة شاملة للتنمية وزيادة الدخل العام.

ثم تنـاول القطاع الـزراعي الذي يمثل في نظـره مصـدراً أساسيـاً من مصادر الثـروة العامة، فأشـار إلى أخطاء قانون الإصلاح الـزراعي ـ تلك الأخطاء التي أدت إلى تخلّف الزراعـة، وطالب بإعـادة النظر في أسس ذلك القانـون وتطويـر شؤون الزراعـة وحماية الانتـاج وتحديد واجبـات الـزراع وتعـويض الفئات التي تـم الاستيلاء على أراضيهـا. وطالب بعد ذلك بإصـلاح نظام الضرائب، واستخـلاص حقـوق البلاد من شركـات

النفط وإعادة النظر في تكوين الاتحاد الاشتراكي العربي الذي تنازعته الأهواء وأفضى إلى احتكار العمل السياسي وتطبيق مبدأ الحزب الواحد المعارض للديمقراطية .

ولا شك أنّ هذه المذكرة التي قدمها الشبيبي إلى السلطات المسؤولة قبل شهر واحد من وفاته كانت أروع خاتمة لحياته الأدبية والسياسية ووصيّته التاريخية لابناء البلاد في تلك المرحلة الدقيقة .

محمد رضا الشبيبي : شؤون واحاديث

تعرّفت إلى محمد رضا الشبيبي في سنة ١٩٣٩ وتوثّقت صلتي به بعد اختياري عضواً بنادي القلم سنة ١٩٤٢ وكان هو رئيسه . وزادت هذه الصلة إحكاماً بعد ذلك ، فكنت في سنواته الأخيرة أكثر من زيارته في داره والمجمع العلمي ، كما كان يمر بمكتبي مرة أو مرّتين في الاسبوع حتى توفاه الله .

وأذكر أنه كان يلقى عندي في بعض الأحيان علي الشرقي ، وكانت بينهما جفوة ، فبادره الشرقي بالسلام والكلام حتى استقام ما بينهما وعادت مودتهما القديمة شيئاً ما .

كان الشبيبي يحضر مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كل عام ويقضي في مصر شهراً أو بعض شهر، فإذا عاد حدثنا بطرائف مما شهده وسمعه . وقال لنا ان الدكتور طه حسين سأله ذات يوم : «لماذا كان العراقيون دائماً ثائرين لا يستقرون على حال ولا يرتضون حاكماً؟ فقد قرأت تاريخ العراق منذ الفتح الإسلامي حتى الآن ، وقلما وجدت حقبة خالية من الفتن والقلاقل» . فأجابه الشبيبي : «أتسمح لي أن أسألك أنا أيضاً؟ لماذا كان المصريون دائماً خانعين خاضعين؟ لقد قرأت تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي وقبله أيضاً ، فوجدت المصريين دائماً يسترضون حكامهم مهما جاروا وطغوا ويخفضون الهام لكلّ متحكم فيهم حتى لشجرة الدّرا» .

قال الشبيبي : وقد اغتاظ طه حسين لجوابي ، لكن الحاضرين قالوا له : لا يحق لك الغضب ، يا دكتور، فجواب الشيخ من طبيعة السؤال .

وقد قيل قديماً : إن العقل لحق بالشام ، فقالت الفتنة وأنا معك . ولحق الشقاء بالبادية فلحقت به الصحة ، ولحق الخصب بمصر فلحق به الذّل .

وكان أمين هويدي سفير مصر في بغداد والذي دعي «المندوب السامي المصري» وقد أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات ووزيراً لحربية جمال عبد الناصر كثيراً ما يزور الشبيبي ويسأله عن رأيه في الاتحاد مع مصر. فأجابه الشيخ بصراحة أن العراق لا يحب عبد الناصر وان الاتحاد أو الوحدة سابق للأوان . وقال له : بلّغ الرئيس عبد الناصر أن لا يغرّه كلام عبد السلام عارف (رئيس الجمهورية آنذاك) ، فالعراقيون عازفون عن الوحدة بالرغم من حبّهم لمصر واعترافهم بمكانة الصدارة التي تتبوّأها في مجتمع الدول العربية .

وقد اشتد الخلاف بين عبد السلام عارف والشيخ الشبيبي حتى أنه أصبح رئيساً اسمياً للمجمع العلمي العراقي لا يستطيع الحلّ ولا الربط ، وقد تولى الامور فعلاً نائب رئيس المجمع بتشجيع من الحكومة ، فكان الشبيبي يأتي إلى غرفته في المجمع ويخرج منها دون أن يباشر عملاً .

ودعيت مجامع اللغة العربية إلى عقد مؤتمرها السنوي العام في بغداد، فانتهز الشبيبي فرصة دعوة وجهت له للسفر إلى عمان، فزايل بغداد إلى الأردن وعقد المؤتمر في غيابه. وعاد من عمان بعد انتهاء المؤتمر، فلم يكد يصل إلى داره حتى قضى نحبه في نفس تلك الليلة.

***

أصدر الكاتب السوفياتي كوتلوف كتاباً عن «ثورة العشرين» نقلها إلى العربية عبد الواحد كرم. وقد ذهب الكاتب إلى أن الثورة العراقية كانت ثورة عمال وفلاحين على الاقطاع والرأسمالية على الرغم من قادتها من شيوخ الدين والعشائر، ومنح العوامل الاقتصادية والصراع الطبقي أهمية بالغة في نشوب الثورة. وسجّل للشيخ محمد رضا الشبيبي آراء تؤيد ما ذهب إليه. فسألنا الشيخ عن تلك الآراء، فقال ما معناه: جاءني ذات يوم المؤلف بموعد سابق ومعه مترجمان رجل وامرأة، إذ كان لا يحسن سوى اللغة الروسية. وقد بحث معي عن ثورة العشرين وأسبابها، وكان يتكلم بالروسية فينقل المترجم كلامه إلى الانكليزية ثم تترجمه المترجمة إلى العربية، فأردّ عليه وينقل كلامي إلى الإنكليزية فالروسية ليفهم صاحبنا مآله. وكانت تلك طريقة متعبة فضلاً عن احتمال ضياع المعنى أو اختلافه خلال هذا النقل المزدوج.

وقد أرسل المؤلف نسخة كتابه بالروسية إلى الشبيبي بعد طبعه (وذلك قبل سنوات من ترجمته إلى العربية)، فاستعان بأحد الطلاب العراقيين لترجمة ما جاء فيه على لسانه. ولما اطلع على الآراء المنسوبة إليه استنكرها وتناولها بالنقد والتجريح.

وقد ناقش الدكتور علي الوردي، في الجزء الخامس من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» (القسم الثاني)، آراء كوتلوف في ثورة العشرين، فأبدى عدم موافقته على ما ذهب إليه المؤلف من نسبة الثورة إلى جماهير الفلاحين والبدو وعمال المدن. قال الوردي: «وأعترف أني، حين قرأت الكتاب، شعرت كأنه يتحدث عن ثورة غير الثورة التي عرفناها وأدركنا رجالها، وعن بلاد غير البلاد التي نعيش فيها». وأضاف قائلاً: «ويبدو أن كوتلوف حاول أن يصبّ ثورة العشرين في القوالب التي يحملها في ذهنه بغضّ النظر عمّا جرى في الثورة من وقائع مشهودة».

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه هاجم نوري السعيد، وهو رئيس الوزراء، في مجلس الاعيان وندّد بسياسته تنديداً شديداً، فوقف نوري يردّ عليه بحدة وانفعال، وقال ما معناه: ليس هذا كلام سياسي مسؤول بل هو خيالات شاعر وأوهام كاتب.

ولم يكن من الشبيبي إلا أن التفّ بعباءته وخرج غاضباً من القاعة. ولكن لم يحلّ المساء حتى فوجىء بزيارة نوري السعيد له في داره يطيب خاطره. وهكذا كان رجال ذلك العهد يميزون بين المناقشات والمهاترات السياسية والعلاقات الشخصية. وقال له السعيد: سوف يأتي يوم تترحمون فيه على عهدنا.

***

كثيراً ما كنت أسمع محمد رضا الشبيبي بعد ثورتي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ يشكو ويترحّم

على عهد الملك ونوري السعيد.

قلت له: كنت معارضاً مزمناً تسلق الحكومات المتعاقبة بألسنة حداد، فما عدا مما بدا؟ قال: أجل، كنت معارضاً أتسقط مخالفات الحكومة وانحرافها وأطلب الإصلاح، لكنني لم أطلب انهيار النظام وذهاب ريح السلطة واستبداد فئة قليلة جديدة لا خبرة لها ولا حسن نيّة بأمور البلاد. حين كنت أصارح المسؤولين وأتعقب أخطاءهم وسوء أعمالهم وآخذ عليهم التواء طرقهم كانوا يصغون إليّ ولو على مضض ويفعلون أحياناً أو لا يفعلون. أما هؤلاء الذين ينعتون أنفسهم بالثورية والتقدمية وسائر الصفات فلا يستمعون إلى أحد ولا يقبلون مصارحة، ويسرعون إلى اعتقال خصومهم والفتك بهم، وكمّ الألسنة والصحف وحرية القول... وبقي الشبيبي ساخطاً متألماً حتى أدركه الحمام.

وقد جاء إلى داره زبانية الأمن في عهد الرئيس عبد السلام عارف بعد منتصف الليل للقبض على ابنته المتهمة بالشيوعية. حاول الشبيبي اقناعهم بإرجاء الاعتقال إلى الصباح فلم يفلح. وأخيراً تمكن من الاتصال هاتفياً بعبد السلام فشكا له الأمر وترحّم على العهد الملكي البائد، فأمر الرئيس بصرف النظر عن اعتقال الفتاة.

انتخب الشبيبي عضواً بمجمع اللغة المصري في مقعد الأب أنستاس ماري الكرملي، ولما كان المألوف أن يتكلم العضو الجديد عن سلفه الذي حلّ محله، فقد طلب إليّ أن يطلع على قاموس الأب «المساعد» ليبحث فيه. وقد اتصلت بالآباء الكرمليين في الدير وهيأت للشبيبي أن يطلع على مسوّدات المعجم، فوضعت تحت تصرّفه ونظر فيه ونقل ما يروم نقله لخطابه في المجمع المصري.

***

على أثر قيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ والقضاء على حكم عبد الكريم قاسم، قررت حكومة الرئيس عبد السلام محمد عارف مفاوضة الملا مصطفى البارزاني الذي قاد التمرد الكردي منذ سنة ١٩٦١. وارتأت إيفاد لجنة مفاوضة للتعرّف على مطالب الاكراد وأسندت رئاستها إلى محمد رضا الشبيبي، وكان من أعضائها فائق السامَّرائي.

ذهب الشبيبي إلى المناطق الكردية وفاوض البارزاني، واتفق معه على منح المنطقة الكردية «لا مركزية» إدارية، وعاد فبلّغ السلطات العراقية بنتيجة مساعيه.

قال الشبيبي: بعد أيام سألني الرئيس عبد السلام عارف عن معنى «اللا مركزية»، فقلت له: انني رجل لغويّ و «اللامركزية» ليست محدّدة لغةً بل يحدّدها الاتفاق على نطاقها السياسي والإداري، وذلك شأنكم أنتم السياسيين.

***

جاء إلى بغداد سنة ١٩٤٧ رشاد بيبي مندوباً عن إذاعة الشرق الأوسط التي كانت تذيع من قبرص، فاتصل بالأدباء للحصول على أحاديث منهم.

وقابل محمد رضا الشبيبي الذي سأله: ما معنى لقبك «بيبي»؟
قال: انه الشبيبي بدون «ش».

* * *

توفي صديق للشيخ محمد رضا الشبيبي فمضى لقراءة الفاتحة على روحه تتبعه حاشية كبيرة من أقربائه وأصحابه، ولم يكن يعلم أن هذا الصديق الذي نعي إليه ولم يره منذ سنوات طويلة قد ترك داره في بعض شوارع بغداد القديمة وابتنى داراً انتقل إليها في أحد الأحياء الجديدة.

دخل الشيخ وجماعته إلى الزقاق الذي فيه دار الصديق الراحل القديمة فرأى رجالاً واقفين على الجانبين. ولم يكادوا يرون الشيخ حتى حفوا به واستقبلوه استقبالاً لائقاً وأدخلوه إلى الدار وأجلسوه وصحبه في صدر المجلس. ولكن.. كان المقرىء يقرأ السورة القرآنية الخاصة بزواج موسى القويّ الأمين، وهي تقرأ عادةً في حفلات عقد القران. وقدمت للشيخ وصحبه الحلوى والعصير، والجمع في أنس وسرور. إذن لم يكن هناك مجلس تعزية، بل كانت حفلة عرس.

وخرج الشيخ بعد أن هنأ أسرتي العريس والعروس. وسأل بعد ذلك عن دار صاحبه المتوفى فأرشد إليها وقصدها ليقرأ الفاتحة على روحه.

* * *

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه سافر ذات مرة إلى الشام ونزل في فندق أميّة. وفد رجال السياسة والأدب للسلام عليه، وجاءه معلّم خدم في المدارس العراقية يوم كان وزيراً للمعارف، فدعاه إلى تناول الغداء في داره. واعتذر الشبيبي بكثرة مشاغله، لكن المعلم لم يقبل له عذراً.

وجاء المعلم إلى الفندق في اليوم الثاني قبل الظهر واصطحب الشيخ في عربة اكتراها وقال للحوذيّ: مرّ في طريقك بسوق الحميدية. واستأذن ونزل إلى بعض الدكاكين واشترى خبزاً و«كباباً» وفاكهة وشيئاً من الحلوى وضعها في العربة وأمر الحوذي بالمضيّ إلى داره.

ولما بلغاها وضع المعلم الطعام الذي ابتاعه على المائدة، واتى بقدح ماء، وقال للشيخ: تفضل باسم الله، واعذرني عن التقصير في شأنك فإنّ زوجتي لا تطبخ. وفرغا من تناول الطعام فأركب الشيخ عربة وأعاده إلى الفندق معزّزاً مكرّماً.

* * *

دعي الشيخ الشبيبي إلى زيارة مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة مع نخبة من أدباء العرب وأعضاء مجمع اللغة العربية المصري، والمدينة قائمة في وادٍ ينزل إليه بطريق وعر متعرّج من الهضبة، وهو طريق يصعب على السيارات السير فيه. وقد اضطرّ الشيخ ورفاقه إلى النزول على أقدامهم ولقوا في ذلك مشقّة عظيمة. وبعد زيارة معالم المدينة وقضاء بضعة أيام فيها وحان موعد العودة قال الشبيبي للدكتور عبد الهادي

التازي المرافق للوفد أنه يصعب عليه وعلى رفيق له من شيوخ المصريين الصعود من الوادي ورجاه أن يجد لهما وسيلة للركوب. وكلم التازي هاتفياً أحد المسؤولين باللغة الفرنسية وقال له: لديّ شيخان ميّتان من التعب فجد لهما وسيلة نقل. ولم يسمع المسؤول العبارة «من التعب»، فظن ان الرجلين قد ماتا فعلاً فأسرع وارسل سيارة اسعاف تحمل تابوتين. رأى التازي السيارة القادمة فبادر إلى إعادتها قبل أن يراها الشيخان، ثم نبّه رفيقه أن الرجلين حيّان وطلب ارسال سيارة «جيب» لتقوم بمهمة النقل.

دعي الشيخ محمد رضا الشبيبي إلى زيارة الكويت ضيفاً على أميرها، وقد استقبل فيها استقبالاً حسناً ووضعت تحت تصّرفه سيارة وسائقها. أخذه السائق لزيارة العمران الجديد والأسواق المليئة بالبضائع الشرقية والغربية وكل النعم التي نالها البلد الصغير من ثروته النفطيّة المفاجئة.

قال الشبيبي للسائق ذات يوم: أريد أن أرى الكويت القديمة. فأجابه: أنا على استعداد لأخذك إليها، لكن السيارة لا تدخل السوق العتيق. قال الشيخ: أنا أستطيع المشي على قدميّ.

وأخذه السائق إلى سوق الكويت القديم، فشاهد الدكاكين المتواضعة. ورأى امرأة جالسة على الأرض تبيع بعض الاعشاب الهزيلة وترشُها بالماء بين الحين والحين من سطل بين يديها. قال السائق: هذه الكويت القديمة. أما صناعة السفن الشراعية فقد انقرضت أو كادت.

***

أشاد عبد الرزاق الشيخلي، في رثاء له لمحمد رضا الشبيبي ألقاه في حفلة تأبينه، بمزاياه الكثيرة وأدبه الجمّ، وذكر مواهبه وصبره وجلده في التصميم والعمل ونضجه الفكريّ المنبعث من إدراك عميق وتمييز بين الحقائق والأوهام والانطلاق والجمود، ومجابهته لدنيا الحقائق مباشرة باحثاً عن الجوهر، غير آبه بالظواهر المتغيّرة والمظاهر الخارجية، والتزامه جانب البساطة وهي عماد الحياة ومحورها.

وقال ان التحدّث عن الفقيد الشبيبي ليس يسيراً، إذ شمل جهاده كل الميادين من علمية وأدبية واجتماعية وسياسية، بنظمه ونثره، على مدار الساعة ولنصف قرن من الزمن. وقال إن الحياة التي عاشها والآفاق البعيدة التي امتّد إليها بصره ونفذت إلى أعماق بصيرته تكاد تكون وثيقة تاريخية وسفراً ضخماً حافلاً بمآثره ومحامده لعهدين متعاقبين: العهد العثماني في إبّان احتضاره والعهد العراقي الذي تلاه. وقال إن سيرة الشيخ منبثقة من إيمانه العميق بكرامة الإنسان وحريته ومن مفهومه للسياسة بأنها ترمي إلى الإصلاح الجذري في الإنسان ذاته لتضمن له أخوّته مع الغير وأمنه وسعادته.

ورثى الشبيبي الشاعر المصري عزيز أباظة (باشا) بقصيدة طويلة قال في مطلعها:

قم فأدِّ العزاء للإسلام ... في زعيم وشاعر وإمام

الشبيبي، أين ثاني الشبيبي ... إذا طمّت الخطوب الدوامي؟

علي الشرقيّ

عليّ بن الشيخ جعفر بن محمد حسن بن أحمد بن موسى بن راشد الشرقي أو الشروقي، وقد قال الدكتور محمد مهدي البصير في الشيخ جعفر (١٨٤٣ - ١٨٩٢) أنه كان من كبار فقهاء العراق وشعرائه في القرن التاسع عشر.

وقال: «وقد يسّر المترجم، وهو في قبره، أنّي أعرّفه بابنه (أي الشيخ علي الشرقي)، ولكن ثقوا أنه كان أنبه شأناً وأعلى قدراً وأسير ذكراً من أن يعرّف». وتنتمي أسرة الشرقي إلى قبيلة بني خاقان العربية، المقيمة على ضفاف الغرّاف في قضاء الشطرة، وكان أول من استوطن النجف منها جدّها الشيخ موسى.

ولد علي الشرقي بالنجف سنة ١٨٩٠، وتوفي والده وهو طفل صغير، فنشأ في كنف خاله الشيخ عبد الحسين الجواهري. ودرس علوم العربية والدين على علماء الغريّ فبرّز فيها تبريزاً، وقال الشعر صغيراً وجوّده شاباً. وكان من الشباب الواعي المتطلّع إلى النهضة الأدبية والفكرية في أواخر العقد الاول من المائة العشرين.

وصف الشرقي طفولته أروع وصف في كتابه «الأحلام» فقال: «ويموت أبو الوليد، ويترعرع اليتيم يعوّضه حنان الأم عن حدب الأب.

وكانت لأمّه جارة من آل الفحّام، ذلك البيت الجليل المنجّم بالعلماء والأدباء، تولّت تعليم الوليد. وكان لتلك المعلمة الحبيبة أخوان هما السيد حسن والسيد محمود، وكان الكثير من ناشئة النجف يتأدبون عليهما. وكان مجلسهما للتعليم في عمارة الميتم الذي أنشأه الدرويش إبراهيم خان في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة وجعل فيه قسماً داخلياً وبذل عليه أموالاً طائلة، وموقعه في محلة العمارة تحت الطاق المعروف بطاق الدرويش. لقد أودعت المعلمة الوليد عند أخويها، ولما أتقن الكتابة تقدم للدراسة العلمية. وكان يلبس البزّة العربية الشائعة كوفية وعقالاً، ولكن احتراماً للعلم وضعوا على رأسه العمامة. وكان من عادته أن يلف العمامة للشيخ الجديد شيخ قديم محترم. وعندما كوّرت على رأس الشيخ الجديد، دفعها الشيخ القديم ورصّها كي لا تكون قلقة على هذا الرأس، ولكن بكلّ أسف بقيت قلقة حتى الآن».

ثم وصف «الجامعة النجفّية» التي نشأ في أحضانها ودرس في حلقاتها وتأدّب بآدابها وتخلّق بأخلاقها فقال:

«فاتيكان الشيعة وأزهر العراق قبل أن يوجد الأزهر. ولا تمتاز هذه الجامعة بأسلوب فكريّ خاصّ، إنما هو اسلوب الفكر القديم طبعته الكوفة بطابعها: طابعه الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وكانت على الأخص مدرسة علوية أسّسها منبر عليّ عليه السلام ومن تتلمذ عليه من أبنائه وأصحابه . . .»

ويقول بعد ذلك: «أما طريقة التدريس في النجف فقديمة تتردّد بين الطريقتين

اليونانيّين: طريقة التحليل وطريقة التفسير. . . ومراحل التدريس في النجف ثلاث: المرحلة الأولى في المقدّمات يدرس فيها النحو وعلم الصرف وعلم المنطق وعلم البيان والبديع. . . المرحلة الثانية: السطوح، وهي دراسة الفقة والأصول على سطح كتاب مفتوح ينشر بين يدي الاستاذ والتلميذ. . . وفي هذه المرحلة يدرس الحساب والجدل والفلسفة النظرية. . . ويدرسون أشكال إقليدس للهندسة، ويراجع الطلاب لدراسة اللغة القاموس المحيط للفيروز أبادي والصحاح للجوهري ومجمع البحرين للطريحي، ويراجعون لعلم الرجال كما يسمونه كتاب رجال أبي علي، ويراجعون للحديث كتاب الوسائل، وللتربية كتاب المفيد والمستفيد للشهيد العاملي».

ثم يتطرق إلى ذكر المرحلة الثالثة، وهي الدراسة الخارجية، أو كما يسمونها «الخارج» فيقول: «وهي محاضرات يلقيها الاستاذ على مجموعة من التلاميذ لا ينشر لها كتاب، بل هي أشبه بمذكرات على موضوع مركزّ وللتلميذ الحرية الكاملة في المراحل الثلاث أن يختار المدرس والمدرسة والكتاب المدروس. . .».

***

لم يكد الشرقي يبلغ مبلغ الشباب حتى مضى إلى كرمنشاه لجباية حقوق للشيخ كاظم الخراساني، ثم عاد مسرعاً إلى النجف بعد تفشي وباء الهيضة في ربوع إيران.

وأكبّ الشرقي الشاب على المطالعة والمناقشة والمباحثة واستشفاف معالم النهضة الأدبية في مصر وسورية ولبنان. واتفق مع نفر من أقرانه على جمع الكتب والدواوين الشعرية وتبويبها وشرحها، فتولوا طبع ديوان إبراهيم الطباطبائي وغيره.

ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤، فلجأ إلى الشطرة، وكان ذلك مبدأ اتصاله بالغرّاف والمنتفق، مسقط رأس آبائه من قبل، وتعرّفه بزعمائها من آل السعدون وسواهم. ثم لحق بالمجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي في الناصرية، وكان له يد في محاربة الانكليز. ونشر الاحتلال البريطاني ظله على بغداد وجنوبيّ الفراتين، فجاء إلى النجف وقدم منها إلى بغداد، ثم عاد إلى المنتفق مساهماً في الحركة الثورية.

رحل إلى الحجاز سنة ١٩٢١ عن طريق البصرة والبحر الأحمر وقابل الملك حسيناً في جدّة ومكة وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

أعلاك ربّي، ما أعزّ وأشرفا، علماً على الملك الأغرّ مرفرفا

وقفل عائداً بعد نحو من سبعة أشهر. وقد عين عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري في بغداد(٧ تموز ١٩٢٨) ونقل قاضياً في البصرة (آب ١٩٣٣) وأعيد عضواً بمجلس التمييز الشرعي بعد أمد وجيز (شباط ١٩٣٤)، ولم يلبث أن أصبح رئيساً له (٢٥ كانون الاول ١٩٣٤). وقضى في هذا المنصب نحواً من ١٣ عاماً، حتى عين عضواً بمجلس الأعيان في تموز ١٩٤٧. واختير نائباً أول لرئيس مجلس الاعيان (٥ آذار ١٩٤٩) وجدّد انتخابه في أول كانون الاول ١٩٤٩ حتى عين وزيراً بلا وزارة (١٠ كانون

الاول ١٩٤٩ ـ ٥ شباط ١٩٥٠).

وأعيد تعيينه وزيراً بلا وزارة في ٧ أيار ١٩٥٣ إلى ١٧ أيلول ١٩٥٣، ثم في ٣ آب ١٩٥٤. واحتفظ بمنصبه في الوزارات المتعاقبة المؤلفة في ١٧ كانون الاول ١٩٥٥ و ٢٠ حزيران ١٩٥٧و١٥ كانون الاول ١٩٥٧ إلى ٣ آذار ١٩٥٨، ثم من ١٩ ايار ١٩٥٨ إلى ١٤ تموز ١٩٥٨. وقد استمّر عضواً بمجلس الأعيان إلى ٦ تموز ١٩٥٥، وجدّد تسميته عيناً في شهر تشرين الثاني من نفس السنة إلى ثورة تموز ١٩٥٨. واعتقل عند قيام الثورة، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة.

وضع مؤلفات منها: عواطف وعواصف (ويحوي جانباً من شعره، طبع ١٩٥٣)، ذكرى السعدون (١٩٢٩) الأحلام (١٩٦٣) العرب والعراق (١٩٦٣). وقد نشر مقالات متسلسلة في المجلات والجرائد، منها: الغراف والبطائح (في مجلة لغة العرب) والألواح التاريخية (في مجلة الاعتدال النجفية) والأحلام والأندية العراقية (في جريدة العراق) ونكت القلم الخ..

توفي ببغداد في ١١ آب ١٩٦٤ ووري التراب في مقبرة أسرته بالنجف.

علي الشرقي الشاعر:

كان علي الشرقي رجل قضاء ورجل سياسة، لكنه لم يكن طوال حياته الا شاعراً بالفطرة. تطبّع بالمظاهر الدينية والدنيوية، فتغلّب عليه الشعر في أحرج مواقفه وأشدها قسوة وغلظة وانقاد لزمام العاطفة في مقام الجدّ والصرامة.

ولقد نشر طائفة من شعره في ديوانه الموسوم بـ «عواطف وعواصف» فأهدى إلي نسخة وشّحها بالكلمة الآتية:

«إذا جاز أن تحمل الفاكهة إلى بستانها فإني أحمل اليكم هذا الأثر، مع إخلاص الشاعر».

وكتبت إليه برسالة جاء فيها:

«أما الشعر فسحر وعطر. وهو شعر نابض بالحياة، صادق اللهجة، واضح السّمات، ينطق بلسان البلد والجيل، ويحمل طابع العصر ورسالته. وقد مرّ زمان كان في مقياسه أعذب الشعر أكذبه، أما اليوم فخير الشعر ما عبّر عن آلام الشعب وآماله ومشاعر الأمّة في طموحها وتحفزها.

وخير الشعر ما أفصح عن حبّ المغرم وبهجة الخليّ وحسرة الشجيّ وأمل الشباب وذكريات الشيخوخة وجميع ما يهز أوتار القلب البشري من نوازع ولواعج.

«ولقد وفّقتم لترديد نواح البلبل السجين وصداح البلبل الطليق، ولوعة الفلاح في كوخه، وترجمتم عن نزعات الشعب المتطلّع إلى الحياة والحرية، ودعوتم إلى الألفة والإخاء، وأشدتم بالنهضة والإصلاح، فجاء ديوانكم سجلاً حافلاً للحياة العراقية في النصف الأول من المائة العشرين...».

أجل، إن في شعر الشرقي كلّ ذلك وأكثر من كل ذلك. وشعر الشرقي قبل كل شيء شعر الشعب، فهو يفصح عن أماني الفقراء والكادحين ويعبّر عن مشاعرهم ونزعاتهم، وهو يأنس إلى الأرياف وفلّاحيها ويحنّ إلى مرابعها وأكواخها، ولا سيّما إلى نواحي الغرّاف التي قضى فيها شطراً من صدر شبابه، وقال في ذكرها:

زهو القصور ونزهة الأرياف ... غرف مطلّات على الغرّاف
تلقى الحضارة والبداوة عندها ... بإزاء فرع أو بجنب طراف
أنفت على الأحقاف، فهي مدلّة ... لكنها ببساطة الأحقاف
الفارهات بساطةً وجلالةً ... هذي القصور وغيرهنّ أثافي
نهضت على حمراء دجلة زانها ... صافي الأديم على الأديم الصافي
بمحلّة الأغصان تحسب أنها ... من حسنها بمحلّة الأعطاف
ملء المجالس عفّة وطهارة ... ومحبّة وتكرّم وتصافي
معمورة الأطراف، كم من ليلة ... بجوارها معمورة الأطراف
النهر مضفور السّلاسل فلّه ... جري النسيم وكفّ منه الضّافي....
قمر السّما، لك فوق دجلة منظر ... متنّوع الأطياف والألطاف
وكأنّ دجلة شعلة وهّاجة ... سالت أشعّتها على الأجراف

ولا يأنف الشرقي أن يضمّن شعره كلمات أبناء الشعب وأمثالهم وحكاياتهم. ولعلّ هذا الشعر لا يتّسم بجزالة اللفظ ومتانة التركيب لكنه يفيض بالأصالة والإخلاص وصدق اللهجة وطيبة النفس وحبّ البشرية والناس، تقطر منه أنداء اللطف والعطف والحنان كالعبرات الباردة التي تسكبها المآقي الحزينة.

لقد تمنّى لو تمطر السماء مروءة وحناناً، وروّعته دمعة المظلوم، فقال:

مدّ زعيم لطبيب يداً ... كانت على رغمي ملثومة
قال له: ليس بها من أذى ... فصاح: لا... كفّيَّ محمومة
ومرّ من حولها شاعر ... ردّدت الدنيا ترانيمه
فقال: ظنّي بمكان الأذى ... قد سقطت دمعة مظلومة!

وعلي الشرقي شاعر الأسى والألم: فقد أباه طفلاً، وذاق مرارة اليتم والحاجة حتى إذا ما ابتسم له بعد لأي الزمان ومنحه السعادة والأمن وأتاح له الحبّ والزواج، فاجأه بموت عروسه في ليلة الزّفاف. فإذا بالشموع التي أعدّت لموكب العرس قد أسرجت في موكب الموت. وإذا بالشاعر قد أخرسه هول المصاب حيناً ثم أنطقه شعراً مؤسياً حزيناً:

شمعـة العـرس، مـا أجـدتِ التأسّي — أنـت مشبـوبـة ويُطفـأ عـرسي
أنت مثلي مشعـولـة القلـب، لكن — من سنـاك المشـؤوم ظلمـة نفسي
يـا رعـى الله للـزفـاف شمـوعـاً — يتهـافتـن حـول نعش ورمس
عـاكست حظّهـا الليـالي فـذابت — خجـلاً تـرسل الـدمـوع بهمس
هكـذا ذاب بـاحتراقِ فـؤادي، — هكـذا سـورة الـدمـوع بـرأسي
جلـوة أم منـاحـة لنجـوم — يتنـاثـرن بين سعـد ونحس
كـان حـدسي تـذكـو الأمـاني شمـوعـاً — واللّيـالي خيبّن ظنّـي وحـدسي

انّ العروس الشابّـة التي قضت نحبهاليلة الزفـاف لتذكرنا بقصيدة الشـاعر الفرنسي أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤)، تلك القصيدة التي قـالها في رثاء «ميرتو» التّارنتيّة الفتاة الحسناء التي ركبت السفينة لتلحق بخطيبها حيث تنتظـرها السعادة والأغاني والزواج. وقفت وحيدة تحدّق في الأمواج المتلاطمـة، فهبّت رِيح هوجاء نفخت الشراع وأطاحت بالفتاة في حضن المياه المزبدة. لقد تلقّت الأعماق جسـدها الجميل، فخرجت إليها ربّة البحـر دامعـة العين من كهفهـا السحيق، وحفظـت جسمهـا من أنيـاب الـوحـوش الضـاريـة، وأمـرت قيان الماء فـأخذنها إلى السـاحل واستـدعين غيـد المروج والمنابع والجبال، فأقمن لها منـاحة لم تشهد الأرض مثلهـا. وقلن لها نادبـات: «أسفاً عليك، أيتهـا العروس، لم تبلغي دار الحبيـب ولم ترتـدي ثيـاب العرس، وحلى الـذهب لم تحط بساعدك البضّ، ولم يزيّن إكليل الزفاف شعرك المنسدل على كتفيك».

ولا عجب أن يطغى الألم على نفس الشـاعر الشرقـي فيخـاطب البلبل الأسير قائلاً:

أيّها البلبـل المعلّـق في السجّـن — سـلام، وهكـذا لي روح
إن تكن ذكـريـاتـك الـورد والأطيـار — تشـدو فـذكـريـاتي جـروح
كـلَّ يـوم يلـوح فجـر لعينيك — فهـلاّ يـومـاً لعيني يلـوح؟..

إنّ هذا البلبل السجين الذي خاطبه في رباعيّاته لم يكن سوى طيف الشاعر نفسه.

لقد كان هذا الشاعر أسير الحياة الاجتماعية يبغي الانعتاق والانطلاق، فهل بدع أن يلتقي وبلبله الحبيب في قفص السجن، كما يقول:

التقى الشـاعـران في قفـص السّجن — فلـم يعبـأ بحبس وضيـق
يـرسـلان الألحان للمـلأ الخابط — تيهـاً في عـالم مصعـوق
فكـأنّ الأسير غير أسير — وكـأن الطليـق غير طليـق

لقد مزج الشرقي في رباعياته التصريح بالرمز وقرن السياسة بالاجتماع والمادة بالمعنى فلا بدّ للقارىء من إمعان الفكر في خفايا السطور ليستشفّ معاني بعيدة في أغوار الكلمات الظاهرة. وان شاعرنا ليكثر من الصور والاستعارات والتشابيه والكنايات، أليس هو القائل:

أنا أصدح باللفظ ... لمن في صدره المعنى

والقائل: ثوب الصداقة يبلى سريعاً، وبيت الحكم الذي أسّسوه له ألف باب، واليوم المضرّج بحر هائج والغد المؤمّل في ساحل الأمان، والمرآة لا تفيد في كفّ الأعمى، وماذا يلقط الطائر من دكّان الحدّاد؟، وأية خميرة ترجى من الفطير؟ . . .

وهو يقول:

هذي الصدور مواقد ... خمدت فبثّت بالدخان

ويقول:

إنّا، ولا غَزْل لنا، ... نحسن فتل المغزل

ويقول:

من وراء المرآة صوت يناغي ... ببّغاءً توحي عن المرآة

ويقول:

جسدي قارب وقلبي شراع ... وحياتي حبل وعقلي نوتي

ويقول:

بعض القلوب طيور ... لم تستطع أن تطيرا

ويقول:

بلدي رؤوس كلّه: ... أرأيت مزرعة البصل؟

ويقول:

شمعتي بالرغم من مقراضها، ... كلّ آن ولها رأس جديد . . .

شمعة طاف بها الجمّ الغفير ... تتلالا بابتهاج وارتياح

تتهادى من ضرير لضرير ... قضوا العمر عثاراً ونطاح . . .

***

أقام الشرقي شطراً من حياته في الريف ورأى نصب الفلاح وعناءه ورثى لبؤسه وشقائه فقال:

أتراني بين القرى والضواحي ... طفت ظهراً وفي يدي مصباحي

إن تفتّش عن ارتياح بلادٍ ... فتفقد شؤونها في الضواحي

ما لهذا الفّلاح في الأرض روح، … أهو من معشر بلا أرواح؟
هو في جنّة ينال عذاباً … وهو تحت الأشجار أجرد ضاحِ
وقرى النمل، لهف نفسي، أثرى … من قراه إلاّ من الأتراح . . .
ربّ قصر من فوق دجلة كالطّا(م) … ووس للزهو ناشر بجناح
لو كشفنا أطباقه عن أساس … لوجدناه منجل الفلاح!

ولقد ضاق الشاعر بأمر نفسه فقال :

لهْفي لخمسين من سنّي قد اندرست … في الكُتْب بحثاً كأني دودة الكتب

وضاق ذرعاً بالعقل والفكر واليقين فقال :

ليتني كنت في الرياض شقيقاً … للورود بدون عقل ولبّ

وقال :

انني قد غدوت أنعم في الشكّ … لأنّي منغّص باليقين

وقال :

وبلوى البشرِ المكّار … أن يمعن في الفكر

وضاق ذرعاً بالتاريخ ورجاله فقال :

في رمال التاريخ آثار أقدام … رفاق تخطّت التاريخا
نفخت في الجراب دهراً وولّت … فورثنا جرابها المنفوخا
وإذا بي ما بين أجربة تمشي … على الأرض سادةً وشيوخا

ولقد حسد الطائر السّجين فقال :

ولا يضيرنك أن غدوت أسيراً، … كم طليق يكابد التنكيدا
قفص من جريدة النخل خير … من رياض عن طيرها لن تذودا

ونفس عليه أنغامه الفطرية فقال :

بلّدتنا صناعة اللحن في القول … فغرّد لنا بلحن السّليقه

وقال أيضاً :

إن تكن قد سجنت، يا طير، جسماً … فأنا قد سجنت روحاً وجسما

وقال :

إن يكن قلبك المولّع بلواك … فإنّي بلواي قلب وراس

وقال :

وهذا قلبي المغلق … من يفتح أبوابه؟

وقال من فرط الوجد والألم :

عسى أن ترقص الدنيا ،   ولو رقصة مذبوح !

وأساء الظن في المجتمع فقال :

لست أخشى عليك من سارق   قط ولكن خوفي من الحرّاس

والشرقي بعد ذلك عدو التعصّب والرياء ، فهو يقول :

ذممت التعصّب من قبل ذا   وها أنا في ذمّه لا هج
دعونا نوسّع آفاقنا   ليقبلنا المزج والمازج
أقول ، وقد سألتني الرفاق :   أأنت على وضعنا خارج ؟
أبى الثمر الفجّ عن جذعه   فصالاً وينفصل الناضج

ويقول :

سبعون معصية قد   أتيتها في الخفاء
كانت أبرّ وأزكى   من طاعة في رياء

ولقد هام علي الشرقي بوطنه وبلاده ورثى لحالها وطلب رقيّها ورفعتها ومجدها ، وردّد في شعره ذكر أقطار العروبة من مصر والشام والحجاز ونجد إلى طر ابلس وفلسطين .

وأقضّ مضجعه خمول العراق ، فقال :

نطقت بحاجتها الشعوب وأفصحت   وأرى عراقي واجماً لا ينطق
وكأنّ هذا الشرق سفر غرائب   شرحوا عليه الدارجون وعلّقوا
ختمت صحائفه وجئنا بعدها   حتّى كأنّا فيه فصل ملحق

وفي موشّحه «صفير العسس» عرض لأحداث الدهر في بلاد الرافدين من سقوط عبد الحميد ودك عرشه وغليان الثورة القومية إلى تشتت الآراء وتخاذل الرجال . ولقد طالما راودته الأحلام ، فرأى الفراتين وقد ازدهرت على ضفافها نينوى وبابل وأور ، ومرت مواكب آل ساسان وأكاسرة المدائن ، ورأى شبح الموبذان خاشعاً بين يدي سابور.

ثم ازدحمت الجموع في يوم ذي قار والقادسية ، وارتفعت رايات الرشيد والمأمون ، وهجمت المغول ، وجاءت دولة آل عثمان ، وإذا العين تحلم بدولة عربية ، وإذا العراق قد بنى بيتاً له ألف باب ، واحتفل بدولة الألقاب ، فنعم الغدوّ ونعم المآب .

تألم الشاعر لحال بلاده فقال :

لم يبقَ وجه بشوش   في الكوخ أوفي الخصاص

وقال :

في جـــانِبَيْ قطـــري زيت يفـــور فـأين أيـن الأمّـــة الشـــاعلـــة؟

وقال :

ليس تجديك سكتــــــة الأفـــــواه حين نمسي بشـــورة في الصــــدور

والشرقي شاعر يجيد الوصف ولا سيّما وصف الحالات النفسية والنوازع الخفية ، فهو يقول :

شـــاعـــر خـــاشع يحسّ بها في النفس مـن وحشـــة وفـــرط التيـــاع

رجّـف الصـوت بـالحنين وأصغـى لـــــــرفيـف الأرواح في الأسماع

ذلك علي الشرقي الرجل والشاعر!

إيه ، يا أبا إحسان ، أيها الإنسان الفاضـل . إنّي لأذكر ساعات وأياماً وسنين مضيئة قضيتها متمتعـاً بأدبك الرفيع ولطفك الجّم ومـودتّك الجميلة المتواضعـة . لقد كنت في عهـدك الأخير تشعر بـدنّو الأجل ، سـافـرت للاستشفـاء في لندن ، ثـم عـدت وكأنّك متجّرد عن الحيا ة الدنيا . فأسرعت بطبع كتابين لـك وهيّأت كتاباً ثالثاً لم يمهلك الزمن لنشره . وكنت تقول : ليـس لي شيء من المتاع ، فداري وسيّـارتي وكلّ ما ملكت يميني إنما هي لإحسان وللعـائلة . . . ولا أنسى أنني زرتك قبل مرضك القـاتل الأخير، وكان لديك جمع من الـزوار، فلما استأذنت بالخروج ومضيت في توديعي متفضّـلاً إلى الباب ، قلتُ : أريد أن أستشيرك في أمور، يا أبا احسان ، فـاسمح لي أن أزورك في فرصة قريبة . وقلت لي : بل عـد الآن ، وأنا كفيل بصرف الـزوّار، فنختلي ونتكلم . ولكنني قلت : لا داعي للعجلة ، وانصرفت ولم أعلم أن القدر يقف بالمرصـاد ، وأنّ زيارتي التالية ستكون للسؤال عن صحتّك وأنت راقـد في الفراش تعاني أوصاب الداء الفتّـاك . ثمّ دقّ جرس التلفون بعد أيام قليلة ، وكان نعيك الذي صكّ السّمع وأضنى النفس وأدمع العين .

***

كـان الشيخ علي الشرقي متـواضعاً ، أنيس المحضر، لا يـأنف ، وقد أصبح شـاعـراً عربيـاً ووزيراً عـراقياً مـرموقاً ، أن يتحـدث عمّا لقيه في صبـاه وصدر شبابـه من ضيق وشظف عيش ، حتى شقّ طريقه في الحياة وبلغ منزلته الرفيعة .

وقد حدثني يوماً أنه كان ، وهو شابّ ، يعاني عسراً شديداً حتى ضاقت به السبل ولم يعرف باباً للأمل . وفي تلك اللحظات العسيرة طرق بابه وجاء أحد أبناء شيوخ العشائر يسأل عن الشيخ علي الشرقي .

ولما عرّفـه بنفسه قال القـادم : ان الفرس عربيـة أصيلة ولكنها لا تسـاوي أكثر من ستين ليرة ذهبـاً ، فإذا شئـت دفعت لك ثـلاثين ليرة عن نصـف ثمنهـا ، أو رغبت في أخذها فادفع لنا ثلاثين ليرة وخذها ، بارك الله لك فيها!

ولم يدر علي الشرقي قصة الفرس ولم يسأل عن أمرها ، ولا ساوم في ثمنها ، بل قال :

هات ثلاثين ليرة واحتفظ بالفرس .

وقبض المبلغ وحمد الله الذي فرّج كربته من حيث لا يعلم .

ومضى اسبوع أو اسبوعان ، وجاء صديق علي الشرقي إلى النجف وقال له : هل قبضت نصف ثمن الفرس؟

قال : قبضت ثلاثين ليرة ، وحقك محفوظ فيها . ولكن حدثني ما القصة ، وما شأنك في الأمر؟

قال : انني نازل في مضارب الشيخ . . . رئيس عشيرة . . وقد أدركته الوفاة ، فاستدعاني وقال لي : أعلم ان هذه الساعة آخر عهدي بالحياة ، ولي فرس أصيلة أريد أن أصرف نصف ثمنها في وجوه البرّ ، فأي جهة من جهات الخير أجدر بها؟ فقلت : أوصِ بنصف ثمنها إلى مقام علي الشرقي (وهو مزار يقابل قرية علي الغربي على الجانب الآخر من نهر دجلة) . وأوصى الشيخ ، ثم قضى نحبه .

وأتم الصديق حديثه قائلاً : وجاءني أولاد الشيخ الراحل يسألون انفاذ وصيّة والدهم ، فقالوا انهم قدّروا ثمن الفرس بستين ليرة ذهب ، وسألوا عن مقام علي الشرقي ، فقلت : اسألوا عنه في النجف الأشرف . وأرسلوا أحدهم إلى النجف ، فكان ما رأيت وسمعت !

قال علي الشرقي : بل كان ذلك الفرج الذي أرسله الله .

ولقد تحدّث علي الشرقي في «الأحلام» عن فقر النجف المذقع وأحلامها العريضة ، تلك البلدة التي كما قال :

فيها مفاتيح لأبواب ... الرجا وبها مغالق
ولها مجاز ينتهي ... بالسّالكين إلى حقائق
ملأى بكل طريفة ... من كلّ معجزة وخارق

حار ورفاقه من الشباب في التماس الرزق ، فألفوا «شركة مقاومة الفقر» وشرعوا بطبع الكتب والدواوين الشعرية . ثم ضربوا في القرى والدساكر ومنازل الريفيين والعشائر ، وباتوا في الخيام والعراء وحجر الطين التي تجري فيها الفئران وتصب السقوف ميزاب أمطارها ، وجابوا ساحات الحرب ودهاليزها الخلفية وميادين الثورة والجهاد . . . وقد كتب الشرقي صفحات صادقة من تجارب الشباب وتجوّلاته وتطلّعاته ، صفحات تمتاز بنثرها القلق القافز المتعثّر وتكاد تشبه أحاديث جان جاك روسّو في اعترافاته . وقد قال :

فصح الشعور به ، ولم أكُ شاكياً ... إلّا لكوني شاعراً وفصيحا
في النفس أشياء ، فهل من موضع ... حرّ الفضاء لأشتكي وأبوحا؟

امتحن علي الشرقي الحياة وعرك الدهر فخرج بحكمة عملية لخّصها بقوله :

«وانّي أكاد أن أكون مخضرماً : لقد توسطت جيلين وشهدت عهدين لا يلتقي أحدهما مع الآخر، ولكني التقيت مع هذا وذاك وأدركت وداع أحدهما واستقبلت الآخر. لقد تتلمذت على منبر ذاك وتوسطت حلقة هذا، وأغرب ما أدهشني وحدة الجوهر واختلاف الأسلوب. الضجة التي سمعها المعّري في اللاذقيّة، وان الاصوات التي كانت مرتفعة في أروقة البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة واشبيلية، وما كان يتصاعد من أبواق دراويش المتصوّفة ومن قعقعة السيوف الخشبية التي يتكىء عليها خطباء الجمعة، كلها تطلب البلسم للجرح وتريد العلاج لهذه الدنيا المريضة، ولكن كلّ ما جاءت به مسكّن لا العلاج الشافي. وكذلك دعاوة اليوم وما تقوم به هذه الأكوام من المؤلفات والمحاضرات والمجلات والجرائد ومكاتب السياسيين ومنابر البرلمانات وصفوف الجامعات وأنباء المراسلين، وكلّ ما سجّلته الأقلام ورتبته حروف المطابع، تلك الأقلام وتلك المطابع التي تكتب وتطبع بحبر رماد الحقّ. فقد قيل إنّ الباطل أحرق الحقّ، وجاء البشر أو شياطين البشر فلم يجدوا إلاّ رماد الحقّ، وسرعان ما جعلوه مادة حبر لما يكتبون وما يطبعون . والدنيا في يومها وأمسها برغم الانقلاب الأول والثاني أساليب تتبدل وظواهر تتطّور، ولكن كلّ ما جاءت به علاج مسكّن وليس بالشافي.

«إنك إذا تقصّيت وفحصت بعمق لم تجد في الرؤوس شيئاً. وهذا الإنسان في قديمه وحديثه لم تنفعه تفّاحة آدم ولا صمّونة مولوتوف(*)، بل هذي وتلك طردته من الجنّة وأبعدته عن النعيم. . . »

الشيخ علي الشرقي :

كان عاطفياً سريع الإنفعال في حياته الشخصية والأدبية، وقد أثر فيه يتمه ونشأته الصعبة في البيئة النجفية الجامدة تأثيراً عميقاً. ولذلك نرى شعره يختلف اختلافاً بيّناً عن شعر معاصريه بكثرة مجازاته وإيماءاته وصوره الغريبة وحدبه على الفقراء والفلاحين والكادحين.

لم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى ثار على بيئته الجامدة ووجد نفسه سجيناً يصبو إلى الحرية والانطلاق ويرنو إلى آفاق بعيدة خارج مجتمعه. وهو يحمل على رجال الدين المتزمتين ويداعب الأفكار الحرّة الجديدة التي انبعثت من النهضة الفكرية في مصر ولبنان على قدر ما تسمح به ثقافته الدينية الأصيلة وعدم معرفته باللغات الغربية. وقد جاء نثره وشعره متماوجين بين القديم والحديث لا يستقر لهما قرار شأن نفسيته القلقة المضطربة.

(*) صمونة مولوتوف (او قنينة مولوتوف، على الأصحّ) اسم أطلق خلال الحرب العالمية الثانية على قنابل بدائية استعملها الروس في الدفاع عن بلادهم، ومولوتوف وزير الخارجية السوفييتية عهدئذٍ.

ولعل هناك بوناً شاسعاً بين الشرقي الشاعر والشرقي القاضي الشرعي العالم الناجح والشرقي الوزير الذي مالأ الوضع الذي ينتقده وسايره لينعم بمنصبه. لكنه كان دائماً مخلصاً وفياً لأصحابه معتدل السيرة غير مندفع في خصومته ونقده. عرف في القضاء فقيهاً ملماً بالأحكام الشرعية متمسكاً بالتسامح والتزام مفاهيم العدالة في تطبيقاته وتخريجاته. أما في الوزارة فكان شفافاً كالماء الذي يتلوّن بلون الإناء، فلما جاءت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وقضت على العهد الملكي الذي زامله في حياته السياسية مضى في «أحلامه» يحمل على سياسة الامير عبد الاله ونوري السعيد. ومن الحق أن يقال إن شعره قبل الثورة كان زاخراً بالشكوى والتبرم من الاوضاع السائدة، فكان ثمة ستار فاصل بين حياته العملية والفكرية لم يحاول رفعه. لم يكن الشيخ علي الشرقي من الرجال المكافحين في سبيل المبادىء والآراء، الراضين بالتضحية وتحمّل المشاق، بل كان بطبعه سهلاً ينقاد للواقع ويماشي ويجامل إلى أبعد الحدود.

وقد قال في احدى رباعياته:

يا رامي الشجر العالي بأكرته، هلاّ تعلّمت أخلاقاً من الشّجر
ترميه بالحجر القاسي بلا خجل وإنه دائماً يرميك بالثمر

لقد هادن المغالين المندفعين والمعتدلين المسايرين وقنع برفاهة العيش وهناءة الأسرة والقبيل واكتفى بالنقد البريء والقول الهادىء، فقال:

هذي الرؤوس ولكن كلها وجع، وذي العيون ولكن كلها رمد
وكم صدور بهذا القطر فارغة جوفاء ليس بها قلب ولا كبد
صدور أندية في جهلها انتفخت حتى تشابه فيها الهرّ والأسد

وصحّ فيه قوله:

يا بلاداً تجهّمت بظلام ألمصابيح فيك ملأى بزيت
إنني هامس بأذنيك قد كنت ولكن لا أريد أرفع صوتي

وكان المسالم الذي قال:

ما لدار السلام أضحت برغمي تشتهي أن تكون دار الخصام؟
تنطح الصخر في قرون الطين وتغزو الأمجاد بالأقزام

***

اطلع احد شعراء النجف المتزمتين على منظومة إيليا أبي ماضي «لست أدري» فعارضها بمنظومة مثلها حسب أنها نقضت كل شكوك الشاعر المهجري وجعل عنوانها «أنا أدري». فانبرى له علي الشرقي بمعارضة جديدة مختصرة ختمها بقوله:

أنت مجنون ولكن لست تدري، أنا أدري.

علي الشـــرقي :

حـدثني علي الشرقي أنـه جـاء من النجف إلى بغـداد بعـد أمـد قصير من احتـلال الانكليز لها سنـة ١٩١٧ ونزل في بعض خانات الكـاظمية . وتحلّق روّاد الخان عصراً في الساحة وأخـذوا يتحدّثون عن الأتراك ومـا جنوه على العراق فسلقوهم بـألسنة حداد ، وقال بعضهم إن الأتـراك كانوا كفّاراً والإسلام بـريء منهم . . . فاعترض علي الشرقي ، وكان جالساً معهم تمضيةً للوقـت ، وقال إن الأتراك مسلمون ولا ريب ، وليسوا كفّاراً ، والأولى انتقادهم بأنهم علّـة تأخر البلاد التي حكمـوها نحواً من أربعة قـرون في دياجير الجهل والفقر . . .

وفي صباح الغد مضى الشرقي إلى بغداد ودخل السوق وجلس في دكّان السيد محمد رحمة الله ، وكان جعفـر الشبيبي عـاملاً لديـه . وفيما هم يتحدثـون إذ جاء بعـض أفراد الشرطـة وتفحّص وجـه علي الشرقـي وقـال لـه : أنت علي الشرقي القـادم أمس من النجف؟

قال : نعم

فأشار إليـه الشرطي أن يرافقه إلى «خـان دلّة» وهو آنـذاك مقّر الشرطة الانكليـزية . ومضى بصحبته فأدخل على قوميسير (مفوض شرطة) انكليزي يتكلم العربية بطلاقة ، وقال له : أنت علي الشرقي (ومضى يسرد حياته وأعماله) . ثم سأله : ماذا قلت أمس في خان الكاظمية وأنت جالس تتسامر مع الجماعة؟

فأخبره الشرقي بما دار الحديث حـولـه ومـا قالـه هـو نفسـه ، فقال المفـوض : هـذا صحيح ، وكلامك لا غضـاضة فيه . لكن العـوامّ لا تفهمه وتؤوّلـه شتى التأويلات في هذه الظروف التي تخيّم عليها سحابة الحرب ، فالأولى أن تحذر الكلام وتلوذ بالصمت .

وأذن لـه بالـذهاب بعـد هـذا التحذيـر ، فخرج وهـو يعجب لـدقّة الاستخبـارات البريطانية .

عبد الحسين الأزري

عبد الحسين الأزري من شعراء الطبقـة الثانية التي برزت بعـد رائدَيْ النهضة الأدبية الزهاوي والرصافي . لكنه بقي محافظاً إلى حدّ ما ولم يساير التجديد إلى آخر أشواطه شأن محمد رضا الشبيبي وأخيه محمد باقر وعلي الشرقي وأقرانهم .

نسبـه علي الشرقي إلى الأسرة الأزريّة المتفـرعة من محمـد بن مراد التميمي البغـدادي المتوفى سنة ١٧٤٩ ، وهو أول من لقّب بالأزري لتعـاطيه بيع الأُزُر المنسوجة من القطن والصوف ، وقـد نبغ من هذه الأسرة الشـاعران محمـد كاظم (١٧٣٠ ـ ١٧٩٦) ومحمد رضا المتوفّى سنة ١٨٢٤ .

لكنّ جعفر الخليلي يذكر مستنداً إلى أصحّ المصادر أن الحاج عبد الحسين بن يوسف ابن محمد المعروف بالأزري ابن محمود بن ابراهيم الحضيري التميمي لا صلة له بآل الأزري المتقدم ذكرهم سوى أنّ أحد جدوده من الحضيريين تزوج بابنة الشيخ محمد رضا أخي الشاعر الشيخ كاظم فطغت شهرة الأزرية على هذا لبيت .

ولد عبد الحسين الأزري في بغداد في شهر شباط ١٨٨١ ، ودرس في مدارسها الإبتدائية . ثم تتلمذ على الشيخ شكر الله قاضي الجعفرية فأخذ عنه العلوم العربية والدينية . وأكبّ على مطالعة الشعر والأدب ، ونظم القريض وهو يافع . عمل في التجارة حيناً ، وهي مهنة أسرته ، وكان موظفاً في شركة ترام الكاظمية .

وافتتحت المدرسة الجعفرية في بغداد سنة ١٩٠٨ فألقى في حفل الافتتاح قصيدة قال فيها :

زيدي بنيك محاسناً وجمالا ودعي الحوادث تقنع العذّالا
وامشي بهم مشي الهلال معانياً حلك الدّجى حتى يتمّ كمالا

وأعلن الدستور العثماني في تلك السنة فكفل حرية الكلام والصحافة . وأصدر الأزري جريدة «الروضة» (٢٢ حزيران ١٩٠٩) ، لكنها أغلقت قبل مرور سنة على صدورها فشفعها بجريدة «مصباح الشرق» (أول آب ١٩١٠) . وصدرت هذه الصحيفة أشهراً ثم أصابتها يد التعطيل .

وأصدر بعد ذلك جريدته الثالثة «المصباح» (٧ آذار ١٩١١) فـ «المصباح الأغرّ» (١٤ تشرين الثاني ١٩١١) وظلّت تصدر ثلاث سنوات . وتولّى الأزري في الوقت نفسه ادارة مجلة «العلم» التي أصدرها هبة الدين الحسيني الشهرستاني .

ولما نشبت الحرب العظمى وخاضت الدولة التركية غمارها ، نفي إلى قيصرية الأناضول مع لفيف من أحرار العراق ورجال الفكر والإصلاح ، فمكث في منفاه نحواً من سنة وعشرة أشهر . وسمح له بالعودة إلى بغداد مع صحبه سنة ١٩١٦ . وقال يذكر وادي أرجيوس من قمم جبال طوروس القريبة من قيصري :

وادي أَرْجَيُوس ، حسبي ما أقاسيه ، شيبّت رأسي كما شابت نواصيه
كفاك سجن غريب بين مجتمع يعدّه كأسير من أعاديه
ضيّعت ، ويلك ، شطراً من شبيبته قد ظنّه برغيد العيش يقضيه
يشكو إلى الليل من صبح يعيد له (م) البلوى وللصبح من ليل يداجيه

ويحنّ إلى بغداد فيقول :

إذا ذكرتك ، يا بغداد ، أرقّني ذكرى حبيب بروحي كنت أفديه
تركته ساعة التوديع في وَلَهٍ لم يدر كيف عن الأنظار يخفيه

وبين جنبيـــه نفس لا تطـــاوعـــه على النـــوى وفــؤاد لا يــواتيـه . . .

وهي من رقيق الشعر تذكّرنا بهائية ابن زريق البغـدادي(لا تعذليه فإنّ العذل يولعه) ونونية محمود سامي البارودي :

محا البين مـــا أبقت عيـــون المهـــا منّي فشبت ولم أقـضِ اللبّـــانـــة مـن سنّي

أصدر الأزري بعـد الحرب مجلة «الإ صلاح» (٢ آب ١٩٢٤) فلم ينشر منهـا سوى عددين .

وانتخب نائباً عن الديوانية في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٤) فلم تدم نيابته الاّ أشهراً إذ حلّ المجلس في نيسان ١٩٣٥ . وقد قال في المجلس النيابي :

يـــــا رواق المجلس الحافـل بـــالــــوفـــد الضيـــوف ،
يـــا جنـــاح المطعـم الغـــاض بـــــــرواد الـــــــرغيـف ،
أيها الحافظ لـــــلآثـــــار ربّـــات الـــرفــــوف . . .
حــــــرت في الأمـــــر ، فهـل عنـــــدك مـن رأي حصيـف؟؟
كيـف مــــالـت كفّـــــة الميـــزان بـــالـــوزن الخفيـف؟

وعدّ المجلس صالة تمثيل هزلي تحرّكه الإشارات من وراء الستار ويعيش جوقه اللاهي على كدّ الألوف من المواطنين . وقـد قال الشاعر العراقي في القرن التـاسع عشر ـ ولعلّه عبد الباقي العمري ـ :

صـــور وأشبـــاح تـــروح وتغتـــدي خلف الستـــارة والمحـــرّك بـــاقي

وكـان لـلأزري بعض الإلمام بـاللغـات التركية والفـارسيـة والفـرنسيـة . ومن أولاده الوزيـران المهندس عبد الأمير والاقتصـادي عبد الكريم . أدركـه الحمام في بغداد في ١٧ كانون الاول ١٩٥٤ .

مـؤلفـاتـه :

له شعر نشر في معظم المجلات والصحف العربية ، ثم جمع في ديوان طبع في بيروت سنة ١٩٧٩ بمقدّمة للشيخ علي الشرقي . ووضع تاريخاً للعـراق قديماً وحديثاً وروايات متها : قصر التاج ، بـوران ، بطل الحلة ، وكلها لم تطبع ، ومجموعة مقـالات في السياسة والاجتماع والأخلاق .

شعره :

عبـد الحسين الأزري شـاعـر محافظ في معـانيـه ومبـانيـه ، جـزل الألفـاظ ، مشرق الديباجـة . ذكر علي الشرقي مزايا شعـره فقال : «هو إقليمي في فنّه ، انسـاني في نزعته ، قومي في أهدافـه . وبما أنه ترعرع في أحضـان الثورات والانتفاضات فقـد كان يكثر في شعره النقد الـلاذع وتصطبغ قصائده أحياناً باللون القـاتم . . . يحب من الشعر الخيال

الجميل ويبدع في الأسلوب القصصي».

وقال جعفر الخليلي إنّ الأزري، إلى جانب شاعريته الفياضة، محدّث بارع وظريف لبق. كان على جانب كبير من الوقوف على التاريخ العربي، وقلّما روى شيئاً دون أن يستشهد بأقوال شعراء الجاهلية والإسلام والوقائع التاريخية. وكان لغوياً واسع المعرفة، خفيف الروح، يعشق الجمال في كلّ شيء ولاسيما في المرأة. (اهـ)

امتاز شعر الأزري بالجزالة والرواء. وهو شاعر وجدانيّ قبل كلّ شيء. أليس هو القائل:

خطأ كان، فاذهبي بسلام ... واغفري ما اقترفتُ من آثامي
وتناسي بحرمة العهد ما كنت ... تقاسين في سبيل غرامي
من عتاب مرّ وآلام شكوى ... فيهما قد تصّرمت أيامي
غرني طيفك الملمّ بجفني ... حينما كنتُ غارقاً في منامي
وتخيّلت أنني فزت بالقرب ... وأدركت منك بعض مرامي
لست أدري، وليتني كنت أدري، ... أنا في سورة من الأحلام...

والقائل:

صدق الهوى، ما كلّ ودّ صادق، ... فلكم تذرّع بالوداد مماذق
ومكابرٍ بالعشق لو كاشفته ... لعرفت منه سرّ ما هو عاشق...
أحمامة الوادي، سبقتك بالغِنَا، ... لولا فمي بالماء دونك شارق
ولربما سكت الحزين، وفي الحشا ... نفس معذّبة وقلب خافق

وقال يخاطب شجر البان:

هل مسّك الوجد مثلي، أيها البانُ ... فآذنت بذبولٍ منك أغصان؟

سأل الشاعر شجر البان: هل روت له الحمامة حديث الهوى مشوباً بالأشجان والأحزان، وهل اتخذت الظباء ملجأ في ظله الوارف الفينان، ثم أمست مغانيه قفرة موحشة كنفس الشاعر الولهان؟

وفي قصيدته «اليتيم» التي أنشدها سنة ١٩٢٥ في حفلة المعهد العلمي لرعاية الجمعية الخيرية للأيتام يقول:

هدأ الدجى لولا أنين عليل ... وممدّد بسقامه مشغول
ونشيج ولهى خشية من أنها ... تبقى وصِبيَتُها بغير كفيل

طال السّقام على الشقّي المريض، وبجانبه صبية صغار وحليلة تتكّلف الصبر الجميل، ومن الصبر ما يثقل ويرهق إرهاقاً. وقفت عند سريره تكفكف دمعها وتنظر

إلى أولادها وقد باتوا على الطوى. حتى إذا ما قضى ربّ الأسرة بقيت المرأة المفجوعة تعاني البؤس، حتى سئمت الذلّ ووردت حياض الموت تاركة أيتامها ظعائن في قفر راحت مشتّتة بغير دليل.

وقصيدة الأزري مؤثرة حزينة تبتدىء وتنتهي بالفاجعة على عادة شعراء زمانه وفي مقدمتهم الرصافي ناظم «أمّ اليتيم» و «اليتيم في العيد».

وفي شعر شاعرنا، أنّات وحسرات، فهو نفسه قد ابتلي بالمصائب فقال:

عشتُ دهراً فلم أجد غير ما بثُّ (م) أقاسيه من نوائب دهري
غصص لو حسبتها لتلاشت دون إحصائها دقائق عمري

فلا عجب أن أصبح سيّء الظن بالدهر وبالناس.

ألم يقل:

أضحكتنا، وربّ ضحك بكاء، فترة من زماننا رعناء

وقال أيضاً:

نحن في كلّ غُدوة ورواح هدف الموت والقضاء المتاح

وقال:

لم يبق في الناس موثوق بعفّته إلاّ الذي عصمته رحمة الباري

وقال:

تمشي بنا القهقرى مَشْيَ الكسيح بها دنيا تقدم أذناباً على الراس

وقال:

قد ذهب الصدق وظلّ اسمه، يا ليته ولىّ مع الصّدق

وقال يرثي لحال الأديب:

جهلوه في قيد الحياة، وبعدها لمّا مضى أسفوا على فقدانه
فكأنّهم فيضان دجلة حينما يأتي إلى الوادي بغير أوانه

وقال يذكر صديقاً خانه:

ولي صاحب قد كنت أوثر حبّه فلما أساء انسل من قلبي الحبُّ
لقد خانني فيما عليه ائتمنته وربّ أذى مستقبح بعده العتب

وقال، ولعلها الغاية في الشكوى من العقوق والكنود:

حسبي عتاباً على من قد خلصتُ له وقد جفاني أنّي لا أعاتبه
ممّن تحذّر من صُلبي نفضت يدي، فكيف أرجو الوفا ممن أصاحبه؟

والأزري شاعر وطني تألّم لحال بلاده وسائر أقطار العرب والشرق وطلب لها الحرية

والعلم والنهوض. فها هو ذا يخاطب وطن الرشيد قائلاً:

وطني، لأجلك قد عدمت قراري   وسئمت فيك حياة هذي الدار
أحيي الليالي والعيون هواجع   وهواجسي في جنحها سمّاري

حتّى يقول:

ناديت أوطاني، وما أعني بها   ناديت عير دوارس الآثار
الناثرات فضائلي ومفاخري   والشاهدات بعزّتي ونجاري
والناظرات إليّ نظرة آمل   إحياء مجد دارس وفخار
والباعثات بنفسي الشّمم الذي   يأبى الحياة بذلّة وصَغَار...

ويقول في قصيدته «المجد مكتسب»:

دم ذاكراً فيك، يا شعبان، من وثبوا   فسوف يحفل في تمجيدك العرب
واحفظ لهم عهد صدق عند نهضتهم   بنوده الشرف الموروث والحسب
واسعد بقوم على ورد الرّدى عقدوا   راياتهم أو ينالوا كلّ ما طلبوا...

ويقول في قصيدته «مظاهر ودّ كلّهن مصائد»:

ألا أيها الوادي الكئيب الذي له   على بؤسه مجد طريف وتالد
لقد كنتُ أرجو أن تحلّ من الإبا   محلاً به تلقى إليك المقالد
ظمئنا وللأغيار فيك موارد   إذا علّ منهم صادر حلّ وارد

ويقول في قصيدة أخرى:

ليس يجدي من الضعيف الكلام،   يسمع النّاس ما يقول الحسام
إنّما الحقّ سلوة العاجز الأعزل (م)   فيما لو جارت الأحكام
يتسلّى به كما يتسلّى   بحديث الصّبابة المستهام

ولا يفوته ـ على عادة شعراء عصره ـ أن يطلب العلم لأمته، فيقول:

نال فيك الغرب، يا علمُ، المراما   فغدا لم يَرْعَ للشرق ذماما
أشرقت شمسك في الغرب ولم   نرَ من آثارها إلاّ ظلاما...

حتى يقول:

يا بني الشرق، خذوا العلم ولا   تجعلوا منه إلى الظلم دعاما
واتقوا عادية الدهر به،   فهو العروة لا تخشى انفصاما

ثم يلتفت إلى وطنه فيخاطبه قائلاً:

أيّها القطـــــر الـــــذي في مجده ضـــارع النجم علـــوّاً ومقـــامـــا
كلما رمـتُ أنـــــــاجيـك بما في فـــؤادي قطع الــدمع الكـــلامـــا
لـك في عهــــــــد حمورابي على ســائر الأقطـــار فضـل لا يُســامَى
وعلى آثـــــاره قـــــد شهـــدوا أنّك المبــــدع في الأرض النّظـــامـــا
بـــــدأ العلم بمغنـــــاك فهـل فيــه تحظى اليـــوم بـــدءاً وختـــامـــا؟

خلا شعر الأزري من المديح باستثناء الأماديح النبوية والمراثي الحسينية. لكنه رثى رجال عصره، وفي طليعتهم الملوك الهاشميون حسين وفيصل وغازي، والسياسيون محمد جعفر أبو التمّن ورستم حيدر وسعد زغلول، والأدباء الزهاوي وشوقي والرافعي والمنفلوطي، والزعماء الروحيون محمد تقي الشيرازي ومهدي الخالصي، الخ. ولعلّه الشاعر العربي الوحيد الذي رثى شاعر الهند طاغور، وإن يكن الأدباء كتبوا عنه وترجموا له كثيراً ومنهم مصطفى صادق الرافعي. قال الأزري في طاغور:

أيّها الـــراحـل الـــذي كـــان يشـــدو وهـــو رهـن القيـــود والأغـــلال
مثلما تصـــدح الطيـــور صبـــاحـــاً مـن وراء الأقفـــاص والأقفـــال

والحقيقة ان طاغور لم يعرف القيود والأقفاص، بل شدا وترنّم حراً طليقاً، فلقي التكريم في مواطنه وفي بريطانية والمحافل الدولية التي منحته جائزة نوبل للآداب. واقتصر نضاله في سبيل الهند على اعادة الأوسمة التي منحته إياها الحكومة الانكليزية بعد الحرب العظمى الاولى.

وقال الأزري:

لم تصـــل للكمال نفـــس، ولكـــن كـــدت فيهـــا تجتـــاز بـــاب الكمال
أدب لـــذت من شجـــونك فيـــه عـــدت فيـــه بمعجـــزات الخيـــال
خطـــرات شفـــافـــة ككـــؤوس مـن رحيـق معتـق سلســــــال
أو نسيـم بين الـــريـــاض بليـل أو كماءٍ عــــــذب المذاق زُلال...

وهو يستطرد في رثاء الزهاوي إلى حكمة الحياة والموت، فيقول:

ضرب الغمـوض على الحيـاة حجـابـه، فـــــارفـق بنفسـك، أيها المتعمـقُ
قصرت خطـاك عن الـوصـول ولم تـزل تـــدنـــو فتبعــد أو تعـــوم فتغـــرق
مشت العصـــور على غـــرار واحـــد: نفـس بها تحيـــا وأخـــرى تـــزهـق
والأرض تثمـــــر والمنيـــــة تجتني، والليـل يجمـع والنهـــار يفـــرق
والـدهـر كـالبحـر الخضمّ يفيض في رحم الـذين مضـوا ويجرف من بقُـوا
.... الـخ

ويرثي ولداً احتسب به صبياً فيقول ملتاعاً:

بين نشر الـــدجى وطيّ النهـــار — سبـق الشمس للمغيب هـــزاري . . .
أيّها الحاملـــون للقبر دُرجـــاً — من عطـــور أوبـــاقـــةٍ من بهار،
كفّنـــوه بـــالـــورد فهـــو أخـــوه، — واجعلـــوا القبر سلّـــة من نضـــار
لا تهيلـــوا على الأقـــاحي تـــرابـــاً، — فحـــرام تَعَفُّـــر الأزهـــار

ويرثي قريبة له عزيزة عليه فيقول:

كـــأنـــك في قبريـــن: قبر بـــأضلعـــي — يصـــونـــك ممـــا بـــتّ تلقَيْن في اللحـــد
أجـــدد فيـــك العهـــد كـــلّ عشيـــة — وإن فصمت أيدي المنون عُرَى العهد . . .
وقبرٍ بـــه وَسَّـــدْتُ خـــدك تُـــربـــه، — وبـــالـــرغم مني بتِّ عـــافـــرة الخدّ
وقفت عليـــه خـــاشع القلب مطـــرقـــاً — كأني تمثـــال من الحجـــر الصَّلْـــد

وهو يـرثي سعد زغلول فيطلقهـا صرخة وطنية مـدوية، ويرثي أحمد شـوقي فيمجّد الأدب ويكبر الشاعر والأديب، ويرثي يوسف رجيب فيأسى لهوان الأديب الحرّ ويحزن لبؤسه وشقائه.

والمواضيع الأخـرى التي يطـرقهـا الأزري يماثل معظمهـا تلك التي شغلـت بـال معاصريه من الشعراء.

فهو يرثي لحال وطنه ـ ذلك الوطن الذي قال فيه:

وطن يـــرانـــا الخير من غـــربـــائه — وتعـــدّنـــا النّكبـــات مـن أبنـــائه
وتكـــاد تنكـــرنـــا الحيـــاة، كـــأنّنـــا — لسنـــا بهذا القطـــر مـن أحيـــائه

لقد عدم قراره لأجل هذا الوطن وسئم الحياة فيه، فأرقت لياليه. طلب لقومه العلم والنهضة والسّؤدد، وحيّى ذكـرى الثورة العربية وثـورة العشرين، وقال إن الحقّ لا ينال بغير النضال، واستنكر الشقاق وتفرق الكلمة، وقال:

تعهـــدوا، يـــا شبـــاب اليـــوم مـــوطنكم — مـن أن تضيعـــه الأحـــزاب والشّيـعُ
كـــان الـــوفـــاق لكـم أيـــام نهضتكم — ركنـــاً، ولكن أراه اليـــوم ينصـــدع.

والأزري بعـد ذلك رجل محافظ وقف من قضية تحريـر المرأة موقف الـوجل والحذر، وردّ على دعاة السفور قائلاً:

أمنـــازل الخَفِـــرات في الـــزوراء، — لا زعـــزعتـك عـــواصـف الأهـــواء

قـال لبنات قـومـه إنّ الحجـاب لم يكن إساراً، وحـذرهنّ من أن يخدعهنّ الشعـراء بخيـالهم، وندّد بـالمسارح والملاهي قـارناً التهـذيب بالفضيلـة والحياء. وطلب تشييـد

المدارس للفتيات ورفع مستوى أخلاقهنّ ليكنّ نساءً فاضلات، صالحات لتربية الأجيال الطالعة.

ومن طريف شعره قصيدته «الغادة العذراء في أحلامها». وللشاعر الفرنسي ألفرد دي موسّيه مسرحية منظومة لطيفة عنوانها «فيم تحلم الفتيات» أو «أحلام الفتيات» يصوّر فيها أختين تتناجيان في الحبّ والزواج والتبرج والجمال. تحلم احداهما بالعريس الذي دعاه أبوها لزيارة الأسرة في الغداة وتسمع، وهي على فراشها سكرى بحسنها وصباها، صوت شابّ يغني لها خارج النافذة ويقول: أيتها الفتاة، ماذا تفعلين بحياتك؟ السّاعات تهرب، والورود تذبل، والشتاء يعقب الخريف. قلبك يخفق وعيناك تتوهّجان. أنت تذهبين إلى البحر بلا نجم هاد وإلى المعركة بلا نشيد. وما قيمة الحياة بلا حبّ؟ إنما الحياة رقاد والحبّ أحلامه.

وتقول الفتاة: إنني أشعر بهزار يترنّم في أعماق قلبي. ويأتي الحبيب ليختار احدى الفتاتين فيتردّد ويحار، ويقول: لا تسخروا منّي، أنا لا أعرف طرق الحبّ. انا لا أعرف سوى النظر وإنزال عبرة ساكنة وترديد آهة خجلة. النار تضطرم في صدري ولساني عاجز عن البوح بهيامي . . . وتنتهي الأحلام بالزواج السعيد.

إنّ أحلام فتيات الشاعر الفرنسي تضجّ بالبطولة والحبّ والمجازفة والغناء. أمّا غادة الشاعر العراقي فتريد سعادة هادئة لا تعصف بها الرياح. قال الشاعر:

عصفت بها ريح الهوى فتدلّهت، ... من ذا يردّ الريح عن أدراجها؟
وتطلعت في الأفق من أستارها ... كتطلّع الأقمار من أبراجها
عذراء فاتنة وكم من فتنة ... كان الهوى سبباً إلى إرهاجها؟
قد جاوزت اعصارها وتهيّأت ... للقطف كالثمرات في إنضاجها
وبدت ترائبها كماء بحيرة ... وكأنّما النهدان من أمواجها
نظرت رشاقة قدّها فتنهدت ... وكأنّما خشيت فوات زواجها
خلع الإهاب عليه أجمل حلّة ... يسمو برقته على ديباجها
ويشفّ عن هيف القوام رداؤها ... كالرّاح تظهر من وراء زجاجها
تختال ضامرة الحشا، لكنها ... تتثاقل الخطوات من رجراجها
جاءت لتعرضه على مرآتها ... من بعد ما عبث الهوى بمزاجها
وتلفّتت لترى انعكاس خيالها ... في ميسها ودلالها وغُنَاجها
وتكفّ ما قد سال فوق جبينها ... من شعرها لتزيد نور سراجها

وأيقنت الفتاة أنها تسنمت عرش الجمال، فتساءلت عن الذي سيكون حارس تاجها. غير أننا نرى الشاعر ينتقل إلى موضوع أحبّ إلى نفسه وأقرب إلى فكره، فيفصح عن خوفه من أن يعود عصر حوّاء فتستتّر الغيد بأوارق الشّجر.

وللأزري غزل لطيف، منه:

بـــدا لي محيّـــاهـــا على حين غفلـــة فخـــرّ على أقـــدامهـــا صَعِقـــاً قلبي
فقـــالت: أفق من سكـــرة أنـــا كأسهـــا، وهـــا أنني أستغفـــر الله من ذنبي
وهّمت بإســـدال القنـــاع تعطّفـــاً على كبـــد شبت بـــه جـــذوة الحب
فقلتُ: أصـاب السّهم مـرمـاه فـارفقي، وهيهـات بـرء الجرح من نصله الـرّهب
رأيت الهوى استـــوفى بـأول نظـــرة نهايـة مـا استـوفـاه من عـاشق صب
قفـي أتـــزود من محيـــاك لحظـــة قفـي قبلما أقضي على حكمـــه نحبي

وقال:

بينـي وبينـك ألّـف القـــــدرُ فـــاللحن أنت وحبّك الـــوتـــر

لقد أحسن الأزري رواية قصص الحبّ الخيالية في شعره العذب المنسجم، فقال:

زارني طيفـك فـــاستقبلتـــه وأنـــا في مضجعـي لثماً وضما
مثلما عـــوّدتني في يقظتـي أن تـــزوري دون أن أسبـق علما
فتنسّمتـك لطفـــاً كـــالصبـــا وتنشقتـك كـــالـــزهـــرة شما
وتحدثـت بصـــوت مثلما كـــان عهـــدي في اليقظـــة نغما
هـل تحوّلت خيـــالاً في الكـــرى وتقمصـت مـن الأحـــلام جسما؟
وعجيـب أنـت والطيـف معـــاً كيـف لم تختلفـــا لـــونـــاً وطعما
خفـق القلـب لمرآك بـــه، ليت شعـري كيـف عـدّوا الطيف وهما؟
لم لا؟ أحسـب حلمـي يقظـــة عنـــدمـــا ألقـــاك واليقظـــة حلما
حلّليـــه كيفما شئـت فما زال رؤيـــاي لـك اللغـــز المعمى

انّ شاعرنـا قد طوّف في المدائن والمعاهد، وتجشّم المتاعب والمشـاقّ، عاشر الشيوخ في آلامهم والشباب في آمـالهم، وعلّل النفس وهدهـدها بـالأماني والأحـلام، فرجع إلى عزلته خائباً حائراً. والتجأ إلى «واحـة الإيمان» ينشد الراحة والسّكينة في ظلال الأدب، منشداً لنفسه:

حسبـي يـــراعـي ســـاقيـــاً ومـــداد محبرتي شرابي
وأنـــا الـــذي لم يبـق لي الاّ منـــادمـــة الكتـــاب

محمد حبيب العبيدي

مفتي الموصل وشاعرها ولد فيها سنة ١٨٧٩ وتوفي بها في ١٩ تشرين الاول ١٩٦٣ . وقد نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية» .

وأضيف هنا أنه كان مع الجيش التركي في ساحة فلسطين حين احتلها الانكليز سنة ١٩١٨ ، فقبضوا عليه واعتقلوه في معتقل الأسرى بالاسكندرية . وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب .

من شعره الوطني :

أضرموا النار، يا سراة العراق، ... واغسلوا العار بالدم المهراق
إنّ ضيماً حملتموه عظيم ... كاحتمال الأطواق في الأعناق
كلّ آنٍ تُسقون كأس هوان ... فاقطعوا بالسيوف كفّ السّاقي
يا رجال العراق، لستم أسارى ... لتزينوا الأعناق بالأطواق . . .

قال فيه إبراهيم صالح شكر انه تعشق البطولة والعظمة من الصغر، فوضع العمامة على رأسه وتخيل نفسه نذير القضاء على جمود المسلمين وبشير الإصلاح المنشود في الشرق . فلما وصل سنّ الشباب رأى نفسه أهلاً لأن يقوم بالدعوة لإصلاح حال الشرق والمسلمين، فأخذ يخطب ويكتب في هذا الباب . ورحل إلى سورية والاستانة مراراً، ثم قام برحلة يطوف فيها العالم الإسلامي داعياً إلى الإصلاح . ونشرت له جريدة الرأي العام البيروتية قصائد ومقالات طنّانة حماسية واجتماعية . ولما نشبت الحرب العظمى أصبح خطيباً للفيلق التركي الرابع بقيادة جمال باشا السفاح . وألف كتاباً عن «جناية الانكليز» وآخر بعنوان «حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام» .

وجاء إلى الموصل بعد الحرب فخلع عن نفسه ثوبه التركي الطوراني . وعاودته فكرة الزعامة، كما قال إبراهيم صالح شكر، فجمع له زمرة من الشبيبة الموصلية وأخذ يدعو إلى العرب ونهضتهم ويتغنى بأمجاد قحطان وعدنان ويمتدح ملوك العرب ومجاهديهم . . .

الشيخ كاظم الدجيلي

سلام على شطّ الدّجيل، فحسبه ... عُلىً أنه مَغْنَى الدّجيلي كاظمِ
أديب سياسي أريب وشاعر ... وبالفضل معروف كثير المكارمِ
إذا قال شعراً ردّد الدّهر شذوه ... وفي نثره سحر كسَجْع الحمائمِ

وصاغت أيادي الشيب تاجاً لرأسه   لجيناً، وقلب الشيخ غضّ البراعم
يفيض بأوصاف الحسان قصيده   ويا قلّما قد خاض غَمْر الملاحم!
شبيه بأفلاطون في الطّهر حبّه   على أن شعر الحبّ جمّ المزاعم
على أن شعر الحبّ عذب نشيده   فلا تستمع فيه للوم اللوائم

قرأ علينا الاستاذ الشيخ كاظم الدجيلي في السنوات الأخيرة طرفاً رائعاً من شعره غير المنشور أمتع أسماعنا وسحر ألبابنا، فكان أن خاطبته بتلك الأبيات مازجاً التقدير والتعظيم الذي أكنّه للصديق الشاعر بالدعابة والملاطفة.

ولد كاظم الدجيلي في قرية دجيل المعروفة بسميكة شمالي بغداد في ١٠ آذار ١٨٨٤، وهو ابن حسين بن عيدان بن درويش بن نهار الخزرجي. وجاء به والده إلى بغداد وعمره ستة أشهر فاستوطن جانب الكرخ. ودرس في الكتاتيب فحفظ القرآن وألمّ باللغة العربية وطرف من العلوم، ثم لازم فريقاً من أفاضل العلماء والأدباء كشكري الألوسي والسيد حسن الصدر والأب أنستاس ماري الكرملي وجميل صدقي الزهاوي فأفاد منهم فوائد جليلة.

وقد حدثني أنه كان يغشى مجالس رجالات بغداد كالسيد عبد الرحمن النقيب وعبد المجيد الشاوي وغيرهما، فكان النقيب يستقبله كلما وافى ديوانه مردّداً البيتين التاليين:

أسال بالصّبح سيل   أم زيد في الليل ليل؟
يا إخوتي بدجيل   وأين منّي دجيل

والبيتان للشاعر عليّ بن الجهم قالهما حينما مضى إلى الشام، فلما قرب حلب، خرج عليه اللصوص وجرّحوه وأخذوا ما معه وتركوه على الطريق، فاستنجد بإخوته في دجيل، وأين منه دجيل؟ (وكان مقامه بمحلة دجيل في بغداد).

وأتيح له بعد ذلك أن انتمى إلى مدرسة الحقوق في بغداد فنال شهادتها في سنة ١٩٢٣.

وقد عمل مع أبيه في تجارة الحبوب ردحاً من الزمن في صدر شبابه، ثم أقبل على المطالعة ونظم الشعر. وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨ فحيّاه بقصيدة ألقاها في الاحتفال الذي أقيم في السراي تخليداً لهذا اليوم، ومطلعها:

بشرى الأنام وبشرى أهل بغداد   فالدهر وافى بإقبال وإسعاد

وصدرت الصحف بعد أن كانت الأفواه مكمومة في العهد الحميدي الدابر، فحرّر الدجيلي في جريدة «بغداد» التي أصدرها مراد سليمان و«الإرشاد» لحسين فريد وجريدة «الحقيقة» لصاحبها عبد المجيد طلعت من رجال حزب الاتحاد والترقي. وأصبح في سنة ١٩١١ مديراً لمجلة «لغة العرب» التي أصدرها الأب أنستاس الكرملي حتى

أغلقت عند نشوب الحرب في أواخر سنة ١٩١٤ . وحكم عليه بالسجن في نفس هذه السنة لمقالة نشرها في مجلة «المستقبل» المصرية لصاحبها سلامه موسى، ولم يلبث أن أطلق سراحه، وقد نظم في السجن قصائد منها قصيدته «بوليس بغداد» التي يصف فيها مآسي السجن وأهواله ختمها بقوله :

ولا يحسبنّ المرء تلك خرافة ... فناظمها سمّاعها وخبيرها

ولم تك مأساة لعمري غريبة ... ففي جانبي بغداد جمّ نظيرها

وقام الدجيلي في السنوات السابقة للحرب العظمى برحلات إلى إيران وكردستان وأطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الأعراب ودرس أخلاقهم وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية وكتب عنهم ما لم يتهيأ لغيره من الرحالين والرواة .

وقد رحل إلى البصرة على اثر احتلال الإنكليز فوظف بدائرة الشرطة (٢٨ كانون الاول ١٩١٤) . ثم رفع إلى وظيفة معاون مفتش شرطة (كانون الاول ١٩١٦) فمفتش شرطة (تموز ١٩١٧)، لكنه استقال في ايلول من تلك السنة، وقد عاد إلى الشرطة بصفة معاون مفتش في (كانون الثاني ١٩١٨) ولم يلبث أن استقال بعد شهرين. ثم اعتقل في النجف في كانون الاول من تلك السنة وسجن في بغداد نحواً من ٤٠ يوماً .

وانتمى إلى مدرسة الحقوق عند إعادة افتتاحها، وعيّن في الوقت نفسه سكرتيراً خاصاً لرئيس محكمة الاستئناف في بغداد ومحرراً لمجلة «العدلية» (حزيران ١٩٢١) فمحرراً للوقائع العراقية، وهي جريدة الحكومة الرسمية، عند صدورها في (كانون الاول ١٩٢٢).

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (١٩٢٣)

وعيّن في أواخر سنة ١٩٢٣ مدرساً للّغة العربية في معهد الدراسات الشرقية في لندن فبقي فيها إلى سنة ١٩٢٩ . وقام في الوقت نفسه بتدريس اللغة العربية للأمير غازي ولي عهد العراق في أثناء دراسته في العاصمة البريطانية (١٩٢٦ ــ ٢٨)، وقام أيضاً بوكالة سكرتيرية المثلية السياسية العراقية في لندن (٤ أيلول ١٩٢٧ ــ ١٢ آذار ١٩٢٨).

وعاد الدجيلي بعد ذلك إلى بغداد (ت١ ١٩٢٩)، فلم يلبث أن عين في السلك الخارجي وسمّي نائب قنصل في مصر (٥ كانون الاول ١٩٣٠). ونقل في السنة التالية مراقباً للبعثات العلمية في لندن (تشرين الاول ١٩٣١) فنائب قنصل في المحمّرة (أيار ١٩٣٤) فبيروت (١٩٣٥) فقنصلاً في حيفا (١٩٣٥) فالقدس (١٩٣٧) فبومبي (آب ١٩٣٨)، ونقل قنصلاً في كراجي (كانون الأول ١٩٣٩) فتبريز (حزيران ١٩٤٣). ولما أنشئت المفوضية العراقية في موسكو عيّن مشاوراً (١٨ تشرين الأول ١٩٤٥) وأصبح بعد ذلك قائماً بأعمالها حتى أحيل على التقاعد (آب ١٩٤٨).

وقضى الأعوام الأخيرة من حياته متنقلاً بين العراق وأوروبا، حتى أدركه الحمام في فيينا عاصمة النمسة في ٢٣ آذار ١٩٧٠، وجلب جثمانه إلى بغداد ودفن في النجف.

وقد وضع كاظم الدجيلي رسالة في «أحداث ثورة العشرين» حققها حكمت رحماني ونشرها سنة ١٩٧٣.

مؤلفاته:

لكاظم الدجيلي شعر كثير متفرّق في الصحف والمجلات العراقية والمصرية والسورية واللبنانية. وقد وضع مؤلفات عديدة نشرت معظم بحوثها في مجلة «لغة العرب» والهلال والمقتطف وسواها من المجلات والجرائد، لكنها لم تطبع كتباً. منها: رحلة الفرات، تاريخ النجف، تاريخ الكوفة، تاريخ كربلاء، المشاهد المقدسة في العراق، سامراء قديماً وحديثاً، تاريخ الكاظمية، وتاريخ البصرة، الآثار العراقية، أشعار الأعراب، أعراب العراق، الأغاني العراقية، صابئة العراق، اليزيدّية، الأسر البغدادية، الفرق الثلاث (وهي الفرق الامامية الأصولية والأخبارية والشيخية أو الكشفية)، الأمثال العراقية، المصطلحات العراقية، السفن العراقية، الشعر القصصي الحماسي، الخ.

وكتب بالانكليزية بحثاً عن الشيعة نشر في كتاب «أديان الانبراطورية». وقال انه وضع روايتين باللغة الانكليزية أيضاً باسم «رواية عربية» و«باشا بغداد».

وللدجيلي بصر بالمخطوطات والآثار. ولم يمنعه عمله في السلك الخارجي وتنقله بين العواصم والبلدان المختلفة من الاهتمام بالأدب، فكثيراً ما كان يكتب إليّ وهو في الخارج رسائل تتناول تعليقات وشؤوناً أدبية.

شعره وأدبه:

كاظم الدجيلي أديب حرّ الفكر، صريح القول، واسع الأفق، زادته اقامته في الأقطار الاوروبية وغيرها واتصاله بأرباب الفكر العالميين ثقافة واطلاعاً. وقد أودع أشعاره ومقالاته آراء بعيدة الغور اقتبسها من تأملاته ومطالعاته الكثيرة. يدور شعره في الغالب على المواضيع الاجتماعية و الفكرية، وله غزل ووصف رائع. ولكم يثور على التقاليد البالية وينعى على المجتمع الرياء والتعصب والجهل. ورثاؤه قليل، منه مرثاته لأخيه المحامي جواد الدجيلي وهي تقطر لوعة وأسى. وقد أرسل من موسكو بمرثية لشيخه وصديقه أنستاس الكرملي، يقول في مطلعها:

ويح المنون ! فما لها من رادع وقفت لكل الخلق بالمرصاد

ان الحياة على تعاظم شرها محبوبة حتى لدى الزهاد

الدجيلي والنقد الذاتي :

حديثك عن غير القويّ حرام ... وسعيك في نصر الضعيف أثام
تحدث بمجد الأقوياء فإنهم ... قعود بأحكام الورى وقيام
يؤلّه مذ صار ابن آدم قوة ... وما الكون الاقوة ونظام . . .

لم ينظم هذه الأبيات بعض أعوان هتلر أو تلاميذ نيتشه، بل قالها شاعر عراقي وديع هو كاظم الدجيلي الذي روّعته أهوال الحرب العظمى فحدثته على الجهر بما لا يعتقده ويرتضيه . ولذا أقدم على نقد نفسه في مقال طريف نشرته له صحيفة «الحقائق المصّورة» البغدادية في عددها المؤرخ في ٢٢ شباط ١٩٢٥ . قال الدجيلي : «في ليلة مطيرة تراكمت فيها الأحزان على قلبي وحاولت أن أسرّي الهم عني بالمطالعة ، التفتّ نحو عالمي الصغير ـ أي مكتبتي ـ وأخذت أضرب أخماساً لأسداس . فقلت : هل أقرأ «علم الحب» لأوفيد وانا سوداوي ، أم أقرأ «أصل الأنواع» لداروين وأنا أعتقد حتى الآن بأن الإنسان وحش مفترس؟ هل أقرأ «الفردوس المفقود» وأنا في جهنم ، أم أقرأ رواية «البؤساء» وعلاقتي معهم تقضي عليّ أن لا أنبش قبورهم؟

«هل أقرأ «بحيرة» لامارتين أم «جان الصغير» لهوغو، وفي النفس صوت يمنعني عن المطالعة في هذه الليلة إلا في لغتي العربية . وبينما كانت هذه التأملات تجول في فكري المتضعضع الإحساس ، رأيت شبحاً ينظرني بألف عين ، فقلت في نفسي : لا شك أن هذا شاعر حيرتي وتردّدي ، ولذا تراه يصوّب نظره إليّ لأنشد أحلامه ولأرثي أمانيه . ثم اختفى بين صحائف «الأدب العصريّ في العراق العربي» . أما أنا فللحال أخذت الكتاب وبدأت أقلب صفحاته حتى عثرت على الشيخ الذي اختفى عني ، فإذا به كاظم الدجيلي» .

ويمضي الشيخ كاظم في مقاله فيقول :

«دخلت أول مدينة في عالمه واسمها «الحياة الاجتماعية» وفي البيت الاول من أول شارع وجدت فيه :

حديثك عن غير القويّ حرام ... وسعيك في نصر الضعيف أثام

«أما تخاف الله أيها الشاعر؟ أتروم أن تتحدث دائماً عن الأقوياء ، ومن سعى في نصرة الضعيف والأخذ بيده يعدّ اقتراف ذنب يحاسبه الله عليه؟»

ثم يمضي الشاعر في نقد أبيات قصيدته حتى يقول : «رباه! أتروم أن تنتقم مني لهبوطي العالم الذي لم أجد فيه سلوتي بل ترك لي حسرة وزفرة تتصاعد وتنخفض . . » اهـ

إن قصيدة الدجيلي هذه تزخر بالأفكار وتعبّر عن حيرة الشاعر في رتابة الحياة وتناقضها . فهو يقول :

إذا كنت بين العالمين أخا قوىً … رعتك عيون الناس حين تنام
حمى الغاب بأس الليث من كل طارق … ولم ينجُ من فتك البزاة حمام
يقولون: إن الحق من فوق قوّة … وما الحق الامدفع وحُسام
ولو درسوا علم الطبيعة لانثنوا … وفيهم غرام بالقوى وهيام

ثم يلتفت إلى الخلق فيراه جائراً باسم عادل، ينوح على الميت ويأكل لحمه، ويهدي الصديق الزاد ممزوجاً بالسمّ الزعاف. وماذا يرى الشاعر في الناس؟ انهم أشياع مذاهب يزعم كل منهم صلاح مذهبه وسداده، فهذا قد أفنى الحياة في العبادة، لكن معبوده الأوثان وهي رجام، يقدم لها النذور ويروم الرزق والمغفرة والعافية. وذلك خرافي يروح ويغتدي وأفعاله الشّر والمعاصي، حتى إذا ما قضى نحبه قدّسه بعد مماته الطغام وشادوا عليه قبّة وجاؤوه من شرق البلاد وغربها يطوفون بقبره ويلتمسون بركته وشفاعته:

وقالوا، وهم يبكون شوقاً ورهبة … وصار لهم حول الضريح زحام:
بك الله يحيينا غداً ويميتنا … وأنت شفاء للورى وسقام.

ويمضي الشاعر في جولته الاجتماعية، فيقف عند جحود ينكر الله جهرة وينعى على القوم أساطيرهم وخرافاتهم، وعالم يحار في سرّ الطبيعة الغامض ويحاول حلّ ألغاز الكون فيموت وفي نفسه حسرة منها وفي حشاه ضرام.

وما الأديان؟

حكاية أديان الأنام عجيبة … تجمّع فيها فرقة ووئام
تريد الهدى والخير للناس كلهم … وكم ثار منها فتنة وخصام
وغايتها القصوى عبادة واحد … حقيقته ما إن ترى وترام
عظيم لديه يصغر الخلق كلّه … وتستصغر الأجرام وهي عظام
له أثر في كل شيء وآية … وبين قواه والوجود لزام
دعوه بأسماء قد اختلفوا بها … وعدّوه نوراً لا يكاد يُشام
وقالوا وهم في حالة اليأس والرّجا: … متى تتلاشى ظلمة وغمام؟
متى تجمع الأديان في الأرض وحدة … لها سنّة مشروعة ونظام
ويسلك كلّ العالمين سبيلها … وغايتهم منها هدى وسلام...

وينفذ الشاعر في قصيدة أخرى إلى أعماق النفس البشرية فيخاطبها قائلاً:

يا لك من آمرة ناهية … أحكامها نافذة ماضية

لم يقوَ مخلوق على ردّها ... لو كان ربّ السلطة القاضية
جامعة الأضداد شيطانة ... إلاهة رشيدة غاوية
قاسية رقيقة الحاشية ... سافلة عالية راقية
خبيثة شريرة باغية ... طيبة طاهرة زاكية
عاجزة قادرة إن ونت ... أو عزمت، خالدة فانيه
تقلبت كالريح أوضاعها ... هادئة عاصفة عاتية
الحبّ والبغض لها شيمة ... فدأبها غاضبة راضية . . .
أعني بها النفس التي حيّرت ... أفكار أرباب النهى السامية

وهو يرى الشر أصيلاً في النفس فيقول :

تجنّب الشّر لا خوفاً ولا طمعا ... والشّر في النفس قبل الخير قد طُبعا

ويقول :

إلى الناس نشكو الناس من سوء فعلهم ... فقد كثرت آثامها وشرورها
أرى الشّر قد عم البريّة كلها، ... أكلّ الورى ، يا قوم، مات شعورها؟
فلا الدين منّاع ولا العقل رادع ... ولا العلم جالٍ ظلمة أو منيرها
أرى الناس في هيجاء من أمر عيشهم ... تنازع فيها عبدها وأميرها
فكانوا ودنياهم سباعاً وجيفة ... تعاوت عليها أسدها ونمورها
تقدم في الدنيا فساد أخو الغنى ... وأُبْعِدَ كل البعد عنها فقيرها
إذا قال ربّ المال قولاً تطاولت ... إلى وعيه من كل قوم نحورها
له حرمة في الناس وهي عظيمة ... وقدر جليل لم يحزه قديرها
له الرأي متبوع، له الحكم نافذ ... له شهرة كالشمس سار مسيرها

وقد غشي التشاؤم بصر الشاعر فقال :

وسائل يسأل عن مبدئي ... فقلت : إني رجل أسوئي
خبرت دنياي وأبناءها ... منذ نشأتي خبرة مستقرىء
فلم أشاهد غيرما حالة ... أرتني السوء بكل امرىء

وساء ظنه بالناس فقال :

الجميل يصنعه ... من له به أرب
والإله يعبده ... من يخيفه اللهب!

وخاب فأله في بلده وصحابه فقال :

إني أرى العيش في أرض ســــوى وطني   إذا رحلـت اليهـــا اليـــوم أصفـى لي
والعيش في بلـــد قلّ الـــرفـــاق بـــه   خير مــن العيــش بين الصحـب والآل

وقال متألماً :

أنـــا من عـــاش في العـــراق غـريبـاً   أنــــا حــــرّ مقيّـــــد بقيـــــود
أنـــا مـن قـــال في الحقيقـــة قـــولاً   فـــانتحــــاه مكـــابــر بـــالــــردّود

لكنـه يتألم لحال بـلاده وحـال الشرق المتأخـر فيرجو لبـلاده وللشرق الرقيّ والمعـرفة والنهوض، فيقول :

يـــا نـــديمي، وأين منّي نـــديمي،   غنّني واسقني ابنـــــة العنقـــــود
فلقـــــد هـــــاجني تهدّم مجد   كـــان في الشرق ذا بنـــاء مشيـــد
هـــدّ أركـــانـــه الـــزمـــان وأبقى   رسمــه نـدبـة بـوجـه الصعيـــد.
أيها الشرق، هـل ليـــومك عَـــود؟   أيها الشرق، مَنّنــا بـــالــوعـــود
يـا مقـرّ الالـٰـه، يـــا معبـد الكـون،   عجيـب تـــدهـــور المعبـــود!
نهض الغـــرب للـــرقي ففـــاز   القـــوم فيـــه هنـــاك بـــالمقصـــود
سبقـــونـــا إلى العـــلاء بعلـم   تخذوا منــــــه سلّماً للصعـــــود
ووقفنـــا جهـــلاً ونحـن كســـالى   ننظـــر القـــوم مـن مكـــان بعيـــد
نتمنّـى الـــرقي حيث قعـــدنـــا   كيـف يـــرقـى إلى العلى ذو قعـــود؟
وادّعينـــــا بـأننـــــا علماء   تلك دعـــوى محتـاجــة للشهـود. . .

وينظر إلى حال وطنه المريض فيقول :

ولي وطـن يعـــذّبـــه أنـــاس   بـــدعـــوى أن قصـــدَهُمُ شفـــاؤه
ولـــوتـــركـــوه يختـــار المداوي   لأُصْلِـحَ حـــالـــه ولـــزال داؤه

ويفكر في حال وطنه الفقير فيقول :

يـــا ســـواد العـــراق، بيّضك الجدب   فصرت البيـــاض وسط الســـواد
يـــا ســـواد العـــراق، فيك كنـــوز   يعلـم الله مـــا لها من نفـــاد
يـــا ســـواد العـــراق، أمحلـك القـــوم   وقـــد كنت روضـــة المرتـــاد
يـــا ســـواد العـــراق، شلّت يمين   ذات إثـم دلـت عليـك الأعـــادي

ومن طريف شعره في المرأة :

يـــا زوجـــة المرء ويـــا أمّـــه   حـــارت بك الأبصـــار والبـــاصرة
مـــا أنـت إلا امـــرأة فـــذّة   قـــد نعتتهـــا الأمـم الحاضرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلاهـــــة معبـــــودة تـــــارة وتــــارة شيطـــانـــة ســــاحــــره
تغضب في حـــال الـــرضـــا مثلما تـــرضى وفيهـــا غضـب الـــواتـــرة
لا وصلهـــــا دام ولا قطعهـــــا كـــدولـــة عـــادلـــة جـــائره!

وقال في دلال الحبّ وذلّه:

أرأيـت كيـف تمنّـعُ المعشــــــوق ودلال شــــائقـــة وذل مَشُـــوقِ؟
يــا للــرجـــال المُسْعَـــدين لعــاشقٍ بسهـــام لحظي غـــادة مـــرشـــوق
من ذا يســـاعـــده على فتّـــانـــة أسرت نُهاه فعـــــاد غير طليـق؟
حـــــوراء ألبسهـــــا الجمال بهاءه والشمـس بهجتهـــــا أوان شروق
صبّت بهيكلهـــا الطبيعـــة حسنهـــا فبـــدت مثـــال الحسـن للمخلـــوق
وروت محاسنهـــا حـــديـث جمالها متسلســـلاً عن يـــوسف الصّـــديق

ولما يفـرغ من وصف المحبوبـة ومقلتهـا وقوامهـا وطيب رائحتهـا وثغرهـا وصدرهـا وبشرتها، يشيد بحلو حديثها ومنادمتها في الشراب، ثم يقول:

أصبـــو فيتركنـي الغـــرام مكـــاشفـــاً بكُمُ عـــدوّي إن فقـــدتُ صـــديقي
لله مـــا يلقى فـــؤادي من جـــوى وصبــــابـــة وتقـــرح وخفـــوق
يــا سعــد، كن لي في الصبــابـة مسعـداً فهـــــوى المحّـب أراه غير حقيـق
شأن الـــزمـــان وتلـك سيرة أهلـــه قـــال الصـديـق فكـان غير صـــدوق

الدجيلي والآنسة ميّ:

كانت الآنسـة ميّ زيادة الأديبة النـابغة قـد اتصلت بالأب انستاس مـاري الكرملي وراسلته في سنـة ١٩٢٠ وساجلته في شـؤون الأدب، فاهتم بحسبهـا ونسبها وكتب إلى زميل لـه من رهبان النـاصرة ـ حيث رأت أديبتنا نـور الشمس ـ يسـأله مراجعـة سجلّ الكنسية وتحقيق مـولدهـا وأسرتها. فأجابه الـراهب انها ولدت في النـاصرة وعمّدت في كنيستها في ١١ نيسان ١٨٨٦، وسمّيت «بربارة»، وأمّها من الناصرة، أما أبوها الياس زيـادة فمن قضاء كسروان في لبنـان، وكان عنـد ميلاد ابنتـه معلماً في مدرسـة «الأرض المقدسة» (تيراسنتا) الفرنسية في الناصرة.

وقد كتبت الآنسة مّي في مجلـة «المقتطف» سنة ١٩١٩ عن الشعر القصصي الحماسيّ وعدم معرفة العرب اياه، فردّ عليها كاظم الدجيلي، ثم ترضاها بقصيدة قال فيها:

قلبـي بكلّ هـــواي لاسمـك ذاكـــر هل أنـت شـــاعـــرة؟ فإنّي شـــاعـــرا!
يـــرتـــاح للـــذكـــرى ويطـــرب كلّما وافـــــاه طيـف من خيـــــالـك زائر
يـــا من تحدّثـت الـــرجـــال بفضلهـــا وبها النســـاء النّـــابغـــات تفـــاخـــر

لك في سويداء الفؤاد وفكرتي   وبمقلتي وفمي محلّ عامر
إني امرؤ بالنّابغات متيّم   وإلى النوابغ شوقه متكاثر
الحبّ أضناه وبرّح قلبه   وأمضُّ آلاماً محبّ صابر
لم يبق منه الشوق الا صورة   يأسى لها لما يراها الناظر. . .
في كل قلب، يا أميمة، نبعة   للحبّ زاهرة وغصن ناضر
والحبّ منتجع الحياة وكلّ ما   أحيا النفوس فذاك حبّ طاهر
والحبّ سلطان تملّك أهله   خضعت سلاطين لها وجبابر
والحبّ فلسفة تعذّر وصفها   وعن الحقيقة كلّ فهم قاصر
والحبّ معنى الله أو هو ذاته   طمحت إليه خواطر ونواظر
إني لأحوي في الفؤاد محبّة   لم تحوها للعاشقين ضمائر
ليتيمة الشرق المضيع حقّه   دول له تقضي وفيه تناظر
في عدلها جور وإن حكمت له   ومن الغريب يقال: عدل جائر!

ولم يكن الدجيلي أوّل من تغزّل بميّ غزلاً أدبياً بريئاً طاهراً، فقد تغزل بها الادباء والشعراء، وهي الفتاة العبقرية الفريدة، غزلاً كثيراً لا يخرج عن التجاوب الفكري والتعاطف الروحي والتعارف الأدبي الذي جعل المرأة المثقفة الحساسة حلماً في العيون ومغناطيساً جذاباً للأفئدة والقلوب وخيالاً مائلاً ولكنه، في الوقت عينه، عزيزاً بعيد المنال. وهل كان وليّ الدين يكن يقصدها حين قال:

تمسين ناسية وأمسي ذاكرا   عجباً، أشاعرة تهاجر شاعرا؟
فهل الملائك كالحسان هواجر   ان الملائك لا تكون هواجرا
إن كنت لا أسعى لدارك زائراً   فلكم سعى فكري لدارك زائرا

ولنعد إلى شاعرنا الدجيلي فقد شكته الآنسة ميّ إلى الأب الكرملي، فكتب إليها رسالة مطوّلة، وكان ذلك في سنة ١٩٢٢، فكان أن أرسلت إليه بأحد كتبها وخاطبته في كلمة الاهداء: «إلى أعدل الظالمين من الشعراء».

وعيّن الشيخ كاظم مدرساً للّغة العربية في جامعة لندن فمرّ في طريقه بالقاهرة في أوّل سنة ١٩٢٤ ومكث فيها أياماً التقى في أثنائها بالدكتور يعقوب صروف صاحب المقتطف، لكنه سافر إلى لندن دون أن يتاح له التعرّف بالآنسة. وعاد إلى اثارة النقاش في موضوع الشعر القصصي الحماسي عند العرب فكتبت ميّ تقول:

«لقد عاد الشيخ كاظم الدجيلي في فبراير ١٩٢٤ إلى موضوع الشعر القصصي الحماسي. . . ناقشني وصمت خمسة أعوام درس خلالها الحقوق ونفحني بقصيدة

نشرها في «الهلال» ودعاني فيها ببعض الأسماء الحلوة التي يبتكرها الشعراء يوم يوطدون النفس على معالجة العناد عند امرىء بوجه من الوجوه وعلى أن يسترضوه بالأوزان والاسجاع ليخاصموه بالنثر المرسل . . . » .

وختمت ردّها تقول : «قيل لي يا سيدي الاستاذ ، إنك رحلت إلى انجلترا لتدرّس اللغة العربية في جامعة لندن . وسواء كنت الآن في انجلترا أم في العراق فهات يدك أصافحها ! . . »

ومرّت الاعوام ، وحلّت سنة ١٩٣٠ ، فإذا بالدجيلي ينقل إلى القنصلية العراقية في القاهرة ، فيؤمّها ويغشى محافلها الأدبية والاجتماعية . وهيىء له لقاء ميّ لأول مرّة في بعض الحفلات ، وكان الذي قدمه إليها الدكتور أمين معلوف ، فقد أخذ بيده واتجه صوب سيدة مشرقة الطلعة من غير جمال أخاذ وقال : هل تعرفين هذا الرجل؟

قالت : لم يسعفني الحظّ بلقائه من قبل . فضحك الدكتور معلوف وقال : كيف ذلك؟ إنه صديقك وخصمك كاظم الدجيلي ! فصافحته ببشاشة وقالت : إذن أنت ذلك البغدادي الذي ناظرني وقارعني وترضاني منذ سنين ! . .

ولبث الدجيلي في القاهرة سنة واحدة كان يزور الآنسة في أثنائها مساء الخميس من كل أسبوع بحضور والدتها . وكان الكلام يدور حول الأدب والعلم والتاريخ والاجتماع . وفي سنة ١٩٣١ أعيد نقله إلى لندن مراقباً للبعثة العلمية في المفوّضية العراقية . ومضت سنتان أو ثلاث ، وفوجىء شاعرنا ذات يوم بزيارة ميّ على غير موعد ، وكانت قد جاءت إلى العاصمة البريطانية في رحلة قصيرة . وقد سرّ بلقائها أيّما سرور واحتفى بها في خلال الأيام القليلة التي أمضتها قبل عودتها إلى مصر ، واحتفل بها أيضاً عطا أمين القائم بأعمال المفوضية آنذاك وثابت عبد النّور . وقد وجدها الشيخ كاظم في اضطراب نفسي شديد : فقد توفّيت والدتها التي كانت تلازمها وتتعهدها برعايتها وبقيت وحيدة لا أخ لها ولا أخت ولا صديق يؤاسيها ويعطف عليها .

عادت ميّ إلى القاهرة فكتبت إلى الشيخ رسالة شكر ختمتها بقولها : «أسأل الله أن يوحي إلى شاعرنا ألف قصيدة وقصيدة ! » ولم يكن بوسع الدجيلي إلاّ أن يجيبها بقصيدة قال منها :

سلام على ميّ ، سلام على مصر ... سلام على صحبي بها أبد الدّهر
وإني ، وتهيامي بميّة ، عاجز ... عن النظم حتى في محاسنها الغرّ
تطالبني بالشعر ميّ وتبتغي ... لشاعرها وحياً من الله بالشعر
ولم تدرِ أني في حياة بعيدة ... عن الشعر إذ أنّي تقدّمت في عمري
ومارست أعمال السياسة سالكاً ... مسالكها القصوى إلى حيث لا أدري

وكان بعد ذلك من أمر ميّ ما كان ، فغلب عليها الداء وحجرت في المستشفى لتعود

بعدها فلا تلبث حتى تقضي نحبها . وكان ذلك اخر العهد بالمناظرات الأدبية بين الشاعر العراقي والأديبة المصرية التي شغلت المحافل والناس سنين طويلة .

محمود الملاح

في دار منعزلة بمحلة السعدون في بغداد يعيش شاعر منزو يعدّ من كبار شعراء المدرسة القديمة في العراق . ذلكم الشاعر «محمود الملاح» الذي يلازم داره وحيداً منذ عشرات السنين لا يكاد يبرحها ولا يزوره إلاّ نفر يسير من أقرانه وأصدقائه .

ولد محمود الملاح في الموصل سنة ١٨٩١ ، وهو محمود بن عبد الله بن يونس الملاّح ، ونسبته إلى سوق الملاحين في مسقط رأسه ، وهو سوق قديم يباع فيه الملح وسائر الحاجات . وقد نشأ في ربوع الموصل ودرس العلوم الدينية والأدبية على علمائها وفي مقدمتهم عبد الله النعمة وعثمان الديوه جي قاضي الموصل . ونال الاجازة العلمية في سنة ١٩١٢ فوظف مداوماً في قلم تحرير الولاية . ولم تلبث الحرب العظمى أن اضطرم أوارها فجنّد لكنه استمر على مزاولة وظيفته في الولاية إلى عقد الهدنة وانسحاب الاتراك وتسليم المدينة إلى القوات الانكليزية .

كانت الموصل في ذلك العهد بلدة منعزلة راكدة الثقافة لا تكاد تستشفّ بصيصاً من أنوار المدنية الحديثة . وكانت الثقافة التركية تعمّ المحافل الرسمية وتستهوي الطبقة الراقية ، أما الثقافة العربية فكانت ضيقة الأفق محصورة في نطاق المحافل الدينية . وقد استطاع فتانا مع ذلك أن يحصل على طائفة من الكتب الصادرة في القطرين المصري والسوري وأن يتتبع سيرة دعاة الاصلاح أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا ويغذي روحه النهمة بآرائهم وتصانيفهم . وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية على أثر انقلاب سنة ١٩٠٨ وانتشرت المبادىء الاصلاحية واللامركزية في ربوع الشام وانتقلت منها إلى العراق . فكان أديبنا الشاب في طليعة الشباب الموصلي الناهض الذي آمن بهذه المبادىء وأشرب حبّ الثقافة العربية الجديدة على بعد الشقة وعسر الاتصال . وقد قام بتدريس التاريخ والجغرافية بصورة فخرية في مدرسة محمد رؤوف الغلامي ، واشترك مع فريق من الشعراء منهم داود سليمان الملاح ، وفاضل الصيدلي في نظم أناشيد عربية للأطفال تولّى الغلامي طبعها في كتيّب .

وفي سنة ١٩١٩ شدّ الرحال إلى سورية واستقرّ في حلب أمداً على عهد حكومتها العربية . ووظف في مجلس إدارة الولاية ومدير التحرير آنذاك ابراهيم هنانو الذي عرف بمواقفه الوطنية السامية ، وقد رثاه الملاح عند وفاته في سنة ١٩٣٥ بقصيدة مطلعها :

جللوا الأرض بالسواد حدادا   إن فقد الزعيم هزّ البلادا

ولما شدد الفرنسيون سيطرتهم على البلاد السورية وقضوا على حكومتها العربية ضاق محمود الملاح ذرعاً بوظيفته فعاد إلى الموصل سنة ١٩٢٢ . ولم يلبث أن قدم بغداد سنة ١٩٢٤ وألقى بهاعصا الترحال. قام في أول الأمر بإعطاء دروس خاصة في اللغة العربية ثم عين رئيساً لكتاب مجلس النواب عند إنشائه في سنة ١٩٢٥ لكنه قضى في هذه الوظيفة أياماً معدودة. وعين بعد ذلك مدرساً في بعض المدارس الأهلية فمدرساً في المدرسة الثانوية الرسمية (١٩٢٥ ــ ٢٨). وعين بعد سنتين معلماً للّغة العربية في المدرسة العسكرية (١٩٣١ ـ ٣٣)، وأصدر جريدة أدبية باسم «التجدّد» (٢٤ تموز ١٩٣٠)، فلم يكتب لها التعمير طويلاً. وانتخب نائباً عن الموصل في كانون الأول ١٩٣٧ ، فلم يطل عهد نيابته سوى أمد قصير، إلى حلّ المجلس في شباط ١٩٣٩ . وقد توفي محمود الملاح في بغداد في ١٩ آذار ١٩٦٩ ، ودفن في الموصل.

عالج محمود الملاح قرض الشعر صبياً. وما إن وفد على بغداد حتى اتصل بمحافلها الأدبية والثقافية ونشر قصائده ومقالاته في مجلاتها وجرائدها . ومن بواكير شعره الذي نظمه في مدينة السلام قصيدته «تمثال مود». فقد شاهد تمثال القائد الانكليزي ولم يكن له سابق عهد بالتماثيل والأنصاب فخاطبه قائلاً:

أتروم في جوّ السماء مطارا ... أم أنت ملتمس لها أخبارا؟
لم نلق حيا طائراً بجواده ... لكنّ ميتاً فوق مهر طارا
فكأنما ضاقت به فسح الفلا ... فأراد في فسح الهواء مغارا

ويقول منها:

يا أيها الشعب الجهول تعلّمن ... من ميّت درس الحياة جهارا
طأطأت رأسك للحوافر بعدما ... طاولت فوق متونها الأقمارا
ما زلت عن وقع الخطا متغافلا ... وكفى بلوغك وقعها إنذارا
وأراك في ذيل الشقا متلفعاً ... فمتى أراك تسابق الأبرارا؟
فيم ادعاؤك للأصول، ولا أرى ... نفعا بوصف الفاكه الأشجارا
يا خابراً من أمتي أعراقها ... أترى الدم الجاري بهنّ معارا؟

ومنها:

الغرب يبني في السماء منازلا ... والشرق يحفر في الثرى آبارا
والغرب في درج العلا متصاعد ... والشرق تحت طباقها يتوارى
جهلوا الطريق ولا دليل مبصر ... فهم ببيداء الحياة حيارى . . .

نشر هذه القصيدة في جريدة «العراق» بتوقيع مستعار فاستحسنها الشاعر محمد

الهاشمي ونقلها في مجلته «اليقين» وقدّم لها بتوطئة كلها مدح وإطراء. ولم تمضِ أيام حتى لقيه محمود الملاح وأخبره ان القصيدة له، فقال الهاشمي: «لقد أثنيت عليها لأنني ظننتها للسيد محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل».

لازم محمود الملاح في أثناء إقامته ببغداد أدباءها وفضلاءها وغشي مجالس الزهاوي والرصافي والكرملي وعبد العزيز الثعالبي وفهمي المدرس وطه الراوي وعبد اللطيف ثنيان وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعباس العزاوي وأضرابهم وشارك في المناسبات الوطنية والأدبية بشعره ونثره. وله مباحث في اللغة وقواعدها والتاريخ العربي والاسلامي. واجتمع له ديوان ضخم تفرقت قصائده في الصحف والمجلات. ونشر رسائل منها «الوحدة الاسلامية بين الأخذ والردّ (١٩٥١) عبد الباقي العمري (١٩٥٣)، تاريخنا القومي بين السلب والايجاب (١٩٥٦)، دقائق وحقائق في مقدمة ابن خلدون (١٩٥٥) نظره ثانية في مقدمة ابن خلدون (١٩٥٦) تحذير المسلمين من المتلاعبين بالدين، تعليقات وحواشي على كتاب ابن سينا (١٩٥٣) حقيقة إخوان الصفا (١٩٥٤) تشريح شرح نهج البلاغة (١٩٥٤) النحلة الاحمدية، البابية والبهائية (١٩٥٥)، المجيز على الوجيز (١٩٥٦)، الآراء الصريحة لبناء قومية صحيحة (١٩٥٦)، الزرية في القصيدة الأزرية (١٩٥٢) حجّة الخالصي (١٩٥٢).

وللملاح مطارحات شعرية ومداعبات إخوانية كثيرة مع أصدقائه وفي مقدمتهم عباس العزاوي ومحيي الدين أبو الخطاب المحامي، وقد سجل طرفاً منها المرحوم ابراهيم الواعظ في كتابه الجامع «الروض الأزهر».

***

تعرف محمود الملاح على أثر قدومه إلى بغداد بالأب أنستاس ماري الكرملي ونشر المقالات في مجلة «لغة العرب» ثم نشب خلاف بينهما في أثناء الاحتفال بيوبيل الكرملي فلم يلتقيا بعد ذلك.

ومن طريف ما يرويه الملاح أن الكرملي تحدث أمامه ذات يوم عن المآكل والمشارب الطيبة التي تقدم لرهبان الدير وخصّ بالذكر النبيذ المعتق الذي يقدم على مائدة الطعام، فتاقت نفس الشاعر إلى مشاهدة هذا النبيذ وسأل الأب أن يخصه بشيء منه. قال الأب «إن النبيذ ملك الدير ولا سبيل إلى إخراج شيء منه». وألح الاستاذ الملاح وألحّ في الطلب وقال: «إذا قدم لكم النبيذ على الخوان فصبّ قليلاً منه في قنينة وأحكم سدّها وضعها في جيب ثوبك الفضفاض». فلم يسع الراهب إلا أن يمتثل واحتفظ بالقنينة حتى إذا ما جاءه صديقه الشاعر بعد أيام قدمها إليه قائلاً: « هاك النبيذ المعتق الذي طلبته».

أخذ الملاح القنينة وأطال النظر إلى السائل الأحمر القاني الذي تحويه وقال: «إذن هذا

هو النبيذ الـذي يسيل له اللعاب ويطرى به الاهاب ويخضلّ الشبـاب» ومضى بالقنينة إلى داره ووضعها على الـرف في بعض الغرف وقـال: «لعلّي أتذوّق هذا الشراب يـوماً». لكنه لم يفعل بل كان كلما دخل الغـرفة نظر إلى القنينة وكـرّر ذلك القول. وفي ذات يوم وجد القنينة قد سقطت على الأرض وكسرت وسال شرابها الثمين. لقد مرّ فأر على الرف فعثر بها، وكذلك كانت نهاية النبيذ المعتق الذي لم يذقه الشاعر.

إنّ الملاح على ألمعيتـه وحدّة ذكـائه كثيراً ما تجوز عليـه الهنات: فمن ذلك أنـه حين استحـدثت مسكـوكـة المائة فلس لأول مرة ظنهـا ريـالاً، فمضى إلى الحلاق وكـان من عادتـه أن ينفحه بمائتي فلـس، فلما فرغ من الحلاقـة سلمه القطعـة الجديدة ذات المائة فلس، فلم ينبس الرجل ببنت شفة بل شكره بانحناءة إلى الأرض وتبجيل لم يعهده من قبل.

وخطـر له بعـد ذلك أن يتحقق عن قيمـة هـذه القطعة النقـديـة فسأل صبياً عنهـا فأجابه: «إنها مائة فليس، ألا تقرأ الكتابة على وجهها؟» وعجب الملاح من نفسه كيف فاته مثل هذه البداهة.

وحدث مرة أخـرى أنه اكترى سيارة وأراد أن يدفع ١٥٠ فلسـاً إلى السائق. ولم يكن في جيبه إلا ورقة نقدية ذات ربع دينار وقطعة ذات مائة فلس، فدفع إلى السائق القطعة من فئة مائة فلس وسأله أن يستوفي أجرته ويعيد الباقي.

ومن النوادر التي اتفقت للاستاذ الملاح أنـه كان يسكن داراً تطلّ على حديقة الأمة. فلما قرر هـدم هذه الدور والحاق أرضها بـالحديقة، جاءه مأمور التبليغ وطـرق الباب. وكان الوقت عصراً والحر شديداً، فخرج إليه الشاعر في مباذله.

قال المأمور: «أين صاحب الدار؟»

- تفضل، أيها السيد، ما تريد؟

- لقـد تقرر هـدم البيوت المطلـة على الحديقة فـوراً، فيجب إخـلاء الـدار في أيـام معدودة.

وما أن بوغت الشاعر المنزوي بهذا الكلام حتى صقع وعظم عليه الأمر، فصاح:

«سبحان الله، كيف أفرغ داري خلال أيام وأين أذهب . . .»

لكن المأمور قال بغير اكتراث: لا بـدّ من ذلك، وأرجو أن تتبلغ بالأمـر. ولم يدع له مجالاً للتفكير أو الجواب بل سحب يـده وغمس إبهامه في الحبر وطبع بـه ورقة التبليغ، ثم أخذها وودع وخرج.

قال الشاعـر: «لم يسألني هل أحسن الكتابة، وكان من هول المفـاجأة وشدة وقعها عليّ أني لم يخطر ببالي أن أقول له إني أعرف التوقيع باسمي».

وقـد ذكرتني هـذه الحادثة الطـريفة بنـادرة تنسب إلى اللغوي الاميركي نـوح ويبستر صاحب القـاموس الشهير الذي أفنى عمـره في وضعه. كان يعمل طوال النهـار مجهداً فكره وجسمه لإنجاز معجمه، فلما أمسى المسـاء خرج للترويح عن نفسه وقصد بعض المطاعم لتنـاول العشاء. ولم تلبث الخادمـة أن جاءتـه بقائمـة الطعام، فأخـذها ببطء وألقى عليها نظرة كليلة مـرهقة ثم أعادها إلى الفتاة وقال: «ألا تختـارين لي برأيك شيئاً نفيساً آكله؟».

واختـارت لـه الخادمـة مـا شـاءت من الطعـام، فلما فـرغ من تنـاولـه وأتت لترفع الصحون، قالت: «هل أعجبك طعامنا؟».

قال: «أجل، أجل، لقد أحسنت الاختيار فشكراً».

فقـالت: «لا تنس أن تـرسل إلينا أصحـابك ممن لا يحسنـون القـراءة، فأنا كفيلـة بخدمتهم وإرضائهم»...

يجمع محمود الملاح في شعره كل خصائص مـدرسة النهضة الشعرية الأولى التي حمل لواءها محمود سامي البارودي في مصر وترسّم خطـاه شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وأضرابهم. والسمات العـامة لهذه المدرسـة الاعجـاب بالـديباجـة العبـاسية والالتـزام بـالاساليب الفصحى والعمـود الشعـري الدقيق. ذلـك من حيث الاسلوب، أمـا من حيث المعاني والاغـراض فالغـالب على شعراء هـذه المدرسة النظم في المواضيع الـوطنية والاجتماعية والدعوة إلى النهضة والاصـلاح والتقدم والتضامن العربي والشرقي والحملة على الاستعمار والاستغـلال وتكريم مشـاهير الامـة ومصلحيهـا ورثائهم وإحيـاء أمجاد العرب والاسـلام ووصف الطبيعة والمخترعات الحديثـة ومباراة القصائد القديمـة وطرق المواضيع الاخـرى من حكم وقصص وأمثـال وغـزل ونسيب والاعـراب عن المشـاعـر والعـواطف، كل ذلك مع الاهتمام بـوحدة القصيـدة والتـوسع في الأغراض والمطـالب وتحري المعاني المنفردة والحكم المأثورة واستلهام آداب الأمم الغربية والشرقية إن رأساً وإن عن طريق الترجمة والاقتباس.

وقد عني الملاح بتلك الأسـاليب والمواضيع. وتفتحت قريحته بعد قـدومه إلى بغداد واتصالـه بمحافلهـا الأدبية والـوطنية، فنظم أكثـر ما نظم في الـوطنيات والسيـاسيات والاجتماعيات والمراثي وشـارك في الندوات والحفلات وأنشـد في الموالد النبويـة ومواسم المعهد العلمي. وكان صوته ينطلق في كل مناسبة سانحة ينعى على الأمة العربية تشتت كلمتها وتمزّق شملها.

لكـــــن تفـــرّقنـــا أودى بعـــزّتنـــا ... ففـــاتنـــا في الأنـــام العـــزّ والخطـــر

وهـو يدافع عن عـروبة فلسطين ويـرثي شهداء عـالية وينـافح عن سيادة العـراق وكـرامته واستقـلال البـلاد العربيـة في المشرق والمغرب ويـدعـو إلى النهضة والاصـلاح

والتمسك بلباب الدين ونبذ القشور والخرافات . وهو يتفجع للانسانية المعذبة المهانة في الحرب العالمية الثانية ويقارع الاستعمار والانتداب ويندّد بالادواء الاجتماعية ويهاجم النواب الذين يستهينون بحقوق الشعب وكرامة الأمة . وهو يرى أن كل ما يهزّ الشاعر يصلح أن يكون موضوعاً للشعر فيستهجن التقليد والمحاكاة والتصنّع ويحبذ إرسال الشعر على طبيعته . ونظراً إلى دراسته اللغوية وإدمانه مطالعة الشعر القديم وحفظه ، نراه يهتمّ كل الاهتمام بصقل منظوماته وتجديدها ولا يتورّع عن استعمال الكلمات الفصيحة المهجورة . وهو ينقاد أحياناً لقوافيه ، فإذا طاوعته القافية ـ وكثيراً ما تطاوعه ـ توسع في المعنى وكرّر القول حرصاً على استيفاء القوافي المؤاتية ، ولذلك جاء معظم منظومه من القصائد المطولات يتبسط فيها تبسطاً ويشعب آفاق الكلام .

إن شعر محمود الملاح يصور عهداً تاريخياً حافلاً من عهود العراق والأمة العربية ، وقد ظل يلقي هذا الشعر وينشره قرابة ثلث قرن . وحفلت به صفحات الجرائد والمجلات المعروفة كالعراق والاستقلال والبلاد والاخاء الوطني والزمان واليقين ولغة العرب والحاصد والهداية الاسلامية . واتخذ الرثاء ذريعة لاطراء الشيم واستنهاض الهمم ، فممن رثاهم سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وشعلان ابو الجون وعمر المختار وابراهيم هنانو وجمال الدين الافغاني والمنفلوطي واحمد تيمور وحافظ ابراهيم واحمد شوقي واحمد زكي وعبد المحسن الكاظمي وعبد المسيح وزير وعبود الكرخي ومحمد أمين العمري ومولود مخلص وعبد الوهاب عزام وغيرهم من رجال الوطنية والسياسة والقلم . انتصر الملاح لفلسطين فقال (سنة ١٩٣٦) :

فلسطين، بيّضت وجه العرب	وقمتِ بحقّ جهاد وجب
لقد هان عندكِ بذل النفوس	كما هان عندك بذل النّشب
غلاء النفوس بإرخاصها	وإحياؤها بارتياد العطب
صعيدك من عُصُر خاليات	يروّى بكلّ دم منكسب
ولا يرجع المجد مثل الدماء	إلى أمّة مجدها قد سلب . . .
فلسطين، رجّحت سلّ الحسام	على شغف ببيان الخطب
ولا نفع في خطب صارخات	إذا لم تؤيد بحد القضب
وللسيفُ أخطب من قائم	على منبر نادباً ينتحب . . .

وقد دافع عن جميل صدقي الزهاوي أول قدومه إلى بغداد وقبل أن يتعرف بشخصه فقال على لسانه :

سائلي عن أحبّتي وخليلي	صاح، هلاّ سألت عن مستحيل؟
كنت من غير مازن فاستبيحت	ابلي بعد شيبتي ونحولي . . .
إن سئمتم إقامتي سوف لا يسأم	ذكري مدى الزمان الطويل

فلما مات الزهاوي رثاه بقصيدة فريدة صوّر فيها الشاعر الذي غمط حقه في حياته

ينظر إلى موكب تشييعه الحافل فيعجب ويستغرب :

أطلّ الزهاويّ من نعشه   فشاهد من حوله محشرا
رأى منظرا لم يكن في الحياة   يؤمل من جنسه منظرا
كأنّ المناكب من تحته   غوارب بحر إذا زمجرا
وللقوم همس فهذا يقول   لقد جلّ ما قطرنا أخسرا
وذاك يقول : « هوى كوكب   من الأفق من بعد لن يظهرا
فيا أسفاً يذهب الفيلسوف   ويترك مربعنا مقفرا» . .
جرت خلفه زاخرات الجموع   فأنشأ يسأل «ماذا جرى»؟
فقالوا: «حييت وقد كنت ميتاً   فصرت لتقديسنا مظهرا
ورجلك عرجاء كانت فصارت   بموتك تعرج نحو الذّرى . .

وقال على لسان الشاعر الحكيم :

فماذا يريد الألى أنكروا   عليّ سلوكي وقالوا: «افترى»
عجبت لمن جاء يبغي الصلاة   عليّ وبالأمس لي كفّرا

ومن الذكريات التي يرويها الملاح أن الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي سعى مرة بالصلح بين الشاعرين المتنافسين الزهاوي والرصافي ودعاهما إلى داره لتناول الطعام، وكان الملاح حاضراً. ولما علم الضيوف أن الثعالبي قد طهى الطعام بنفسه وأحسن طهيه، قالوا له : «لو لم تكن لك إلا هذه الملكة لاستغنيت بها . . » .

إن شعر الرثاء قد كان في النصف الأول من القرن العشرين في مصر وسورية ولبنان والعراق وسائر الاقطار العربية المنبر المدوّي لروح الوطنية والنهضة السياسية والاجتماعية واللسان المعبّر عن المطامح والأماني السامية . من منّا لم يقرأ آيات الوطنية والنهضة في مراثي اسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم والزهاوي والرصافي وخليل مطران وعبد المحسن الكاظمي وأحمد محرم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم وبشارة الخوري ومهدي الجواهري وعباس محمود العقاد وبدوي الجبل وغيرهم من شعراء العربية الملهمين؟ من منّا لم يهتزّ للمراثي التي قيلت في أعلام الوطنية والجهاد من مصطفى كامل ومحمد عبده ومحمد فريد وشهداء العروبة في سورية ولبنان إلى سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وابراهيم هنانو ومحمود شكري الآلوسي ومحمد جعفر آل أبي التمن وغيرهم من الزعماء والافذاذ الخالدين؟ ولقد أدلى شاعرنا محمود الملاح بدلوه بين الدلاء فاتخذ الرثاء أداة للتعبير عن طموح الأمة ونهضة الشعب .

قال يرثي السعدون :

فـــوادح خطب سيلهـــا متتـــابع — وأحـــداث دهـــر كلهـن فـــواجع . . .
سليل العـــلا هـــلاّ التمست ذريعـــة — ســوى الموت إذ ســدّت عليك الــذرائع
وأنّـى لجفـن منك غـضّ على القـــــذا — غـداة هـوت فـوق الــرؤوس المقـامع
وقـــال لشريـــان يجول بـــه الإبـــا — لي الــذمّ إن وقّـــاك منّي مـــانـع
أيجري دم الأمجاد فيـــك وأمتـــي — لقـد قصمت منهـا الظهـور الفظـائع
رأيت اعـوجـاجـاً ظـاهـراً وتلـوّنـاً — فـلا عضـد لي يـوم الكفـاح يشـايع
فقـدت مطيعـاً بينهـم لنصـائحي — ولم يبـق لي إلا المســدّس طـــائع
زرعـت لآمـــال العـــراق نـــواتها — إذا أحسنـــوا استغـــلال مـــا أنـــا زارع

وقال يرثي عمر المختار بطل برقة الشهيد :

أراهـــــا لا تقـــرّ على قـــرار — زوابـع مـــــا فتئـن على مثـــــار
تنـــازلنـــا الحوادث في جيـــوش — تسير على التتـــابع كـــالقطـــار . . .
رويـــد، رويـــد، دكتـــاتـــور رومـــا — فكـم كـــرّ يـــؤول إلى فـــرار
وربّ هـــزيمـــة شنعـــاء تبـــدو — لعين الغـــرّ في زي انتصــار
دمـــاء الأبـــريـــاء إذا تجارت — بـأسّ الملـك آل إلى انهيـــــار
حقـــرتم غـــاريبلـــدي إذ رميتم — غـــريبلـــدي العـروبـــةبـــاحتقـــار
هما بطـــلان تختلفـــان أصـــلا — ومتفقـــان في كـــرم النجـــار
وألقيتـم على الأقـــوام درســـا — يعـــاف سماعـــه وحش الصحـــاري
فـــلا يفخـــر بقتل العـــزل بـــاغ — فما في قتـل أعـــزل مـن فخـــار

وقـال في جمال الـدين الافغـاني عنـد نقل رفـاتـه عن طـريق بغـداد في سنة ١٩٤٤ :

جمال الـــدين كـــان فـــريـــد عصر — بـــه اعترف المصـــادق والمعـــادي
أتـــوا بـــرفـــاتـــه من ألـف ميل — تلقـــاه بـــلاد عـن بـــلاد
وحـــاز الفخـــر مـــوطننـــا بحفل — أقيـم لمصلـح للشرق هـــادى . . .

وقد قدّر الملاح شعر عبود الكرخي وأثره في العوام فقال يرثيه :

من بعـــد عبـــود الكـــرخـي لا تثقن — بـــالشعـــر غلب ألبـــاب الجماهير
بمنطق لـــو غـــدا حسّـــان يطلبـــه — مـــا كـــان مطلـوبـــه يـــومـــا بميســور
خير من اللغـــة الفصحى يشـــوّههـــا — تخليط أجـــوف ذي جهـل وتقصير. . .
سن الخطيئـــة لـــلأخـــلاف سنّتـــه — لما رأى الفضل شيئـــاً غير مشكـــور
ليس العـــراق بـــريئـــاً من مهـــازل في — شعـــر لأحمد في النـــوبي كـــافـــور

أمــا هجــاؤك عنــدي فهــو أصــدق من ــــــدح تكلفتـــــه لم يخل مــن زور
حبّ الصراحـــــــة في الآراء أنطقنـي وللصراحـــــة ذنـب غير مغفـــــور

إن ديوان محمـود الملاح الذي نـرجو أن يتـاح له النشر روضـة غناء فيهـا من الازهار والاثمار أفانين . فمن قصيدة له يخاطب طاغور:

طـــاغـــور عـــدت إلى مـــواطنـك التي منهـــا خـــرجت وكنت عنهـــا غـــافـــلا
أفأنــت لـــــلاقـــــرار جئت بحقهـــــا حتى إذا أقــــررت عـــدت مـــواصــــلا؟
عـــــاودت أصلك والأصــول حقيقــــة مــــا زلـت مفتـــونــــاً بها متســــائلا

ومنها :

طـــاغـــور، وهم النـــاس غـــال عقـــولهم وهـــو المصيب من العقـــول مقـــاتـــلا
لا يستطيعـــــون الحيــــاة بــــدونــــه كـــالماء يجري الفلك فيــــه حـــــافـــلا
فلـــــذاك كـــان الـــوهــم اكثــر نـــاصرا ولـــــذاك كـــان العقـل أكثـــر خـــاذلا

وله من «خواطر مرتجلة» :

إن الحيــــــــــــــاة اغتراب وفي المـــــــــــــات المـــــــآب
فـــإنما الـــــــــــــوطــن الأصلي الثـــــــــــرى والتــــــــــراب
وقــــــــــد يسمـى حيـــــــــاة عــن التـــــــراب الغيـــــــاب
كما يسمــــى وفــــــــــــــاة إلى التراب الإيــــــــــــاب
إن الحيـــــــــاة لعمـــــــــري كما ينــــــــــار الثقـــــــــاب
نـــــار بـأيـــــدي الـــــريـــــاح الخمـــــــود والالتهــــــاب . . .
كــــــــأنما الأرض كــــــــأس ونحـن فيهـــــــا حبـــــــاب
وكـل مـــــا حـــــوت الكـأس للهـــــــــــــلاك شراب

وقال من «خواطر شتى» :

يــأتي على أجســـــامنــــــا أبــــــد مثـل الـــــذي قــــد مـــرّ مـن أزل
سيّــــان ســــابقنـــا ولاحقنـــــا مـــــا ثمّ مـن آخـــــر ولا أول
غـــــرقى ببحــــر لا قــــرار لـــــه إلا الـــــــــذي يـأتي مــن الأجـل
ذرّاتنــــــا في الكـــــون ســـــابحـــــة في وهــــــدة طـــــوراً وفي جبـل
بينــي وبين المشتري صلـــــــــــة مــــــــا ليس بين النفـس والأمـل

ومن طريف شعره قصيدة عنوانها «لو قدّر للسود أن يسودوا البيض...» يقول منها :

اقتلـــــوا البيـض ولا تبقـــــوا رمـق إن لـــــون البيـض من لـــــون البهـق
اقتلـــوا النـــاصل منــــه صبغـــة فهــــو للشيطــــان صنـــو إذ أبـق
صبغــــــــة الله ، ولا أحســن مـن صبغـــــة الله تعــــالى مـن خلـق

أيها السود انبذوا البيض ولا ... تأكلوا معهم طعاماً في طبق
لم يكونوا من أبينا آدم ... إن ما قالوه شيء مختلق...
ليس في البيض عقول رجحت ... كل ما في البيض طيش ونزق

ولقد نقل معروف الرصافي عن قصيدة تركية للشاعر توفيق فكرت فقال:

كلوا يا أيها السادة ... كما تنكره العادة
كلوا من مطبخ الدستور ... أكل الساسة القادة
كلوا بالسبعة الأمعاء ... حتى تنقذوا زاده
كلوا لا تخشوا الناس ... فإن الناس منقاده...

أما شاعرنا الملاح فقال في «مطبخ الوحدة»:

كلوا من مطبخ الوحده ... ففيه طابت الثرده
كلوا من فاخر الألوان ... حتى تطفح المعده
كلوا ما فيه من حلوى ... كلوا ما فيه من زبده
كلوا المطعوم والمشروب ... والمشموم كالورده
وإن العود محمود ... لمن يرغب في العوده
ضعوا في الفم والجيب ... وفي الصرّة والعقده
ولا تصغوا إلى عذل ... فإن المأكل العمده

ورأى الملاح طغيان الماء في بغداد فقال:

بغداد مشرفة على الغرق ... والقوم مختلفون في الطبق
لا يخدعوك إذا هم اختلفوا ... فالقوم كلهم على نسق...
لهفي على بلد ذووه شقوا ... فيه غداة بخاذليه شقي
لم يسق من ماء الحياة وان ... هو من دماء الثائرين سقي
أما القصور فليس ضائرها ... تيار نهر مشرف العنق
سكنت إلى الأيام واثقة ... بوعودهن غداة قلن: ثقي
بين الرياض تلوح زاهية ... مثل الكواكب لحن في غسق
قلبي يرفّ إذ أشاهدها ... مخضوبة الشرفات بالشفق

وأشفق من النفط فقال في «المارد الأسود»:

ضللت حتى صرت لا أهتـــــدي وطـــال تسهيـــدي عـن السّهـــد
ولم يطـل سهــــــدي إلا على قـــوم على ضيـم بــــه رقّـــد
فبــــدّدت أحـــلامي الغـــرّ في شعب إلى أحـــلامـــه مخلـــد
واعترضتني في الــــورى جنّـــة بعــــد النّهى من مـــارد أســـود
فيـــالـــه أســـود أزرى بنـــا وصيّر الأحـــرار كـــالأعبــــد
قــد كـــان مـــوطـــوءاً بـأقـدامنـا حتى اعتلى مـــرتبـــة السيّـــد
تـــالله مـــا كـــافـــور في مصره حـــاز الـــذي للنفط من ســـؤدد
إن جـــار كـــافـــور فعـــذر لـــه غـــربتـــه في الأصـل والمحتـــد
وعبـــدنـــا جـــار على أهلـــه لما خلـــوا من نـــاصـح مـــرشـــد. . .
لم تنكـب الأوطـــان في مـــرفـق نكبتهـــا في المرفق الأوحـــد

وقال في قسوة الناس وحقارتهم:

لعن الله قســـــوة الإنس، إنّ الانـس مـن جنّهـــا أحـق بلعـنِ
مقتـوا الشيطـان الـرجيم ولـو قيس بـأعمالهم لبـــــاء بغبـن
إن يكـن خـــارجـــاً على الله إبليس فهـم خـــارجـــون، لكـن بفـنّ
حـــــارب الله مـن وراء مجنّ وهـم حـــاربـــوه دون مِجَنّ
يفترون الهراء وجهـــاً لـــوجـــه ويقـــولـــون حكمـــة غير ظـنّ
كـــان صلبـــاً في ظنّـــه حين ضحّى، مثبتـــاً رأيـــه، بجنّـــة عَـــدْن
وهمُ إن رأوا يضحّـــون بـــالـــرأي إذا أتحفـــوا بلعقـــة دهـن

وقال مداعباً في كلب سيّدة:

يـــا كلب سيّـــدة، حسبتك سيّـــدا لما قعـــدت من المليحـــة مقعـــدا
لـــو لم يكـن إلاّ يـــد من غـــادة تحنـــو عليك بلطفهـــا لكفت يـــدا
نلـت المنى مـن غير قصـــد للمنى كم غـــافل في القصـــد نـال المقصـــدا
السرّ كـل السرّ في الـــذنب الـــذي أيقنت تحريكـــاً لـــه أنّى بـــدا
لا تكترث مـــــا دمت تحمل سرّه إن كنت أبيض منظـــراً أو أســـودا
ذنـب ثمين لست منـــه مبـــدّلاً ذنبـــاً لطـــاووس يضـــاهي عسجـــدا
هل أنـت منـه مبـدّل، وهـو الـذي جعل النعيـم عليك وقفـــاً مـــرصـــدا؟
لـــو أنّ زنـــديقـــاً بعيشك راتـع مـــا كـــان خـــالقـــه الكـريم ليجحـــدا

وقال في سنة ١٩٢٩ يدافع عن حقوق البلاد :

حتّام تهضم للبلاد حقوق ... ويهينها من ولدهنّ عقوق
عجباً لشعب واجم لعواصف ... والصخر إن مرّت به منطيق
الشعب مهضوم الحقوق وساكن ... في الرمس كلّ في البلاء شقيق
هذا يضيق به الطريق إذا مشى ... ذلاًّ وذاك به اللحود تضيق

ومنها :

لو أن طغيانا تحمّله الثرى ... صبرت على حكم الطغاة «فروق»
ترف واسراف بمثلها هوت ... من قبل ذا الرومان والاغريق
ما جمّعوه من دموع بوائس ... في كل موبقة له تفريق
بين الجوانح شعلة مشبوبة ... إنّي لأخشى أن يشبّ حريق

وقد لازمت الملاح ثلاثين عاماً أو يزيد، ونعمت بصداقته ومودّته، وأفدت من أدبه وفضله. وكان لي معه مطارحات شعرية ومراسلات أدبية ومساجلات اخوانية كثيرة لا تزال ذكراها تثير القريحة وترهف الفكر وتنعش الروح.

كان للملاح هرّ يعنى به ويطعمه حتى هرب ذات يوم بلا وداع. وأعرب الشاعر عن أسفه لفراقه، فأرسلت إليه بالأبيات الآتية :

قد كان يؤنسنا هرّ ونؤنسه ... في وحشة الدار بين الصبح والغَسَقِ
يأتي فنطعمه من زادنا، فنرى ... فنّاً عجيباً من الألعاب والملَق
لكن مضى لم يودّعنا بلا سبب ... مخلّفاً حسرة بانت على الحدق
لقد محضناه ودّاً يوم مقدمه، ... فيا له آبقاً مستهجَن الخُلُق
إنّ الطبيعة نادت فاستجاب لها، ... وراح يسرح حراً في ذُرَى الطرق

وتذاكرنا يوماً في الكتب القديمة وما ضاع منها فنسي الحاج خليفة كاتب جلبي وكتابه الفذّ «كشف الظنون»، فقلت له :

عجباً لمثلك عالماً ... جمّ المعارف والفنون
تنسى أريباً فاضلا ... وكتابه كشف الظنون
للترك يُنْمَى أصله ... والعرب فازت بالثمين
قد شاد صرحاً سامقاً ... للعلم والأدب الرصين
لو أنّ «عبّاساً» درى ... لاستاء من ظلم وهُونِ
واحتجّ غضباناً على ... إنكار ذي الفضل المبين

والاشارة إلى صديقنا المؤرخ عباس العزاوي. وقد أجابني الملاح بأبيات يعرّض فيها بالعزاوي، منها:

أسباب ذلك أن عبّاساً غزانا بالمجون
فتشتّتت أفكارنا حتى حكت مسحوق طين...
لا تغترر بتظاهر إذ عندنا كلّ اليقين

حين حلّ محمود الملاح في بغداد أشير عليه بالانتماء إلى مدرسة الحقوق كما فعل الكثيرون من صحبه وأبناء بلده، فقال إنه لا يحمل الشهادة الثانوية الرسمية. لكن سمح له ولأمثاله من أصحاب الدراسة الخاصة أن ينتموا إلى الصف الأول على أن يؤدوا بعد ذلك امتحاناً في المواضيع العامة موازياً لامتحان الدراسة الاعدادية.

داوم الملاح في مدرسة الحقوق أشهراً، ثم عين موعد الامتحان العام، ووجهت إلى الطلاب الذين لا يحملون الشهادة الثانوية أسئلة في الرياضيات والطبيعيات واللغة ومواضيع أخرى، وكان منها أسئلة في العروض. وقد سرّ الشاعر الملاح بهذا السؤال بوجه خاص لبعد عهده بالمواضيع العلمية والحسابية، وهنأ نفسه سلفاً مؤملاً أن يحمل إلى النجاح على موجة سعيدة من بحور الخليل. لكن كل الطلاب الذين شاركوه في الامتحان أو جلهم لم يجيبوا على أسئلة العروض، فتقرر آخر الأمر اهمالها وإسقاط درجاتها من متوسط النجاح العام. فخاب أمل شاعرنا، وكان ذلك آخر عهده بدراسة الحقوق.

نثر محمود الملاح:

كان الجمود فاشياً في عهد نشأة محمود الملاّح، وكان الكتّاب يلتزمون بالسجع غير مكترثين بأسلوب الترسّل الواضح المؤدّي للمعنى. ووجد الملاح نفسه صعوبة في التخلّص من ذلك الأسلوب العقيم، فقال في ذلك في كتابه «نظرة ثانية في مقدمة ابن خلدون»:

«ومن الغريب أن الأدباء درجوا على السجع حتى عصرنا الذي أدركناه ولم يحدّث أحد نفسه باطّراح هذه البدعة. ولعلّ لابن خلدون الفضل في اطّراح كتّاب العصر الحاضر لها.

وكنت أنا من أواخر من نهج نهجه بعد قراءتي وصيّته في المقدّمة وأنا في عهد التحصيل. وعانيت في الانتقال من طبيعة إلى طبيعة صعوبة حتى أنّي جشّمت نفسي حفظ النثر المرسل للتخلص من السجع! وأتذكر أني حفظت قسماً من كليلة ودمنة... وكنت أعكف على المقدّمة لذلك، وكانت الكتب البليغة النثر عسرة التحصيل.

«وطبيعة السجع التي كانت فيّ لم تأتني من قبل حفظ كلام مسجّع، كلا، فإني لم أحفظ كلاماً مسجّعاً قطّ. ولكني أسمع كلاماً مسجّعاً وأطالع في كتب مسجعة كمقامات الحريري ومقامات البديع ونهج البلاغة، فينطبع في ذهني السجع، ولا يزال فيّ أثر منه!»

وكان محمود الملاح معجباً بابن خلدون، وقد قال:

«إنّ مقدمة ابن خلدون فتح في الفكر الاسلامي يشبه الفتح الأمويّ في التاريخ الاسلامي، وكلاهما آية من آيات الاسلام». وكان ابن خلدون يلي الكتابة والسفارة والأعمال لأمراء المغرب والأندلس في دويلاتهم المتصارعة فيما بينها، ثم اعتزل أربعةأعوام في قلعة ابن سلامة متخلّياً عن الشواغل ألف في أثنائها مقدمته الشهيرة.

قال الملاّح: «ولولا مطاردة ابن خلدون لحرمنا أثمن ما أنتجه المخّ العربي. فإذا ذكرت ضروب الاضطهاد، فحيّهلا بالضرب الذي عاناه ابن خلدون!».

ومن نثره الرائق مقالته «القطوب بعد الابتسام» التي نشرها في صحيفة البلاد (١٤ كانون الثاني ١٩٣٠)، قال فيها:

ما من ابتسامة إلاّ في عقبها قطوب.

كذلك كانت ابتسامة المغيب، إذ هي أشبه بصحوة المحتضر. هنالك قطعت صلاتي بكل ما كان يطيف بي من شواغل «القهوة» (المقهى) وضوضائها وتكلّفت شبه غفوة نفرّغت فيها لمشاهدة طيوف الماضي معروضة على رقوق الخيال، وهي محفوفة بالحلك شأن السّينما.

فثارت حينئذٍ ذكريات «العروبة» ومجدها الرافل ببرده على ضفاف الرافدين، حيث الراية السوداء سواد مقلة الأيام وسويداء فؤاد الدهر، فعنّ لبالي بيت من قصيدة نظمتها في عهد التّرك، ثم غالها غول التجسّس، وهي:

مـــا زالت الأيـام تبــكي دولــة　　كـانـت ســواد عيـونها ســوّادهـا

أما أنه لو نطقت هذه الأمواج، أو لو ترجمنا لغة خريرها التي تشبه غمغمة السياسة أو لغة الدواوين، لغمرتنا بالقصص ولحدّثتنا بواقعة الجسر وواقعة القادسية من أيامنا البيض وأخبار هولاكو وأحاديث تيمور من أيامنا السود.

نعم، لو ألحفنا على هذا الماء واستجوبناه استجواب متّهم لاعترف لنا بالجرم الذي اقترفه أو كان عوناً على اقترافه يوم ألقيت في قعره كتب المستنصرية وأسفار النظامية، فانطوى عليها انطواء القمطر. ويوم تحرّى أخوال المأمون... أخاه ابن زبيدة بالحرّاقات التي أنفذها طاهر بن الحسين كما يتحرّى السمك هؤلاء الذين أراهم الآن يمخرون دجلة بزوارقهم...

ثم شخصت ببصري إلى الأفق الغربيّ لأعاتب الغرب على جفائه لأخيه الشرق جفاء المأمون للأمين، وإن كنت لا أملك من وسائل عتابه إلا أضعفها، وهي هذه القصبة التي هو منّ بها عليّ! لكن قطع على نظري الطريق منظر حدائق النخيل المسطورة على هامش الشاطىء الغربي، إذ كان لون لمهـا أشبه ببقايا الخضاب في لمم الكواعب. فهاج ذلك المنظر ذكرى الصقالبة يوم كانوا خـولاً للعرب يتخلّلون بنواصيهم الشقراء حدائق الخلفاء.

ثم رجعت إلى نفسي وقلت: هل أذاقنا الموت الأحمر إلا الافتتان بذيّاك الشعر الأشقر الذي خلب الألباب فأضعف إرادتها؟ وهل ثلّ عروش الملوك إلاّ الاندفاع وراء الشهوات واتخاذ الأباعد ركائب لاقتناص شواردها حتى يصبحوا شبحاً في حلق أهل البلاد الذين بنيت العروش على سواعدهم؟ كذلك نفض العبّاسيون أيديهم من العرب، فنفضت العرب أيديها منهم، فكان نفضها نقضاً، وما بين النفض والنقض إلاّ نقطة!

ها هي ذي ملكة النهار تزفّ لترسب في قعر الظلمات كما كانت الفتاة المصرية تزفّ لترسب في قعر النيل. وصورة زفافها أن يحاك لها إكليل من الغمام مبرقش بالحمرة والصّفرة والزرقة، ثم يقام على جمّة تسرحها الرياح فلا تتركها ثابتة على قرار، كأنها تحاول أن تستوعب عامة «الموضات» وتجرّب جميع الأوضاع، فهي حائرة في الاعتماد على واحد منها. وللغواني أحلام وأماني لا يضبط منتشرها ولا يضطلع بتحديدها إلا بياض الكفن أو بياض الهرم.

وهناك ثارت رفاف من أطيار النهار متراجعة إلى أوكارها فأحدثت في الفضاء شبه الخيلان، وقامت على أثرها رفاف من أطيار الليل التي لا تطيق النظر إلى بهجة الكون إلاّ في بهمة الحندس. أطيار ليلها النهار ونهارها الليل، وشروقها الغروب وغروبها الشروق، وأصيلها الفجر وفجرها الأصيل، بحيث لو كانت بشراً لاحتاجت إلى الشمس التي تخيّلها المتنبّي في مدح «الأسود» ولما استغنت عن مصابيح من الظلمة. وغاصت الغزالة ولم يبق منها إلا غدائر طافية تلكأت عن الرسوب وارتكم الدم في وجنتها حين شدّ عليها الخناق، فانبسط جانب من لونه على حاشية الأفق. وعلى أثر خمود تلك الشعلة الكبرى من العالم الأكبر، خمدت شعلة الفكر من العالم الأصغر وعرا نشوتي فتور اضطرني إلى التقهقر بفلول آمالي. . .

محمود الملاح:

سألت محمود الملاح يوماً لمَ لا يجمع شعره ويسعى إلى طبعه؟

فقال: إنني بيّضت شعري منذ أعوام طويلة، لكنني أخاف معاودة النظر فيه. فكلما وقع بيدي شيء من شعري السالف صرت على غير إرادة مني أضيف إليه

وأصحّح فيه وأسقط منه حتى عييت وقررت أن أتركه وشأنه .

وجاءني بمجموعة شعره فنقلت منه ما شئت في جلسات متعدّدة .

استملاك دار الملاح :

لاستملاك دار الملاح قصة طريفة لا بأس من روايتها بعد أن استأثرت رحمة الله ببطليها . فقد قررت أمانة العاصمة منح الملاح بدل استملاك قدره ثلاثة آلاف دينار، فاستقلّه وجاء في المساء إلى المحامي عباس العزاوي في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه على شاطىء دجلة وشكا له قلّة التعويض .

قال العزاوي : الأمر هيّن ، ويمكنك الاعتراض لدى المحكمة .

ـ ولكنني لا أعرف ما يجب أن أعمله .

ـ تعال غداً إلى دار المحاكم واعمل وكالة باسمي ، وأنا أقوم بما يلزم .

ـ وكم تتقاضى أجرة أتعابك؟

ـ نحن أصدقاء العمر، ولن أتقاضى منك فلساً واحداً في سبيل رفع الغبن الذي وقع عليك .

ـ وماذا تفعل إذا وكلتك رسمياً؟

ـ هناك إجراءات معلومة : فإنني أعترض على البدل، فيعيّن الحاكم خبراء يمثلونك ويمثلون أمانة العاصمة ويقوم واياهم بالكشف على الدار، ثم يقرّر البدل المناسب .

وكذلك كان . وجاء الملاح بعد أيام يسأل العزاوي عن سير القضية فطمأنه وأعلمه أنها سائرة على وجهها الصحيح .

قال الملاح :

ـ إذا رفع البدل إلى خمسة آلاف دينار فإنني أعطيك أجراً كبيراً .

ـ قلت لك إنني أفعل ما أفعله لأجل صداقتنا ولا أرغب في تقاضي أيّ أجر.

وجاء الملاح في اليوم التالي وقال :

ـ إذا رفع البدل إلى ثمانية آلاف فإنني أمنحك الأجر الذي تطلبه .

ـ ولكنني قلت لك مراراً إنني لا أطمع في الأجر!

وظلّ الملاح يزيد كلّ يوم في بدل الاستملاك الذي يرجو الحكم له به ويعد صديقه العزاوي بأجر عظيم، حتى كانت عشيّة البتّ في القضية . فجاء إلى المقهى وقال :

ـ إذا رفعت المحكمة البدل إلى خمسة عشر ألف دينار فإنني آتي بالمبلغ جميعه إليك لتتقاضى منه ما تشاء! .

قال العزاوي: لا أدري ما ستقرّر المحكمة ولكنني أكرّر القول إنني لا أطمع في أجر ولا مثوبة.

وذهب الحاكم والخبراء في اليوم الثاني إلى الدار المستملكة وسأل الحاكم ممثل أمانة العاصمة عن البدل فقال: لقد تقرّر تعويض صاحب الدار بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، وهو بدل مناسب إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة البناء والموقع . . .

ثم سأل الحاكم ممثل محمود الملاح عن رأيه، وكان ذكيّاً، فقال:

أنا لا أعرف الأرقام المجملة ولكنني أدري أن المتر المربع الواحد في هذه المنطقة من بغداد لا يباع بأقلّ من مائة دينار بصرف النظر عن البناء.

فصاح ممثل أمانة العاصمة معترضاً: ماذا تقول؟ مائة دينار؟ إنك لا تجد مشترياً بثمانين ديناراً.

فقال ممثل الملاح: إنني أوافق على ثمانين ديناراً.

وتمت الموافقة على ذلك، ولما حسب التعويض على هذا الأساس بلغ البدل ثلاثة وعشرين ألف دينار قبضها الملاح صكاً على المصرف وهو لا يكاد يصدّق عينيه.

قبض الملاح المبلغ ومضى إلى داره وأرسل إلى العزاوي أبياتاً يقول فيها: لقد وكلتك محامياً عني فماذا فعلت؟ إن الفضل يعود إلى الخبير اللبق الذي عرف من أين تؤكل الكتف.

وغضب العزاوي غضباً شديداً وقال: إنني فعلت ما فعلت واخترت الخبير وسرت في الاجراءات القانونية بدافع الصداقة ولم أطمع في الأجر. ولكن صاحبنا يقبض أضعاف ما حلم به، ثم يبخل عليّ بالشكر، ويجازيني بشعر يبخس من حقي ويغضّ من شأني. والله لأعلّمنه درساً لن ينساه أبداً واتقاضاه أجراً مضاعفاً.

واشتدّت الجفوة بين الملاح والعزاوي الذي هدّد برفع الأمر إلى القضاء، فقلت له: لا تفعل، يا أبا فاضل، واترك الأمر لي.

قال: لا أرضى بأقلّ من ألف دينار.

ومضيت إلى الملاح وعاتبته وقلت له: لو كنت قد مدحت صديقنا بشعر أشدت فيه بذكره وأطريت فضله لما وقع ما وقع.

قال: لقد كانت دعابة ولم أقصد شيئاً، وهو لا يرضى بأي أجر.

قلت: أما الآن فهو يريد الأجر ولا يتنازل عنه.

وبعد مكالمة ومساومة فصلت مقدار الأجر بخمسائة دينار قبضتها من الملاح ودفعتها إلى العزاوي، فعادت مياه الصداقة بينهما إلى مجراها.

حدثني محمود الملاح قال: كنت كاتباً للنفوس في ولاية الموصل في أواخر عهد الاستبداد الحميدي. وكان السلطان يحرص ألا يشاركه أحد في لقبه، فالويل لمن يجرأ أن يكتب اسمه (سلطان) ولو سمّاه به أبواه عند الولادة. وكان هؤلاء ـ وهم كثر في الموصل ـ يكتبون اسمهم (سلتان) بالتاء ويتجنّبون حرف الطاء.

قال الملاح: وكان عملي أن أكتب الأسماء في سجل النفوس الأساسي، وهو سجل يحظر فيه الحك والشطب. ولذلك كنت أملأ المعلومات في حقوله بدقة شديدة وخط واضح خوفاً من حصول خطأ. فإذا حضر رجل اسمه (سلطان) لتسجيل أحواله المدنية، ترك مميز الدائرة أعماله ووقف على رأسي يراقب الأمر بنفسه خوف الزلل وسوء العاقبة، فيشير عليّ بأخذ الأهبة والعناية، ويقول لي: احذر الغلط، يا ولدي. اكتب (سلتان) بالتاء لا بالطاء، أفهمت؟ ويكرّر ذلك مثنى أو ثلاثاً، حتى إذا ما خططت اسم الرجل انحنى على السجل ورأى الرسم صحيحاً فربت على كتفي وقال: آفرين، يا ولدي، أحسنت.

وكانت هذه الرواية تتكرر كلما جاءنا «سلطان» لتسجيل نفسه.

محمود الملاح في حلب:

حدثني محمود الملاح قال: كنت كاتباً في مجلس إدارة ولاية حلب بعد نهاية الحرب العظمى، وكان مدير التحرير ابراهيم هنانو، وكانت حلب تابعة للحكومة الفيصلية في الشام. ولم يمض أمد طويل حتى احتلّ الفرنسيون سورية وأخرجوا الملك فيصلاً منها (١٩٢٠)، فظلّ مجلس الادارة يعمل تحت إمرة الحاكم الفرنسي.

وكان التنافس شديداً في المدينة بين المسلمين والأرمن. وجاءت في هذه الأثناء امرأة أرمنية بعريضة إلى مجلس الادارة تطلب اعتناق الدين الاسلامي، وقد فهمنا أنها أقدمت على هذه الخطوة رغبة منها في التخلص من زوجها الذي كان يسيء معاملتها. وجاء زوجها الأرمني، وكان فظاً غليظاً، فأخذ يتوعد المجلس واعضاءه وموظفيه ويهدّد باستنزال نقمة الفرنسيين عليهم إذا هم ساعدوا امرأته على الدخول في الدين الاسلامي والتخلص من ربقة زوجها.

وكان المجلس يميل إلى قبول اسلام المرأة، لكنه كان يحسب حساباً للحكام الفرنسيين وموقفهم المعروف من الأمر. وفي هذه الأثناء اتصل الرجل بشيخ مسلم من المعمّمين وطلب إليه حلّ مشكلته ودفع له الأجر بسخاء. فقال المعمّم: أتريد أن تحتفظ بزوجتك؟

ـ نعم.

ـ إذن فاطلب أنت أيضاً اعتناق الدين الاسلامي، وعند ذلك تبقى المرأة في عصمتك إذا قبل اسلامها.

ولم تجد المرأة المسكينة بداً من الاحتفاظ بدينها والعودة إلى منزل الزوجية .

الموصل في أواخر القرن التاسع عشر:

كانت الموصل في أواخر القرن التاسع عشر تشكو العزلة والخمول والانحطاط الاقتصادي ، وتعاني فقراً مدقعاً يعزّ على الوصف . حدثني محمود الملاح أن الرجل كان يسير في السوق فيرى بصقة على الأرض ، وانه ليحدّق فيها ملياً لعلها تكون متليكاً يهمّ بالتقاطه ، والمتليك أدنى قطع النقد العثمانية .

وجاء أحد أمراء ايران لزيارة الموصل ، فحار الوالي التركي كيف يستقبله بما يليق بمنزلة الدولة . وكان الجند يلبسون الملابس البلدية ذات الأشكال والألوان المتباينة ، فقرّر الوالي بعد التفكير واعمال الرأي شراء قماش خشن من نسج الجبل وصبغه بالنيل ، فعمل منه بزّات رسمية لعشرة أو بضعة عشر جندياً توحيداً لزيّهم ، لتحيّة «الشاهزادة» عند قدومه . وظلّ هذا النفر من الجند بملابسه الخشنة المصبوغة مضرب المثل في الموصل عهداً غير قصير!

وكان الناس لا يعرفون الشاي شراباً . ومن ذكريات الملاح عن طفولته أن جدّه أصيب بالمرض ، فجيء له بالشاي دواءً . وقال الجدّ : أعطوا شيئاً من الشاي إلى هذا الطفل ليذوقه ، فلما أشربوه منه مجّ طعمه وأخذ بالبكاء .

محمود الملاح :

حدثني محمود الملاح أنهم كانوا ثلاثة يدرسون على الشيخ عبد الله النعمة ، هو وضياء يونس وشيت خطاب ، وقد اتصلت بينهم المودة فصاروا لا ينقطعون بعضهم عن بعض نهاراً ولا مساءً . ولم يتزوج الملاح ، ولم ينجب ضياء يونس ولداً ، أما شيت خطاب فتزوج وأنجب ولدين سمّى أولهما باسم محمود الملاح ، وهو محمود شيت خطاب صاحب المؤلفات العسكرية واللواء في الجيش العراقي والوزير في العهد الجمهوري . وسمّى ثانيهما باسم ضياء يونس ، فكان ضياء شيت خطاب الذي أصبح رئيساً لديوان التدوين القانوني ونائب رئيس محكمة التمييز ورئيسها بعد ذلك .

حدثني محمود الملاح أنه حين أنشئت الحياة النيابية في العراق سنة ١٩٢٥ ، عيّن صديقه ضياء يونس سكرتيراً لمجلس الأعيان . وتوسط له لدى رئيس الوزراء ياسين الهاشمي فعيّن الملاح رئيساً لكتاب مجلس النواب براتب ٢٥٠ روبية شهرياً .

قال : داومت في الدار التي قرّر اتخاذها مقراً للمجلس النيابي قبل افتتاحه ، وكان العمال والنجارون منهمكين في تنظيم قاعة الاجتماع ومقاعدها لاعدادها لحفلة الافتتاح . وكنت أنا وسائر الموظفين المعيّنين واقفين نشرف على العمل ونصدر التعليمات

بشأن إتمامه. فجاء رجل معمّم باللباس الأهلي ووقف يراقب عملنا، ثم صار ينتقد العمل ويصدر الايعازات والتوجيهات، فقلت له: يا أسطى، ما شأنك في الأمر؟ ورجوته أن يخرج، فلم يفه ببنت شفة.

فقال لي أحد الفراشين: خفّف من غلوائك، إنك تكلم الحاج عبد المحسن شلاش وزير المالية السابق. فخجلت ومضيت بعيداً.

ثم افتتح المجلس وانتخب رشيد عالي الكيلاني رئيساً، فلم يقرّ التعيينات السابقة، بل أصدر أوامره بتعيين موظفين جدد. وتلقيت أمراً بتعييني كاتباً براتب ١٥٠ روبية، فغضبت وانقطعت عن الدوام. وقد نصحني أصدقائي بقبول هذه الوظيفة، فلم أفعل. ومرّ أسبوع أو أسبوعان فاعتبرت مستقيلاً وأنهيت خدمتي قبل بدئها.

محمّد حسن أبو المحاسن

الشاعر الوطني ووزير المعارف العراقية الشيخ محمد حسن بن الشيخ حمادي بن مهدي آل محسن الحائري، من قبيلة آل علي. تسكن أسرته في قرية جناجة بجوار الهندية في لواء الحلة وتنحدر من ابراهيم بن مالك الأشتر. وقد ولد في كربلاء سنة ١٨٧٦ وطلب العلم في مسقط رأسه ودرس علوم العربية والدين على يد محمد حسين الشهرستاني وكاظم الهرّ وغيرهما. وامتاز بشعره الجزل الرقيق، وآمن في شبابه بالمبادىء الاسلامية وناصر الخلافة العثمانية حامية الاسلام ونظم في ذلك القصائد الكثيرة. وكان له اطلاع على الشعر الفارسي. ولما اختلّ نظام الحكم التركي في الحلّة خلال الحرب العظمى، خرج من كربلاء بأسرته إلى قرية جناجة وأقام فيها ردحاً من الزمن.

ونشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وتولّى زمام الأمور في مدينة كربلاء الزعيم الشيخ محمد تقي الشيرازي، فعهد إلى مترجمنا برئاسة المجلس الملّي والحكومة الوقتية، حتى إذا ما خبا أوار الثورة سجن في الهندية، ثم أطلق سراحه في آخر أيار ١٩٢١.

وعيّن وزيراً للمعارف في وزارة جعفر العسكري (٣ كانون الأول ١٩٢٣)، وقد استقال في ٢٧ ايار ١٩٢٤. وانزوى في قريته جناجة حيث وافاه الأجل في ٢٤ حزيران ١٩٢٦. وطبع ديوان شعره سنة ١٩٦٤ بإشراف الشاعر الخطيب الشيخ محمد علي اليعقوبي.

شعره:

اشتهر أبو المحاسن بشعره الاسلامي والوطني، فقد سجّل أحداث التاريخ العثماني بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ منتصراً للدولة العليّة التي كانت تجمع شمل الاسلام وتدافع عن حماه. ومما قاله يخاطب الدين الاسلامي ويشيد ببيض أياديه:

لك الشرف الباقي، وإن رغم العدى … أبى الله إلا أن يدوم مخلّدا
تردّيت بالمجد الأثيل، وما لهم … إذا اجتذبوا ذاك الرداء سوى الرّدى
وما أنت إلا الشمس في الأرض ما لها … غنى عن سواها فهي تطلع سرمدا
وما لنظام الكون غيرك كافل … لك الله فاسلم كي نعيش ونسعدا
نشرت لواء العدل في كل بلدة … وساويت فيها بالمسود المسوّدا . .

وقال في رثاء محمود شوكت باشا بطل الانقلاب العثماني :

بكى الشرق، يا خير الصدور الأعاظم … عليك بمنهلّ الدموع السّواجم
نعيت إليه فاستهالت ربوعه … مصاباً ومادت أرضه بالمآتم . .

ومنها :

ألم يكشف الكرب الذي ضيّق الفضا … على أمة باتت بقبضة ظالم؟
فشيّد صرح العدل مذ هدّ سيفه … على «يلدز» الشمّاء صرح المظالم

ومن شعره الوطني :

يا أيها الوطن العزيز لك الهنا … قد نلت أشرف بغية ومراد
سيعيد تاريخ العلى لك نفسه … ويعود مجد رجالك الأمجاد
أبناء يعرب يطلبون تراثهم … إنّ البنين أحقّ بالأجداد
لا يقنعون من الفخار بتالد … ما لم يضيفوا طارفاً لتلاد

حتى يقول :

فمتى تؤلّف وحدة عربيّة … وطنيّة الاصدار والإيراد
ليس العراق بموطني هو وحده … فبلاد قومي كلّهن بلادي

وقال يفتخر بقومه :

بقومي أسمو راقياً شرف العلى … وأسطو بهم يوم الوغى وأصول
هم القوم أما عزّهم فمشيّد … تليد وأما مجدهم فأثيل
شمائل كالروض الأريض تضوّعت … بطيب شذاه شمأل وقبول

وقال في مدح النبيّ الأمين :

وأشرقت أنجم التوحيد محدقة … منه ببدر هدىً يجلو دجى الظلم
نبوّة حاولوا إخفاءها فبدت : … إن الشموس سناها غير منكتم
كأن شرعته ضوء النهار جلت … من الضلالة ليلاً حالك العتم
من صفو أخلاقه سلسال كوثره … جرى بصفو معين سائغ شبم

وقال في السجن :

أنا والنجم كلانا ساهر ... غير أني مفرد بالشّجن
لا أبالي، والمعالي غايتي، ... وصل أشجاني وهجر الوسن
في سبيل المجد منّا أنفس ... رخصت وهي غوالي الثمن
ليس غير الشعب واستقلاله ... لِيَ شغل فهو أضحى ديدني
نحن للعلياء والعليا لنا ... لو أقالتنا صروف الزمن
عُرِفَ المعروف والعدل بنا ... ولنا تأسيس تلك السُّنن

ولأبي المحاسن غزل لطيف على الطريقة القديمة، كقصيدته «شجو الغرام» التي يقول فيها :

أجدّك هل لي من هواك مجير ... فأيسر شجوي لوعة وزفير
أسامر في ليل التمام نجومه ... وكل شجيّ للنجوم سمير
وقد منعوا طيف الخيال، فلا الكرى ... يلمّ ولا طيف الحبيب يزور. .
ولما وقفنا للوداع بذي النّقى ... نعرّض بالشكوى لهم ونشير
وفي القلب من برح الصّبابة لاعج ... له بين أثناء الضّلوع سعير
وقد أشرقت للناظرين طوالعاً ... بدور لها فوق الحدوج سفور
جرت لمراعاة النّظير مدامعي ... نجوماً فلاحت أنجم وبدور. .

ومن رقيق شعره الوجداني :

لعلّ النّوى تدنو فيجتمع الشّمل ... فلا عيش إلا من وصالك لي يحلو
فدىً لك نفسي، كيفما شئت فاحتكم ... فمثلك لا يُسْلَى ومثلِيَ لا يسلو
وما أنا إلّا عاشق قد تقاسمت ... هواه المعالي الغرّ والحدق النّجل
وما اختلفت سبل الهوى غير أنني ... أواصل نهجاً فيه تأتلف السُّبْلُ
معاني جمالٍ غيرما افتتنوا به ... فلا حور العينين منه ولا الكحل

وقصيدته «الربيع النّاضر» من أمثلة الوصف البارع الجميل :

بوركت يا زمن الربيع النّاضر ... ما أنت إلا بهجة للناظر
أقبلت يا ملك البسيطة رافلاً ... بمطارف الحسن السّنيّ الباهر
رجّعت للأرض الموات حياتها ... وكسوتها بُرد الشباب الزّاهر
فتضوّعت أزهار كلّ خميلة ... تجزيك بالنّعماء حمد الشاكر
نطق الحمام عن الرياض بشكرها ... فاسمع ثناءك من غناء الطائر
ضحكت ثغور الأرض فهي بواسم ... مهما بكت عين السحاب الماطر

خطــــر النّسيم الغضّ يحمل نفحـــــةً مسكيّـــــة فيهـــا ارتيـــاح الخاطـــر
والشمس صـــاغت بـالشعـاع سبائكـاً يجلــــو النّضــار بها جميل منـاظــــر
وجــــرى لجين الماء فيـــــه فحلّيت أشجــاره بمعـــاضــــد وأســـاور

ومن شعره الغزليّ :

مــــا تثنّى الغصـن إلاّ وصفـــــا لـكِ قـــداً وقــــوامـــاً أهيفـــا
يطـــــــرب الغصن إذا شبّهتـــــه بـكِ حتـى ينثنـي منعطفـــــــــا
وســــلاف الــــــراح في نشـــوتها تصف الثغــــر وتحلـــو مــرشفـــا
أرضــــاب الثغـــــر أم مشمــــولـــة قــد جـرت في لـؤلـؤ قــد رصفـــا
فيــــه للظـــامي شفـــاء من جـــوى لــــو رأى الظــامي سبيــلاً للشّفَــا
ومهــــــاة غـــــادرت ألحاظهـــــا مهجــــة الصبّ المعنّى هـــــدفـــا
إن مشت هـــــزّت قنـــــاة صعـــدة أو رنت سلّت حســـامــــاً مــرهفـــا
مــــا ثنــاهـــا السّكـــر، لكنّ الصّبـا من نعيـم قــد سقــاهــا فــــرقفـــا
صفــــة الحسن بها قـــــد أغــــريـت فــــزهت حسنـــاً وفـــاقت شرفـــا

كان لأبي المحاسن مطارحات شعرية مع رجال عصره كرضا الاصفهاني وعبد المهدي الحافظ وهـادي عبـاس آل كـاشف الغطاء وعبـد المطلب الحلي وجـواد الشبيبي وعبـد الحسين الحويـزي وغيرهم . ومن طـرائفه التي رواهـا محمـد علي اليعقـوبي أبيات قـالها يداعب الشيخ علي الأسدي الذي أناف على التسعين :

أمعمّـــــراً عمــــر النســـــور، إلى متى تبقـى وأنـت الميت في الأحيــــــــــاء؟
حـدّث، فـلا حـرج، حـديث جـذيمـة مـــــا كـــان قصّتـــه مع الــــزّبـــاء؟
وعن البســــوس ومـــاضيـات حـــروبها حــــــدّث فإنّـك حـــاضر الهيجـــــاء

قال سلمان هـادي آل طعمة : وكـان الشاعـر صلب الرأي، سـامي الخلق، واسع الخيـال، مرهف الاحسـاس، . ويمتـاز شعـره بحرارة العـاطفـة وصدق التعبير ورقـة الشعور.

قال وهو سجين في الحلّة :

أنـاجـز جيش الخطب، والخطب فـادح، يكـــــافحني طـــوراً وطـــوراً أكــــافح
إذا كلّ عــــزم القــوم أو طـــاش حلمهم فعــــــزمي مسنــــــون وحلمي راجـح
فيثبت قلبـي والقلـــــوب مَــرُوعـــة ويشرق وجهي والـــــوجـــــوه كـــوالح
وقــد نصحـوا لي بـالخضـوع إلى العـدى ومــا كـلّ من يهدي لك النصح نــاصح

فقلت: معاذ الله أن يستذلّني عدوّ، فغيري للدنيّة جانح
وأهون عندي أن أمدّ لهم يداً تصافحهم أن تختلبها الصفائح

من قصيدة له يطالب بالاستقلال في أثناء ثورة سنة ١٩٢٠ :

وثق العراق بزاهر استقلاله والشعب متّفق على استقلاله
أضحى يؤمّل نيل أشرف غاية، يا ربّ، أوصله مدى آماله
فله إلى التحرير، وهو حبيبه، نظر المشُوق المستهام الواله
قد أطلق العاني وفكّ إساره فإلى مَ يبقى وهو في أغلاله؟
وردت شعوب الارض باستقلالها عذب الرجاء ورُوّيَتْ بزلاله
أفيحرم الشعب العراقيّ المنى، والشيء محمول على أمثاله؟
فازوا بنيل حقوقهم، وحقوقه بضمان أهليه وعزم رجاله
إن يُعْطَ واجب حقه فلحقّه أولا فمفزعة إلى أبطاله...

وقال من قصيدة يرثي الامام محمد تقي الشيرازي :

يا غلّة الأحشاء غاض المورد، يا أزمة الأيام غاب المنجد
لا نجدة للمستغيث ولا روى يشفي غليل حُشاشة تتوقّد
قلّ الغرار فلا فم لخطابة عند الخطوب ولا حسام ولا يد
بكر النعيّ وقال: قد أودى التقى ومضى إمام المسلمين الأوحد
ومنها: إن كان قد أودى التقيّ محمد فلقد أصيب به النبيّ محمّد
يا آية الله المقدّسة التي أمست إليه بها الملائك تصعد
غادرتنا والخطب داج ليله واليوم من صبغ الحوادث أسود
فمن المُدافع والاسنّة شرّعٌ والبيض تبرق والمدافع ترعد؟
الشرق، يا شمس الهداية مظلم، مذ غاب عنه ضياؤك المتوقد
لو لم تعاجلك المنيّة لانجلى عنه سحاب المغرب المتلبّد

أحمد الصافي النجفي

إن سيرة هذا الشاعر إنما هي شعره :

وهـو أحمد بن علي بن صافي من أسرة نجفيـة يتصل نسبهـا بالامـام موسى الكـاظم وكانت تعرف بآل السيـد عبد العزيز الذي نزل النجف ، وهـو الجدّ السادس للشاعر. أما جـده لأمه فهو الشيخ محمـد حسين الكاظمي من آل معتوق في صـور. ولد أحمد في النجف سنة ١٨٩٦ ، وتـوفي والده بوبـاء الهيضة وعمـر صبيّنا ١١ سنة ، فكفلـه أخوه الاكبر محمد رضا .

قال أمين الريحاني في كتابه «قلب العراق» إن هذا الشاعر رأى نور الشمس «يوم كان الحسن الخَلْقي والصحـة والنعمة تتنـزه كلها في الكـون الأعلى ، فما رمقته بنظـرة ساعـة الولادة ولا دنت بعد ذلك من ملعبه أو من رحله أو من كوخه . . انه لطير غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما . . . » وقد قال الصافي :

أســـــير بجسم مشبـــــه جسم ميّـت كأني إذا أمشي بــــه حـــامـل نعشي

ولما بلغ الخامسة من عمره أدخل الكتّاب ، فتعلّم القرآن والخطّ وشيئاً من الحساب .

وقد قال في ترجمة مخطوطة لنفسه كتبها سنة ١٩٣٦ :

«وما كـدت أتجاوز العقد الأول من عمـري حتى نكبت بفقد والـدي بمرض الـوباء الذي اجتـاح العراق يـومئذٍ وتـرك في كل دار مناحـة ، ولا سيما في بلدة النجـف . وقد كانت الصدمة شديدة على نفسي ، وما زلت حتـى اليوم أتمثل ذكراها الفظيعة وحوادثها المؤلمة ، ولا أنفكّ حتى اليوم أشعر بهولها .

فكفلني أخي الاكبر، وكان بالرغم من عطفه عليّ ، قاسياً في معاملتي ، ضاغطاً على حرّيتي ، مقيّداً لي تقييداً يكاد يكون استعباداً أو استعماراً ! . . . »

وحين بلغ الثالثة عشرة أخذ يدرس قواعد اللغة والمنطق وعلم الكلام والمعاني والبيان والاصول وشيئـاً من الفقه على أساتـذة منهم الشيخ محمد حسن المظفـر والسيد حسين الحمّامي والسيد علي اليزدي ، ثم حضر دروساً على السيد أبي الحسن الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي .

وكان منـذ الطفولة ضعيف البنيـة ، ميالاً إلى الكسل والتأمّل ، فلم يحتمل مـواصلة الدرس الذي زاد في مرضه العصبيّ . ثم توفيت والـدته سنة ١٩١٢ ، فاشتدّ عليه الداء ومنعه الأطباء من الانكباب على الدرس ، فانصرف إلى المطالعة ومراجعة الشعر والأدب وتصفح الكتب العصرية والمجلات كالمقتطف والهلال .

وكان أقرب كتاب إلى نفسه ـ كما يقول ـ لزوميّات المعرّي، ومن الذين أثروا في تفكيره في تلك الحقبة محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي.

وفي سنة ١٩١٦ ترك النجف مع رفيقه محمد علي كمال الدين قاصدين البصرة للعمل فيها، فاخترقا خطوط الحرب ووصلا إلى البصرة، لكن لم يجدا فيها شغلاً يمسك رمقهما.

وذهبا إلى المحمّرة (خرّمشهر) في ايران، فخلع الصافي البزّة الدينية وارتدى لباس العمّال وشرع يبحث عن عمل، وانتقل لتلك الغاية إلى عبّادان والكويت . . . وكتب عن هذا الدور من حياته فقال:

«ثم إني سافرت بعد ذاك إلى عبّادان لاشتغل عاملاً فيها فلم أوفّق. فتوجهت إلى الكويت في سفينة شراعية ورمت الاشتغال فيها بأحد المخازن، فلم يقبلوني مما اضطرّني أن أكون بنّاءً طيلة يوم كامل وقعت في انتهائه ميتاً من شدة التعب، فذهبت قبل أن أستلم الأجرة. ولما رأيت عدم استعدادي لهذه المهنة الشاقة، سافرت إلى بندر بوشهر المرفأ الفارسي، وكانت رحى الحرب إذ ذاك دائرة بين القبائل الفارسية والانكليزية بتحريض القائد الالماني «وسموس» الذي كان قبل الحرب قنصل الحكومة الالمانية في شيراز. فلم أتمكن من الوصول إلى قرب بوشهر إلا بمشقّة تعرّضت أثناءها إلى الغرق في الخليج الفارسي (العربي)، لولا صندوق شاي كان معنا في الزورق، فطفا على سطح الماء وتعلقت به فكان سبب إنقاذي.

«ومن هناك سافرت مشياً على الاقدام مع قافلة تجارية قاصداً شيراز، فوصلت بعد اثني عشر يوماً قطعناها في الجبال والطرق الوعرة إلى بلدة فيروز آباد موطن الفيروز آبادي المشهور صاحب المعجم العربي المعروف بالقاموس المحيط. وهناك أصبت بالتيفوئيد، فانفردت عن القافلة. وقد تعرّف إليّ المجتهد المرحوم الامام السيد عبد الحسين اللاري الذي كان تلميذاً لجدّي المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي، ولولا عنايته بي لقضى عليّ التيفوئيد. وبعد إبلالي من المرض سافرت إلى بندر عباس، ومنها قفلت راجعاً إلى النجف الأشرف بعد مفارقتها تسعة أشهر، كانت خلالها قد انقطعت أخباري عن أهلي. وقبل وصولي إلى النجف بشهرين كانت بغداد قد سقطت بيد الجيش الانكليزي . . .»

بدأ الصافي بنظم الشعر. وقد سمع بأنباء ثورة الحجاز التي رفع لواءها الشريف حسين، فكانت باكورة نظمه قصيدتين في مدح الشريف وتحية الأمة العربية الثائرة. ثم شارك في الثورة الوطنية التي شبّ أوارها سنة ١٩٢٠، فسجن اخوه الاكبر محمد رضا الصافي، وهيّىء لشاعرنا أن فرّ إلى طهران عن طريق الكوت وجبل حلوان.

عكف الصافي على دراسة اللغة الفارسية وعمل مدرساً للأدب العربي في المدارس الثانوية. وترك التدريس بعد سنتين، واشتغل بالترجمة والتحرير في امّهات صحف طهران كجريدة «شفق سرخ» وغيرها. وأكبّ على مطالعة الادب الفارسي، فقرأ المثنوي ديوان جلال الدين الرومي ورباعيّات الخيام ودواوين حافظ والمنوجهري وسعدي والشعر المعاصر. وتعرّف بشعراء ايران أمثال بهار ملك الشعراء وحيدر علي كمالي وجلال الممالك وعارف القزويني والشاعر عشقي الذي ذهب ضحية قصيدة حمل فيها على رضا شاه بهلوي. واختير بعد ذلك عضواً في النادي الأدبي، وقام بترجمة رباعيّات الخيام، ولم ينقطع في تلك الاثناء عن مطالعة الادب العربي قديمه وحديثه.

ثم انخرط في سلك موظفي الحكومة الايرانية مترجماً بوزارة المعارف، فنقل إلى الفارسية كتاب علم النفس لعلي الجارم ومصطفى أمين. وعاد إلى بغداد بعد ثمانية أعوام قضاها في ايران (١٩٢٨)، فاتّصل بمحافلها الأدبية وصادق الزهاوي وسواه من الشعراء. ورشحته الحكومة العراقية قاضياً شرعياً في الناصرية، لكن المرض عاوده بسبب المناخ واشتدّت عليه وطأته.

وأشار عليه الأطباء بالنزوح إلى سورية، فبارح العراق إلى دمشق سنة ١٩٣٠، ولم يستطع ـ كما قال ـ وبالرغم عن وصيّة الطبيب الأبتعاد عن الاشغال الفكرية، فأخذت صحته بالتأخر وعانى جملة أمراض منها تضخم الكبد وضعف القلب ومرض الكلية والتهاب الحنجرة وضعف الأعصاب!

لقد هيىء للصافي أن يتغلّب على جميع تلك الأمراض، وقد أناف على السبعين. وعاش متنقلاً بين ربوع سورية ولبنان. ولما احتلّ الانكليز بيروت في خلال الحرب العالمية الثانية اعتقلوه وأودعوه السجن (١٩٤١)، فلبث في غيابته شهراً ونصف شهر، وخرج منه بديوان شعر أسماه «حصاد السجن».

وكانت حياته بعد ذلك تقتصر على كلمة واحدة، هي الشعر الذي واصل قرضه وأخرج دواوينه في تتابع وانسجام.

مؤلفاته:

دواوين شعره: الأمواج (١٩٣٢) أشعّة ملوّنة (١٩٣٨) الأغوار (١٩٤٤) التيّار (١٩٤٦) ألحان اللّهيب (١٩٤٨) هواجس (١٩٤٩) حصاد السجن (١٩٥١) شرر (١٩٥٢) اللفحات (١٩٥٨) الشلال (١٩٦٢) شباب السبعين (١٩٦٧) ثمالة الكأس (١٩٧١).

وله عدا ذلك: رباعيات الخيام (ترجمة شعرية (١٩٣١)، هزل وجدّ (نثر، ١٩٣٧).

شعره :

الصافي شاعر أصيل انصرف إلى الشعر وعاش له وعرف به ، حتى قال :

لي في الشعر عالم مستقلّ   أنا فيه فرد بدون خلاف
لم أشارك غيري لأنّي ربّ   واحد لا شريك لي في القوافي

وقال :

سموت بشعري فوق جيلي ، ولم يزل   يشكّ بشعري معشر البلهاء
فإن لم أكن في أمة الشعر واحداً ،   أكن أمّة أعلى من الشعراء !

وقد آثر الحرية والانطلاق من القيود فقال :

يروم زيارتي عشّاق شعري   فلا يجدون لي في الأرض دارا
تراني كالنّسيم أطوف حرّاً   فلست ، ولا النّسيم ، نرى قرارا
فزوروني بأنفاس الخزامى   وزوروني بآهات العذارى
وقد آوي لقلب أخي غرام   وأصعد منه أنّات حيارى

وعاف المجاملة والتقاليد الاجتماعية :

أفرّ من النّوادي زاخرات   بألوان المجاملة الوضيعة
وآوي للحقول طليق نفس   فلستُ مجاملاً إلاّ الطبيعة

أرهفت حسّه الأمراض التي ركبت بدنه وأضنت جسمه ، فقال :

لقد عدت أمراضاً أحار بعدّها   ومن ذا يطيق العدّ للرّمل والنّمل ؟
يقولون لي : ماذا بجسمك مؤلم ؟   أقلب ، أرأس ؟ قلت : يؤلمني كلّي

وداهمته الخُطوب وهدّته المصائب فأوحت إليه أرقّ الشعر وأروعه :

سأشكر للدهر الخؤون خطوبه   وإن كدت منها أفقد الرشد والصبرا
فإن خطوب الدهر أذكت بصيرتي   وإن خطوب الدهر أوحت لي الشعرا
وكم من مصاب حلّ بي فحسبته   سيفقدني روحي ويسكنني القبرا
فما زال يغلي فيّ حتى تفجّرت   ينابيع شعري منه واندفقت نهرا
ولكنه نهر من النّار سائل   تثور به أمواجه شعلاً حمرا . .

وهل عجب بعد ذلك أن يكون شاعراً إنسانياً يتفجّر قريضه رحمة وحناناً وأن يتّخذ مواضيع شعره أبناء الشعب الكادّين الكادحين والفقراء البائسين من بائع الحصير والأعمى والمسلول والسّائل القروي إلى راعي الغنم والبلهاء والشحّاذ . . . وإنه ليأسى لحال صبّاغ الأحذية ، والشاعر وحذاؤه عدوّان للصّبغ والاناقة ، فلا يرده خائباً مع ذلك :

جاء يوماً إليّ صبّاغ نَعلٍ ... وبنعلي صبغ من الأيام
مرّ دهر عليه لم يَرَ صبغاً ... غير صبغ الغبار والأقدام
وكسته أشعّة الشمس لوناً ... صار منه كقطعة من رغام
جاء نحوي من بعد ما طاف يوماً ... دون ربح غير العنا والسقام
جاء نحوي يروم صبغ حذائي ... وأنا للصباغ أعدى الأنام
أنا خصم الألوان تخفي عيوباً ... إنّ عندي الألوان كالأوهام
رمت رداً له فلم يرضَ قلبي ... ردّه خائب المنى والمرام
قلت: أحبوه درهماً، غير أني ... خفتُ من أن يُذلّه إكرامي
قلت: فاصبغ لي الحذاء بصبغٍ ... فيه أغدو مثل الذّوات العظام
فغدا يصبغ الحذاء بحذقٍ ... مبدياً فيه كلّ فنّ تمام
ثم بادرته بما ضمّ جيبي ... من نقودٍ أعددتها لطعامي
فمضى هانئاً ورحت كأني ... ثمل بالسّخاء لا بالمدام

إن هذه المقطوعة مثال الشعر الفطريّ الأصيل الذي لا تكلف فيه ولا صناعة ولا إغراب، ينساب كالجدول الرائق: يصف حذاء الشاعر الذي كسته الأيام لون التراب، ثم يلتفت إلى الصبّاغ المسكين وقد أخطأه التوفيق وفاته الرزق سحابة يومه، فيهمّ أن يردّه فلا ترضى عاطفته الانسانية، ويهمّ أن يمنحه صدقة فيخاف أن يهينه ويذلّه. فلا يكون منه إلا أن يدعوه إلى صبغ حذائه ويمنحه أجرة عمله النقود التي هيأها لطعامه.

وقد عظمت رحمة الشاعر وفاض حنانه حتى شملا الحيوان بعد الانسان، فقال:

لو يعلم الحيوان ما عندي له ... من رحمة لأتى إليّ مسلّما
ولأصبحت كل الوحوش أليفة ... عندي وخالتني أباً أو أرحما

وقصيدته «على طريق بيروت» مأساة تهزّ النفس وتثير في أعماقها أسمى المشاعر وأشدّها ألماً ووجداً. فلئن كان الشاعر الفرنسيّ ألفرد دي فنيي يصف لنا في قصيدته «موت الذئب» تسامي الوحش وأداءه للواجب بصمت وسكون وزهده بعد ذلك في الحياة، إنّ شاعرنا الصافي ليصف لنا «موت الكلب» ويحيط فاجعته بإطار إنسانيّ حزين من الشعور الدافق والوفاء النبيل والرحمة التي تنفذ إلى صميم القلب البشري. لقد كان الشاعر مسافراً في سيارة تقطع الفلاة مثل الفيل الذي تشع عيناه في دجى الليل:

فلاح على الطريق لنا مشاة ... يؤلف بينهم نسب وحبّ
أب شيخ وطفل دون سبعٍ ... وأمّ زان منها الرأس شَيْبُ
ورابعهم، كأهل الكهف، كلبٌ ... يلوح كأنه في الشكل ذئب
يسير بجنبهم يحمي حماهُمْ ... وفي عينيه نيران تشبّ

ويحدّق الكلب في السيارة فيهجم عليها ويوسعها نباحاً، وقد ظنها وحشاً غريباً يريد سوءاً بالقافلة التي يحرسها، فينتقم السائق القاسي منه بأن يسحقه ويقتله ظلماً وعدواناً.

ويمضي الشاعر في وصف المأساة فيقول:

فظلّ الكلب يـرفس رفس موتٍ ... عظـام حطّمت وانشقّ قلب
تفجّع أهلـه فبكـوا عليـه ... بـدمع ملـؤه ألم وكـرب
وجـاء الطفل يبغي ضمّ كلب ... لـه معـه هَـوىً مـاضٍ ولعب
لقـد نشـآ معـاً والكلب جـرو ... وليس عليـه سنّ الطفل يـربـو
يـداعبـه ويـؤنسـه بقفـز ... وذاك الطفل فـوق الأرض يحبـو
رأى دمـه فصبّ عليـه دمعـاً ... وصـاح وصـوتـه نَـوْح ونَـدْبُ
وظلّ يـروم مسح الترب عنـه ... وللـدم منـه فـوق الأرض سكب
يحاول حملـه حينـاً فيعيـا ... ويبغي أن يسير بـه فيكبـو
ويلثمـه لينعشـه بلثمٍ ... كأنّ اللّثم للمجـروح طِبّ

حتى يقول:

تـركنـاهم، وفي قلبي شجـون، ... ولم يأبـه معي لـلأمـر صحب
فثـرت على الأنـام لقتل كلبٍ ... وصرت كأنني للكلّ حـرب
وقلـت: بـأيّ ذنـب أوردوه ... رداه، وهل دفـاع الكلب ذنب؟
بكيـتُ وللسماء رفعـت رأسي ... وقلت: أمـا لهذا الكلب ربُّ!

وفي قصيدته «ذكرى سمكة» يذكر جلوسه على ضفاف العاصي فيرى الأسماك تنأى وتدنو من الشاطىء وكأنها جائعات، ويلقي إليها بفتات الخبز طعاماً. وإذا بالصياد قد جاء يرمي شصّه، وقد كمن فيه الموت لهذه المخلوقات الضعيفة:

أنـا أطعمتهـا لتحيـا وقـومي ... أطعمـوهـا لتجـرع الموت مـرّا
ثـم لم يكفهـم نفـاق وغـدر ... فـرأوا رحمتي جنـونـاً مضرّا
إن يكُ الـرّفق بـالضعيف جنـونـاً ... فـأنـا أعظم المجـانين طـرّا

وبلغ من حنان الصافي ورأفته أن شمل النمل فرعى هذا المخلوق الصغير بعطفه وقال:

تضـايق كأس الشـاي عنـدي نملـة ... لها ولع بـالحلـو يجذبها قسرا
وأخجل من طـردي لها إذ أخـالها ... تقـول: أمـا أوحيتُ قبلُ لك الشعـرا؟
تقبّلتهـا لي في الحيـاة شريكـة، ... لها السكّـر المحبوب أنثـره نثـرا
فتحمـل منّي للثقـوب ذخيرةً، ... وإن لم أكن في العيش متّخـذاً ذخـرا

وقديماً قيل عن الشاعر الفرنسيّ لافونتين (١٦٢١ ــ ١٦٩٥) أنه أحبّ الحيوانات وعرضها في أمثاله وقصصه التي سحرت أجيالاً متعاقبة من الصغار والكبار. وقد شوهد مراراً مكبّاً يراقب النمل في عمله الدائب ونظامه العجيب حتى نسي نفسه ساعات طويلة وسها عن مواعيد الطعام.

إنّ الصافي النجفيّ شاعر روحيّ عرف الله بوجدانه وسما اليه بايمانه، قال:

راح يقـــوى على المَدَى إيماني ... فبربّي قـــد امتـــلا وجـــداني
قيـل لي: هل عـــرفتـــه بـــدليـل ... أو بحسّ شهـــدتـــه أو عيـــان؟
قلـت: كـــلا، ايمان قلبـي أقـــوى ... مـن دعـــاوى الحواسّ والبرهـــان
واضـح لي وضـــوح روحـي وعقلي ... مـــاثـل في مـــداركـي ككيـــاني
هـــو رمـــز الـــوجـــود، سرّ التجلّي ... هـــو روح الأكـــوان معنى المعـــاني

وقد نظـر إلى الوجود بعين البشر فـاستهجن قبحه ودمامتـه، ورآه بعين الاله فأبصر بهاءه وسناه:

نظـــرت الـــوجـــود بعين البشر ... فـــلاح الـــوجـــود قبيح الصّـــور
ولما نظـــرت بعين الإلـــه ... إليـــه بـــدا لي بـــوجـــهٍ أغـــر

ولا بدع بعد ذلك أن يصيح: اللّه أكبر!

أفكـــر بـــالتّفـــاسف في الحيـــاة ... وأحسبهـــا حقـــائق راهنـــات
فيقطـع لي ســـلاسل تـــرّهـــاتي ... صيـــاح مـــؤذن: الله أكبر
وأضرب ســـادراً بين الهمـــوم ... وأسعـى للـــوصـــول إلى النعيـم
فيـــدعـــوني إلى النهج القـــويـم ... هتـــاف مـــؤذّن: الله أكبر
وأفنـي في الـــرقـــاد ثمين عمـــري ... كـــأني ميّـت في جـــوف قبر
فيـــوقظني لأحشر كـلّ فجـــر ... صيـــاح مـــؤذنٍ: الله أكبر
ونـأخـــذ في أحـــاديث شتـــات ... ونبقـى بين هـــاك وبين هـــاتِ
فأسمـع صـــوت حيّ على الصـــلاة ... فـأنهض صـــائحـــاً: الله أكبر

لقـد عرف الصـافي الغربـة البدنيـةوالـروحية فجـرع غصص الأولى وهفا إلى مغـاني الثانية. نزح عن وطنه فقال:

حتّى مَ أقضي ثمين العمـــر مغتربـــاً ... كـأنني ليس لي مثـل الـــورى وطنُ؟
فمـن رآني أطـــوي الأرض منتقـــلاً ... يقـــول: مـــا ليَ لا أهـل ولا سَكَنُ...
لم يـــرضَ بي وطني، لم يـــرض بي وطنٌ ... فهل تُـــرى يـــرتضيني القَبر والكفن؟

وحنّ إلى الوطن المجهول فهتف قائلاً:

أبغي أسافر، لا إلى جهة   كأنني عن وجودي أبتغي السَّفرا
فكم قصدت جهات ما لها عدد   فما بلغت بها قصداً ولا وطرا
فلا الإقامة في الأوطان تسعدني   ولا التغرّب يجلو عنّيَ الكدرا
أنّى جلستُ رأيت النفس في قلق   يثيرها فتعاف الصّحب والسَّمرا
وأين سرت رأيت القلب منقبضاً   والعين في كل شيء تبغض النّظرا
كأنني باحث في الكون عن وطنٍ   به شغفت ولم أعرف له أثرا
لم ألْقَهُ وأنا حيّ وبي رمق،   فهل سألقاه لما أغتدي خبرا؟

إنّ هذه الابيات المفعمة بالضياع والحيرة والحنين لتذكّرنا بقصيدة شارل بودلير: الدعوة إلى السفر، ففي هذه القصيدة يتحدث شاعر «أزهار الشرّ» عن عالم بعيد يتمنّى أن يعيش فيه، عالم زاخر بالحبّ والموت، عالم يغشاه النظام والجمال والترف والهدوء والهيام اللاّهب، عالم تظلله الشموس المبلّلة والسموات المضطربة، يسحر الشاعر بفتنة خفية كعيني حبيبته الخائنتين اللامعتين خلال الدموع.

بل تذكرنا هذه الابيات بقصيدة «السفر»، وهي من قصائد بودلير ايضاً، يتشوّق فيها إلى وطن مجهول ويقول: إن المسافرين الحقيقيين هم اولئك الذين يذهبون لأجل الذهاب فحسب، قلوبهم خفيفة، يستجيبون لنداء القدر الذي يدعوهم دون أن يتساءلوا عن السبب ويصيحون:

هيّا ولنذهب!.. ويقول الشاعر الفرنسي: إن العالم لصغير وانه ليجري على وتيرة واحدة ولا يعكس إلا صورتنا كواحة من الهول في صحراء الملل والسّآمة. ثم يختتم قصيدته داعياً الموت، ذلك الربّان القديم، ليعد سفينته ويرفع قلوعه، فلئن كانت السماء والبحر متشحين بالسواد القاتم، إن قلوبنا، نحن المسافرين، مغمورة بأشعة النور البهية تترقب المجهول لتجد فيه الجديد الذي تتطلّع اليه!

وللصافي بعد ذلك ألوان شتى من الشعر، وطني واجتماعي ووصفي وغزليّ. وله شعر خفيف يتّسم بالحلاوة والدعابة والسخرية، كقصيدته «حسناء تسوق سيارة حسناء»:

وغانية فاقت على جيلها   وحق قرآني وانجيلها
ساقت (أو تمبيلاً) رقيقاً لها   يجري رُخاءً وفق مأمولها
كأنه الطيف إذا ما سرى   في ساحر المقلة مكحولها
ألطف ما قد صيغ من جيله   فيه التي ألطف من جيلها
آخر (موديل) جمال كما   (موديله) حلو كموديلها
نشوان من نفحة أردانها   يختال إذ خصّ بتفضيلها

أضحى مليكـــاً بين أتـــرابـــه   متـــوّجـــاً منهـــا بإكليلهـــا
أحيتـــه فهي الـــروح حلّت بـــه   بلمس كفيّهـــا ومنـــديلهـــا
مـــرّت كما مـــرّت بنـــا نعمـــة   من عـــاطـــر الأزهـــار مطلـــولها
تعلّـق القلـب بها فـــاغتـــدى   يحوم كـــالطير لتقبيلهـــا
أهـــوى ركـــوبـــاً لِيَ في جنبهـــا   أو لا فـــدهســـاً بـــاتـــومبيلهـــا

ومن ذلك بيتان قالهما في معرض دمشق الدولي:

ومليحـــةٍ جـــاءت لمعـــرض جلّقٍ   تخفي منـــاظـــره بمنظـــرهـــا الـــوَضِي
هي مـــا أتت كيما تشـــاهـــد معـــرضـــاً:   جـــاءت لتعـــرض حسنهـــا في المعـــرض

قال من قصيدة حين خصصت له الحكـومة العراقية راتباً تقاعدياً شهـرياً قدره مائة دينار:

ليـس مـــالي فضـــة أو ذهبـــاً،   مـــاليَ الفكـــر الـــذي عـــزّ نظيرا
مـــاليَ الخير الـــذي أعملـــه،   مـــالي السعي الـــذي يـــرضي الضميرا
مـــاليَ النـــور الـــذي أرسلـــه   يبـــدل الظلمـــة في الأفكـــار نـــورا
مـــاليَ الـــوحي الـــذي يلهمني،   مـــالي الشعـــر الـــذي يحيي الشعـــورا
لم يغير خلقـــــــي أو سيرتي   عـــارض المال وإن كـــان وفيرا
أعشق الـــزهـــد صريحاً فكـــرتي،   أعشق الكـــوخ ولا أهـــوى القصـــورا
أعشـق العيش بسيطـــاً هـــادئاً،   أشتهـي الارض مهـــاداً لا السّريـــرا
كـم هـــويت الصخـــر لي متّكـأً   وافترشت الصخـــر لا الفـــرش الـــوثيرا

سجنه الانكليـز عند دخـولهم إلى لبنان سنـة ١٩٤١ بعد دحـرهـم سلطات فيشي، فقال:

حبست وضـــاق الحبس بي حين زُجَّ بي   إلى غـــرفـــة ظلماء محكمـــة السـّـدّ
فقلت: عـــلام الحبس؟ لا أنـا ســـارق   ولا آثـم عمـــداً ولا دونها عمـــد
ولما رأيت الـــذنب خـــدمـــة مـــوطني   حـــلا السجن حتى خلتـــه جنّـة الخلـــد

وقال في أحداث لبنان التي جرح فيها (١٩٧٥):

بين الـرصـــاص نفـذت ضمـن معـارك،   فبرغم أنـف الموت هـــا أنـــا ســـالمُ
ولها ثقـــوب في جـــداري خمســـة   وقـــد أخطأت جسمـي وهنّ عـــلائم

وصف أمين الريحاني الصافي في كتابه «قلب العراق» فقال إنه تنقل من كوخ إلى كوخ ومن بلد إلى بلد، وكـان يدعى عجمياً في النجف وعربيـاً في بلاد العجم. ثم راح يقيم بين البدو فظنّـوه من الحضر، وجـاء سورية فظنـه أهلها من البـدو. ثم قـال: إنه لطير

عجيب غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما. وهو. . . وليد برج النحوس، فالدمامة أمه والسقم أبوه والبؤس أخوه. . . أما الروح منه فهي سليمة قوية، بل هي روح جبّارة في هيكل سقيم:

أســـــير بجسـم مشبـــــه جسـم ميّت　　كـأني إذا أمشي بـــــه حـــــامـل نعشي

من آخر ما نظمه احمد الصافي بيتان على لسان السياسي اللبناني صائب سلام على أثر بلوغه السبعين (١٩٧٥)، قال:

سنّـي بــــــروحـي لا بعــــــدّ سنين　　فـــــلأسخـــــرنّ غـــــداً من التسعين
عمـــــري من السبعين يـــــركض مسرعـــــاً　　والـــــروح ثـــــابتـــــة على العشريـن

أيام الصافي الأخيرة ووفاته:

أصيب الصافي في أحـداث لبنان برصـاصات فنقل إلى بغـداد في ١٩ شباط ١٩٧٦ حيث عـولج. وكتب إليّ جعفـر الخليلي يقول إنـه لم ينقطع عن زيـارة الشـاعر منـذ أن جيىء به إلى بغـداد ليقضي دور النقاهة بعد استخـراج الرصاصة من صـدره. ثـم قال: والعجيب أنه شفي تماماً من هـذه الاصابة الخطرة ثـم مات بمرض الشيخـوخة الذي لا علاج له.

وكانت وفاته في بغداد في ١٧ حزيران ١٩٧٧.

محمّد مهدي الجواهري

شاعر العراق والعرب محمد مهدي بن عبد الحسين بن عبد عليّ بن صاحب الجواهر الشيخ محمد حسن المتوفى سنة ١٨٥٠. ولـد محمد مهدي في النجف يـوم الأربعاء ٢٦ تموز ١٨٩٩ ونشأ في كنف والده الـذي توفي سنة ١٩١٧. درس أمداً وجيـزاً في المدرسة العلويـة في مسقط رأسه، ثم أخذ علـوم اللغة والأدب عن محمد علي المظفر وعلي ثـامر وحسين الحمامي وغيرهم من مشايخ الغريّ. ونبغ في الشعـر، قرضه قبل أن يبلغ الحلم وبـرّز فيه تبريـزاً، وبـدأ بنشر قصائده منـذ مطلع سنـة ١٩٢١ في جـريدة الاستقـلال والعراق وغيرهما من صحف بغـداد. وسافـر إلى ايران لأول مرة سنـة ١٩٢٤، فرأى من طبيعتها الخلابة ومشـاهدها الجذابة ما سـاعد على تفتّح مواهبه وصقل قـريحته وتوسيع آفاقه.

وجاء إلى بغـداد سنة ١٩٢٧ فعيّن معلماً في بعض مـدارس الكاظميـة، ولم يلبث أن نقل مـوظفاً بـدائرة التشريفـات في البلاط الملكـي. واستقال من الـوظيفـة بعد ثـلاث سنوات، فأصـدر جريدة «الفرات» (ايار ١٩٣٠). وأعيـد إلى سلك التعليم في اواخر

السنة التـالية، ثم أصبح رئيساً لديـوان التحرير في وزارة المعارف، فمـدرساً في المدارس الثانويـة بالبصرة والحلة والنجف ودار المعلمين الريفيـة، حتى اعتزل التدريس في تموز ١٩٣٦. وقد اتهم بنشر قصيدة سيـاسية في جريدة «الإصـلاح» البغدادية، وأحيل على القضاء فبرّأت محكمة الجزاء ساحته.

وأصدر جريدة «الانقلاب» في بغـداد في ١٥ تشرين الثاني (١٩٣٦) فجريدة الرأي العام (١٩٣٧) والمعـرض (١٩٣٧). وأيّد حـركة ايـار ١٩٤١، فلما انتهت بـالاخفاق مضى إلى ايران، ثم عـاد في نفس تلك السنة واستأنف إصدار جـريدته الـرأي العام. وأصدر في آب ١٩٤٦ جـريدة صـدى الدستـور. وانتخب نائبـاً عن كربـلاء في المحل الشاغر بـوفاة عبد الرزاق شمسة (تشريـن الثاني ١٩٤٧)، لكن المجلس حلّ في شباط ١٩٤٨.

وسـافر إلى فـرنسـة سنة ١٩٤٩ فنظم ملحمتـه الغـزليـة «أنيتا» التي قـال في سبب نظمها: «كان حبـاً عارماً لا يريـد، ولا يقدّر له لو أراد، أن يقف عنـد حدّ». وأقام في مصر سنة (١٩٥٠ ـ ٥٢)، ولما عـاد إلى بغداد حرّر في صحف منها الأوقـات البغدادية والجهاد والثبات والاستقلال. واعتقل في أبي غـريب في تشرين الثاني ١٩٥٢. وأصدر جريـدة «الجديد» في ايـار ١٩٥٣. ثم غادر العـراق إلى دمشق سنة ١٩٥٦، فـاتخذها سكناً وعهد إليه بتحرير جريدة «الجندي» التي تصدرها رئاسة أركان الجيش السوري.

وعاد إلى بغداد في تموز ١٩٥٧، ولم تمض سنة واحدة حتى قـامت ثورة تموز، فحيّاها بشعره وأعـاد إصدار جـريدتـه الرأي العام (تشريـن الأول ١٩٥٨). وانتخب في السنة التالية رئيساً لاتحاد الأدباء ونقيباً للصحفيّين. وفي سنة ١٩٦١ سافر إلى تشيكوسلوفاكية وأقام في براغ سبعة أعوام، ولم يعد إلى الوطن إلا في تشرين الأول ١٩٦٨. وأعيد انتخابه رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين عند إعادة تأليفه في كـانون الثاني ١٩٧١. ثم عاود الرحلة الى براغ ومكث فيها أمداً طويلاً. وانتقل منها إلى دمشق حيث يعيش الآن (١٩٩٤).

ديوان الجواهري ومؤلفاته:

أصدر الجواهري «حلبة الأدب» (١٩٢٣) وهي مجموعـة أدبية، ثم طبع ديوانه سنة ١٩٢٧. وصدر الجزء الثـاني من ديوان الجواهري في النجف (١٩٣٥). وطبع الـديوان في ثلاثة أجـزاء (١٩٤٩ ـ ٥٣)، ثم طبع للمرة الرابعة في الشـام (١٩٥٦ ـ ٥٧) وللمرة الخامسـة في بغـداد (١٩٦١)، وثم في بيروت (١٩٦٨). وشرعت لجنة بـوزارة الاعـلام بطبع ديوانه الكامل، فصدر الجزء الاول منه سنة ١٩٧٣، وعقبته ستة أجزاء طبع آخرها سنة ١٩٨٠.

ولمحمد مهدي الجواهـري عدا ذلك: شكوى إقبال وجـوابها (١٩٣٦)، وهو ترجمة

شعرية لقصيدتين للشاعر محمد إقبال، بريد الغربة (١٩٦٥) بريد العودة (١٩٦٩) أيها الأرق (١٩٧١) خلجات (١٩٧٢).

وقد قرر المكتب الدائم لاتحاد الكتّاب الافريقيين والآسيويين في دورته الخامسة عشرة المعقودة في موسكو منح جائزة لوتس الدولية في الآداب لسنة ١٩٧٥ إلى الجواهري بالاشتراك مع كاتبين آخرين باكستاني ونيجيري.

مازال الجواهري يعيش في دمشق. وقد حضر في ١١ آذار ١٩٩١ مؤتمر الاحزاب العراقية المعارضة لحكم صدّام حسين في بيروت وألقى فيه كلمة، ووضع مذكرات بعنوان «ذكرياتي» صدر الجزء الاول في دمشق سنة ١٩٨٨، ثم صدر الجزء الثاني.

وقد رغب في المجيء الى لندن في آب ١٩٩١، لكنه مرّ في طريقه ببراغ ومرض فبقي فيها للمعالجة. ثم حضر إلى لندن في كانون الاول ١٩٩١ وتوفيت زوجته بها في الشهر التالي، ونقل جثمانها إلى دمشق حيث دفن. وعاد الجواهري للاقامة في دمشق.

شعره:

الجواهري عملاق الشعر العربي الحديث، عبّاسيّ الديباجة، طويل النفس، يرصّ كلماته وأشطره رصاً فتجيىء قصائده كالصرح الممرّد أو الطود الشامخ، ويكسو معانيه أثواباً مؤنقة من جزل الألفاظ. قرض الشعر يافعاً وجوّل في آفاقه وجلّى في حلباته وتفنّن في أغراضه من غزل ووصف واجتماعيات وسياسيات ووطنيات، وله من القصائد آيات بيّنات. ولئن كان في حياته الشخصية متقلّب الأهواء، كثير النّزوات شأن العباقرة النّابغين، لقد كان شعره دائماً إنسانيّ النزعة، فوّار العاطفة، تقدّمي الأغراض. وكان الشاعر مؤمناً بجماهير الشعب، معبراً عن آمالها وآلامها.

يرثي محمد جعفر أبا التمّن فيستهلّ رثاءه أيّما استهلال:

طالت، ولو قصرت، يد الأقدار	لرمت سواك، عَظُمْتَ من مختار
من صفوة لو قيل: أيّ فذّهم؟	لم تعدُ شخصك أعين النظّار
لكن أرادت أن تحوز لنفسها	عين القلادة فازدرت بنثار
وأرى المنايا بالذي تختاره	للموت عاطلة وذات سوار
فطوتك في درج الخلود فعطّرت	بك سالف الأحقاب والآثار
واستنزلتك لغربة، ولأنت من	علياك في لجب من الأنصار
وتجاهلت أن البلاد بحاجة	لك حاجة الأعمى إلى الإبصار

ثم يصف الراحل فيقول:

بكر النعيّ فما سمعت بمثلها	عبثاً على الأسماع والأبصار
وترنّح الأحرار ينذر بعضهم	بعضاً بفقدهُمُ أبا الأحرار

لله درّك مــــن نقـــيّ لم ينــل ... أذيـــالــه وضر مـن الأوضــار
في حيثُ تـزدحم الشرور وتـرتمي ... شبهـاتها حتّى على الأخيـار
خـاض السياسـة وانجلى عن لجّهـا ... ألـق الجبين، مكلّـلاً بـالغـار
في حين رام سـواه خـوض عبابها ... فطغى عليـه، فضـاع في التيّـار
وصليب عـود حين بعض مـرونـة ... في ضعفهـا خطـر من الأخطـار
وطـريّ نفس حين بعض صـلابـة ... في عمقهـا حجـر من الأحجـار
وخفيّ كيـد حيث يسمـو كـائد، ... ومـن المكـائد جـالـب للعـار
وصريـح رأي لم يحد عـن خطّـة ... ليلـوذ من تـأويلهـا بجـدار
حـرب على مستعمـر وربيبـه ... ومسـالم مستعمـراً ومجار

ويلتفت إلى حالة البلاد التي كان الفقيد يذود عنها ويريد حريتها ورفعتها فيقول :

ومفـرّقين عنـاصراً ومـذاهبـاً ... متكفّلين سيـاسـة استعمار
نـزلـوا على حكم الغـريب وعـرّسـوا ... في ظـلّ مأثمـة لـه وفجـار
وتحلّبـوا أوطـارهـم، فـإذا بها ... وشـل لما استحلى مـن الأوطـار
واستفـرش الشعـب الثـرى، ودروبهم ... مفـروشـة بنثـارة الأزهـار
ذعـر الجنـوب فقيل كيـد خـوارج ... وشكـا الشمال فقيـل صنـع جـوار
وتنـابـذ الـوسط المدلّ فلـم يـدع ... بعـض لبعـض ظنّـة لفخـار
ودعـا فـريق أن تسـود عـدالـة ... فـرُمُـوا بكـل شنيعـة وشنـار
ومشى المغيـث على الجيـاع بقـوتهم ... وعلى العـراة بجحفـل جـرّار
وتسـاءل المتعجّبـون لحالـةٍ ... نكـراءَ: من هم أهـل هٰـذي الـدار؟
هي للصحـابـة من بني الأنصـار ... مـن كل بـدريّ وكـل حـواري
للحـاكمين بـأمـرهـم عن غيرهـم ... ولصفـوة الأسبـاط والأصهـار
من كـلّ غـازٍ شـامـخ في صـدره ... زاهي الـوسـام، مـدوّخ الأقطـار
هي للّـذين لـو امتحنت بـلاءهم ... لعجبت مـن سخـريـة الأقـدار
هي للّـذي من كلّ مـا يصـم الفتى ... كـاسٍ، ومـن جهـد يشرّف عـار

ويحيّي الجواهري ثورة تموز بقصيدة عصماء يقول منها :

لم يبـقَ شيء لم نقلـه تشكّيـاً ... فيما مضى بـالمصرحـات وبـالكنى
كنّـا نقـول لهم: حـذار مـن لظى ... إمّـا اعتلت ومن اللهيب إذا دنـا
ومن الصـدور الحابسـات زئيرهـا ... ومن النفـوس الكـاظمات تحيّنـا

ومن السجـون الـداجيـات، فإنها — كـانت ومـا زالـت لبـاغ مـدفنـا
ومن السيـاط، فإنّ حـرّ نشيـدهـا — بنهـايـة الجلّاد كـانت ملحنـا
ستحـول سلسلـة السجين وقيـده — من معـدنٍ بخس لأثمن معـدنـا
كنّـا نحـذّرهم ونضرب راعيـاً — مثـلاً لهم وقطيعـه مثـلاً لنـا
مـا أقبح الـدنيـا إذا ضلّ الصـوى — راعٍ بثلّتـه ومـا أدنى الـدّنى.

إنّ شعر الجواهري الثائر المتأجّج، المنافح عن الشعب المظلوم، النّازل على ظهر الحاكم الظالم كالسوط اللاهب، ليشبه شعر فكتور هوغو في دفاعه عن الحرية وتنديده بالطغيان والطّغاة. أجل، إنه ليشبه فكتور هوغو خطيب الجماهير في ثورة ١٨٤٨، وصاحب «نابليون الصغير» و«العقوبات»، والمبعد إلى جزيرة بحر المانش «تلك الصخرة التي حطم عليها جناحه». وسيبقى شعر الجواهري أبداً سجلاً حافلاً للجهاد العربي وتحفّز الشعب وظمأه إلى الحرية والكرامة.

الرصافي والجواهري

تلاقى الشاعران الرصافي والجواهري على صعيد الفكر فتناجيا وبثّ كل منهما لاعجته وشكواه. قال الرصافي:

أقـول لـربّ الشعـر مهـدي الجواهـر — الى كم تنـاغي بـالقـوافي السـواحـر
فترسلهـا غـرّا هـواتـف بـالعلى — يـزوّد منهـا سمعـه كل شـاعـر
وتشـدد بها، والقـوم صم عن العلى — فلـم تلقَ إلا غير واعٍ وذاكـر؟
أتـرجـو من الحسّـاد عـونـاً ونـاصراً — فتـدعـوَ منهم خـاذلاً غير نـاصر؟
كـأنك لم تبصر سـواد قلـوبهم — فهل أنـت مغـرور ببيض المنـافـر؟

ثم ناغاه الجواهري فهزّ ـ كما قال ـ الأسد الرابض الضائق ذرعاً بعرينه، المنطوي على نفسه ألماً وغضباً وكبرياء، فزأر الأسد الرصافيّ وقال في معرض الجواب:

بِكَ الشعـرُ لا بي أصبح اليـوم زاهـرا — وقـد كنـتُ قبل اليـوم مثلك شـاعـرا
فأنت الـذي ألقت مقـاليـد أمـرهـا — إليـه القـوافي شُرّداً ونـوافـرا
بلغـت من الإبـداع أرفـع ذورةٍ — هـوى النجم عنهـا صـاغـراً متقـاصرا
إذا شيءَ ظلـم قمـت للظلم رادعـاً — وإن سيءَ حقّ قمـت للحقّ نـاصرا

تذكرنا هذه المطارحة الشعرية بين معروف الرصافي والجواهري المراسلة الشعرية التي جرت في اواخر القرن الماضي بين الشاعر المنفي الشيخ محمود سامي البارودي والشاعر اللبناني الشاب شكيب ارسلان، وقد نشرتها مجلة الزهور المصرية في مختاراتها.

وللجواهري صرخات ثورية مدوّية، أليس هو القائل:

يتبجّحـــون بـأن مـــوجـــاً طـــاغيـــاً ... ســدّوا عليـه منــافــذاً ومســاربــا
كـذبـوا، فمـلء فم الـزمـان قصـائدي ... أبـداً تجوب مشــارقــاً ومغــاربــا
تستـلّ مـن أظفــــارهـم، وتحطّ مـن ... أقــدارهم، وتثـل مجداً كــاذبــا
أنـــا حتفهم، ألـج البيـــوت عليهُمُ ... أغــري الــوليــد بشتمهم والحاجبــا

ومن موشحات الجواهري التي نظمها في عهد شبابه «وشاح من ورد» قال فيها:

روح الصبـــا تسري ... بـــالبعث والنشر ... على البطـــــــاح
ويـــانع الـــزهـــر ... يلتـفّ بـــالنهـــر ... مثـل الـــوشـــاح

الـــروض مـــزدان
تكســوه ألـــوان ... مـــن الـــربيـــع

***

والنبت فيـنـــان
روح وريحـــان ... صنـع البـديـع
والـــرند والــبـان
صــادٍ وريّان ... زاهـــي الـفروع

والشمس في سكـــر ... من رشفـــة الخمـــر ... مـن الإقـــــــاح
تسري ولا تـــدري ... بـــالنهي والأمـــر ... بـــــــلا جماح

وسـيـمة الفـجر
يفـترّ عـن دَرّ ... مـن السقيـط

***

وكـــائر النّسر
يلـــوذ بالوكـــر ... خـوف السقوط
والبـدر في الأسر
يغـــزل للفجـر ... بيض الخيوط

والصبـــــح إذ يسري ... بطـــــــالـع البشر ... على النـــــــواحي
وريّـق القَطـــــــر ... يحوك للـــــزهـــر ... ثـــوب ارتيـــاح

والكـأس مـلآن

والشهب نُدمان بعض لبعض
والكل فرسان
والروض ميدان للقطف والعضّ
والصدغ بستان
والحظّ وسنان كالنّرجس الغضّ

والشعر كالشَّعر في اللفّ والنشر فيه افتضاحي
والخدّ كالبدر كالشمس في الظهر في الأفق ضاحي

ناجي القشطيني

تنتسب الأسرة الى قشطين من أعمال حلب، وهي أسرة طائية امتهن أفرادها التجارة ونزحت الى بغداد بعد فتح السلطان مراد الرابع. وقد عرف منها محمود القشطيني رئيس بلدية الكرخ المتوفّى في ١٩ كانون الثاني ١٩١٥، وهو عمّ الشاعر المربي محمد ناجي القشطيني.

ولد محمد ناجي بن عبد الوهاب بن عبد الحميد بن أحمد في كربلاء سنة ١٨٩٦، وكان أبوه زراعاً قبل الوظيفة على مضض لخسائر حاقت به، فعمل في كربلاء أربع سنوات، ثم عاد الى الزراعة وتوفي سنة ١٩١٣. وجيىء بناجي طفلاً الى بغداد، فلما كبر أخذ يدرس على خاله عباس حلمي القصاب وغيره من العلماء. وعيّن القصاب مدرساً للمدرسة الدينية في سامراء، فلحق به الفتى ناجي وقضى في تلك المدينة سبعة أعوام يتلقّى العلم في مدرستها.

قرض ناجي القشطيني الشعر في صباه، وكان من أوائل نظمه رثاؤه لوالده الذي أدمت وفاته قلبه الغضّ فقال:

لم أدرِ مصرع والدي أم مصرعي هو لا يعي، وأنا كذلك لا أعي
وصحوت أسأل من رأيت، فلم أجد أحداً يجيب سوى غزير الأدمع

ثم رثى عمّه الذي تعهده برعايته وحنانه فقال:

موت عمي أمات منّي اللّسانا فاعذروني إذا فقدت البيانا
كان لي حجّة وكان إماماً أتلقى منه الهدى والأمانا
كان لي جُنَّة وكان حساماً أتحدّى به العدى والزّمانا

وكان شبابه عهد جدّ ودرس وصرامة، فلا عجب أن ذكره قائلاً:

شيئـــــان مـــــرّا بي كلمح البصر عهـــد شبـــابي وجمال الصُّــــوَرِ
أمـــا شبـــابي فهـــو مـــا يـــؤسفني مضـى ومــــــا خلّـف غير العبر

واحتّل الإنكليز بغداد ففتحوا في حزيران ١٩١٧ دورة لتدريب المعلمين انضمّ إليها الشاعر فيمن انضمّ من الشبـاب الناهض . ولما تخرج فيها عيّن معلماً فمديـراً للمدرسة البارودية (أول نيسان ١٩١٨) . وقد حيّا عهد العلم والعرفان فقال :

إن المعـــارف قــد لاحـت بشـــائرهـــا متى بنهضـــــة أوطـــــاني تبشّرني؟
هي التي ضــــاءت الـدنيـا بطلعتهـا : لــولا المعـــارف هــذا النّـــور لم يكنِ

ثم عيّن بعد ذلك مديـراً لمدرسة الكرخ فالكاظمية (أيلـول ١٩٢٣) ثم عيّن مدرساً للعربية في المدرسة الثانويـة المركزية (١٩٢٤)، وانتمى في السنة نفسها الى دار المعلمين العالية التي افتتحت آنـذاك وكانت الدراسة فيها مسائيـة استمرت سنتين . وعيّن مديراً لجريدة الوقائع العراقية الرسمية (آب ١٩٢٦) ثم عمل مدرساً أعواماً طويلة حتى عيّن مـديراً للمـدرسـة الشرقية المتـوسطـة (آب ١٩٣٦) . ونقل في آذار ١٩٣٨ الى مـديريـة الدعايـة العامة مميزاً للمطبوعـات الداخلية ثم أعيد مـديراً للمدرسة المتوسطـة المسائية (آذار ١٩٣٩) فمميّزاً للمطبوعات العربية (آب ١٩٤١) . وأعيد إلى سلك التدريس في تشرين الأول ١٩٤٦ ، ثم عيّن مفتشـاً إختصاصيـاً بوزارة المعـارف (آذار ١٩٥٣) حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٥٩ . وتوفّي ببغداد في ١٥ كانون الأول ١٩٧٢ .

شعره :

نشر ناجي القشطيني «اللهفـات» ديوان شعر ونثر (١٩٦٨)، «ومن عيـون الشعر» (١٩٦٨)، وهي مختاراته لشعراء العربية، ونفثات الأخرس (١٩٦٩) .

وشعره وطنّي النزعة، إسلاميّ الطابع، يكاد يقتصر على المواضيع القومية والدينية، وليس له شعـر وجدانيّ يذكـر . ولئن كان القشطيني المربّي قد أنشأ أجيـالاً من الشباب المثقف الواعي، لقد شـارك القشطيني الشاعر في المناسبات الوطنيـة والاجتماعية خلال نصف قـرن، فأنشد قصـائده في ميلاد الرسـول الأعظم، وارتفع صـوته في عيـد الثورة العربيـة وتكريم جميل صدقي الزهـاوي والثعالبي التونسي وطلعت حرب ورثـاء محمود شكري الألوسي والمنفلوطي وشوقي والزهـاوي وفهمي المدرس ويوسف السويدي وعبد المحسن السعدون وغيرهم من رجال الأدب والزعامة والسياسة .

إن القشطيني غيور على دينه وأمته، فلنستمع اليه يقول :

ربّ، هـب لي مـن فنـــــون الأدب حكمـــــة الشعـــــر وسحـــــر الخطب
ربّ، هيّـىء لي رشـــــــاداً وحجـىً ربّ، أيـــــدني بــــآيــــات النّبي
لأنـــــــاجـي أمّتـي فيماأرى وأريها مـــــــــا وراء الحجـب

أو يقول :

الحقّ أبلج وضّاح الى الأبد | كالصبح يسطع لا يخفى على أحد
فقل عن الحق ما تهوى، فأنفسنا | تلتذّ في ذكره المعسول كالشَّهَد
وإن ترد مثلاً أعلى لتضربه | للحقّ غير أبي الزهراء لم تجد
طه، ومن مثل طه في خلائقه، | أثنى عليها كتاب الواحد الصّمد
سرّ من الله لم تعرف حقيقته | ولم يَدُرْ كُنْهُ معناه على خَلَد
قد جاءنا بنظام كله حكم | وأنعم نفّست عن كل مضطهد
كانوا يطوفون بالأصنام جامدةً | ويسجدون لها في زيّ معتقِدِ
يدعون لله أبناءً تشاركه، | والله حاشاه لم يولد ولم يلد

وهو وطني صلب، ثابت المبدأ، يقول :

لا السجن يُبكينا ولا التبعيد | كلاّ، ولا الإرهاب والتهديد
سنظلّ نهزأ بالخطوب تجلّداً | مهما استمرّ الضغط والتشديد
وإذا تناوشت الحراب صدورنا | هتفت إليها في الصدور كبود
إنّا تحالفنا على نيل المنى | وتسجّلت منّا بذاك عهود
الصبر شيمتنا وليس يهمّنا | إن قال فينا ما يشاء حسود
والقيد مهما أحكمت حلقاته | كسرته منّا أذرع وزنود

ويكبر عزم الشباب وقوة الشعب فيقول :

هو الشعب كالبركان يقذف ناره | وهل تمنع البركان يوماً موانع؟
لقد كان مخدوعاً فثاب لرشده | وفحّص فيما يدّعيه المخادع
فلم يرَ إلاّ زمرة أشعبيّة | تناضل عن غاياتها وتدافع
قد اجتمعت لمّا صفا الجوّ صحوةً | كما اجتمعت حول النقود الأصابع
تحاول ستر الحقّ في برقع الهوى | وهل سترت شمس النهار البراقع؟
وتزعم أن الشعب طوع بنانها، | لقد كذبت فالشعب ما فيه طائع...
ألا قل لمن يبغي الخيانة بعدما | رآها وفي أنيابها السّمّ ناقع
تكتّم وحاذر ما استطعت، فإنه | لسرّ على رغم التكتّم شائع
لقد أنهكت ظهر العراق ضرائب | يقدّمها من جلده وهو جائع
أناخ عليه الأجنبيّ بجيشه | وبثّ به ما حرّمته الشرائع
فهانت كرامات وضاعت فضائل، | وبارت تجارات وماتت مزارع...

وقد هزّته نكبة حزيران سنة ١٩٦٧ فأطلقها لهفة أخيرة من نفس ذاهلة كسيرة،

وقال :

أتبكـي أم تعـــدّد أم تنـــوح، فهـل يطغى اللّظى دمك النّضـــوح؟
ولـــو أنشـــدت قـــومك ألـف بيتٍ وبيتـــاً هل ستنـــدمـل الجروح؟
لماذا تستغيـــث ولا مغيـــث، أتسمعك الـــروابي والسّفـــوح؟ . . .
وليس لنـــا إذا رمنـــا حيـــاة يحيّيهـــا التـأمّل والطمـــوح
ســـوى صبر يـــؤزّره جهـــاد ويغسـل عـــاره دمنـــا السّفُـــوح
وكـم سُفِكَـتْ لأمّتنـــا دمـــاء وكـم هـــدمـت لموطنهـــا صروح

من شعر ناجي القشطيني :

أمن مصـــائب عصر النـور، يـــا قلم، أراك تـــرعـش أم أودى بـك الهرم
وهل هيـــامك فـــوق الطـــرس من ألم أم عـــادة لـك هـــذا الحال لا ألم؟
صـــدى أنينـك أشجـــاني وأرّقني وراعنـي إذ جـــرى مـن مقلتيـك دم
إني عهـــدتك لا تخشى الخطـــوب ولم تسأم، فمـن أين هـــذا الخوف والسّأم؟

وقال أيضاً :

خطـــر النّسيم الغـضّ يحمل نفحـــة مسكيـــة فيهـــا ارتيـــاح الخاطـــر
والشمس صـــاغت بـالشعـــاع سبائكـاً يجلـــو النّضـــار بها جميـل منـــاظـــر
وجـــرى لجين الماء فيـــه فحلّيـت أشجـــاره بمعـــاضـــد وأســـاور

عبد العزيز الجواهري

شاعر عـراقي عاش في إيران، لكنّ روحه بقيت متّصلة بوطنـه العراق ومسقط رأسه النجف، وهـو الأخ الأكبر لمحمد مهدي الجواهـري: عبد العـزيز بن عبـد الحسين بن عبد عليّ المولود بالنجف في ٣٠ أيلول سنة ١٨٩٠.

وقد أرّخ مولده الشاعر جعفر الحلي فقال :

بشراكـمُ هـــذا غـــلام لكـم مثل الـــذي بشّر فيـــه العـــزيـــز
سمعـــاً، أبـــاه، إنّ تـــاريخه أعقبت، يـــا بشراك، عبـد العـــزيـــز

درس عبد العـزيز الجواهري في معـاهد بلدته وحصّل العلـوم العربية والـدينية على عادة أهل زمـانه، حتى إذا مـا بلغ مبلغ الشباب اتصل بالحركـة الفكريـة الجديدة التي هبّت أنسـامها على البلـد المنعزل وراء الصحراء. لقـد أعلن الـدستور في إيـران وعقبه

إعلان الـدستور في السلطنـة العثمانية، وصـدرت الصحف في بغداد بعـد أن أطلقت حرية النشر والتعبير، ووردت الجرائد والمجلات من مصر وسورية ولبنان تحمل الأفكار الجديـدة والشعر المحفّـز للهمم، المفصح عن يقظة دينيـة ووطنية بعـد سبات القـرون الطويل.

وسار فتانا في ركاب النهضـة الى جانب محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وأضرابهما، وأخذ ينظم في المطالـب العصرّية ويخلع عنه رداء الجمود والانغلاق الـذهني. وقد نشر قصائده في المجلات العربية الكبرى كالعرفان والمقتطف، وتولّى طبع ديوان محمد سعيد الحبوبي في بيروت سنة ١٩١٣.

ثم غادر العراق بعد الحرب العظمى الأولى واتخذ مقامه في طهران. وقد ترجم مقدّمة ابن خلدون الى اللغة الفارسية، ووضع دائرة معارف إسلامية في عشرة مجلدات، وصنّف تآليف أخرى منهـا: النهاية في الشرح والتحريـر للكفاية (في ثلاثة أجـزاء) آثار الشيعة الإمامية (في عشرين مجلداً طبع منه الثالث بالفارسية والرابع بالعربية) المكتبات الإيرانية (بالفارسية ١٩٣٣)، جواهر الآثار في ترجمة مثنوي جلال الدين الرومي شعراً (١٩٥٨) الخ.

تفّتح ذهن عبد العـزيز الجواهري الشـاب للحياة العـاملة العاملة فخـاطب الشباب قائلاً:

تطلّـب في شبـــابـك للصِّعـــاب ... فما عمــــر الفتى غير الشبـــاب
وسلَّ حســـام عـــزمك للمعـــالي ... فإن السيـف يصـــدأ بـــالقـــراب
ودع طلـب الهوان لمبتغيـــــــه ... فإن المجـــد أجـــدر بـــالطّـــلاب
وكـــرّر لـــو خطـأت الجدّ يـــومـــاً ... فكـم خطأً يـــؤول الى الصـــواب

وآمن بالشعر الحيّ الذي لا يموت فقال:

خليليّ، مـــا معنى الشعـــور؟ فـإنني ... أرى كـلّ شيء شـــاعـــراً مترنّما
أرى الكـون في لـوح الـوجـود قصيـدة ... تخطّ عليهـــا الخلق شعـــراً منظّما
هـو الشعـر بـاقٍ ليس تفنى حيـاتـه ... نقيـم احتفـــالاً أو نشيـــد مـأتما
تصـوّره روح الخيـــال، فلـو بـــدا ... إذن لـــرآه الطـــرف شخصـــاً مجسّما
وتنشر أسفـــار الطبيعـــة شعـــرهـــا ... رمــــوزاً فيمليهـــا الهزار مترجما
هل النجـم إلاّ روضـــة نـــرجسيّـــة ... أرى البـــدر فيهـــا شـــاعـــراً متبسّما
فـــدىً لـــدمـــوع العـــاشقين فإنها ... قصيـــدة شعـــر بينهـــا الحبّ نُظّما

عــــرائس حبّ إن تجلّت بــــدورهــــا　　لــدى الصبّ ليــلاً زفّها الــوجــدأنجما
تقبّـل خـــدّ الجلّنـــــارة وجنــــةً　　وتلثـم ثغـــر الأقحــــوانـــة مَبْسَمَا

ويمضي الشاعـر في اقتفاء خطي الشعـر، فيسمعه في الروض الـذي تداعبـه أضواء البدر ونسيج الليل فوقه وشياً منمنماً، حتى يقول:

تقـــرّيت أسفـــار الخلائق في الثـــرى　　وفتّشـت أسرار العـــــــوالم في السّما
فلـم أرَ إلا روضـــــة أو خــــريــــدة　　ولم ألْـفِ إلا شـــــاعـــــراً أو متيّماً
ألا كل صــوت طـــارق صـوت شــاعـــر　　وسيّـــان فينـــا من بكـى أوترنّما

وليس من ريب أن هذا الصوت يعيد الى أذهاننا صوت معروف الرصافي الذي قال:

قــرأت، ومـــا غير الطبيعــة مـن سفــر،　　صحــائف تحــوي كلّ فــنّ من الشّعــر

وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٩٠٩، فكان لخلعه صدى كبير دوّى في جوانب الدولة العثمانية المترامية الأطراف من مصر الى العراق. قال شوقي:

ســــل يَلْـــدِزاً ذات القصـــور　　هل جــــاءهــــا نبـأ البـــدور؟

وردّ عليه وليّ الدين يكن قائلاً:

هــــاجتك خـــاليـــة القصــــور　　وشجتـك آفلـــــة البــــدور
وذكــــرت سكّـــــان الحمـى　　ونسيـت سكـــــان القبـــــور

أما صاحبنا عبد العزيز الجواهـري فبدّل الوزن واحتفظ بالرويّ، وخاطب السلطان السّجين قائلاً:

بعيشـك كــم تحنّ الى السّريــــــــر　　وكم تــرنــو بطــرفك للقصــــور
هـــــلاليــــاً أراك نحلـت جسماً　　أمــــا تشفيـك آفلـــة البـــدور؟
طـــواك الــرعـب قبل الموت مَيْتـــاً　　وأحيتـك المنـى قبـل النشـــــور
أهـــانتـك القصـــور وكنـت ملكـــاً　　تهيّـب منــــه سكــــان القبــــور
قـــريت الــوحـش من جثث البرايـــا　　وروّيـت الــرّبى بـــدم النحـــور
بكت منـك الثغـــور دمـــاً مـــراقـــاً　　وتضحك عنــد بــاسمـــة الثغــور
فأقسم أن عـــود الـــدّست لـــو لم　　يكـن مـن حـــرّ بـأسـك في سعير
لأثمـــر في رؤوس الجنـــد روضـــاً　　وأزهـــر من دمــاهـــا في غـديــر

لقـد سقط السلطـان المخيف وتألب عليـه الشعـراء والأدبـاء يشيّعـونـه بسخطهم ولعناتهم.

وأين صاحبنـا الجواهري الذي ودّع عبد الحميـد بتلك القصيدة، أين منه هـو نفسه قبل أعوام قليلة حين مدح خليفة الإسلام قائلاً:

عُليّ بطـــــريف مجدك والتّليـــــد وليس وراء مجدك من مـــــزيـــد
وفخـــــراً في عـــــلاك فقـــد تحلّى بفيض نـــداك عـــاطل كلّ جيـــد

ومن شعر عبد العزيز الجواهري في رثاء الشيخ محمد كاظم الخراساني:

بكـــاك الحيـــا دمعـــاً كما بكت الـــورى فهل كنت فوق النجم أم كنت في الثّرى؟
تحيّر عقلي كيف أرثيك واصفـــــاً، تعـالى الـذي صفّـاك للنّـاس جـوهـرا
لئن كنت نـوراً في حشـا الكـون مظهـراً فقـد عـدت سراً في حشـا الغيب مضمـرا

وهذه المرثية قديمة الطراز فيها المعاني المتصيّدة والمبالغة المتعمّدة. لكنّ شاعرنا حين يفقد أخاه يثيره الوجد ويرهفه الحزن والأسى، فيبثّ صبابته تهزّ النفوس وتكوي الضلوع:

بـــزغ الهلال، فأين عهـــد وفـــائه أن لا يخون بـــــودّه وإخـــــائه؟
أيـــرى أخـــاه مغيّبـــاً تحت الثـــرى قمـــــراً ويشرق زاهـــــراً بسمائه؟
إني خضبت أنـــــاملي بمـــــدامعي وطلبت طـــوق الحزن في ورقـــــائه
وعكفت حـــــول أزاهـــــر من قبره نبتت تسبّح في ضريح ثـــــوائه
نـــــذر عليّ لئن زهـــــا ريحانـــــه لأروّيـنّ الـــــورد في أنـــــدائه
يـــــا لهف أيـــــار تفـــــرّط ورده بيـــــد المنـــــون وجفّ قبل نمائه...
أهـــــلال عيـــــدي، أين غيّبك الثـــرى فحـــــرمتني من بِشْرِهِ وهنـــــائه
أغنتـــــه عن جـــــدد الحلى أكفـــــانـــه وكفـــــاه صبغ الـــدمع عن حنّـــــائه
وتـــــركت قلبي حـــــول قبرك حـــــائماً شبـــــه الفـــــراش يحوم حـــــول ضيـــــائه
إن شحّ لي قبس الحيـــــاة فـإنّـــــه لهب السّراج يلـــــوح في أطفـــــائه
أأخيّ، يـــــا قـــــوسي ونبل كنـــــانتي ومـــــديـــــر جيشي بل أمير لـــــوائه
أبقيت قلبي للـــــزمـــــان دريئـــــة ونصبتني غـــــرضـــــاً الى أبنـــــائه...

وفي هذه القصيدة الحزينة صور متعاقبة رسمت هول الفاجعة في ذهن الشاعر الذي سلبه الموت شقيقه الحبيب: فلقد بزغ هلال العيد، فالقمر يتألق في العلاء لكنّ أخاه مغيّب في أطباق الثرى. ثم هذه الخميلة الزاهية في فصل الربيع، تفتّح زهرها وجرى ماؤها وصدح عندليبها، لكن زهرة الشاعر قد صوّحتها يد الردى قبل الأوان، وبلبله رقد في قفص التراب. ولقد حامت نفس الشاعر حول القبر كالفراشة التي يجتذبها النور، وهيهات، وهيهات، فقد خبا ذلك النور ولم يكد يشرق.

وكان الشاعر يأمل في أخيه نصراً ومعونة، فإذا هو قد بات طريدة الزمان ونهب المصائب واللواعج، كالفارس الذي أضاع قوسه وكنانته وكالجيش الذي فقد قائده

وأميره. ويختتم الشاعر المفجوع مرثيته راجياً أن يحظى بلقاء أخيه في المنام وسائلاً رضوان أن يحفظه في فردوسه الخالد.

إن الشاعر قد فكّر في الحياة فلم ير سوى نار تضطرم ثم تخمد، فقال:

أرى عمـــر الحيـــاة شـــواظ نـــار | مـن الأجســـام تكمـن في زنـــاد
ومـــا ليل الشبـــاب ســـوى دخـــان | ومـــا صبح المشيب ســـوى رمـــاد

ذكر عبـد العزيز الجواهري، فيمن ذكـره، الشيخ علي الشرقي فقال إن عبد العـزيز الأرغن الذي يجسّ بتوقيعه العـواطف ولا يغنّي في الغالب إلا على رحيق الوطنيات... وقد توفي عبد العزيز الجواهري في طهران سنة ١٩٧٦.

محمّد الهاشمي

الشاعـر الأديب القاضي محمد الهاشمي، ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٨ وأبوه يحيى بن عبـد القادر ينتهي نسبـه الى الشيخ عـلاء الدين الحمـوي الفقيـه الشافعي المتصـوّف، صاحب المزار في حماه، المتوفى سنة ٩٣٦ هـ = ١٥٣٠م. وقد انتقلت الأسرة الى هيت ثم استوطنت جـانب الكرخ من بغداد، وعـرفت بآل مطر. وللمترجم ثـلاثة أشقاء عـرفوا بالأدب، أكبرهـم عبد المجيـد عمل في القضاء والتدريس وتوفي سنـة ١٩٤٦، وثانيهم عبد الـرزاق (١٨٨٣ ـ ١٩٦٤) وكان شاعـراً وقاضياً وعضـواً بمجلس التمييز الشرعي (١٩٤١ ـ ٤٦). وثـالثهم الشاعر محمد رشيـد (١٨٩٦ ـ ١٩٤٣)، وقد كانت حيـاته مأساة من المآسي.

توفي والده وشـاعرنا محمد الهاشمي لا يـزال في السابعة من عمره فتعهـده أخوه عبد المجيد بـرعايتـه وأشرف على تدريسه. ثم دخـل المدرسة الرشـدية (١٩٠٨) فـالمدرسة السلطـانية (١٩١٢) ولازم محمـود شكـري الألوسي فأفـاد منـه. ونظم الشعر صبيّـاً، فاستدعته السلطات التركية وحاكمته عن قصيدة نشرها في جريدة «الرياض» لصاحبها سليمان الدخيل، ومطلعها:

يـا قيصر الـروس، شلّ الله عـرشك هل | علمت منقـلب الظلّام إذ ظلمـوا؟

وقصيدة أخرى ينتصر فيها للّغة العربية قال فيها:

تـركـوك، يـا لغـة النبي، وآثـروا | في المسلمـين سيـاسـة التـتّريك

وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر. واستطاع أن يسافر الى القاهرة قبل تنفيذ الحكم، وكان ذلك في أواخر ١٩١٣.

وانتمى الى الجامع الأزهر فنـال شهادته الأهلية (١٩١٧). وعـاد الى مصر بعد زيارة للحجاز فـالتحق بالجامعـة المصرية، وقضى فيهـا سنتين. ثم مضى إلى دمشق ومكث فيها الى سنة ١٩٢٠ حين عاد الى مسقط رأسه بغداد.

وقد أحبّ مصر التي أقام فيها عهداً من شبابه كما أحب وطنه العراق فقال مودّعاً :

آن يـــوم من الـــرحيل قـــريب فيــه يـــدمى قلب وتبكـي عيـــون
مـــا بقـــاء الغـــريب في البلـــد النــــازح إلا صبـــابـــة وحنين
كيف بـــالنيل إن ذهبت الى دجلـــة؟ إنّي بـــــالـــــواديين ضنين
قـــد تحيّرت بين هـــذا وهـــذا وانتحتنـي قبل الـــرحيل شجـــون
فتمتـع قبـل الفـــــراق ففـي مصر زمـــــــان غـض وعيــش ثمين

وظف في وزارة الدفـاع كاتباً ثم نقـل الى الديوان الملكي ودرّس بعـد ذلك في المدرسة الثانوية . ودخـل مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٥ . وأصـدر في الوقت نفسه مجلّة اليقين (نيسان ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥)، وكانت من المجلات الأدبية الراقية في عهدها .

وعيّن حاكماً في المحاكـم العراقية (٢٦ أيار ١٩٢٧) فخدم في القضـاء أكثر من ثلث قرن وتنقل بحكم منصبه في معظم أنحاء العراق . وكان أول تعيينه حاكماً للصلح في أبي الخصيب (أيـار ١٩٢٧) فحاكم بـداءة البصرة (حزيـران ١٩٢٨) فحاكم صلح قلعـة صالح (ت٢ ، ١٩٢٨) فالفلوجة (أيلول ١٩٣١) فدلتاوة (أيار ١٩٣٣) فالشطرة (آب ١٩٣٥). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بغـداد (ك٢ ١٩٣٦) فكركـوك (آذار ١٩٣٧) فحاكم كربلاء المنفرد (١٩٣٧) فحاكم جزاء النقليات ( ) فحاكم جزاء بغداد (آذار ١٩٣٩). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بعقوبـا (نيسان ١٩٤٠) فحـاكم جزاء بغـداد (١٩٤٢) فحـاكم صلـح تكـريت ( ) فحـاكماً منفـرداً للكـوت (تموز ١٩٤٣) فحـاكم بداءة النـاصرية ( ) فبغـداد (تموز ١٩٤٦) فحـاكم محكمة استئنـاف تسـويـة حقـوق الأراضي في بغداد (آذار ١٩٤٧) فعضـو المحكمـة الكبرى فيهـا (آذار ١٩٤٨). ونقل مفتشـاً عدليـاً (ك١ ، ١٩٤٨) فنـائب رئيس محكمة استئنـاف البصرة (ك٢ ، ١٩٤٩) فـرئيس المنطقـة العدليـة في بعقـوبـا (نيسان ١٩٤٩) فحـاكم بـداءة الـرمـادي (أيلـول ١٩٥٠) فـالعمارة (آب ١٩٥٢). وأصبح عضـواً في مجلس التمييـز الشرعي السنّي (أيلول ١٩٥٣) فرئيساً لـه (٣ كانون الثاني ١٩٥٦)، وانتدب للعمل في محكمة التمييز العراقية (أيلول ١٩٦٠). وقـد أحيل على التقاعد فاعتزل الخدمة في أول تموز ١٩٦١ .

وقد أصيب محمد الهاشمي بداء عضال ألـزمه داره بضع سنوات ، حتى وافاه الأجل في بغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٣ .

مؤلفاته

له : عبرات الغريب وقد تضمن شعـره إلى سنة ١٩١٨ وطبع في الشام (١٩٢٠) أبو العـلاء المعرّي (١٩٤٤) الأبطـال الثلاثـة (١٩٣٣)، النعت (١٩٤٧) سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (١٩٥٩) ديوان المثـاني (١٩٦٢) القضاء بين يديك (١٩٥٧). وقد نظم رباعيات الخيام شعراً ونشر ديوان عبد الله بن الدمينة مشروحاً مع السيد محي الدين

رضا في أثناء إقامته في مصر (١٩١٨) وجمع «أراجيز العرب» وهي تضم مئات الأراجيز التي عثر عليها في مصر وسورية والعراق. وله عدا ذلك ديوان شعر كبير معدّ للطبع ومقالات نشرت في مجلة المقتطف واليقين وسواهما من المجلات والصحف العربية. وقد نظم ملاحم وقصصاً شعرية منها: سميراميس الآنف ذكرها، بلقيس، إعترافات مقامر، الفتاة المخدوعة، في الوفاء وفي الغدر، قصة الإمام عليّ الخ.

شعره:

ذاق محمد الهاشمي مرارة اليتم طفلاً وخبر آلام البؤس والفاقة والغربة شاباً، فلا عجب أن جاء شعره حزيناً ناطقاً بالشجو والألم.

فهذه قصيدته «اليتيم الباكي» تعرب عن حاله وتفصح عن ذات نفسه لا زيف فيها ولا إغراب:

إلى كم أنت تكتب بالدموع ... روايات عن الخطب الفجيع؟
على قلبي دموعك نازلات ... ألم تره يدقّ من الدموع
كأن وقوعها حجرات نار ... أحرّ من الصهير على الضلوع
دموع قد أفاضتها عيون ... بها لليتم آثار الخشوع
إذا أجهشتُ أجهش لي فؤاد ... يطاوعني على الألم الوجيع
أرقّ من النسيم هوى وعطفاً ... أبيّ الطبع للزمن الفظيع
يؤاسي كلّ ذي حزن بحزن ... ويقتسم الشجون على الجميع
ولو حمّلته قسطاً ثقيلاً ... من الآلام آذن بالخضوع
ولو تشفي الدموع غليل قلب ... إذن لشفيتُ بالدمع الهموع...
سألقي نظرة ملئت حناناً ... على البؤساء من طرف خشوع
يعيش الأغنياء على رخاء ... ونحن نعيش في بؤس وجوع
تنام عيونهم بالليل، لكن ... عيون البائسين بلا هجوع
نسوا البؤساء في الدنيا جياعاً ... وخلّوهم الى الزمن المنوع
لكل من بنيهم ألف ثوب ... عليه علامة الصنع البديع
أناموهم على بيض الحشايا ... وفي غرف من القصر الرفيع
وأطفالٍ على الأوساخ ناموا ... كأفراخ الحمام على الجذوع
وليس لهم سوى الدقعاء فرش ... ولا التحفوا سوى الثوب اللذوع
يقضّون النهار طوى وجوعاً ... ويطوون الليالي بالدموع
أحاديث الشقاء لهم عزاء ... تعلّل نفس ذي البؤس الجزوع
ويضرب منهمُ ذو السقم عيّاً ... بليلته هزيعاً في هزيع
رأيت اليتم ذنباً لليتامى ... يراه الأغنياء بلا شفيع

وقال منها:

مضى أهلي وعـــرّضني زمـــاني لفتك من مصـــائبـــه ذريع
يتيم ليس يعـــرفني قـــريب ولست على الشقــــاء بمستطيع
أبي، أمي! عـــلامَ تـــركتماني ضعيف مطـــامع وقصير بُــوعِ
أجيبــا دعـــوتي، أنـــا مستغيث وليس ســـواكما لي من سميع
لقـــد همّا بيـــوم نـــوى قـــذوف ولكن لم يهمّا بـــالـــرجـــوع
تـــذكـــر أمـــه وأبـــاه يـــومـــاً فأسبل ديمـــة أخـــذت بـــروعي
لـــه قلب وليس لـــه لســـان يطـــاوعـــه على الـــدمع المطيع
مضى أبـــواه قـــد تـــركـــاه طفـــلاً تـــرعـــرع قبل أيـــام الـــربيع

وقصيدته «الفتاة المخدوعة» صرخة مدوّية من صرخات الألم والفجيعة تروي قصة فتاة أوقعتها أمها بين براثن وحش مفترس وعدهـا بالزواج لكنه نصب لها فخاً وألقى بها في مهاوي الرذيلة، فابتليت بالسل وقضت نحبها شهيدة الفضيلة والعفاف.

وهو يردّد أنغام الحزن والأسى حتى في الحبّ، فيقول في موشّحه «آلام الحياة»:

ثمّ في الصحـــراء، في القفـــر الجديب فـــوق غصن شـــائك غيـــر رطيب
أخـــذت مـــنه شمـــال وجنـــوب يتبـــاكى بلبـــل الـــوادي الغـــريب
كـــان من قبـــل محـــباً مغـــرماً علمـــته الحبّ أمـــلاك السّـــما
فـــلـــماذا لا يـــرُى مبـــتســـماً بعـــد إلا بسمات بقطـــوب؟
أي قـــلب للمحـــبّ المبتـــلى ضـــيّع المـــاضي والمســـتقبـــلا
ذاهـــل عن كـــل شيء مـــا خـــلا نـــزعـــة من ذلك الحبّ الكئيب
يـــا غريـــباً ضـــاع في أوطـــانه يمـــلأ الصحـــراء من ألحانـــه
نغـــماً يكشـــف عـــن أحـــزانه كلّنـــا مثلـك مهجـــور قـــريب

إســـأل الأسحـــار عـن أحـــلامنـــا   واســـــأل الظلـــماء عـن آلامــــــنا

قـــد نفثـــــنا السّمّ مـن أقـــلامـــنا   هـــو سمّ لا يـــــداويـــه طبيب . . .

آهٍ على هـذه الدنيـا المليئة بـالأحزان والكـروب! إن المرء ليصرخ وليبكي ويستغيث، ولكن الصراخ والدموع كلها عقيمة فلا سامع ولا مجيب:

هي دنيـا كـــل مـا فيــها شجـــون   فـــاغـضِ عن كل مســـاويها الجفـــون

إنما سخطـــك فيـــها كـــالجنـــون   والتغــــابي سلـــوة الصّبّ الأرِيـب

نـــادِ أفـــلاك السمــــوات العلـــى   وانـــدب الفجـــر إذا الفجـــر انجلى

وامـــلأ السهـــــل بكـــاً والجبـــلا   نـــادِ! هل من ســـامع أو مـن مجيب؟

آهٍ مـــن صمـــت على الأرض عميـــق   خـرس الكـــــون فهـــلاّ تستفيق

هـــــذه الآلام تذكـــو كـــالحـريق   في فـــؤاد دَنِـفٍ كـــاد يـــذوب

والهاشمي يقرن الحبّ دائماً بالشجو والألم، فهو يقول في قصيدته «ليلة عاشق»:

أيّها السّـــاهـــر، مـــا هـــذا الأرق   لـــذكــرٍ أم بعـــاد أم قلـق؟

غـــــرق النــــوّام في ليلهـمُ   وتـــــولاّني هـمّ قــــد طـــرق

ظلمــــة تـأتي وأخـــرى بعــــدهــــا   تشبـــه البحــر إذا البحــر انــدفق

أنـــــا في الليل غـــــريـق، وأرى   مـــوجـــه يسبقني قبل الغـــرق . . .

فيك، يـــا ليل، مـــواعيـــد الهوى   يتقـــاضـــاهـــا الأسى ممّن عشق

إن فلسفـة محمد الهاشمي في شعـره فلسفة اليأس والشكـوى: فـالإنسانيـة معذبـة والحياة شقيّـة بائسة، والحنـان قد مـات في النفوس، والعدالـة لا مكان لها في الأرض، والدماء تسيل مسيل الأنهر، والنـار والأعاصير تفتك بالأرواح. وهذه قصيـدته «صوت من الإنسانية» صورة مؤسية للبشرية في عصر الحضارة والعرفان، فلنصغِ إليه يقول:

أفي الأرض تبقـى أم الى النجـم تـــرفـع   نفـــوس لها في الأرض مبكـىً ومجزع؟

لعلّ لها بعــــد المنيّـــــة رقــــدة تخفّف عنهـــا بعض مـــا تتـــوجّع
وتنسى بها بــــؤس الحيـــاة وشرّهـــا فـإنّ حيـــــاة البـــــائسين تفجّع
لقــد ساءهــا مــا في الحياة وسرّهـا لها في الثــرى بين المقـــابـــر مضجع

ويقول:

تمتعت من نجم الثـــريّـــا بنظـــرة لك الله، مـــا هـــذا الـــذي أتمتّع!
أحــــاول أن أرقى إليهـــــا بجثتي ومــــا لي إليهـــا سلّم فيـــه أطلع
أهيم إذا لاحت بها وبحسنهـــــــا ويخفــــق قلبـــي كلما هـــي تلمـــع
فيـــا أيّها النجم المطلّ على الـــورى، لمثلي أن يثـــــوي بمثلـك مطمـع
فيـــا ليت أني قبل مـــوتي صـــاعـــد إليـك وأني في بــــــــلادك أرتـــع
وكنت إذا مـــا جنّ ليـل وأشرقـت كـــــواكـب في داجٍ من الليـل شرّع
نظـرت الثـريّـا ثـم أغضيت نـاظـري وقلـت: ألا ليت المنيّـــــة تسرع
لأنجـــو من أرض بها الفضل ضـــائع وفي أهلهـــا بــالشرّ والســـوء مقنع
فقـــد سئمت نفسي الثــواء بمجمع تـــزيّـن فيـــه المنكـــرات وتصنع
يـــذلّ بـــه المستضعفـــون ويعتلي بـــه الظـــالم المستكبر المترفّع...

ومحمد الهاشمي شاعر وطني يجري في عروقه حبّ العراق والأقطار العربية جمعاء، فمن قصائده الوطنية «تحية الشهداء» نظمها في القاهرة وقد شهد بعينيه مصرع شهداء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ورأى القتلى تتخبّط بدمائها عل قارعة الطريق، فقال:

لا تـدفنـــوا الـدم بـالتراب فـإنّـه يجري لنصر الحقّ فهـــو مطهّـــــر
بل فــاكتبـوا منـه على أعــلامكم كَلِماً كنيران الغضـــا تتسعّـــــر
هـــذا دم الشهـــداء يهدر فيكمُ لا تتركـــوه على البسيطـــة يهدر...

وقال يذكر المجد العربي الضائع:

نقضـت لـك الأيـــام عهـــدا إذ كنـت للعـــافين سعـــدا
إذ كنـت تبغي مـن بغـــــاك مـن النـــدى صـــدراً ووردا
فـأطــــــاعـك العصران والملـــوان معبـــوداً وعبـــدا
وإذا أبيت أبى الـــزمـــان وإن دنـــوت دنـــا وجـــدا
تمـــضي الحـــوادث كيفمـــا مـــارستهـــا حـــلاً وعقـــدا
وتـــدور بين العـــزّ والإقبـــال إبـــرامـــــاً وردّا
ولقـــد حميت الملك حتّـى صـــار لـــلآمـــال مهـــدا
ولقـــد عمـــرت الأرض بعـــد خـــرابها عهـــداً فعهـــدا

وإليك أخلـــــدت الأنـــــام وأعـــــرضت عمّن تعـــــدّى
وعـــــدلت فيها كنت تحكم بينهـم فـأصبت رشـــــدا
ومضيت بـــالحكم الـــرشيـــد مـــدىً فما جـاوزت قصـــدا. . .
ولقـــد بنيت مفـــاخـــراً شـمّ الـــذرى وبنيت مجدا
وعنت لـك الأقـــــدار إذ ملكت يـــــداك لها مـــــردّا
غـــالبت دهـــراً عـــاتيـــاً حتـى تجبّر واستبـــــدا
فـأضـــاع دهـــرك غـــادراً بك نـــاكثـــاً لك منـــه عهـــدا

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى النهوض وزرع بذور العزّ لحصد جناه.

ويحبّ الهاشمي الأمثال الشعرية حبّه للقصص المنظومة. فمن أشعاره «الوردة والفراشة» و «القبر والزهرة»، وكلاهما مقتبس عن فكتور هوغو، و «الذئب والحمل» أو القوة والضعف، و «النحلة والجلّنارة». وقصيدة هوغو «الوردة والفراشة» ترجمها شاعر لبنان الدكتور نقولا فيّاض (١٨٧٤ ـ ١٩٥٨) بعنوان (الزهرة والفراشة)، قال:

زهـــرة في الحقـل يـــومـــاً سألت من فَـــراش الحقل معشـــوقـــاً صغيرا
مـــا الـــذي يلهيك عني جـــاعـــلاً لك كـــالنجم اختفـــاءً وظهـــورا؟
غـــائبـــاً حينـــاً وحينـــاً حـــاضراً مـــالئـــاً نفسي غيـــابـــاً وحضـــورا
أفما أنـــــت رفيقـــــي في الهوى أبـــداً أرشفـك الثغـــر الطهـــورا
عـــائشـــاً في عـــزلـــة الحبّ معي لا تـــرى إنســـاً ولا تخشى شرورا
قـــــد تماثلنـــــا جمالاً وسنىً وتفـــاهمنـــا حفيفـــاً وشعـــورا
ولبسنـــا ثـــوب نـــور واحـــد فكـــلانـــا زهـــرة تسطع نـــورا
لا أرى مـــا بيننـــا فـــرقـــاً، بلى ســـوء حظي جعـل الفـــرق كبيرا
أنـــت في الجوّ طليـق وأنـــــا بـــالثـــرى رابطـــة جسمي الأسيرا
كـم سرت نحـــوك أنفـــاسي فلـم تتـــزوّد عطـــرهـــا إلاّ يسيرا
هـــائماً بين أزاهير الـــرّبى تـــائهـــاً في الجوّ زهـــواً وسرورا
وأنـــــا أنظـــــر ظلّي دائراً حـــول جسم عـــاجـــز عن أن يـــدورا
وأبيتُ الليـل أشكـــــو وحشتي بفـــؤاد لم يكن عنـك صَبـــورا
ولـــذا تلقى بجفني أدمعـــاً كلما عُـــدْتَ مع الفجـــر منيرا
هـــاجـــري، إن صح عهـــد بيننـــا فـــدع الهجـــر طـــويـــلاً وقصيرا
واتخذ مثلي أصـــلاً في الثـــرى أو أعِـــرْ جسمي جنـــاحـــاً فأطيرا

وقد أضاف نقولا فيّاض تكملة لقصيدة هوغو فأجاب عن لسان الفراشة يخاطب الزهرة قائلاً إنها مفتونة بهواها، متيّمة بحسنها، وبعادها عنها إنما هو سرّ من أسرار الطبيعة، فهي كالريح رسول الهوى تحمل ذرات الغبار الى الأزهار القاصية.

أما شاعرنا الهاشمي فيقول في ترجمته:

فراشة وقعت يوماً على شجر ... تفتحت فيه أزهار وأكمام
قالت لها زهرة صفراء ناضرة ... وقلبها فيه أحزان وآلام:
لا تهربي وأجيبيني بمسألة ... عن حظّنا، وحظوظ الخلق أقسام
شأني وشأنك في أمريهما اختلفا ... لغيرنا فيهما نقض وإبرام
تمضين أنت الى العلياء طائرة ... ولا أطير ولا لي ثَمَّ إعزام
لقد ضجرت ولكني على ضجري ... أحبّ نفسي وما في حبّها ذام
أعيش والناس عني مبعدون وكم ... في قربهم علل شتّى وأسقام
أشْبَهتني فلنكن زهراً نطير معاً ... لنا بها فوق هذا الروض إلمام
لكن أرى الأرض، والهفاه، تمسكني ... والريح تعليك: هذا الحظّ ظلّام
إني سأعطيك من عرفي الجميل لكي ... يعطّر الجوّ نشر منه نمّام
لا، لست أعطيك، إن الزهر يصحبني ... وأنت يقصيك إنجاد وإتهام
رضيت عيشي وحدي في الرياض أرى ... ظلّي وينعشني ضوء وإظلام
وتهربين فتأتين الضياء إذا ... رأيت ناراً لها لمع وإضرام
في كل صبح بكائي دائم وعلى ... خدّيَّ من عبرات الفجر تسجام
آهِ لحبّكم الماضي الذي ذهبت ... به ليالٍ سعيدات وأيام
خذي، كما لِيَ، جذراً أو هبي ورقي ... جنحاً، كما لكِ، والآمال أوهام!

إنّ الهاشمي قد نظم رباعيات الخيام باللغة العربية جعلها خماسيّات واستند في نقلها الى ترجمة أحمد حامد الصرّاف النثرية، لكن ترجمته لا تتّسم بالدقة والسلاسة التي امتازت بها ترجمات عربية أخرى كترجمة الصافي النجفي وأحمد رامي. فمن أمثلة خياميّات الهاشمي:

يا الهي، إذا جنيت فإثمي
يا الهي، على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جرمي

أنا جانٍ رجوت عفواً وصفحاً ... منك قد غرّه رضاك فجارا

جيئتني في الدّنيا أذىً واضطراب

وبقـــــــائي تحيّر وارتيـــــــاب
وبقسرٍ يكـــــــون منّي ذهـــــاب
أيّ قصــــد مـــــن جيئـــة وبقـــاء وذهـــــاب؟ قـــد ضلّت الألبـــــاب
من حضيـض الثـرى الى حيـثُ يبـدو
زحـل كلّ مشكـل فيـــــه عقـــــد
لاح منـــــه في حيلتـي لي رشـــــد
كـــلّ ســـرّ حلــــلت ثمّــة إلاّ أجل مـــا كشفتــــه عـــن خفـــاء
لم يـــــر الخلــــد واحـــــد والسّعيرا
مـن أتـى مـن وراء مـــــــوت صغيرا
أفــــزع الموت والــــرجـــاء صـــدورا
نـــازعت مـــا يغيب عنهـــا ويخفى غير ذكـــر الأســـــــماء والأوتـــار

سميراميس

نظم شـاعرنـا الهاشمي ملحمـة شعـرية عن سميراميـس بين الحقيقة والأسطـورة . وسميراميس ملكـة بـابل القديمـة حبيبـة الى الشعـراء، أثيرة لدى رجـال الفنّ، طـرق موضوعها غير واحد منهم . فهذا فولتير ينسج من حياتها رواية مسرحية مأساوية، وبول فاليري يصوغ منهـا مسرحية جديدة، وروسّيني يخرج عنها أوبرا موسيقيـة . وهذا بلند الحيدري صـاحب «خفقة الطين» يقول فيها قصيـدة تعجّ باللذة المحرّمة والحبّ الآثم واللّظى المخمور والقشعريرة الداجية والضحكة المحمومة المغرية المغرّرة .

ويهيم بالملكـة الأسطوريـة عمر أبـو ريشة شاعـر سوريـة فيستوحي منهـا مسرحية شعرية هي قصة الحب والجمال والطيوف والأحلام، تقول سميراميس في مطلعها :

عبيرك يـــــا ليل وهـج الحيـــــاة فــــــلا تتنفـس على مضجعـي
بعثـت بـــــآخـــر مـــا تمتمت شفـــــاه الـــــربيع على مسمعـي
أحـسّ بـــــه رعشـــــة في دمـي وحلماً جـــريحاً على مـــــدمعـي
ألا أيـن بــــدعـــــة حلمـي إذا تـــرنّحتُ بـــــالقـــــدح المترع
وأيـن الصـــــدى لنـــــداء الحنين إذا عـــــربـــــد القلب في أضلعـي
أريـــد . . . ودوني انهيـــار الفتـــون على كـــــلّ ذي هيــــف ممتـــع

أما سميراميس الهاشمي فصحراء ممتدّة الأطراف تكتنفها الواحات والرياض .

ينظر الشاعر الى الوجود قبل الخليقة بمنظـار الأساطير البابلية، فإذا هو فراغ عظيم لا نور فيه ولا ظلام :

قبـل خلق السماء والأرض كـــــان الأب ... «أبســـــو» هـــــو الإلــــــه العظيما
و «تيــامــات» الأم كــانت فكــان اثنــان ... لا مــن ثـــــلاثـــــة أقنـــومـــــا
حين لا ليـل في المكــــــان ولا يــــــوم ... ولا مجهـــــولاً ولا معلـــــومـــــا
قيـل: لا شيء، قيـل: سرّ بعيـــــــــد ... مـن عماء أن لا نـــــــراه ســـــديما
عـــدم مـن وجــــوده وهـــــو صفــــر ... في فـــــــــــراغ لا يقبـل التقسيما
أهـــــو نفـي، وكيف يـــــدرك نفي؟ ... أم ثبـــــــــــوت، فما وعَـمَّ وفيـمَ؟

ثم كـانت الخليقـة وكـانت الآلهة وكـان الصراع والحرب. وكـانت بعـد ذلك بـابل وحمورابي ونينوس، وهذه سميراميس ترقى العرش فتخاطب شبح بعلها قائلة:

هَـــــوِّنْ، وحسبـك مني أنني امـــــرأة ... لا يثقـل التـــــاج أحـــــلامي ويلهيني
نـم مطمئنـــــــاً فـإنّ الملك يشغلني ... عـن احتفـــــال بتحسين وتـــــزيين
يكفي النســـــاء عبير يـــدّهـنّ بـــه، ... وليس إلاّ عبير المجــــــــــد يكفيني
إن الكيـــاســـــة في الأنثى مظــاهــرة ... جمالها تقلب الـــدنيـــا مع الـــدين
حـــوريـــة أنـــا لا غـــول نـــزلت بهم ... من عرش مردخ[1] ذي الخمسين أو «سين»[2]
ويشهـــــدان بـأني غير قـــــانعـــــةٍ ... حتـــى أرى مصر في ملكـــي الى الصين
فأمـــلأ الأرض مـن حـــرب ومن ظفــر ... ومـن ســــــــلام ومـن فتـح إلى حين

لكن الدسائس والمؤامرات لا تلبث أن تسري في أروقـة القصر الملكي فيقول الكاهن الأشوري:

إذا سكتـــــــــــوا فعـن داء دفين ... وإن نطقـــــوا عـــــلانيـــــةً فهلـكُ
يـــــداهن بعضنـــــا بعضــــاً ويحيى ... حيـــــاة الموت، إنّ الموت تَــــــرْكُ
عـــزيــــز النفس ذلّ، وكـل حـــرّ ... لـــــــه عيش وراء العـــــزّ ضنـك
وقيــــــد الليـث إن يصبرْ عليــــــه ... يحصّ اللبــــــــــدتين ولا يفـكّ
ومـــــــــا شـمّ الأذى أنـف حَمِيّ ... ولــــــــو أن الأذى ورد ومســك
ومـن حلم اللبيـب مغـــــامـــــرات ... تـــــدكّ بها الجبـــــال ولا تـــــدكّ
أرى بشريـــــة تـــــدمـى وهــــدر ... دم حــــرّ على يـــــدهـــــا وسفـك
وقل: كيـف الإقـــــامـــــة في بـــــلاد ... مشقّـــــة عيشهـــــا معـك ودعـك
وليـس الملك مـن تـــــاج وعـــــرش ... وحـــــاشيـــــة بل الأخـــــلاق ملـك
صـــــلاتـك للحســـــام العضب ديـن ... وصـــومك عن مـــذاق الـــذلّ نسك

(١) مردخ إله بابلي.
(٢) «سين» القمر وهو «ود» عند العرب.

ويحلّ رأس السنة فيهرع أهل بابل للاحتفال بالمهرجان وإقامة طقوس العيد:

صبـــاح غــد عيــد وجــاءت وفـــوده ليحتفلـــوا والـــوافـــدون جموع
سما بهم شـــوق الى أمّ بـــابــل وغصّـت ديـــار منهـم وربـــوع
وصفت جنـــود واستعـــدّت تحيّـــة فمنهـم سجـــود دونها وركـــوع
وآلهة في فلكهـــا ووفـــودهـــا أتـــوهـــا وكلٌّ ســامـع ومطيع . . .
هنـا معـرض الـدنيا فما شئت فـاقتبس بـــروعـــاً، وآيـــات النبـــوغ بـــروع
فهـــذا يـــريك العلم كيف فنـــونـــه وهـــذا يـــريك السّحـــر كيف يـــروع
وهم زُمَـــرٌ والنـــاس فـــوضى بأنهم لكـلٍ الى مـــا يشتهيـــه نـــزوع
وهـــزل وجـــدّ بـــالسيـــوف وبـــالقنـــا ووثب وقفـــز تـــارةً ووقـــوع . . .

تشهد سميراميس مشاهد المهرجان فلا تني تقول:

ســـلام وحـبّ أيها البلـــد الخَصْبُ بحبّك فلتصبـــو القلـوب التي تصبـــو
على خير أرض فـــوقهـــا خير أمـــة إذا ذكـــرت بـــالمجـــد قيـل لها: حَسْبُ
وجنّـــة عـــدن رافـــداهـــا وأرضهـــا بها النخل والكـــرم المعـــرّش والعشب
جـــرى كل إقليـم اليهـــا بمائه لها الشرق مـن أنهارهـــا ولها الغـــرب
مفجّـــرة الماءين في كـلّ بقعـــة فتروى ويـــروي مـا بها مـــاؤهـا العـــذب
خصـــوبـــة صقع من زكـــاة تـــرابـــه فـــلا القحط معهـــود عليهـــا ولا الجدب
وكـــالتّبر لـــون الماء جـــارٍ سبيكـــه وكنـــز عليهـــا الطين والـــرّمل والتّرب
وغـــاب نخيـل ســـابغ الظـل والجنى وفـــاكهـــة مـــا تشتهـي العين والقلب
ومـــا الشهـــد إلاّ تمرهـــا لـــو تـــذوقـــه لقلت: أشهـــد في الكـــوارة أم قسب . .

لكن الحياة لا تلبث أن تجور على الملكة فتبدّد أحلامها وتخيّب آمالها، فتقول:

هـــــذه حيرة الحيـــــاة انتظـــــار يُـــذكـــر المرءَ مـــا يكـــون وَيُنْسي
والأمــــاني شعـــــاعـــــه في سراب مـن ضيـــــاء على ظهـــــور وطمس
لا تقل في الغنـــــاء نغمـــــة سعـــد إن تقـل في البكـــــاء أنّـــــه نحس
هـــذه الشمس كلهـم عبـــدوهـــا وإذا مـــا انفـــردت أعبـــد نفسي
مَنْ دليلي على ابتكـــار؟ فقـــد طـــال وقـــــوفي على قـــــرائح دُرْس
خـــــذ إليك الكـأس التي لـك واشرب فلغيري لا ينبغـي أخـــــذ كـأسي
قتـل الأذكيـــــاء مـــــا وجـــــدوه مـن فســـاد على النفـــوس ورجـس
حيّرتها دلائل الحرص حتّـــــــى عقـــــدت حظهـــا بختم وكـــرسي

وكانت الخاتمة ، فإذا نينياء الشاب يرقى عرش أمّه وإذا سميراميس الملكة المخلوعة تنسخ حمامة فتنوح قائلة :

صورٌ: برج له سبعته ... صور فيها رعايا وملوك
صور: يوم وأمس وغد ... وخيال وظنون وشكوك

وتقول القهرمانة ناناث :

آخر العهد كان في باب إيلا ... مسحت وجنتيك أنمل بيلا
خلعت ثوبها إليك وطارت ... بعد أن مسّها التراب قليلا
وأثارت في الأرض حرباً وسلماً ... وأطالت إقامة ورحيلا
الوداع ، الوداع ، أيّتها الأرض ... احتملنا عليك حملاً ثقيلا
إفتحوا لي باب السماء فبئست ... حفرة الأرض من سماءٍ بديلا

رشيد الهاشمي

محمّد رشيد بن يحيى بن عبد القادر الهاشمي ، ولد في بغداد من أسرة فقه وأدب في سنة ١٨٩٦ ، ودرس اللغة العربية وآدابها على يد أخيه عبد المجيد ، ولازم بعد ذلك محمود شكري الألوسي فأفاد من دروسه . ونظم الشعر ، ومال الى الأدب ، وآمن بالمبادىء القومية والوطنية ، فقصد الحجاز سنة ١٩١٦ والتحق بالثورة . ثم شخص الى القاهرة في بداية سنة ١٩١٨ . ومضى الى الشام عند تأسيس حكومتها العربية فعيّن كاتباً في المجمع العلمي العربي عند تأليفه سنة ١٩١٩ .

عاد الى بغداد سنة ١٩٢٠ ، فعمل في ميدان الصحافة . وكان محرراً لجريدة «دجلة» التي أصدرها داود السعدي (٢٥ حزيران ١٩٢١) وجريدة «الرافدين» لصاحبها سامي خوندة ، وقد صدرت في ١٦ أيلول ١٩٢١ ودامت الى ٢٤ آب ١٩٢٢ . ونشر شعره وبحوثاً أدبية واجتماعية في مجلة اليقين التي أصدرها شقيقه محمد الهاشمي (١٩٢٢ ـ ٢٥) . ونشرت مقالاته وقصائده في الجرائد العراقية كالعراق والاستقلال والفلاح والصحف الحجازية والسورية والمصرية كالقبلة والعقاب والمقطم والنور ولسان العرب والمفيد والنهضة الخ .

وغالى في تطرّفه فهجا الملك فيصل الأول وحكومته ، وكان قبل ذلك قد مدحه حين إعتلائه العرش سنة ١٩٢١ ، فقال :

رقباك ، يا عرش ، من ترجو وتنتظر ... وزانك العلم لا الياقوت والدرر
يهنيك فيصلٌ الجليل ومن ... في راحتي جدّه قد سبّح الحجر
يا ابن النبيّ ، وأحلى الشعر أصدقه ، ... سيل المفاخر من واديك ينحدر
.... الخ .

إنتمى الى مدرسة الحقوق في أواخر سنة ١٩٢٢ ومكث فيها أربع سنوات، حتى إذا ما آن أوان التخرّج، أصيب برجّة عصبيّة فأودع مستشفى الأمراض العقلية حيث قضى نحواً من سبع عشرة سنة. وتوفي ببغداد في أوائل سنة ١٩٤٣. وقد رثاه أخوه محمد الهاشمي فقال:

قل لهم: ما وفاء حق الأديب؟ ... شغلوا عنك بالزمان العصيب
ليس داء الأعصاب فيك عياء ... بل دليل القضاء عجز الطبيب
كلهم يسألون عنك وعنّي ... فيقولون للدموع: أجيبي
ما افترقنا، وليس كالموت بُعْدٌ ... فيه عهد القرب غير قريب
ونحيبي حزن عليك وشعر ... وغناء الحزين صوت نحيب

وقد طبع ديوان رشيد الهاشمي سنة ١٩٦٤ بعناية عبد الله الجبوري ـ وصدّر بمقدمة لمحمد بهجت الأثري.

وقيل إن رشيد الهاشمي توفي في ١٥ تموز ١٩٤٦ في دار الشفاء ببغداد حيث قضى الـ ١٩ سنة الأخيرة من حياته لمسّ أصابه في عقله.

مأساة النبوغ:

إن النبوغ إذا اقترن بإرهاف الحسّ ورقة الشعور، وامتحن بالحرمان والفشل والجحود، وصهر في بودقة ألم النفس وعذاب الجسم، كثيراً ما يدفع بصاحبه الى الإرهاق العصبّي والجنون أو الموت. وقد سجل التاريخ الأدبيّ فواجع رهيبة في إطار من البؤس والهوان والرثاثة والدم: فهذا الفيلسوف المتصوّف أبو حيّان التوحيدي الذي اتّهم بالزندقة ولقي من العنف والاضطهاد ما حمله على إحراق مؤلفاته واستتاره عن الوزير المهلبي الذي ألحّ في طلبه، حتى مات في نحو سنة ١٠١٠م.

وهذا الشاعر الإنكليزي توماس شاترتون (١٧٥٢ ــ ١٧٧٠)، رأى نور الحياة يتيم الأب، وتمرّغ في أوحال الفاقة والجوع والحرمان، حتى إذا ما غلب عليه القنوط، مزّق آثاره المخطوطة وتناول السمّ في ربيعه الثامن عشر. كان شعره يفيض باللوعة والمرارة، دعا القارىء الى البكاء معه، فقد مات حبّه تحت شجرة الصفصاف. كان حبّه فاحم الشعر كليل الشتاء، أبيض البشرة كثلج الصيف، أحمر الخدّ كضوء الصباح، وهو يرقد الآن بارد الجسم في حفرة القبر.

وتصّور الحرية ترتدي معطفاً ملوّثاً بالدماء، وقد كلّل رأسها بالأعشاب البرّية.

وذلك الشاعر الفرنسي هيجيسيب مورو (١٨١٠ ــ ١٨٣٨) قضى الحياة هائماً شريداً، وعمل ممرّضاً في أثناء تفشّي وافدة الهيضة في باريس سنة ١٨٣٢ سداً لرمقه. باع شعره لبعض الناشرين بدريهمات معدودة، وانتهى به المطاف الى ملجأ حيث وجد

الراحة أخيراً في الموت. قال في بعض قصائده: «لقد كنت تلميذاً فقيراً حالماً غريب الأطوار، ولكم نثرت فتات الخبز لطير الشاطىء فقال لي الماء: تمسّك بأهداب الأمل، فإنّ الله سوف يعيد لك خبزك! لكنّ الله لا يزال مديناً لي به».

وماذا عن جيرار دي نرفال الأديب الشاعر (١٨٠٨ ـ ١٨٥٥) الذي هام بفاوست، رواية غوتي، ونقلها الى اللغة الفرنسية بما يكتنفها من سحر وإغراء وظلمات جهنميّة؟ لقد ألم بشيء من العربية والفارسية، وانصرف الى قراءة كتب التصوّف وما وراء الطبيعة، وهام على وجهه في القسطنطينية وربوع سوريّة وجبل الدروز. وزادت هواجسه يوماً بعد يوم، واستغرق في لجج مظلمة بعيدة الغور من الرؤى والآمال، حتى انتهى به المطاف الى مصحّ للأمراض العقلية. وفي مساء يوم قارس البرد، وجد مشنوقاً في شبّاك بعض الدور المنزوية بأحد الأزقة الباريسية. لقد انتحر ذلك الشاعر الذي يقول: «إنني فتى الظلام الثاكل الذي لا يعرف السلّوان، أنا الأمير الذي هدمت قلعته. أفل نجمي الوحيد، وصدح قيثاري بأنغام الشمس السوداء والملنخولياء...».

ومأساة الشاعر الأديب المرهف الحسّ محمد تيمور (١٨٩٢ ـ ١٩٢١) ابن العلامة أحمد تيمور باشا أشهر من أن تعرّف: فقد ضاق ذرعاً ببيئته الأرستقراطية وعزف عن دراسة الطب، ثم احترف التمثيل وخالط المحافل الأدبية والفنية. ألحّ عليه المرض فقال:

هيّئوا لي في باطن الأرض قبرا ... ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي ... ومن النور شقوتي وعذابي...

وقضى في ميعة الشباب.

وذلك الشاعر المصريّ أحمد العاصي (١٩٠٣ ـ ١٩٣٠) الذي قال فيه شوقي:

هذا شباب الشعر يلمح ماؤه ... من جدول العاصي ومن ديوانه

مرض بداء الصدر وعاش متبرماً بالحياة، غلبته هواجسه فأغلق نوافذ حجرته في مسكنه بالقاهرة وصبّ على نفسه مادة كاوية أودت بحياته.

والأديب الغريب إسماعيل أدهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) الذي اختلف الناس في سيرته ودراسته، نبغ في الرياضيات وألف في التاريخ الإسلامي والزهاوي الشاعر والإلحاد ونظرية النسبية وعلم الأنساب. أضناه داء السل، فلم يجد خيراً من الانتحار غرقاً في ساحل الإسكندرية اللازورديّ.

والشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي (١٩٠٢ ـ ١٩٦٢) رأيناه بيننا غريب الأطوار، عجيب الأخبار، يجمع العنف الى الطيبة وسلامة الطويّة، ويمزج الورع الشديد بالتصوّف والتحلّل، يحبّ الناس حباً أفلاطونياً خالصاً ويحتقرهم ويسيء الظنّ بهم في آن واحد. ولقد طالما شهدناه يجلس في المقهى أو يسير في الشارع متثاقل الخطوات وقد أطلق لحيته وتهدّل شعره على كتفيه ورثّت ملابسه، وهو يحدّق في الفضاء ويرسل الى اللانهاية نظرات شاردة جوفاء.

أما شاعرنا رشيد الهاشمي فقد توفي والده وهو يدلف الى التاسعة، فتركه لرعاية أخويه الكبيرين، ونشأ مرهف الحسّ ثائراً تتوقد بين أضالعه النار وتنطلق في ذهنه العواصف. إنتمى الى الجمعيات السرية الوطنية، وهجا الأتراك مرّ الهجاء. ورغب في التطوّع للقتال في صفوف جيش الثورة الحجازية، ونطق بالشعر الحماسيّ الذي يلهب النفوس ويثير الهمم والعزائم.

رافقته المصائب والأحزان منذ طفولته فخاطبها قائلاً:

نوب الليالي، خفّفي، أو ما سمعت تأفّفي؟
رافقتني طفلاً، وذا زمن الصّبا، فتخلّفي...

ثم تمرّد وقال:

زيدي عداءك، إنّ نور قريحتي لا يختفي
لا تحسبي أني أذلّ ونار عزمي تنطفي

وعاش رهين أسرين فقال:

بين أسرين عشت عيش اضطرار خاضعاً للأجسام والأقدار
تلك للروح قد قضت بالأسار والأخيرات حيّرت أفكاري:
ما نجاتي، وأين أين قراري؟

ظلمات الضلوع تزعج قلبي هي كالليل لا يضيء بشهب
غير أني لما شعرت بحبّ قلت: رفقاً بقلب عبدك، ربّ،
كلّ حبّ مخفّف أكداري

آمن الشاعر بالحبّ شعاعاً لمعنى الجمال والخلود، لكن الشكوك ساورته: ما مغزى الحياة، وما الفكر، وما أسرار الوجود؟

يا نياماً تحت التراب، إلا ما لا تحيرون عن سؤالي كلاما؟
أضياءً رأيتم أم ظلاماً أم رأيتم في نومكم أحلاماً؟
لا تناموا، قد لاح ضوء النّهار.

وقد راعه حال أمته وما بلغته من جهل واستكانة فقال:

يا نائمين على جور الهوان، كفى ذلّ يغادر صدر الحرّ موقودا
هبّوا وذبّوا عن استقلالكم بظبىً تخلّف الدهر مضنى القلب معمودا
لا بدّ للعرب أن تحيا بوحدتها وأن ترى تاجها للكف موسودا

وهاج بلابله الليل البهيم فحدّثه قائلاً:

أيها الليل، يا أبا الأسحار، أين زهر النجوم والأقمار؟

كــان للبــدر في ســوادك ضــوء　　مــــلأ الخافقين بــــالأنــــوار
كنت، يــا ليل، عبـده، ولقــد كــان　　مليكـــاً لـــه النجـــوم جـــواري
كـــان يـــوليـك رحمة وحنـــانـــاً　　كـــان يكســـوك حلّـــة الأحــرار

ويشعر، وهو الشاعر الشابّ الذي لا حـول له ولا طول، كأنـه مسؤول عمّا آل إليه أمر أمته وبلاده، فيقول:

دافعـت عن حـق قـــومي حيث أنهمُ　　قـــد قلّـــدوني هـــاتيك المقـــاليـــدا
بمنطـق تـــــرك الأسماع واعيـــــة　　والـــروح تطلب منيّ فيــه تـــرديـــدا
إنّـــا لقـــوم ورثنـــا الفضـل من قـــدم　　والحلـم والعلم والإخــــــلاص والجودا
جَـــدّي الـــذي قهـر التيجـــان قـــاطبـةً　　وشـــاد للعـــرب ملكـــاً ليس محدودا
إنّـــا هجمنـــا على كسرى ودولتـــه　　وبـــدّدت خيلنـــا الأروام تبــديـــدا

ويعيد النظر في حال بلاده فيصيح:

يـــا للـــرجـال ويـــا للصيـــد من مُضَرٍ　　ضـــاع العـــزيـــزان: ديـن الله والحسبُ
أين الحميّـــة، بل أين الشهـــامـــة، بل　　أين الشجـــاعـــة والهنـديـــة القضب؟
أين الأُلَى تـــزأر الـــدنيـــا إذا زأروا　　ويغضب الله والأمـــلاك إن غضبـــوا؟..
بغـداد بــاكيـة، والشـــام شـــاكيـة،　　والقــــدس مــــرتهب للشرّ مــــرتقب
لا تبخلنّ بـــــروح أنت حـــاملهـــا　　فـــالموت، يـــا شهم، في نيل العُلَى ضَرَبُ

ويغضب أخيراً ويثـور فيخاطب ملك العـراق خطابـاً شديـداً ويعاتبـه عتابـاً مراً، فيقول:

يـــا لابس التـــاج في بغـــداد هُنِّئـــا　　بـــه، إذا كنـت لاستقـــلالـــه جيتـــا
لا يكمل التـــاج إلاّ أن يكـــون لـــه　　جيش يشتّـت شمل الـــذلّ تشتيتـــا
فـــزنـــه بـــالحقّ والعـــدل الأعمّ، ولا　　تـــرصع لـــزينتـــه دراً ويـــاقـــوتـــا
واستعمل الحزم وانقـــذ أمـــة نصبت　　من بعـــد نهضتهـــا لـــذلّ طـــاغـــوتـــا
نحن الـــذيـن بنينـــا في جماجمنـــا　　عــــرش المليك وثبتنـــــاه تثبيتـــــا
شيخ الـــوزارة ميت لا حـــراك بـــه　　إن جئت مجلســـه تلقـــاه تـــابـــوتـــا

طغت الهواجس على نفس الشاعر وجثمت على صدره كالليل الرهيب، فناء بها جسمه الواهن ولم تحتملها أعصابه المرهقة. وكذلك ذهِبَ بلبّه وطوّح بعقله، وعاش بقيّة عمره في فراغ ذهني، حتى انتقل من ضباب الخبل الى ظلمة الموت.

***

في تقرير سرّي للآنسة جرترود بل كتبته إثر زيارتها لسورية في تشرين الأول ١٩١٩، حين كان الأمير فيصل يرأس الحكم في دمشق، قالت إنها استدعت رشيد الهاشمي

الذي كانت تعرفه في بغداد، ثم مضى فجأة الى الشام. قال لها إنه فرَّ من العراق بعد اتهام أخ له بالاتصال بالأتراك.

قالت المس بل إن رشيد وأخاه محمد الهاشمي مناوئان بشدة للأوروبيين، ورشيد يعمل سكرتيراً لياسين الهاشمي. وقد خطب قبل أسابيع فقال إن دجلة ستجري دماً، ولم يصرّح أهو دم عربي أو بريطاني. وعلى أثر ذلك أمر علي رضا باشا الركابي حاكم دمشق بالقبض عليه وسجنه أمداً قصيراً. وقد بدأت علاقة رشيد بالبريطانيين سنة ١٩١٦ في البصرة جاءها هارباً من الترك، فمنحه الإنكليز مخصصات الى ما بعد سقوط بغداد...

ولم يحصل بعد ذلك على وظيفة لأن عقله ـ كما قالت المس بل ـ لم يكن ثابتاً وظهر لها كأنه «ضئيل المسؤولية».

إبراهيم منيب الباجه جي

الشاعر إبراهيم منيب الباجه جي ينتمي الى الأسرة الباجه جية المعروفة، وهو ابن أحمد بن محمد سليم بن عبد الرحمن. ولد في بغداد في سنة ١٨٧٦، وأحسن والده تربيته وتعليمه. ثم أدخل إحدى المدارس الابتدائية عهداً قصيراً، ووضع بعد ذلك في دائرة تحرير ولاية بغداد للتمرّن على الأعمال الكتابية (١٨٨٩). وتقدم في سلك الخدمة، ومهر في النظم والنثر باللغتين العربية والتركية. واستقال من الوظيفة سنة ١٨٩٦، وسافر الى استانبول، ثم عاد منها واستأنف العمل في دائرة الولاية (١٩٠٠)، وعيّن أخيراً معاون رئيس التحرير في إدارة الأملاك السّنية.

كان ابراهيم منيب من فتيان زمانه المولعين بالخيل واللهو والغناء. وقد أطلق الرصاص على بعض شباب الملاهي سنة ١٩٠٧، فحكم عليه بالسجن. وسجّل معروف الرصافي تلك الحادثة ـ التي قامت لها بغداد وقعدت ـ شعراً في قصيدة رثى بها القتيل وبرّر فعل القاتل، وقال:

قضى، والليل معتكر بهيم، ولا أهل لديه ولا حميمُ

وأصدر بعد ذلك جريدة أدبية باسم «الرياحين» في ٢٨ آذار ١٩١٣.

واحتلّ الإنكليز بغداد فعيّن إبراهيم منيب مفتشاً في دائرة الشرطة (١٩١٧) أمداً وجيزاً، ثم عيّن كاتباً في وزارة الدفاع (١٩٢١). وأحيل على التقاعد في آخر آذار ١٩٣٧، ثم أعيد استخدامه في تموز من نفس العام لعهد غير طويل.

وتوفي في بغداد في ١١ حزيران ١٩٤٨.

مؤلفاته وشعره :

وضع رسالتين في «التبصرة لمولعي الخمرة» و «نزهة الأحداق في مباحث السباق» ، ورسالة ثالثة باللغة التركية عن رحلته الى الإستانة .

وطبع ديوانه الأول سنة ١٩١٣ ، ثم طبع مجموعة ثانية من شعره باسم «زنابق الحقل» (١٩٣٨) .

ويتسّم شعره بالرقّة والسّهولة ، ويزخر بالمعاني التقليدية والأفكار السائدة في عصره ، فقلّما تجد فيه ابتكاراً أو التماعة ذهنية .

نظر شاعرنا الى طاق كسرى فقال :

بنـــاء شـــاده ملك كبير ... دعـائمـه العـدالـة لا الصخـور
تسـامى مشمخـراً بـارتفـاع ... لـديـه كلّ ذي طـولٍ قصير
كـأني بـالسماء عليـه شيـدت ... كطـاقٍ حـولـه الآفـاق سُـورُ
تفـرّد في الفـلاة ولا أنيس ... ولا خـلّ لـديـه ولا سمير
تعـالجه الـزعـازع وهـو رآسٍ ... كطـود لا يـزول ولا يمـور
فكـم عصر تقضّى بعـد عصر ... ومـا أبلت معـالمه العصـور
ومـا قـد كـان شيّـد فـوق عـدلٍ ... فـلا تبلي معـاليـه الـدهـور

ونزعت به نفسه الى المعالي فقال :

طلبت العلى، لا بـالحسـام المهنّـد ... ولكن بـرأي كـالسّهـام مسـدّد
فـأدركتـه حتى ملكت قيـاده ... وأصبح عنـدي وهـو واحـد أعبـدي
لقـد رام إذلالي العـداة بكيـدهم ... وهيهـات من إذلال أروغ أصيـد
فإني، وإن أمسيت في السجن غـاربـاً ، ... سأشرق بعـد اليوم كـالشمس في غـدِ
ولا بأس أن أصبحت كـالسيف مغمـداً ... فكل حسـام إن مضى الحرب يغمـد
ومـا ضرّني سجني وتقييـد أرجلي ... فعضب لسـاني مطلق دون حُسَّـدي

حدت به تجاربه في الحياة على العزلة والانفراد فقال :

تجرّد مـا استطعت وعش وحيـدا ... إذا مـا رمت أن تحيـا سعيـدا
أرى الإنسـان في دنيـاه يشقى ... إذا هـو لم يعش فيهـا فـريـدا

وقال على لسان طاق كسرى :

يـد الأيـام لم تعبث بمثلي ... وإن أضحت دوائرهـا تـدور
ولكـن قـد رأيت العـدل ولى ... وحـلّ محلّـه الظلـم الكبير
فملت الى التـزهّـد بـانفـرادي ، ... ومثلي يفعـل الـرجـل البصير

وشعره طافح بالمعاني الإنسانية، فهو يحبّ أمه ويقول:

ولـدت خليـاً لست أدري بها عنـدي ... ولم أدر مـا همّي ولم أدرِ مـا قصـدي
فـأوّل شيء حـلّ قلبي محبّـة ... لأمـي التـي لم تنأى عنّي مـا يجدي
يـلاطفنـي منهـا حنـان ولم يكن ... يقـابلـه مني سـوى الضحك في المهـد
وذاك لـديها نعمـة عـزّ مثلهـا ... تـراقبهـا منّي ببـاصرة الحمـد.

وهو في قصيدته «في سبيل البؤساء» يأسى للبشرية المتألّمة ويقول:

وافى بـدمع ذارف هتّـانِ ... يشكـو الـزمـان وقسـوة الخلّان
شيخ مـلامح وجهـه دلّت على ... مـاضي وجـاهتـه بكـلّ معـاني
وعليـه أطهار تـراهـا رقّعت ... مـن فقـره بغـرائب الألـوان
يمشي فتـوقفـه طـوارىء ضعفـه ... متعكّـزاً عـوداً من العيـدان
والـوجـه منـه قـد علتـه صفـرة ... تحكي هنـالك صفـرة اليرقـان

وقف الشيخ يسأل ذليلاً وهو يتضوّر جوعاً، فأخذه الشاعر الى داره وأتاه بأطايب المأكل والمشرب. ثم استعلم عن حاله فقال إنه عاش ستين عاماً هانئاً سعيداً، ثم تـوالت عليه المصائب، فبارت تجارته وبقي بـلا مال ولا ولـد ولا سكن، ونأى عنه الصحّاب حتى لقد تمنّى الموت فلم يسعفه الموت:

مـا لي أرى الإنسـان يقسـو قلبـه ... تلقـاء رقّـة دمعـة الإنسـان؟
مـا لي أرى الإنسـان لم يعطف على ... حـال الفقير البـائس الحيران
أفٍّ لقلـب لم يـرقّ لبـائس ... لهواً مـن الـدنيـا بعيش فـان

وهو مولع بـالقصص الشعري، ففي قصيدته «إقبال وادبار» يـروي قصة فتاة هيفاء جميلة من الأعراب، نشأت في عزّ وحشمة بين أبيهـا وأمّها. ثم قضى الأب وقد فتك به خنجـر ظالم شرّيـر أراد خطف فتاتـه. ولم يمض وقت طويل حتى قضت الفتـاة حزنـاً وأسى، فشيّعهـا الشاعـر الى القبر أسيفـاً. وشاء أن يكمـل خطوط المأسـاة فجعل الأم تلقي بنفسها في بئر قريبة من تربة ابنتها، فدفنوا الثلاثة جنباً الى جنب.

إن شعر إبـراهيم منيب يطفح بالألم، لكنـه يذكر أحيـاناً لهو شبابـه وأنسه فيحن الى أيامه السّالفات ويقول:

رعى الله سـاعـات تقضّت من العمـر ... بـدجلـة، والأرجـاء تـزهـر بـالبـدر
وزورقنـا إذ ذاك طيراً تخالـه ... يمـدّ جنـاحيـه مـن الشـوق كـالنّسر
ودجلـة تجري في مـذاب مفضّض ... يمازجـه ضـوء المقـاصير بـالتّبر
يـلاعبـه نفح النسيم فتنجلي ... مـويجاتـه عـن نسج درع من الـدرّ
ويطـرب سمعي من بعيـد خـريـره ... إذا انحـطّ من عـالٍ الى أسفـلٍ يجري

وتغرق الباخرة «تيتانيك» سنة ١٩١٢، فيتبارى شعراء العراق في رثائها. ويدلي شاعرنا دلوه في الدلاء فيقول:

سرت والبدر في أفق السّماء — يساريها بأجنحة الضياء
سبوح تزدري بالبدر زهواً — منوّرة بنور الكهرباء...
ولما أن نأت عن كل أرض — ولم ترَ غير آفاق السّماء
أتاها تحت طيّ الماء طود — يطوف من الجليد على عماء
فشتّت شملها الموصول قسراً — الى ما غير وصلٍ والتقاء
وأغرقها بمن فيها سوى مَنْ — توصّل بالسّلامة للنّجاء
وأمست وهي راسية بقعر — من الظلماء من بعد الزّهاء
على حين الكواكب زاهرات — ووجه البحر يشرق بالضياء

وكذلك الحياة الى فناء، والكواكب زاهية والطبيعة ضاحكة:

فلا عيش يدوم ولا صفاء، — وهل بعد الحياة سوى الفناء؟

حدثني أحمد حامد الصّراف قال: كان إبراهيم منيب الباجه جي مولعاً بالسباق لا يفوته يوم من أيامه. وكان حلاّقه يشاركه نفس الهواية، فلقيه يوماً في الحلبة وسأله عن الحصان الفائز ليراهن عليه، ودلّه إبراهيم منيب على حصان أو حصانين فلم تصدق فراسته.

وفي صباح اليوم الثاني مضى الشاعر كعادته الى دكان الحلاق وجلس على الكرسي ليحلق ذقنه. وسلّم عليه صاحبه هاشاً باشاً. وشدّ الفوطة على صدره، ووضع على وجهه الصابون ثم قال:

يا أستاذ، لم تصدقني البارحة في ساحة السباق. لقد دللتني على الخيل الخاسرة وراهنت على الفرس «الصقلاوية» التي فازت فربحت مبلغاً جسيماً.

واعتذر الباجه جي بأنه إنّما دلّه على الخيل المعروفة، أما «الصقلاوية» التي راهن عليها ففازت مصادفة، وهو ما يعرف في اصطلاح أهل السباق بـ «فلوك» أي حظّ.

ولم يقنع الحلاق بهذا الجواب، بل ظلّ يجمجم ويدمدم، وصاح: يا غلام، هات الموسى «الصقلاوية» لنحلق وجه الأستاذ. قال ذلك وهو يفرك وجهه بالصابون بحركة عصبية.

وبادر الباجه جي فنزع الفوطة وقام من الكرسي وجرى قائلاً: عفواً، لقد نسيت أمراً مهماً ويجب أن أعود الى الدار. وخرج الى الشارع راكضاً لا يبالي بالصابون الذي يلطخ وجهه.

قال الصراف: رأيته مضطرباً فهدّأت من روعه وقلت له: ماذا دهاك، ولم هذا الخوف؟

فأجاب: رأيت الشرّ في عيني الحلاق وحركاته فنجوت بنفسي. ولو ذبحني بالموسى لرقدت تحت التراب مضرّجاً بدمي، مستعجلاً قدري، مبتدراً منيّتي. وهل كان يعزّيني أو يخفّف عني أن يقبض على الحلاق ويحاكم ويلقى به في غيابه السجن؟

من شعر إبراهيم منيب الباجه جي

حماسة لا سياسة:

طلبت العلى، لا بالحسام المهنّد ... ولكن برأي كالسهام مسدّد
فأدركته حتى ملكت قياده ... وأصبح عندي وهو واحد أعبدي
لقد رام إذلالي اللئام عداوةً ... وهيهات من إذلال أروعَ أصيد
فإني، وإن أمسيت في السجن غارباً، ... سأشرق بعد اليوم كالشمس في غد
ولا بأس أن أصبحت كالسيف مغمداً ... فكل حسام إن مضى الحرب يغمدِ
وما ضرّني سجني وتقييد أرجلي ... فعضب لساني مطلق دون حُسّدي
فإنّ يراعي مفلق وفعاله ... لدى الحرب أمضى من فعال المهنّد
وإني بآرائي على الرغم منهُمُ ... بنيت مقاماً فوق نسر وفرقد
فإن يقدروا فليهدموا ما بنيته ... وأنّى لهم لمس الكواكب باليد
سيعرفني قومي إذا سلّ صارمي ... وراح جوادي سابقاً كلّ أجود
فإنّي مقدام وفارس نجدة ... إذا الحرب شبّت كنت أوّل منجد
وإني كطود في الثبات لدى الوغى ... وإن ماد سطح الأرض لم أتميّد
وإني ذو سلم لكل مسالم ... وحرب لأعدائي ولست بمعتدي
وإني أراعي للصديق ذمامه ... كراعي السُّهَى وجداً بجفن مسهّد
وإني على عهد الصديق محافظ ... وإن خان يوماً لم يخنه تودّدي
وإني مقيل للكريم عثاره ... إذا جاء في ذنب بغير تعمّد
وإني حليم دون ذي الجهل عالماً ... بأنّي إن أغفر له الذنب أُحْمَدِ
وهذا يراعي ناطق عن حقيقتي ... ومالي سواه من فخار وسؤدد

قضى الباجه جي في السجن أعواماً حتى أطلق سراحه بعفو سلطاني سنة ١٩١٣. ومما قاله في الحبس عند نشوب حرب طرابلس:

وذي عزمات أوقفته الموانع ... فظلّ يدكّ الأرض وهو يمانع
يروم حراباً بين مشتبك القنا ... لنصر ربوع زعزعتها الزعازع
فيمنعه سدّ فيفزع صارخاً ... وتنهل مثل السّحب منه المدامع
يروم السُّرى نصراً إليها بنفسه ... ولكنّما سدّت عليه الشوارع
لقد سدّها كفّ من الدهر ظالم ... فأقعده عمّا نوى وهو جازع

وقال في السجن أيضاً :

أمـا والـذي في صنعـه حيّر الفكـرا لفي السجن مـا ينسي القيـامـة والحشرا
تـرى النـاس فيـه في ازدحـام وضجّـة فمـن مـرتـج يسراً ومن مشتكٍ عسرا
يقـاسـون أنـواع الهوان بمـوقف تحكّم فيـه العبـد واستعبـد الحرّا
ولا تحسبنّ القبر أقـوى مـرارةً من السجـن، لا لا والـذي فلق البحـرا

فاضل الصيدلي

الشـاعر فـاضل حامـد المعـروف بالصيـدلي، ولد في الموصل سنـة ١٨٨٢، وتعلّم الصيدلة في استانبـول دار الخلافة. ودرس اللغات العربية والتركية والفـارسية والكردية وشدا شيئاً من الفرنسية.

وقد عيّن صيدلياً في نجد، ثم عاد الى العراق، فأسندت إليه وظيفة كتابية في بغداد، واختير من بعـد مديـراً لبعض نـواحي قضاء سنجـار. وعيّن في المعهـد الوطني مفتشـاً صحياً في الموصل، وعمل صيـدلياً في الجيش في الموصل وبغـداد وكركـوك والسليمانية، حتى استقال في سنة ١٩٢٧. وعيّن كاتباً للضبط في مجلس الأعيان (١٩٢٨)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٣٣. وعـاد الى الموصل ملازماً للعزلـة، منصرفاً الى الشعر والأدب حتى توفي فيها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٩.

مال فاضـل الصيدلي الى الشعر يافعاً. وأصـدر في سنة ١٩١١ كرّاساً بـاسم «بدائع الأفكار» باللغتين العـربية والتركية. ونشر ديوان شعره في دمشق بعنوان «هـدية الأحرار» (١٩٢٧)، ونظم بعـد ذلك شعراً كثيراً لم ينتظم في مجمـوعة. وكـان له شعـر غزليّ كثير أحرقه حين اعتنق مذهب التصوّف.

قـال فيه إبـراهيم الواعظ: «تعـرّفت بـه فعرفت فيـه الروح الأبيّ والـوطني المجاهـد والأديب الكامل والشاعر الذي أخلص لأمته ووطنه إخلاصاً منقطع النظير».

وقال عنه ذو النون أيّوب: «... مـؤمن متدّين الى حدّ التعصّب، متزمّت متمسّك بالقوالب الأخلاقيـة تمسّكاً لا يقبل تأويلاً ولا تعليلاً، كاره للتجديـد الذي يجد فيه كل الجراثيم التي سبّبت انهيـار هـذا المجتمع وتفسّخه السيـاسي والاجتماعي والأخـلاقي، وذلك طبيعي جداً عنـد من حبس نفسه في داره بعد أن يئس من إمكان تبـديل الفاسد وتقويم ما اعوجّ من أمر هذا البلد».

وقـال محمد تـوفيق حسين أستاذ التـاريخ العربي في جـامعة بيروت الأميركيـة: «ولم يسعد في حيـاته العائليـة فحوّل حياة العائلـة كلها شقاءً. ولم يسعـد في حياته العـاملة فانسحب من معترك الحياة مخفقـاً بائساً. ولم يسعـد في آماله الأدبية... ورأى آمـاله في

الحياة وآراءه الدينية والوطنية تتهاوى مندحرة، فحزن وابتأس وعاش شقياً».

وقال مجيد شوقي البكري في تقديم ديوانه «هدية الأحرار»: «فهو لم يكتب إلا ما شعر ولم يعرب إلا عن هاجس، وما انقاد في كل ما كتب، (اللهم غير الغزل والنسيب اللذين هما مسرح الخيال وفاكهة الشعراء) إلا لإحساسه وقلبه السليم. وليس له رائد إلا الإخلاص، ولا قصد إلا وجه الله وخدمة الوطن والدين فالأخلاق فالانسانية».

شعره

كان فاضل الصيدلي من أوائل شعراء الموصل الذين تأثروا بالنهضة الأدبية الحديثة، فترك الأساليب القديمة وسار على نهج الزهاوي والرصافي وحافظ وشوقي وأندادهم. وقد نظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية، واستنهض الهمم المتقاعسة، ووصف الأدوية والقطار والسيّارة والسينما وكرة القدم. ووضع الأشعار الروائية على لسان المعتصم وموسى بن نصير والمقوقس صاحب مصر والأرمانوسة وعمرو بن العاص وغيرهم من الشخوص التمثيلية.

وقد عدّ الصيدلي رسالة الشعر رسالة خلق وهداية فقال:

ألا إن شعراً ليس يدعو الى هدى | فذلك شعر لا يقام له وَزْنُ

لكن بيانه كثيراً ما يقصر عن شأو شعراء النهضة الحديثة البارزين.

رأى أهوال الحرب العظمى التي فتكت بالبشرية سنة ١٩١٤ فقال:

لقد فاجأتنا بالمصائب والردى | ليالٍ تردّت بالمكايد والغدر
فليت الذي قد حلّ فينا من العنا | بأعدائنا، بل بالليالي وبالدهر
فيا ليت شعري، ما يكون مصيرنا | وماذا لنا قد أضمر الدهر من نُكْرِ؟
فإن كان خيراً فالمراد، ولم أخل، | وإن كان شراً فالزمان أبو الشرّ
وإنّا لفي يوم تشيب لهوله | نواصي الرزايا السّود لو أنّها تدري
وإنّا بهذا اليوم في وسط لجّة | فإمّا الى قعر وإمّا الى قفر
وإمّا حياة بعد موت مريئة | وإلاّ فمن قبل الممات الى القبر

وأنكر على الإنسان عدوانه على أخيه الإنسان وخوضه غمار الحرب الطاحنة فقال:

ألا هل ترى الإنسان قد فقد اللُّبّا | إذ اختار غير الخير واستهل الصّعبا
طغى فبغى واستبدل الغيّ بالهدى | فجرّ على أبنائه الويل والكربا
لماذا، لماذا ذي الرجال تطاحنت، | وما ذنب هاتيك النساء التي تُسْبَى؟
لِمَ البغي والعدوان في غير طائلٍ؟ | ألا شاه وجه الحرص كم أمّة أصبى...

ونعى على المجتمع ضعة الأخلاق ورواج النفاق فقال:

شكـــوت لصـــاحـب إدبـــار حظّي ... لـدى أهل الـزمـان، وكـان حـاذق
وقلت لـه: اهـدني، جـوزيت خيراً، ... الى نهج السلـوك، فقـال: نـافق!
فجئت السـوق، سـوق العصر، أبغي ... نفـاقـاً أشتريـه ولـو بـدانق
رأيت النـاس قـد حـامـوا عليـه ... جميعـاً بين مسبـوق وسـابـق
فلـم أظفـر بشيء منـه، لكـن ... تيقّنـت النفـاق اليـومَ نـافـق

وقد آمن بالعزة، والإباء والكرامة، فلنستمع إليه يقول:

إنما العيش عـزة وإبـاءُ ... وعلى العيش دون ذَيْـن العفـاء
والـذي يبتغـي الحيـاة صفـاءً ... ليس تطفي أوامـه الاقـذاءُ...
فحيـاة الانسـان علـم وعـز ... وحيـاة الانعـام تبن ومـاءُ
ومـا لـذّة الحيـاة في مـذهبـه؟
لـذة العيـش صحـة وشبـاب ... واقتنـاع مع التقى وكتـاب
وكفـاف وكـفء زوج لهـا مـن ... نعمـة العلـم والخـلاق نصـاب

وقد هوى الشعر فقال:

إني ليطـربني السماع فـأسكـر ... ويـروقني نظـر الجمال فـأشعـر
ويميـل قلبي للغـرام مع الصبـا ... فـأروح نشـوانـاً بـه أتبختر
فـالشعـر لهوي والمحـاسن لـذتي ... والصـوت كأسي لست عنـه أصبر
فـأظل أشـدو كـالهزار مغـرداً ... بـرقيق وصف كـالمدامـة يقطـر

ودعا الى العلم والنهوض فقال:

طـلول العلـم والعـصر الخـوالي ... ويـا عهـد المفـاخـر والمعـالي
ألا يـومـاً لنـا بـين الليـالي ... رجـاء في تـلاقٍ كـالمحـال
فيرجع فيـك جـيد العيـش حـالي؟
وصـالاً منك، يـا علم، جـديـدا ... وعـد عَـوْداً ولا تَعـدِ الـوعـودا
بحقـك لا تضع فيـك النشيـدا ... وبـدّل نحس طـالعنـا سعـودا
فنـدرك صبحنـا قبل الـزوال...

بهجرك شرقنا أمسى ظلاما   وأضحى الغرب فيك لنا إماما
مشينا القهقرى ومشى أماما   ويا ليت اقتدينا حين قاما
لسعي فيه قد بلغ المعالي . . .
متى هذا العراق يقرّ عينا   ونجلو عن نُهانا فيك رَيْنا
فبادر قبل أن يُقضى علينا   جعلتُ بذمّتي إن عدتَ دينا
بأن أقضي بخدمتك الليالي

هام الصيدلي بحبّ وطنه وقومه فندب تأخرهم وطلب لهم اليقظة والمجد والحرية والعلى، ونظم في ذلك قصائد كثيرة. قال:

أيشرب الغير برداً من مواردنا   ونحن نشربها حَراً وغِسْلِينا؟
أعيذ قومي، وقومي من عرفتهُمُ،   من أن يساموا على الإذلال توطينا
يا آل يعرب، نَهْضاً للرجوع الى   عهود مجد لنا أضحت تنادينا
لقد كفانا رقاد ملء أعيننا   فإنّ هذا التواني كاد يُرْدينا
واهاً لأيامنا الغرّ التي سلفت   متى تقرّ بلقياها مآقينا؟

وقال:

وطني، كيف، والحبيب حبيب،   لك أسلو أو عن هواك أتوب؟
كيف أنسى منك الأيادي وفضلاً   له منّي بكل عِرْقٍ دبيب؟
كيف أجفوك، والجفاء عقوق،   وأنا في حمى ثراك ربيب؟
وطني، أنت ملجأي وملاذي   وشفائي في علّتي والطبيب
عقدت بينك الولاء وبيني   فطرة حرّة ودين صليب

وقال نادباً:

تولّت عن حِمانا المكرُماتُ   فلا صدق هناك ولا ثبات
وساد على النفوس هوى الأعادي   لحبّ الذات، فلتهنا العداة!
تعالى الله، يا قومي، لماذا   وحتّى مَ التهاون والسّبات؟
هدمتم مجد آباءٍ مَشيداً   فمن يبني وقد عدم البناة؟
بنوكِ، بنوك، يا أوطان، خانوا   فمن يحمي إذا سرق الحماة؟
لقد عاد العراق غريب قوم   فلا أهل تقيه ولا رعاة
وأضحى العرب عُرْضة كل رام   وأمسى العرب ليس بهم رماة
وصار الشرق مطمح كلّ عين   ولا عين تردّ ولا رُقاةُ

بمـن تثق المواطـن بعــــد هــــذا | وقـد خـانت بـذمّتهـا الثقـات؟
فـلا تـذكـر أبـاة الضيم يـومـاً | لـدى ضيم فقـد رضي الأُبـاة

وقد بكى شاعرنا الحق المضيم فقال:

قضـى الحقّ إلا مـا بـه يُتمطّق | وأخلق ثـوب العـدل أو كـاد يخلق
فـلا العهـد مسـؤول ولا الشرط أملك | ولا الـوعـد مفعـول ولا القـول مـوثق
يقـولـون: نبغـي الحقّ، والفعل عكسـه، | فقلت: كـذبتم، هـا هـو الفعل أصـدق
يقولـون: نقضي العدل، والنقض ظـاهر، | ولـو سكت الأشهـاد فـالحال ينطق
ومـا رزىء الأقـوام تـالله رُزْءَهُمْ | بمـوت حقـوق دونها النفس تـزهق

***

الشقاء والصيدلي:

وسم الشقاء شـاعرنا الصيدلي بميسمـه، فرافقه رفقة العمـر وناء بأثقاله وأوصـابه.

ولقـد وصف الشاعـر الفـرنسي ألفرد دي فنيي (١٧٩٧ ــ ١٨٦٣) Alfred de Vigny الشقاءفي قصيدة له فقال:

«يجوس الشقاء خلال المدائن الباهتة، وقد لاذ بأذيـاله شبح الانتحار العاقّ، يرقبنا على عتباتنا الوجلة طالباً فريسته.

فيسمع الشباب المنغمس في ملذّاته ويتأوّه ويذبل ريعانه، ويهبط الشيخ الى قبره كما تسقط أوراق الشجر، وقد حرم الجذوة التي تنعشه وتغذّيه.

«أين المفرّ؟ لقـد جلس الشقاء ذات يوم على عتبة داري، وأنا أحملـه منذ ذلك الحين في غضون أيامي المكفهّرة.

«تلك أجنحته المفجعة تطبق عليّ كالرداء القاتم، في وهج الشمس وغيابة الدياجي وفي كلّ صقع ومكان. تلفّني ذراعاه الجشعتـان بآلامها، وتشهر يداه الـدّكناوان المدية على فؤادي...»

ونظـم الشاعر الإنكليزي توماس غراي (١٧١٦ ـ ١٧٧١) Thomas Gray نشيداً الى الشقاء، فخاطبه قائلاً:

«أيها الشقـاء، ذو الحول والطول، مـروّض القلـوب البشرية، يـا من يخيف الأشرار بسوطه الحديدي وساعته الرهيبة ويبتلي الأخيار الطيّبين...».

ووصفـه بأنـه يربـط بسلاسلـه المتجبّرين فيـذيقهم طعم الألم ويترك الطغـاة لابسي الأرجـوان يئنّون، وقـد عصرت الغصص أرواحهم عصراً، لا يـرحمهم أحد في وحـدتهم القاسية.

ثم يبتهل الشاعر الى ربّة الشقاء ويسألها أن تسبغ على قلبه الرّقة لا الجروح والكلوم، وأن توقد شرارة النّبل المنطفئة في أعماق ذاته، وأن تلقّنه المحبّة والصفح والغفران، وتستلّ شوائبه ومعائبه ليعرف نفسه رجلاً.

أمّا شاعرنا الموصلي فتغنّى بالبؤس والشقاء في أكثر من قصيدة. قال:

خلقت، ويا ليت لم أخلق، … لكل شقاء، ومن للشقي؟
تطاردني عاديات الخطوب … ولو أنني لذت بالأَبلَقِ
سئمت الحياة وعبء الحياة … وصرت من الموت لا أتّقي
حياة مضت كلّها مُرّةً … وهيهات تحلو بما قد بقي
فحظي استعار سواد الشباب … ولون ضميري دهى مفرقي
شباب تولّى بلا طائل … وغصن تدلّى ولم يورق
ولكنّها أثقلته الهموم … فأوهت قواه فلم يبسق..
ولي طالع أين وجّهته … أبى أن يعود ولم يُخْفِقِ
وأحلام سؤل تعلّقتها … ولكن بها الكفّ لم تعلق
وليس طِماحي لمال ولا … منالٍ له لست بالشَّيِّق
ولكن لما لم يَحُمْ حوله … سواي وفي العصر لم يَنْفُق
ونُصرة حقّ وقوم ودين … وخُلْق أراه على مَزْلَق

وقال:

سئمت حياتي بعد فقد شبابها … ولو تشترى بالموت كنت أبيعها
حياة الفتى عام به الصيف والشّتا … حروراً وبرداً والشباب ربيعها
إذا ما انقضى عهد الشباب تقلّصت … ظلال حياة ثم أقوت ربوعها
على أنني ما فزت في لذّة الصبا … ومرّت حياتي بالهموم جميعها

وقال:

يا عيش، إنك نُكْرُ … فهل لذنبك عُذْرُ؟
إن لم تكُ الموت حقاً … فأنت منه أَمَرُّ
إن كان بعضك خيراً … فإنّ جلّك شرّ

وقد رأى النحس حتى في طلعة القمر، فقال:

أطلّ علينا البدر جذلانَ ضاحكاً … يبشّرنا بالنحس والويل والشَّقَا
فلا كنت، يا شهر الفجائع، طالعاً … ففيك قضت آمالنا ولك البقا

ساء ظنّه في الناس والإنسانية فقال:

بلوت النّاس حتى ساء ظنّي … بكل الناس حتى فيَّ نفسي
وعاشرت الأنام فشبت غماً … لما قد مرّ من عجب برأسي
وكدت أموت من أسف وحزن … وما أغنى التصبّر والتأسّي
وصرت أودّ لو آنست جنّاً … وأنفر وحشة من كل إنْسِي
وأخجل مطرقاً لمّا أراني … بأن القوم من أبناء جنسي

لقد ساء ظنه حتى في نفسه، وقال نظير ذلك محمد رضا الشبيبي:

كلّنا يطلب ما ليس له … كلّنا يطلب ذا حتّى أنا

وضجّ الصيدلي بالشكوى من سقوط الأخلاق وموت الفضيلة وانتشار الرذيلة فقال:

هوت رفعة الأخلاق للهوّة السّفلى … فيا ويح قومي للرزيّة، واويلا
أضلّوا طريق الحق والرشد حينما … أحبّوا على باقي الثنا عرضاً يبلى؟
أضاعوا نُهاهم مذ شروا بالهدى الهوى … وبالجهل باع العلم أكثرهم جهلا
وعن كرم الأخلاق زاغوا، فما ترى … لها أثراً في العصر فعلاً ولا قولا

حتى يقول:

وإني لأزري بالحضارة عندما … أراها أذاعت بيننا الغشّ والغلّا

وقال في قصيدة أخرى:

مات الوفاء وخانت الإخوان … وتلوّنت في طورها الأزمان
وتقلّبت ظهراً لبطن مثله … أهل الزمان فإنّهم أقران
لهفي على خالي العصور وأهلها … ما كان أعلى شأنه الإنسان!

وقد بلغ من ريبته وسوء ظنّه أنه حذّر القمر قبل أن يغزو الإنسان القمر، فقال:

إن رمت تسلم فاغرب، أيّها القمر، … فقد نوى لك شرّاً، ويحك، البشر
جاسوا خلال نواحي الأرض قاطبةً … فدمّروها وظنّوا أنهم عمروا
واليوم مدّوا شباكاً للسماء لكي … يرموك في شرك الأنكاد، فالحذر

وقال:

ليلي وليلك، يا بدر الدجى، سهر … هل أنت مثلي معنّى، أيها القمر؟
هل غازلتك لحاظ الغيد من بُعُدٍ … فراح يعبث فيك الكحل والحَوَر؟
أم قد دهاك هوى الغزلان أم سلبت … قرارك الوجنات البيض والطّرر؟
أم هاج وجدك ألحان البلابل في … رياضها أم شجاك العود والوتر؟

أم أنت تعشق مـن ذي الشهب جـاريـة وحـال بينكما التغـريـب والسفـر
أم أنـت مثلي من الأيــام في نكـد فصرت تطلـع حينـاً ثـم تستتر

وكـذلك نرى شـاعرنـا قد افتقـد البهجة والهنـاء ولم يجد صديقـاً يبثّه ألمه وشجـاه، فخاطب القمر وباح له بأسراره:

هيهـات، يـا بـدر، مـا ليلي كليلك في صفـو، ولكـنّ ليلي كلّـه كـدر
أبيت منفـرد الهجـران محتجبـاً، وأنت حـولك تـزهـو الأنجم الـزُّهُـرُ
وأنـت تمرح في عليـاءَ واسعـة وإنني رهن ضيق فيـه أنحـدر
وإن هـوى لـك نجم بـتَّ مكتئبـاً، فما أقـول وفي قـومـي هـوى القَـدر؟

أحبّ الصيدلي التمثيل المسرحي فقال:

إنّ للماضين روحـاً تنجلي مـا لها غيب وإن هم غُـيِّبوا
إن للغيـب لمرآةً بها يُجتلى منـه الحجـى والأدب
وهـي التمثيـل والفـنّ الـذي ليس عنـه غـائب يحتجب
فهـي من جـدّ علـوم وحجـى مـا بها هـزل يُـرى أو لعب
وهـي النـزهـة للنفس، بها يُجتنـى أنس ويحلـو طـرب

ووصف كرة القدم قائلاً:

كمـروق السّهـام بعـد السّهـام وانقضـاض الـرجـوم مـن أجـرام
تـرتقي للفضـاء شـوطـاً وتهوي مثـل صقـر يخرّ فـوق حَمَام
كـرة حـوّم الـرمـاة عليهـا تـرتميهـا الشبّـان بـالأقـدام
بين خطـف وبين جـذب ودفـع واقتحـام وحملـة وازدحـام
بين كـرّ وبين فـرّ وزحـف واستبـاق وخلفـة والتحـام
حيّرتها الأضـداد أين تـولّي وجههـا من تقـاذف واصطـدام
ذا ليُمْنَـى وذا ليُسرى وهـذا لـلـوراء يـرمـي بها وأمـام
لا تكـاد الأنظـار تثبـت فيهـا لمرور بسرعـة الأوهـام
أو خيـال الأديـب عنـد ارتجال أو كطيـف الحبيـب في الإلمام
أو كقلبـي من الـوجيب وجيفـاً واضطـرابـاً لكـربـة أو سقـام

ووصف فوّارة ماء فقال:

وفـوارة تـرمـي بقضبـان فضّـة من الماء يعلـو للفضـا ويـرفـرف
ويخرج كـالسّلك النضيـد مُسَلْسَـلاً ويلـوي كمنثـور الـلآلي ويعطف

إذا صعّــدت فهي السّهـــام صــواعــداً وإن هبطت فهـي الشــواقـب تقـــذف
فما هــو إلاّ اللــؤلـؤ الـرّطب ســاقط على الأرض نثـــراً حين يهدي فيرجـف

وهذا الوصف قد جاء على طريقة ابن المعتزّ العباسي الذي قال في الهلال :

أنظـــر إليـــه كـــزورق مـن فضـــة قـــد أثقلتـــه حمولـــة مـن عنـــبر

وقد سئل ابن الـرومي لِمَ لم يبلغ في تشبيهاتـه مبلغ ابن المعتز، فأجاب : واغـوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ما عـون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أيّ شيء أصف؟ . . .

ونظم فاضل الصيدلي في الغزل والنسيب، لكنه طـوى هذا الباب من شعره في عهد كهولته وعفا عنه، وكان تشبيبه مصنوعاً لا عاطفة فيها ولا حياة، فمّما قاله :

واعـــدتنــا بـــوصلهـــا الحسنـــاء ثــم لم يعقب الـــوعـــود وفـــاء
تصـل الليل بـــالنهـــار وعـــوداً فصبـــاح يمضي ويأتي مســـاء
ولنـــا الـــوعـــد والـــوفـــا لســوانــا قسمــــة مـــا قضـى بها الإفتـــاء
نحن همنـــا بحسنهـــا فحـــرمنـــا ثم فـــازت بـــوصلهـــا الـــرقبـــاء
وأنت مـن تشـــاء قـــربـــاً ولقيـــا وكـــذا تمنـع اللّقـــا مـن تشـــاء
أنفتنـــــا وآلفـت بهواهــــــا لأنـــاس مـــا هـم لها أكفـــاء
قـــاضي الحبّ، هل يجوز لـــديكم مثـل هــــذا؟ إذن فبئس القضـــاء
أنـــا أهـــوى والـــوصل يجنيـــه غيري فعلى العشـق، إن يكـن ذا، عفـــاء

وقال :

يـــا حمى ليلى، ويـــا أهل الحمـى، كيف ليلى، هـل تـــراعـي خلّتي؟ . . .
قـــاتـل الله وشـــاة بيننـــا فلكـم قـــد سلبـــوا من نعمـــةِ
ليـــت ربي في الهوى أوقعهــــم ليروا كـم للهـــوى مـن غصّـــة
لـــوعـــة الـــوجـــد وتبريح الهوى ولظـى العـــزل وحـــرّ الغيرة
وتصـــاريـف زمـــانٍ لم يـــزل كـلّ يـــوم بـــارزاً في محنـــة

وقال :

أمـن الحور أم ظبـــاء الفــــلاة أم سراج يضيء في الظلمات؟
غلط القـــائلـــون عنهـــا فتـــاة، أيّ شيء يعنـــون؟ أيّ فتـــاة؟ . . .
هـي شمس، وفي الملاحـــة بـــدر، وهي الـــريـم، وَيْكَ، في اللّفتـــات
ودعـــا حسنهـــا الأنـــام ينـــادي : أيّها النـــاس، فـــانظـــروا معجـزاتي

الموصل والربيع :

وصف شعراء العرب فصل الربيع في مختلف عصورهم وأجاد الأندلسيّون في ذلك أيّما إجادة لجمال رياضهم وسناء طبيعتهم وشغفهم بالماء والخضراء . ولم يقصّر المشارقة في ذلك ، فقال صفيّ الدين الحلّي :

ورد الربيع فمرحباً بوروده وبنور بهجته ونَوْر وروده

وقال أيضاً :

خلع الربيع على غصون البان حللاً فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدَّوح حتى صافحت كَفَلَ الكثيب ذوائب الأغصان
وتتوّجت هام الغصون وضرّجت خدّ الرياض شقائق النُّعمان
وتنوّعت بُسُط الرياض ، فزهرها متباين الأشكال والألوان
والظلّ يسرع في الخمائل خطوه والغصن يخطر خِطْرة النشوان . . .

وقد كان لشعراء الموصل القدح المعلّى في وصف الربيع والتمتّع بحسنه ومباهجه ، ولعلّ مردّ ذلك لبرد صقعهم ، فيقبع أهل الموصل في دورهم طوال الشتاء ، حتى إذا ما حلّ فصل الربيع ، اكتست البرّية المحيطة بالمدينة والمطلة على دجلة بالورود والأعشاب وخرج إليها أبناء البلد زرافات ووحداناً ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، للنزهة والاستجمام واجتلاء محاسن الطبيعة ، يعقدون مجالس الأنس واللهو البريء على بُسُط الحشائش السندسية ويتلذّذون بالغناء والموسيقى تحت قبّة السماء الزرقاء بين خرير الماء وحفيف الشجر. وصف شعراؤهم مجالس الربيع ومآدبه وتغنّوا بالطبيعة التي نضت عنها سربال الغيث والصقيع والضباب ، كما قال الشاعر الفرنسيّ القديم شارل دورليان Charles D'Orléans (١٣٩١ ـ ١٤٦٥م) في مقطوعته الربيعية اللطيفة :

«إنّ الزمان قد خلع رداءه ، رداء الريح والبرد والمطر

وائتزر بوشاح مطرّز من السماء الساطعة الصافية الجميلة .

ولم يبق من حيوان ولا طير إلاّ تغنّى بلغته وصاح . . .

وقد لبس النهر والغدير والجدول حلّة أنيقة موشّاة باللّجين والنّضار ، وجدّد كلّ شيء لباسه . . . »

ومن شعراء الموصل المحدثين الذين وصفوا الربيع أحمد الفخري ومحمد حبيب العبيدي . ومنهم شاعرنا فاضل الصيدلي الذي قال في تحيّة فصل الزهور:

بسم الربيع بزهره ووروده فأقرّ عين الكون عند شهوده
وشبيبة الأيام عادت غضّة فرحاً بإدبار الشتا وجموده

فـالـــر وض يـزهـــو في بـديـع حليّـه | والنبـت يمـــــرح في بهاء بـــــروده
والطير بـــالألحان غنّى مطـــربـــاً | والـــورد حـــرّك عُــودَه لنشيـــده
والغصـن والأوراق هــــذي صفّقت | واهتـــزّ ذا طـــربـــاً بكـل وجـــوده
والشمس فـــوق الـــورد ألقت نفسهـا | شغفـــاً لترشـف من رحيـق خــدوده
والنـــرجس الـــزاهـي تطلّع شـاخصـاً | من كُمّــــه بعيــــونـــه وبجيــــده
كبّرت إذ شـــاهـــدتـــه متخـــاشعـــاً | متـــواجـــداً بـــركـــوعـــه وسجـــوده

وقال من قصيدة أخرى:

مـــا لهذا النسيم هـبّ عليــــلاً | وأتـى وانيــــاً يجرّ الـــــذيـــولا؟
ليـت شعــــري أزهـــوةً واختيـــالاً | أم سقـــامـــاً بـــه دعـــاه كليـــلا . . .
إنّ فصل الـــربيع ــــ طـــال بقـــاه ــــ | لَهُوَ العيش لــــو يعيش طـــويـــلا
فيـــه تحيى الأرض الموات فتُــــزهَـى | فهــــو ينفي العنـــا ويفني المحـــولا
هـــو سرّ الأزمـــان والـــدهــر، لكن | غير خـــافٍ معنى بليغـــاً جليـــلا
هـو بيـت القصيـد في العمـر، فـاصـدع | ثـم رتّل آيــــاتــــه تـــرتيــــلا
غـرّة الـدهــر، شـــامــة الحَوْل، فيـه | عـــاد طـرف الـزمـان أحـوى كحيـلا
مـــا أحيلى الـــربيع في العيش، لـــو دام، | وإن كــــان دومـــه مستحيــــلا

ثم يقول:

يـــا زمـــان الـــربيـع، أنت شبـــابي | وشبـــاب الأيـــام جيـــلاً فجيـــلا
أنت أوفى مـن الشبـــاب ذمـــامـــاً | كـلّ عـــام تـــردّداً ومثـــولا
أنـت تأتي فتـــوسـع الأرض خصبـــاً | ورواءً وبهجـــــة وبقـــــولا

ولئن كان ربيع الموصل فصل السرور والزهـور، إنّ خريفها حزين يحمل النفس على الأسى والانقباض. وقد قال الصيدلي في ذلك:

تســاقطـت الأوراق وانتثـــر العقـــد | فـــلا شـاعـــر يهفـــو ولا طـائر يشـدو
إذا القيـظ ولّى والـــربيع تقـــوّضـت | خيـــام لـــه فـــالعيش وجهـــه مُسْـــوَدُّ
ويبـــدو محيـــاً للطبيعـــة كـــالح | عبـــوس كئيب قـاحـل سبطـــه جعـــد
ويكشف عن ســاقٍ بـــه الـــروح حـاسراً | هـــزيـــلاً نحيفـاً أو هـــو العظم والجِلْـــدُ
ويغبّر وجـــه الجدّ كـــالأرض كـــاسفـــاً | فتبكي السّما وجـــداً، ومـــا إنْ بها وجـــد
فـلا الأفـق بسّـام ولا الشمس تـــزدهي | ولا نـــورهـــا فـــوق البسيطـــة ممتـــدّ
تـــولّى شبـــاب للطبيعـــة زاهـــر | يليـــه مـن الثلج المشيب لَـــدُنْ يبـــدو

إنّ حياة الشاعـر الصيدلي كانت كهذا الخريف الموصلي الذي أجاد وصفـه، تناثرت أوراقـه وتصوّحت أزهـاره وصمتت عنادلـه بعـد التغريـد والغناء، فـلا عجب أن ودّع الأرض غير مشفق ولا آسف، يرجو في الموت أملاً لم تجد به الأيّام.

عرف من أبناء الشاعر فاضل الصيدلي عبد الحق وأكرم.

عبد الحـق فـاضـل

الأديب القاصّ اللغـوي الدبلومـاسي عبد الحق ابن فاضل الصيـدلي ولد في الموصل سنـة ١٩١١. تخرّج في كليـة حقـوق بغــداد، ووظف أمـداً في وزارة الماليـة (١٩٣١) ومديرية الأوقـاف العامة. ثم عاد الى الموصل ومارس المحامـاة، وكان رئيس تحرير مجلة «المجلة» التي صدرت في تشرين الأول ١٩٣٨.

إلتحق بـالسلك الخارجي فعيّن ملحقـاً في المفوضيـة العـراقية في طهـران (١٩٤٥) فملحقاً أول في مفوضيـة أنقرة (١٩٤٦) فمفوضية كابل (١٩٤٨). ونقل سكـرتيراً ثالثاً في طهران أيضـاً (١٩٤٩) فسكرتيراً ثـانياً في مفوضيـة روما (١٩٥٤). وأعيـد الى ديوان وزارة الخارجية سنة ١٩٥٧ مـديراً عاماً للشعبة الشرقية. عين بعـد ثورة ١٤ تموز وكيلاً لوزارة الخارجية فسفيراً في بكين (١٩٦٠)، ولما سقط حكم عبد الكريم قاسم فصل من منصبه في نيسان ١٩٦٣.

مضى الى المغـرب وانصرف الى الدراسـات اللغويـة. وعاد الى بغـداد بعد نحـو ٢٠ سنة، وتوفي بها في كانون الثاني ١٩٩٣.

أصدر مجمـوعات قصصيـة: مجنونـان (١٩٣٩) فرح ومـا أشبه (١٩٤٠) حـائرون (١٩٥٨) طـواغيت (١٩٥٨). وله أيضـاً: ثورة الخيـام (١٩٥٢) ٤ نساء و٣ ضفـادع (مسرحية، ١٩٦٨) مغامرات لغوية (١٩٦٨) الخ.

الدكتور أكرم فـاضـل

أكرم فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنـة ١٩١٨ ودرس في مدرسة الصناعة، وعين معلم مدرسة ابتدائية في بعض القرى. ثم مضى الى بغداد ودرس في كلية الحقوق. وقد أولع منذ حداثتـه بالأدب الفرنسي المترجم واللغة الفرنسية فـدرسها على نفسه. وأوفد في بعثة دراسية الى باريس فدرس الحقوق في جامعتها وحصل على درجة الدكتوراه.

كان حيناً مـا كاتباً في محاكم الموصل. وعيّن أخيراً مديراً للفنون والثقـافة الشعبية في وزارة الإعلام في العهد الجمهوري فقضى في منصبه أعـواماً طويلة، وأشرف على إصدار مجلة «بغداد» بالفرنسية.

أدركته الوفاة ببغداد سنة ١٩٨٧ .

أصدر مجموعة شعر بعنوان «الكوميـديا البشرية» (١٩٤٨) . وله كتب منها : مأساة الشعب الجزائري (١٩٦٠) . وقد اشترك في ترجمة رواية «الآباء والبنون» لإيفان تورغنيف (١٩٥٠) ، كما ترجم الى العربية : يا لحياة المنفى من مهنة شاقة للشاعر التركي اليساري ناظم حكمت (١٩٥٩) ، اللقيطة للسيدة لوسيت توفيق (١٩٦١) الحياة في العراق منذ قـرن ١٨١٤ ـ ١٩١٤ للسفيـر الفـرنسي بيير دي فوصيل (١٩٦٨) أسطـورة الشعب المختـار (١٩٦٩) ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عنـد العـرب للمستشرق الهولنـدي رينهـارت دوزي (١٩٧١) . وله أيضـاً : تعليقـات على لهجة بغـداد العـربية للـويس ماسّنيتّون (١٩٦٢) .

أكرم فاضل شاعر خفيف الروح إنسانيّ النـزعة يرى العالم كله مهزلة ، فجعل عنوان مجمـوعته «الكـوميديـا البشرية» . لكن هـذه «الكـوميديـا» في الحقيقة تخفي في طيـاتها «دراما» بل مأساة . وأبطال شعره البخيل والغـانية والضحية والراقصة والحلاق والفلاح والحمّال والشحاذ والفنـانة البائسـة ، فضلاً عن دون جـوان الجاري وراء الحبّ ومحاكمة الهررة والحظوظ بين المعدمين والمتخمين ومهزلة الغرام ودموع البائسين .

خاطب القارىء في مقدمة شعره :

أيها القـــارىء ، هـــذا ديـــدني	فـارضَ أو لا تـرضَ ، فـالأمـر سـواء
وإذا مـــا هجـت أحسنت الى	شـاعـر يهوى هيـاج السخفـاء
وإذا لم تستســـغ لفظـــي ولم	تتقبّل فكـــرتي دون عنـــاء
فـاطـرح «الـديـوان» واعلـم ، يـا أخي ،	أنني لا أستضيـف الثقـــلاء . . .

كان شاعرنا رقيق القلب يحنو على البـائسين ويتألم للمتألمين أشخاصاً وأمماً . وبلغ به الحال أنه كاتب مجلـة فرنسية تختصّ بالغجر البوهيميين . وقـد نظمتُ قصيدة في الغجر فطلب منّي ترجمتها الى الفرنسية وأرسل بها الى تلك المجلة لنشرها .

قال ذنّون أيـوب في مقدمة «الكوميـديا البشرية» مقدمـاً صديقه الناظـم إنه «شاب صغير السنّ ، رقيق المزاج ، تضيق نفسـه ويضيق عقله وحسّـه بكل مـا في الوجـود من قيـود ، فينطلق على سجيّته بعض الأحيـان ثائراً متجـاهلاً كل عـرف وتقليد ، ثم ينتبـه فجأة كما ينتبه المرء من حلم فيدرك أنـه قد اشتطّ في سلوكه ، فينكص على عقبيـه خائفاً خائباً تعباً . . . » ثم قال : «إني أعتقد أن أكـرم من أولئك الذين لا يتقصدون أن يكونوا شعراء ، ولكنهم يجدون أنفسهم شعراء ، فيندفعون مع الشعر محاولين أن يثبّتوا لهم قدماً فيه ويقطعوا شوطاً في مضماره» .

وقال إن شعـره ليس من النوع الذي يـرتفع الى السماء السابعـة ليشرف على العالم من عليائه ويعطي نتائج قطعية جازمـة في الأخلاق والسلوك ومصير البشرية وعلل العالم ،

بل يزحف على الأرض محتكاً بالمخلوقات الزاحفة مثله من حيوان وانسان، فيتبادل معها العواطف والإحساس بل والآراء أيضاً! فما أكثر ما نراه في شعره «مشاهداً» في محكمة عقدت لعقاب القطط أو محامياً عن شحاذ أو متآخياً مع كلب. . . وهو بذلك صوفيّ بطبعه، لكن شطحاته مع المخلوق لا مع الخالق.

محمّد علي اليعقوبي

الشيخ محمد علي بن الشيخ يعقوب الحاج جعفر النجفي، الشاعر الخطيب، ولد في النجف في ٢٩ شباط ١٨٩٦، وكان والده الشيخ يعقوب شاعراً (١٨٥٤ ـ ١٩١١)، ولد في النجف وتوفي في الحلة. وقد حقق ابنه ديوانه ونشره سنة ١٩٦٢.

وانتقل والده الى الحلة سنة ١٨٨٣ إثر نزاع وقع بينه وبين إخوته على وقف لهم في النجف، وكان لهذا الاغتراب أثر عميق في نفس الشاعر الشيخ فقال:

تغرّبت عن أرض الغريّ، فلم تكن ... تقرّ عيوني أو تطيب حياتي
حبست ركابي عندها اليوم بعدما ... أذبت عليها النفس بالزفرات
مواطن آبائي بها وأحبّتي، ... وفيها مغاني أسرتي وسراتي
فمن تربها أصلي ومبدأ نشأتي، ... وأرجو بها مثواي بعد وفاتي

ونشأ الفتى محمد علي في الفيحاء وأخذ عن والده مبادىء علوم العربية والدين، حتى إذا ما أدركته الوفاة سنة ١٩١١، انقطع فتانا الى السيد محمد القزويني الذي أحسن تربيته وتهذيبه. ثم خرج الى قرية جناجة على ضفة الهندية اليسرى واتصل بمحمّد حسن أبي المحاسن وأفاد منه فوائد جزيلة في الشعر والأدب. ولما نشبت الحرب العامة التحق بالمجاهدين في الشعيبة تحت لواء السيد محمد سعيد الحبوبي (١٩١٥). وعاد اليعقوبي الى النجف سنة ١٩١٧ بعدتنكيل الأتراك بقيادة عاكف بك الأرناؤوطي بأهل الحلة، واشتهر خطيباً من خطباء المنبر الحسيني وداعية من دعاة الإصلاح الديني. وظلّ يتنقل بين الحيرة والكوفة حتى استقرّ في النجف، وتولى رئاسة جمعية الرابطة الأدبية فيها في كانون الأول ١٩٣٦. وتوفي بالنجف في ١٧ تشرين الأول ١٩٦٥.

كان الشيخ محمد علي اليعقوبي شاعراً مجيداً عرف بقصائده الوطنية التي أشادت

بذكر العرب من الريف والجزائر الى العراق وفلسطين، وله ديوان خاص بمأساة فلسطين. وكان الى ذلك عالماً بتاريخ الأدب، اشتهرت خزانته بما ضمته من كنوز أدبية مجهولة تصدّى لنشر بعضها في أعوامه الأخيرة.

شعره وأدبه:

نشر ديوان الشيخ محمد علي اليعقوبي سنة ١٩٥٧، ومن آثاره الأخرى «البابليات»، وهي مجموعة أدبية تاريخية في ثلاثة أجزاء (١٩٥١ ـ ١٩٥٥). وله «المقصورة العليّة» (في سيرة الإمام علي ١٩٢٦) «وعنوان المصائب» (في مقتل الإمام علي ١٩٢٩) والذخائر (في مدح آل البيت ١٩٥٠) وجهاد المغرب العربي» (شعر، ١٩٦٠).

وقد حقق ونشر دواوين كثيرة، منها: الجعفريات (شعر جعفر القزويني، ١٩٥٠)، ديوان الشيخ عبد الحسين شكر (١٩٥٥)، ديوان الشيخ عبّاس الملا علي (١٩٥٥)، ديوان أبيه الشيخ يعقوب (١٩٦٢)، ديوان الشيخ محمد حسن أبي المحاسن (١٩٦٤)، ديوان الشيخ صالح الكواز (١٩٦٥)، ديوان الحاج حسن القيّم (١٩٦٥) الخ. وترك في خزانته دواوين شعرية أخرى لم يهيّأ له طبعها، منها: ديوان الشيخ مير رشيد الهندي، وديوان سبط ابن التعاويذي، وديوان صادق الفحام، وديوان الشيخ علي الناصر.

وعرف اليعقوبي بارتجال الشعر وسرعة البديهة وحدة الذاكرة والظرف والفكاهة المشوبين بالحشمة والوقار.

ويتّسم شعر اليعقوبي بنزعة إنسانية، فقد نشأ بين الشعب وعاش في أنديتهم وشارك في سرّائهم وضرّائهم، فلا عجب أن رثى لحال فقيرهم ومريضهم وجاهلهم. وممّا قاله في ألم الفقر ووطأة المرض:

يا شعب، ما أكثر هذا العنا ... من هاهنا طوراً ومن هاهنا
قد علقت فيك، ولا منقذ، ... مخالب الفقر وناب الضّنا
خطب عظيم الوقع، لكنه ... يراه من لم يعنه هيّنا
ألمّ كالضيف ثقيلاً، أما ... آن لهذا الضيف أن يظعنا؟
في مدن الشعب وأريافه ... ما شطّ منها نائياً أو دنا
ما أكثر الشاكين، لو أنهم ... تمكنوا أن يطلقوا الألسنا
من يَرَ أهليك وما نابهم ... لم يَرَ إلا منظراً محزنا

وكم لـــذي الفقـــر بجنح الـــدجى — من لـــوعـــة مـــا ذاقهـــا ذو الغنى
مستعـــــذبـــــاً مـن دون آلامـــــه — ورد المنــــايـــــا، وهــي أقصى المُنَى
يكتم مـــا فيـــه لفـــرط الإبـــا، — والبـــؤس يبـــدي سرّه معلنـــا . . .
يـــا مـــوطنـــاً كنّـــا سعـــدنـــا بـــه — دهـــراً فـأضحى للشقـــا مـــوطنـــا،
حملـت أعبــــاء الخطـــــوب التي — تكـــاد منهـــا الهضب أن تـــوهنـــا
تئـنّ من سقـم ومـن فـــاقـــةٍ، — هـل غـــايـــة الحالين إلا الفنـــا؟

ومن شعره في رثاء يوسف رجيب :

مـــا مـــرّ ذكـــر أولي المكـــارم والـــوفـــا — ألاّ وكنت لـــذكـــرهم عنـــوانـــا
أولسـت في الأحــــــداث أربـط منهُـمُ — جأشـــاً وأثبت في الخطـوب جَنَـــانـــا؟
لـك نفس حــــرّ للعلى وثـــــابـــة — تستصغـــر الأهـــوال والحدثـــانـــا
كم مـــوطـن قـــد كنت أشجـع واقف — فيـــه وكـــان ســواك عنـــه جبـــانـــا
لا قستُ فيـك معـــاشراً لم يعـــرفـــوا — للفضل مقيـــاســـاً ولا ميـــزانـــا
العـــابـــدين هيـــاكـــلاً منصـــوبـــة — كـــالجاهليـــة تعبـــد الأوثـــانـــا
جهلـــوا مبـــادئك التي مـــا شـــابهـا — دنس، فكنـت أجلّ منهـم شـــانـــا
كم محنـــة في الشعـب غضّـــوا دونها — طـرفـــاً وكنت السّـــاهـــر اليقظـــانـــا
فمضـــوا وسلطتهم مضـت في إثـــرهم — وبقيـت أنفـــذ منهمُ سلطـــانـــا
وتـــركت دنيـــا لم تـــدع من وفـــرهـــا — إلاّ الثنـــا والمجـــد والإحســـانـــا

وقال في رثاء سعد زغلول :

يـــا مصر، مـــا لصبـــاح شعبك حـــائل؟ — غـــربت ذُكـــاك وبـــدر سعـــدك آفل
يـــا مصر، مـــا نـــزلت بِجاك كهـــذه — طخيـــاء جـــاء بها القضـــاء النـــازل
عصفـت على مصر فهالـت دهشـــة — هضب الشـــآم لها ومـــاجت بـــابل
مـــا خـصّ هـــذا الـــرزء شعبـك وحـــده — لكنـــه لشعـــوب يعـــرب شـــامل . . .
فجعـت بنـــــوك بمنقـــذٍ ومحرر — وأب يكـــافـح دونها وينـــاضـل
ذهـب المؤمّـل والـــزعيم المرتجى — فـــاستيأس الـــراجي وخـــاب الآمل

حتى يقول :

يـــا قطـب دائرة السيـــاســـة كلها — طـــاش الحليم بها وحـــار العـــاقل
مـــا قمت عـن مصر تجادل وحـــدهـــا — بـل عـن جميـع الشرق قمـت تجادل . . .

إن تمضِ فـالشرف الـذي خلّـدتـه　　بـاقٍ وذكـرك في حيـاتك كـافل
أو يخلُ منك بمصر أكـرم منـزل　　فلك الخواطـر والقلـوب منـازل
ولأن طُـويتَ فقـد نشرت صحـائفاً　　عنـوانهن منـاقب وفضـائل
خلّفت بعـدك أمـة أيقظتهـا　　للعـزّ، ليس بها نـؤوم كـاسل
نهضت بأعبـاء نهضت بها ومـا　　وهنت لها عن حملهنّ كـواهل
مـا مـات من بقيت بأنـديـة العلى　　تثني عليـه أواخـر وأوائل

***

ومن لطيف شعر اليعقوبي:

من عـادة النّاس لـلأصنـام تعبـدهـا،　　من حطّـة النـفس لا مـن رفعـة الصّنم

ولا أنسى سفـرة لطيفـة الى النجف وربوع الفـرات قمنـا بها في شتـاء ١٩٥٠ برفقـة الصديقين أحمد حامد الصّراف ومصطفى جواد، ثم صحبنا الشيخ محمد علي اليعقوبي الى كـربلاء. كـان الطريق وعـراً غير معبّـد، كثير الغبار تثيره عجـلات السيّارة فيمـلأ الخياشيم ويعلق بالـوجوه والثياب، لكننا قضيناه نستمع الى لطائف اليعقـوبي وبدائعه الشعرية والنثرية، حتى بلغنا مدينـة الحسين ولم نكد نصدّق أننا قطعنا تلك المرحلة ولم نشعر بمزعجـاتها. ولعلّها كانت المرة الوحيـدة التي رضي فيها الصّراف أن يفسح لغيره مجال الكلام فلا يحتكره ويستأثر به على جاري عادته.

إشتهر محمد علي اليعقوبي خطيباً من خطباء المجالس الحسينية، وكان يقيم في بداءة أمره في بلـدة الحيرة المعروفـة باسم «الجعـارة». ثـم علت شهرته وانتقـل الى النجف سنة ١٩٢٩ أو بعيـدها وصـار ينافس أبـرز خطبـاء ذلك العهد وهـو السيد صـالح الحلّي. وتطرق جعفـر الخليلي في الجزء الثاني مـن كتابه «هكـذا عرفتهـم» الى ذكر المنـافسة بين الخطيب المخضرم والخطيب الناشىء، فقـال إن نجم السيد صالح بدأ بـالأفول، وبدأ نجم اليعقوبي بالصعود، على الـرغم مما كان يوجهه الحلي اليه من نقـد وتنديد وصراحةً وكنايـة. فقد كان السيـد صالح ـ كما قـال الخليلي ـ سليط اللسـان جريئاً يخشـاه أجرأ العلماء. وكان اليعقوبي مسالماً عفّ اللسان بعيداً عـن اللمز والغمز، ولذلك لم تبد منه ولا كلمة شائنة في حق السيد صالح وإنما كان يظهر عليـه باطلاعه الواسع ووقوفه التام على التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب: فقد كان اليعقـوبي موهوباً، وكانت له ملكات طبيعية ممتـازة نمّاها وصقلها أبـوه الشيخ يعقوب الـذي كان هو الآخـر من خطباء المنبر الحسيني البارعين.

وقال الخليلي إن اليعقوبي عرف بسعة الاطـلاع والعلم والظرف والأدب وصوغ النكتة وسرعة الخاطر، كما عرف بارتجال الشعر وصناعة التاريخ المنظوم. ويزخر شعره بالبديع من الجناس والتورية والأمثال والتضمين يرسله عفو الخاطر بلا تكلف ولا تعقيد. ومن

طرائفه أنه هجا شاعراً تنقَّص المتنبي فقال :

يـا هـاجيـاً ربّ القـوافي «أحمـداً» بلـواذع مـن قولـه وقـوارص
حسبـي وحسبـك في جوابـك قولـه : «وإذا أتتك مـذمّتي من نـاقص»!

ابراهيم أدهم الزهاوي

الشاعر إبراهيم أدهم بن الحاج صالح بن المفتي محمد فيضي الزهاوي، ولد في بغداد في ٣٠ كانون الأول ١٩٠٣، ودرس في مدارسها الابتدائية ثم حضر دروس عبد المحسن آل بكتاش وقاسم القيسي وأمجد الزهاوي. وانتمى الى جامعة آل البيت وتخرّج فيها سنة ١٩٣٠. وقرض الشعر صبياً، فبرّز فيه تبريزاً حتى لقد أمل عمه جميل صدقي الزهاوي أن يكون خليفته.

كان عنيفاً في وطنيته وتدّينه، غريباً في أطواره، متقلّب النوازع والأهواء، فحفلت حياته بالمآسي والمناقضات والآلام. وقد اشترك مع عبد الستار القراغولي في طبع ديوان صديقهما نعمان ثابت عبد اللطيف باسم «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابه «الجندية في الدولة العباسية» (١٩٣٩). ووظف كاتباً في وزارة الشؤون الاجتماعية (كانون الثاني ١٩٤٠) فلم يطق قيد الوظيفة طويلاً وتوفي ببغداد في ١٥ آب ١٩٦٢.

ألّف كتاب «إبطال اللانهاية في الفلسفة» (١٩٤٧). وجمع شعره عبد الله الجبوري وطبعه في القاهرة بعنوان «اللهفات» (١٩٦٩).

شعره :

له شعر وطني واجتماعي متين، شديد اللهجة.

فمن شعره الوطني :

لنـا مثلها للغـاصبين سـواعـد فما بـالنـا عـن مجدنـا لا نجـالـد؟
وأيّ حيـاة هـذه فنلـذّهـا لأيسر منهـا يشتهي الموت خـالـد
وإنّـا لفي عصر تيقّـظ أهلـه فـأدرك معنـى العيـش حتـى الخرائد
فـلا تطمعنّ الغـرب فينـا فنـونـه فما هـي إلا رغبـة وعـوائد
لنـا أصلهـا النـامي، وهل من عجيبـة إذا انتقلت منـه إلينـا الـزوائد؟
فنحن الألى لـولا نتـاج عقـولنـا لما كـانت الـدنيـا على مـا نشـاهـد
لئن قـابلـونـا بـالإسـاءة والأذى فما عـرفـت غير العضـاض الأسـاود

جزى الله عنّا الحادثات فإنها ... تقارب ما بين الورى وتباعد
فيثبت ودّ بين شعبين خالص ... ويمحق ودّ بين شعبين فاسد
فلا يرتجوا من بعد هذا ودادنا ... لقد خابت الآمال والترك شاهد
خرجنا عليها وهي منّا قريبة ... إن اختلف الأصلان فالدين واحد
فهل وضعت أغلالها عن رقابنا ... لتخلفها أغلالهم والمقاود؟
فأين ادّعاءات لهم يدّعونها : ... أتلك ثعابين وهذي قلائد؟

ومنه :

يا بني العرب، والحروب سجال، ... والليالي بمن تحطّ تقوم
وحدوا وحدوا الصفوف ولا تستـ ... ـصعبوا السهل فهو خلق ذميم
لا تميّزكم الديار ولكن ... لغة الضاد والنّجار الكريم
فهي لولا تخاذل السائسيها ... لم يفرّق ما بينها التقسيم

وقال :

أنا الداعي الى أمجاد قومي ... أذكّرهم عهود الأوّلينا
وأدفع عنهم طعن الأعادي ... فأترك شلو طاعنهم طعينا
أعدّد منهمُ بيض الأيادي ... على أهل البسيطة أجمعينا
فكل يد لهم جحدت سنان ... تراه بقلب جاحدها مكينا

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر:

هي الأعمار أثواب تعار ... وأوقات تزور ولا تزار
وأيام تديم النحس حتى ... تساوى الليل فيها والنهار
تغير خطوبها في الناس تترى ... وما غير النفوس لها مغار

حتى يقول :

كذا الدنيا شؤون الدهر فيها ... شؤون في مجاريها بحارُ
لحاها الله لم تترك عليها ... مكاناً يجتبى فيه الجوار
فملك العجم مغبّر النواحي ... وملك العرب أنذره البوار
فلا أمر الجزيرة مستقرّ ... ولا قطر العراق له خيار
ولا حكم الجزيرة في بنيها ... ولا في الشام للأحرار دار
فقد أمسوا حيارى في ديار ... شعار القاطنين بها الصّغار

تنيلهم إذا طلبوا العوالي   وتخبرهم إذا سألوا الشّفار
وتلك دماؤهم نادت نزاراً   فما لبّت لها الدعوى نزار
ووادي النيل لم يفتأ مضيّاً   يهدّده إذا وثب الدمار
وفارقه الزعيم فزاد كرباً   على كرب وتمّ له الخسار
سرت بنعيّه الأنباء حتى   أذاعتها المفاوز والبحار
فضّج لها بقاع الشرق حتى   خشينا أن تشبّ بهنّ نار
وقيل: دم الحقوق، حقوق مصر،   أُميرَ وسعدها ذاك المهار
ولو غير الزمان رماه نالت   مناها من حشاشته الشفار
ولكن دهره أخنى عليه   فلم يؤخذ لها فيهنّ ثار. . .

وكان سيء الظن بالناس، يراهم يميلون الى الشرّ، يحفلون بالغنيّ ويظلمون الفقير والضعيف، لا يخضعون إلا للقوة القاهرة ولا يتمسّكون إلا بأهداب الغيّ، ويسعون الى المنافع ويغترّون بالمطامع. فإذا جادوا بالمال أو طلبوا العلم قصدوا التباهي والتعالي والتفاخر. وهم يثيرون الحرب تارة باسم الدين وطوراً بحجة نشر العلوم والفنون وإحياء المكرمات وجمع الشتات:

محال، وإن خيل في الممكنات،   ركون الأنام الى الصالحات
خلا نفراً شذّ في طبعه   فكاد يعدّ من المعجزات
وقد يخرج الحيّ من ميّت   وقد يخرج الميت من ذي الحياة
فرفقاً بنفسك أن تستغرّ   بماء يساق لأرض موات
فما الناس مزرعة للصلاح   ولا معدن الفضل والطيّبات

***

كتب إبراهيم أدهم الزهاوي في سنة ١٩٣٦ كلمة خطية موجزة يترجم فيها لنفسه بضمير الغائب، قال منها:

«إبتدأ ينظم الشعر وعمره ١٧ أو ١٨ سنة، ولو قرأ العربية قبل ذلك لنظم الشعر قبل هذه السنّ. وهو شديد النقد لشعره، لا يثبت منه إلا ما جزل لفظه وحسن معناه. وينظم في كل زمان ومكان، وأكثر ما ينظم في المقاهي، ولا يبالي بما يكون حوله من الضجيج، لأنه لا يحسّ به أثناء النظم لاستغراقه فيه. وهو لا يكتب شيئاً مما ينظم حتى تتمّ القصيدة، فيكتبها حينئذٍ بنفسه أو يمليها على أحد معارفه. وأحب الشعراء إليه من المتقدمين أبو الطيب المتنبيّ، ومن المتأخرين أحمد شوقي، ولا يقدم على المتنبيّ شاعراً، ويحفظ كثيراً من شعره، ويعتبره أستاذه. وفي ذلك يقول من قصيدة طويلة

ترجم فيها المتنبيّ :

أنت علّمتني نظــام القــوافي أنـت أعليت في البــلاغــة كعبي

لم يحل بيننـــا التراب، وأنّــى للثـــرى أن يغيب بـــالمتنبيّ

وهو شديد الـولع بمطالعة الكتب القديمة والحديثة، ولا تكـاد تراه إلا ومعه كتاب يطالعه، ويرى في ذلك سعادته. وهو لا يحب الظهور ولا يسعى له، لأن حب الظهور عنده ريـاء، والرياء من أقبح خـلائق الإنسان وآلامها، لأنـه غشّ، ومن غشّنا فليس منّا. وقد حرق شعره مرة وصمّم على ترك نظم الشعر، فلم يلبث طويلاً حتى عاد إليه، لأن الشاعـر غير مختار في نظم الشعر، ولـو ظنّ أنه مختار بحسب الظـاهر، بل ليس في الكون كله حركة اختيارية إذا أمعنت النظر ولم تنخدع بالظواهر. والنثر عنده أفضل من الشعر، لأنه الأساس الذي قام عليه رقيّ البشر، والله لم يخلق الإنسان إلا للرقيّ، وليس في استطاعـة الشعر أن يقوم مقامـه، بل متى تورّط في ذلك خرج عن أن يكـون شعراً. ويرى أن النثـر العربي قد بلغ في هـذا العصر شأواً بعيداً من الجودة لم يبلغـه الشعر، إلا فيما خلّده شوقي من الآيات البيّنات. ولا يرى في ذلك عيباً على اللغة ولا قصوراً منها، لأن الشاعـر من مواهـب الطبيعة تهبه متـى تشاء، وقـد تشحّ الطبيعة بـالشاعر النـابغ وتتمادى في شحّها أجيالاً كثيرة وعصوراً متطاولة».

قال حسين الظريفي :

«. . . . والمرحوم إبراهيم أدهم الزهاوي كـان معجباً، بل كلفاً، بشعر المتنبّي، فتراه متأبّطاً ديوانه في كل آنائه، وإني لأعجب كيف لم يحفظه مع طول قراءته له، كما كنت قد حفظته في صيف العام قبل الماضي وكما حفظه أخوه عبد الرزّاق الزهاوي.

«إن بين المتنبّي والزهـاوي أكثر من شبه واحـد، وقد انعكست هذه المشابـه في شعر الـرجلين. وهي مشابـه موروثـة لا يـد فيها لأيّ منهما. وإن وقـائع الحياة التي يمـرّ بها الإنسان تتـولّى ما انتقل إليـه إرثاً مـن الآباء والأجداد بـالصقل آناً وبـالطمس آنـاً آخر، بحسب مـا تكون عليـه تلك الـوقائع من تفـاعل مع المواريث تفـاعـلاً موجبـاً أو غير موجب.

«وأول هذه المشـابه تلك الشخصية القويـة التي يتأثر بها القارىء تأثـراً يصل به الى عمق الانفعال، فتراه مأخـوذاً ببريق ما يقرأه وكأنه يركض بـه في فهم المعنى الطافي على وجه ألفـاظه فهماً مبهـراً، ومن ثمّ يكون مـؤثراً، حتى إذا تكرّرت النظـرة ظهر لـه في ما يمكن أن يحمل عليه من مأخذ. . . ».

وأضاف حسين الظـريفي أن المتنبّي سلك في شعره كلـه طريق الغـوص على المعاني أولاً، ثم إيجاد القوالب الشكليـة لها بعد ذلك، مستجيبـاً فيما قدم وأخّـر الى نداء الطبع فيـه. وكذلك فعل إبـراهيم أدهم الزهـاوي، فإنّ المعنى الطافي على وجـه شعره يكـاد

يخطف البصر. ولكن متى انتهت الهزّة الأولى وأعـاد القـارىء أو السـامع مع النظـر في البيت إعادة الناقد الهادىء، تبيّن له أن وراء ما عليه من طلاء ظاهر باهر شيئاً يستوقف النظر. . . (جريدة التآخي، في ٩/ ٣/ ١٩٧١).

وكتب عبد القـادر البراك عن إبراهيم أدهم الـزهاوي فقال: «إن الـزهاوي الصغير كان مـن الكتاب المقتـدرين وقد تجلّت قـدرته الكتـابية وأحـاطته بالعـديد مـن العلوم العقليـة والنقلية في الفصـول التي ردّ بها على آراء عمه الشـاعر المتفلسف المرحـوم جميل صدقي الـزهاوي في الفلسفة والفلك والكون وغير ذلـك مما تضمّنه كتابـه «المجمل مما أرى». . . كما سبق لـه أن نشر مقالات في الـدفـاع عن الشعـر العمودي يـوم انطلقت الدعـوات الى الشعر المرسل والشعـر المطلق والشعر الحر في مطلع القـرن الحالي، فكان بحق أول المدافعين عن عـروض الخليل والـذابّين عن اتهامـه بعـدم وفـائه بـالتعبير عمّا استجدّ من أغـراض الشعر الحديث. هذا إضافـة الى المقالات العديـدة التي ناقش بها فيلسوف الفريكة أمين الريحاني حول ما تضمنّه كتابه «قلب العراق»، والمقالات الأخرى في الملل والنحل والمعتقدات والتـي يعتبر كتابه «إبطـال اللانهايـة» المطبوع في القـاهرة في أواخر الأربعينات من أهم نماذجها».

هذا وقد جمع عبد الله الجبـوري ديوان شعر إبراهيم أدهم الزهـاوي وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٩ مع دراسته بقلم الدكتور شوقي ضيف.

عبّاس الخليلي

الشـاعر الأديب العـراقي المغترب في إيـران عباس بن أسـد بن المولى علي بن الخليل الطبيب الطهراني الأصل، المتوفى سنة ١٨٦٤ في النجف.

قدم الخليل الـذي تنتسب إليه الأسرة الى العراق في نحو سنـة ١٨٠٠ ومارس الطب وعمّر زهـاء مائة سنـة. واشتهر ابنه المولى علي (١٨١١ ــ ١٨٨٠) عالماً زاهـداً بلغ رتبة عـاليـة في الاجتهـاد وألف خـزائن الأحكـام وسبيل الهدايـة وغيرهـا من كتب الفقـه والأصول. واشتهر أيضاً الشيخ حسين الخليلي الذي انتهت إليه الزعامة الدينية بعد وفاة السيد حسن الشيرازي، وتوفي سنة ١٩٠٨ عن نحو تسعين عاماً.

ولد عباس الخليلي في النجف سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها، وقرض الشعر وهو شاب يـافع. وقد اشترك في ثـورة النجف الأولى على الاحتلال البريطـاني سنة ١٩١٨ ـ وهي الثـورة التي قام بها الحاج نجم البقـال ــ فحكم عليه بـالاعـدام، ولكنه استطـاع الهروب والاختفاء في الآبار حتى بلغ إيران آمنـاً. وأقام عباس الخليلي في طهران، وأصدر فيهـا جريـدة «إقدام» الفـارسيـة اليوميـة، فظهرت أكثـر من عشرين عـاماً حتى سنـة ١٩٤٨. وأبعـد عن البلاد الإيـرانية سنـة ١٩٣١، فجـاء الى بغداد وأقـام فيها بضعـة

أشهر، ثم سمح له بالعودة الى طهران .

وقد وظف في دائرة بلدية طهران ، ثم كان وكيلاً لدائرة القوانين في وزارة العدلية فرئيساً لها . وعمل في وزارتي الداخلية والخارجية ، ثم عيّن في سنة ١٩٤٨ سفيراً لإيران في الحبشة واليمن ، وكان بعد ذلك عضواً في لجنة مصايد أسماك بحر قزوين .

قال حين فرّ من العراق :

رويداً، رجال الإنكليز ورأفة ... إن اليوم أسرفتم فإنّ لنا غدا . . .

ثم التفت الى أبناء وطنه يحييهم قائلاً :

يحيّيكم، أهل العراق، على النوى ... فتى في سبيل المجد أمسى مشرّدا
تحية عانٍ كلما هبّت الصّبا ... ينوح كما ناح الحمام مغرّدا
إنِ اليوم أطلقت اللسان بحبكم ... فبالأمس عنكم قد سللت المهنّدا

وهو كاتب باللغتين العربية والفارسية وشاعر عربي نشرت قصائده مجلة المقتطف والهلال والعرفان الخ .

ومن شعره بعنوان «الرائد» :

أبثّك ما بي من جوى يقلق الصمّا ... يجيش إذا ما رائد الأمل احتمى
وأخشى على نفس بجنبك حرّة ... إذا بحثت أن لا تحمل البثّ والهمّا
جوى كلما أخفيته عنك يلتوي ... على القلب صلاً أرقماً ينفث السمّا
رعى الله قلباً قلّبته يد الهوى ... على الجمر إن سار الظلام رعى النجما
تحيّر بين الحبّ والمجد تائهاً ... فمن جانب عفواً ومن جانب رغما

وقال حين عاد الى العراق سنة ١٩٣١ :

قبّلت منك بعيني الأرض لا بفمي ... وجفّ دمعي فرواك الحشا بدمي
عفّرت بالترب وجهي إذ سجدت ضحى ... فناب للسعي رأسي فيك عن قدمي
وكاد ينطق طرفي بالسّلام على ... أرض العراق فهذي أدمعي كَلِمي
ما الدمع واللفظ إلا لؤلؤ رطب ... خلطت منتثراً منه بمنتظم
رضعت فيك لبان المجد من صغر ... فلست حتى الردى عنه بمنفطم . . .

توفي في طهران في ١٠ شباط ١٩٧٢ .

وضع مؤلفات عديدة ونقل الى اللغة الفارسية تاريخ ابن الأثير وكتاب «ضحى الإسلام» لأحمد أمين الخ . وترجم الى العربية ١٧ ألف بيت من شاهنامة الفردوسي . ومن مصنفاته : إيران بعد الإسلام ، إيران والإسلام ، الخ .

وكانت آخر قصائده «اللوح» نظمها قبيل وفاته، قال في مطلعها:

مـــا على الصبح لـــو أزال الإزارا | فمحـــا الليل ثم خـط النهـــارا
بمـــداد من عسجـــد ويـــراع | من شعـــاع الشمس استمـــدّ النّضـــارا
وبسفـــــر زمـــــرّدي وكـفّ | مـــن لجين تنمّـق الأسفـــــارا
هـي كفّ الفجـــرالتي لاح فيهـــا | رمـــز خطّ تمحـــو بـه الأسحـــارا...

قال من قصيدة نظمها بعد فراره الى إيران سنة ١٩١٨:

أمـــا وغمام يشبـــه الظلم أســـودا | ورعـــد حكى قصف المدافع بـالصّـــدى
وبـــرق يـــرينـا ومضـــه الحقّ خـــافقـــاً، | فسرعـــان مـــا يخفى عن الطـــرف إن بـــدا
وغيث همى هطـــلاً يـــذكّـــرني الـــوغى | يمثّل رشـــاشـــاتها تمطـــر الـــردى
وأفق على فقـــد السيـــاســـة صـــدقهـــا | جـــداداً بمســـودّ من الفشـل ارتـــدى
وعـــاصف ريـح مـــرّ كـــالموعـــد الـــذي | لنـــا ضرب «السكـون» نـــاهيك مـوعـــدا
وليل هـــو الحكـم الحديـــديّ حـــالك | قضـى لي قهـــراً أن أبيـت مسهّـــدا
يمينـــاً، ولم يقسم فتـى قبل بـــالـــذي | وصفـت ولكنّـي حلفـتُ تعمّـــــدا
لقـــد صبغـت منّـــا الـــدّمـــا كـلّ بقعـــة | زهت فبـــدت غنّـــاء في أعين العِـــدَى

عبد الكريم العلّاف

الشـاعـر الأديب، نـاظم الأغـاني الشعبيـة، عبـد الكـريم بن مصطفى بن سلمان العلاف العزّاوي، كان أبوه مصطفى العلّاف ينظم الشعر وله تواريخ منظومة بحساب الجُمَّل. ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٤ ودرس على الشيخ عبد الـوهاب النـائب. ومال الى الأدب ونظم الشعـر منذ فجـر شبابـه، فقـال أولى قصائده في مـدح أستاذه النـائب، ومطلعها:

رعـــى الله صبـاً عنـــّفـــته عـــواذلـــه | وشطّت بـــه نحـــو البعـــاد منـازلـــه

وكـان من شعـراء الثـورة العـراقيـة سنـة ١٩٢٠، ألقى قصـائد حماسيـة في جـامع الحيدرخـانة والاجتماعات الـوطنية. ثم فـرّ الى مضارب عشيرته العـزّة وسجن في دلتاوة (الخالص).

وعيّن سنة ١٩٢٦ كاتباً في دائرة المال بقضاء الكاظمية، ثم عمل أعمالاً مختلفة وتولى تحرير مجلة الفنون الأسبوعية (شباط ١٩٣٤).

وقد نظم أشعاراً رائقة لحّنت وغنّيت. من تآليفه: بغداد القديمة (١٩٦٠) الطرب عند العرب (١٩٤٥) الموال البغدادي (١٩٦٣)، نيل المرام في قاموس الأنغام، الأغاني والمغنيات (١٩٣٣) أيام بغداد (١٩٦٩) قيان بغداد (١٩٦٩) مجموعة الأغاني والمغنيات (٢٤ حلقة ١٩٣٥ ـ ١٩٤٦) موجز الأغاني العراقية (١٩٣٠)، قطف الأثمار في الأشعار والأخبار.

من شعره في رثاء شيخه النائب:

تــرحل صــاحب الفضل العميم	وخلّف في القلــوب لظى الجحيم
مضى عنّــا وكــان العيش غضــاً	بجــانب ذلك الفــذّ الــرحيم
ومــادت راسيــات الأرض حــزنــاً	عليــه وقــد هــوت زهــر النجــوم
وقــد فــاضت عليــه كـلّ عين	ولم تنجُ القلــوب من الكلــوم

حتى يقول:

لقــد عفـت الحيــاة، ونحـن فيهــا	نكــابــد لــوعــة العيش الــذميم
وحقّك مــا الحيــاة حيــاة عــزّ	تطيب لكـل شيطــان رجيم
خيــار القــوم تلقــاهـم نيــامــاً	على مضض كأصحــاب الــرقيم
فكيف يطيب عيش في بــلاد	يــدلّ بها الكــريم على اللئيم؟...

وقد اشتدّت به الفاقة في أيامه الأخيرة وهدّ جسمه المرض، فاضطرّ أن يمتهن كتابة العرائض في دائرة طابو بغداد سداً لرمقه. ثم عيّن مشرفاً أدبياً لفحص الأغاني بمصلحة المسرح والسينما.

وتوفي العلاف في بغداد في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٩.

كان العلاف شاعراً عاطفياً، سئل عن رأيه في الشعر الحرّ فقال: «ليس هناك شعر حرّ، فالشعر يلتزم بالقافية والوزن. وهو كما هو معروف ينمّ عن العاطفة والوجدان. وإذا تحرّر الشعر من القافية والوزن فقد أهم ميزاته ولا تكفي العاطفة وحدها لتسميته بالشعر. فنحن نقول أحياناً كلاماً عاطفياً جميلاً بكلمات منمّقة رشيقة، لكنها بعيدة من أن توصف بالشعر».

نظم العلاف مئات الأغاني الشعبية التي انطلقت من حناجر مغنيات فترة ما بين الحربين فهزت النفوس وترددت على الألسنة، وأشهرها: يا نبعة الريحان، خدّري الشاي خدّري، قلبك صخر جلمود الخ. ويصحّ مقايسة العلاف بأحمد رامي شاعر الشباب المصري لولا الفارق الفنّي الجسيم بين مصر والعراق في تلك الآونة.

وقد أعجب العلاف بالملا عثمان الموصلي فسار على نهجه في أغانيه الشعبية.

قال عبد الكريم العلاف من قصيدة له «هيا الى الحرب» في ثورة ١٩٢٠ :

أيـن أهل الحفـــاظ، أهـل الحميّـــة | أين أحفـــاد قـــادة القـــادسيّـــة
أيـن أبنـــاء يعـــرب ونـــزار | أين تلـك الشهـــامـــة العـــربيّـــة
يـــا أســـود العـــراق، أنتم حماه | من قـــديـم الـــزمـــان بين البريّـــة
لكم في الـــوغى مـــواقـف حـــرب | هي كـــالشمس في النهـــار جليّـــة
وثبـــات في الحادثـــات وعـــزم | ونفـــــوس عن الهوان أبيّـــــة
كلما الحرب جـــاش فيهـــا عبـــاب | خضتـم كلّكـم عبـــاب المنيّـــة
كيف تغضـــون عن إغـــاثـــة شعب | مستجيراً يأبـى قبـــول «الـــوصيّـــة»
كيف تـــرضـــون، يـــا أبـــاة، وفيكم | رامـت الحكـم دولـــــة أجنبيّـــــة
حكمت في البـــلاد ظلماً وقـــالـت: | إن هـــذي حكـــومـــة وطنيّـــة
آل قـــومي، هيّـــا الى الحرب هيّـــا، | إنّ فيهـــا حيـــاتنـــا الأبـــديّـــة
وامـــلأوا مسمـع العـــداة دويّـــاً | كـــدويّ الـــرعـــود وقت العشيّـــة
إنّ عين الإلـــــه تـــرعـى حماكـم | وتنير المسعـى بكـل قضيّـــــــة

القصص الشعري :

نظم عبد الكريم العلاّف قصصاً شعرياً على منوال معروف الرصافي في «أمّ اليتيم» و «المطلّقة» و «اليتيم في العيـد»، وخيري الهنداوي في قصيدتـه «زينب وخالـد» أو «فتاة بغداد وفتاها»، وكاظم الدجيلي في «بوليس بغداد». رسم العلاف في قصيدته «الوحش الكاسر» صورة من صور بغداد في عهـد الاحتلال البريطاني، ولم ينس في مطلع قصيدته أن يصف حالته النفسية فيقول :

أرقتُ، وضـــوء البـــدر في الليـل يسطع | ونجم الـــدجى سهـــران والنـــاس هُجَّعُ
تحيـط بي الأرزاء مـن كـل جـــانـب | وقلبي على مـــا حلّ فيـــه مـــوجّع
كـأنّي في دنيـــا الهمـــوم أراكـــة | يميـل بها عـــاتي النسيم فتركـع
وصرت أنـــاجـي الفكـــر في حـــال أمتّي | وأحسـب أشتـــاق الأمـــور وأجمع
وطـــرفي على أطـــلال بغـــداد مـــرسل | سحـــائب دمع مـن جفـــوني تنبع

على موطن قد كان بالأمس آهلاً   وأصبح هذا اليوم والدار بلقع
سمعت به صوتاً على البعد راعني   وأيّ فؤاد بالأسى لا يروّع؟
نشيج له في ظلمة الليل رنّة   كأنّ به سيفاً لقلبي يقطع

قام من فراشه وسار يتحرّى مصدر البكاء، فجاء الى دار خيّم عليها الحزن والكآبة. ووجد فيها امرأة حسناء تبكي بحرقة، وقد أحاط بها فتيات أربع، وفي حضنها طفل ألمّ به الطوى . . . تقرّب منها يستطلع حالها:

تقرّبت منها، وهي تخشى تقرّبي،   أودّ على أحوالها أتطلّع
وقلت لها: من أنتِ؟ بالله خبّري،   لقد ساءني منك النشيج المرجّع
فقالت: أنا سعدى فقدت سعادتي   ويا ليت لي تلك السعادة ترجع
بكيت على حظي، على ما أصابني،   على بدر عزّ غاب هيهات يطلع

بكت سعدى على قرينها الذي كان ملازماً عسكرياً، دعاه داعي الحرب فودّع زوجه وأطفاله، ومضى يؤدي واجبه في ساحة الوغى، ومات شهيداً يناضل عن قومه ووطنه، مخلفاً أسرته بين فكّي الحزن والمذلّة والفاقة.

وقد دخل الأعداء بغداد عنوة   وصار لهم فيها نفوذ ومطمع
وجاروا علينا واستبدّوا بحكمهم   وخانوا عهود الإتفاق وضيّعوا
وبالأمس منهم واحد حلّ دارنا   يهيم كوحش بالفريسة يطمع
و مال على إحدى البنات بقسوة   فجاذبها بالرغم والبنت تدفع
ولما رأيت الغدر يبدو بوجهه   وقد أوشك الملعون للبنت يصرع
صرخت بصوت من فؤاد مروّع: الينا، الينا أيها الناس أسرعوا
أنادي فلا ألقى مجيباً سوى الصدى   ولا واحد وافى الى الخطب يدفع
وقاومت ذاك العلج في عزم حرّة   فباء بخسران الى حيث يهرع

وأسفت المرأة على ضياع النخوة وصبر القوم على الأذى وانغماسهم في الملاهي والملاذّ وتقويضهم صروح العلم لينشئوا المسارح والمراقص. ولا يبخل الشاعر عليها بالتسلية والعزاء، آملاً أن تكون الحال التي ذكرتها سحابة صيف عن قريب تقشّع، فيرتفع في البلاد علم العرب الميامين، وتزدهر الأوطان وتخضرّ المزارع والمرابع، ليعيش الناس في عزّ ونعمة.

من شعره في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ :

شعب العراق:

لـك الخير، لا راعت حِماك الأجـــــانـب ولا بلغـت للخصـم فيـك مــــــآرب
أبـى الله إلاّ أن تعيش مــــــؤيّـــــداً بـــرغم العـــدى، والله لا شك غـــالب

وقال:

نهضتم، بني قــومـي، الى عــزّكم نَهْضَـا وقـــوّضتمُ صرح التخـــالف والبغضـــا
نهضتم إلى استقـــلال شعبكـم الـــذي يكـــاد عليـــه من يـــد الجور أن يُقْضَى
طلبتم حقــوق الشعـب، والشعب قـائم على قـــدم يبغي التقـــدّم لا الفـــوضى

عبد الحسين الحلّي

الشاعر العـالم الأديب الشيخ عبد الحسين بن القاسم بن صـالح الحلّي ولد في الحلة سنة ١٨٨٣ ودرس في معاهـد النجف وتصدّى للتدريس بها واشترك في الحركـة الوطنية في النجف سنة ١٩١٨ ـ ٢٠، ثم عيّن قاضيـاً للبحرين، قال في ذلك جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم»:

«لا أدري كيف رضيت (النجف) لنفسها أن تراه يغـادرها الى البحرين بصفة رئيس للتمييز الشرعي دون أن تحرّك النجف ساكناً؟ وهي تعلـم ـ أي النجف ـ أن الشيخ عبد الحسين قد أفنى زهرة عمره في سبيل عزتها العلمية وشهرتها الأدبية . . . وإني لأذهب الى أن موقف أهل بغداد مع عبـد الوهاب المالكي في القرن الـرابع، الذي حمله ضيق ذات اليـد على السفـر الى مصر والذي اجتمع حـولـه العلماء والفضـلاء ليحولـوا بينـه وبين الهجرة، فقـال أنه لو وجـد من يدفع لـه كيلاً من الباقـلاء في اليوم لعـدل عن الهجرة، فبكى الجميع ولكن لم يظهـر أحد استعداده لسدّ هذه الخلّـة، أقول: إنني لأذهب الى القول بأن مـوقف بغداد في القـرن الرابع (الهجري) مع عبـد الوهـاب ـ على نبوّه ــ كان ألطف بكثير من موقف النجف مع الشيخ عبد الحسين في القرن العشرين.

وقد أمضـى في قضاء البحريـن نحواً من عشرين سنـة وتوفي بها سنـة ١٩٥٥ . وقد قال:

تطلعـــــت مـــــن المربـــــأ الى العــــــود الى المبــــــدأ
وسرّحـت بــــه طـــــرفـــــاً حـــــديــــد الطـــرف لا يخسأ
وفكـــــراً لم يـــــزل يخطـــــو ولكـــــن قلّما يخطـــــأ . . .

نظم شعراً كثيراً نشر بعضه في مجلة الهاتف النجفيّة وسجل نماذج منه علي الخاقاني في

الجزء الخامس من «شعراء الغريّ». وألّف الحلي كتباً منها: نصرة المظلوم، النقد النزيه لرسالة التنزيه (١٩٢٩) مسائل فقهية (١٩٦٤) حياة الشريف الرضيّ (١٩٦٨) الخ.

***

روى جعفر الخليلي أن عبد الحسين الحلّي رشّح قاضياً شرعياً، لكن زعم أنه أخفق في الامتحان وعيّن بدلاً منه الشيخ مهدي سميسم. وزار هذا الأخير الشيخ جواد الشبيبي في أثناء ذلك، فقال الشبيبي وهو لا يدري أن سميسم قد حلّ محلّ الحلي: حسناً فعلت الحكومة، فإني لا أجد برهاناً أكبر على غباوتها وتحيّزها من رفض تعيين رجل فاضل كالشيخ عبد الحسين وترشيح حمار لا يدري أي طرفيه أطول ليحلّ محلّه...

فامتقع وجه مهدي سميسم وظهر عليه الاضطراب والخجل وقال: أؤكد لكم أنني رفضت قبول القضاء لولا إلحاح وزارة العدلية وإصرارها.

قال عبد الحسين الحلي يحيّي النجف:

حيّ أوطـــــاني اذا سعـــــدت	بـــالتحـــايـــا الغـــرّ أوطـــان
وأصيحـــــابـــــاً عهـــــدتهُمُ	وهـــم في الله إخـــــــــــوان
لهم في كـل مكـــــــرمـــــــة	أثـــــــر بـــــالفضـل مـــــلآن
كيـف يخفـى فضلهـم، ولـــــــه	بينهـم مـن لطفـــــه شـــــان؟

جعفر نقدي

الشيخ جعفر محمّد تقي نقدي القاضي الشاعر الأديب، وهو جعفر بن محمّد بن عبد الله النقدي من أسرة تنتمي الى ربيعة، ولد في العمارة سنة ١٨٨٥، ودرس الفقه والعلوم العربية والدينية. وقد عيّن قاضياً للعمارة في حزيران ١٩١٩، وكان عضواً في مجلس التمييز الشرعي الجعفري، ثم تولّى القضاء الشرعي في كربلاء (كانون الأول ١٩٣١)، وعيّن بعد ذلك قاضياً في البصرة (حزيران ١٩٤٥)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٤٧.

توفي سنة ١٩٥١.

نشر علي الخاقاني جانباً من شعره في الجزء الثاني من «شعراء الغريّ». ووضع جعفر نقدي مؤلفات كثيرة، أهمها: الإسلام والمرأة (١٩٣٠) الحجاب والسفور (١٩٣٠) أباة الضيم في الإسلام، تنزيه الإسلام (١٩٤١) الدروس الأخلاقية (١٩٣٨)، ذخائر العقبى، زهرة الأدباء (١٩٣٨)، زينب الكبرى (١٩٤٧) ضبط التاريخ بالأحرف (١٩٤٧) نزهة المحبّين في فضائل أمير المؤمنين (١٩٥٠) وسيلة النجاة في شرح الباقيات

الصالحات لعبد الباقي العمري، الأنوار العلوية (١٩٥٨) تاريخ الإمامين الكاظمين (١٩٥٠) غزوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (١٩٦١) فاطمة بنت الحسين (١٩٦٤)... وحقق ونشر كتاب تدابير المنازل أو السياسات الأهلية للرئيس ابن سينا (١٩٢٩).

قال جعفر الخليلي: والشيخ جعفر نقدي عالم فقيه كان لفتاواه في أحكام القضاء حين كان يشغل القضاء الشرعي أثر كبير في التيسير. وكان من كبار العلماء في تاريخ الأدب العربي، وهو بعد ذلك من الشعراء المعروفين في عصره.

كان لجعفر نقدي مطارحات شعرية مع محمد مهدي الجواهري الذي خاطبه بقصيدة مطلعها:

مرّ النسيم بريّاكم فأحيانا ... فهل كذكراكمُ في القلب ذكرانا؟

فأجابه جعفر نقدي:

لو كان يألف قلب الصبّ سلوانا ... ما بات يصلى بأيدي الشوق نيرانا
أو لم يكن ذاب وجداً في محبّتكم ... لما تعذّب بالأشجان ألوانا
حمّلتموه هموماً لو تجشّمها ... ثهلان دكت على الغبراء ثهلانا
مقدّمات على دعواه أنتجها ... قياسها مدمع الأجفان برهانا
إنسان عيني جرى دمعاً فأغرقني ... وربّما أغرق الإنسان إنسانا...

وقال الجواهري:

أنا مذ همت فيكم كان دأبي ... إنّ ما تشتهوه يحمله قلبي

فأجاب نقدي:

يا أخلاّي في الحمى، أي وربّي ... أنتمُ في الحياة منية قلبي
بهواكم أنست لا بسواكم ... ولكم في الوداد أخلصت حبّي...

وقال الجواهري:

الله يصحب بالسلام مودّعي ... عجلاً وإن أخنى عليّ بعاده

فأجاب نقدي:

أحبابنا، بعض العتاب لواجد ... شوقاً للقياكم يحنّ فؤاده
مهما تشبّب في الغريّ فأنتمُ، ... يا ساكني أرض الغريّ، مراده

قاسم الشعّار

القاضي الفقيه الشاعر الشيخ قاسم الشعّار، ولد في الموصل سنة ١٨٨٧ . وكان أبوه الشيخ محمّد ضياء الدين الشعار القادري الخاتمي عالماً شاعراً ناثراً، ألف كتاب «السعادة» المطبوع في استانبول سنة ١٨٩١ ، وتوفي في تموز ١٩١٢ .

درس قاسم الشعار على أبيه وغيره من علماء الموصل وتصدّى للتدريس سنة ١٩١٠ . وعيّن قاضياً في المحاكم الشرعية في شباط ١٩١٩ ، وأصبح قاضياً في يعقوبا (أيلول ١٩٢٥) والموصل في كانون الثاني ١٩٣١ ، فكركوك فالموصل ثانية (آب ١٩٣٧) فالبصرة (أيار ١٩٤٢) فكركوك (شباط ١٩٤٦)، فالموصل أيضاً حتى اعتزل الخدمة في كانون الأول ١٩٤٩ .

توفيّ في ٨ شباط ١٩٥٥ . وكان شاعراً عالماً، وضع تصانيف في الأصول والفرائض والفقه والتصوّف .

محمّد رضا الخطيب

الشاعر محمد رضا الخطيب الذي اشتهر بقصيدته في هجاء الطبيب، ولد في بلدة طويريج المعروفة بالهندية على الفرات سنة ١٨٩٣ ، وهو محمد رضا بن هاشم الموسوي، واتصل بآل القزويني فتأدّب عليهم، ونظم الشعر فأجاد فيه وأحسن .

كتب عنه عبد القادر البرّاك الذي عرفه حقّ المعرفة فقال: « . . . فرأيت أن أردّ بهذه الكلمة المحضة الى الأذهان صورة ذلك الشيخ الذي كان يضطرب في الحياة، فلا يشعر بوجوده أحد لإيثاره الدعة ولطول الكبت الذي أقعد همه عن كل طائلة يكسب من ورائها الراحة والاطمئنان . . . » .

وكان الخطيب برماً بمحيطه الضيّق، فكان يزور بغداد بين الحين والحين فيلتقي بأدبائها ويحضر ندواتها . وقد حظي بتقدير الزهاوي الذي قال فيه الخطيب :

تنتاب نفسي النائبات فتلتوي ... لكن بقربك تستعيد جمالها

وخاطب محمد رضا الخطيب معروفاً الرصافي بقصيدة قال منها :

لك في القريض مواقف مشهودة ... في الشرق هزّ الغرب صوت دويّها
وسياسة كفكفت من غلوائها ... وجعلت علياها على سفليّها
وكأنني بك قد رفضت بأن ترى ... متربعاً يوماً على كرسيّها
ولو أنها قد أنصفتك لأصبحت ... ولك التصدّر في رفيع نديّها

فأجابه الرصافي قائلاً :

إني لأشكـر من محمـد الـرّضـا ... شعـراً ذكـرت بـه زمـانـاً قـد مضى
شعـراً غـدوت على جـريـر فـاخـراً ... فيـه، ورحـت عن الفـرزدق معـرضـا
قـد دبجّتـه يـراعـة لمحمـدٍ ... أخـذت تقيم مـن القـريض مُقَـوَّضَـا
هـي في التفنّـن ريشـة لمصـوّر ... ولـدى القـراع هـي الحسـام المُنْتَضَى
لـو كـان في كفّ الـرضيّ نظيرهـا ... حسـد الـرضيَّ بها أخـوه المرتضى . . .

وقد توفي محمد رضا الخطيب في مسقط رأسه في ٩ شباط ١٩٤٦ . ونشرت نماذج من شعره في «بـابليات» محمد علي اليعقوبي (١٩٥٥). وألف: «الخبر والعيان في أحوال الأفاضل والأعيان» (في مجلدين).

هجاء الطبيب

فكّـر لنفسك، أيها الـدكتـور، ... إن كـان ينفـع قـاسيـاً تفكير
أصبحت تحكم بـالنفـوس فمـوتها ... وحيـاتها أبـداً عليك يـدور
يمسي الفقير يئنّ مـن آلامـه ... ليـلاً وليلـك ضـاحـك مسرور
لا أنـت تـرحمه وليس يجيبـه ... مـال سـوى كفّ إليك تشير
متـوسّـداً حسـك القتـاد ومـالـه ... منـه فـراشـك سنـدس وحـريـر
بـدمـائه أبـواب قصرك صبّغت ... وعلى الجماجـم أُسِّسَـتْ لـك دور
كـم بـائس هـدمت بظلم داره ... كيما تشيّـد للطبيب قصـور
بـك يستجير ولا يجار فعنـد مـن ... يشكـو إذا كـان المجير يجور
أمقطّـراً مـاء الشراب وكـان من ... عبرات ذاك البـائس التقطير . . .
تـالله إن شهـادة طبيـة ... صـدرت بحقك كلهـا تـزويـر . . .
قلـب الغنـيّ تعيره سمّاعـة ... وتصـمّ أذنـك إن أتـاك فقير
وإذا دعـاك أخـو الثـراء لـداره ... تسعـى كأنـك خـادم مأجـور
وإذا جفـا أكـل الشعير حماره ... وعـراه مـن أكـل الشعير شخير
أصبحت بيطـاراً لـه ومضمّـداً ... وحـداك نحـو عـلاجـه التـدبير
والبـائسـون إذا أتـوك فحظّهم ... مـن لطفـك الإزراء والتحقير . . .
وأخـوك عـزرائيل أنـت وكيلـه ... فينـا وصهـرك منكـر ونكير . . .
أمقصّر العمـر الطـويل، وسعيـه ... عنـد الحكـومـة صـالح مشكـور
بـاغُ المحـاكم للبريء ينـالـه ... عسفـاً وأمـا عنك فهـو قصير

وسلمت من وخـــز الضمير لأنـــه مـن أيـن للـــــرجـل الخؤون ضمير؟

وهي طويلة اكتفينـا منها بالأبيات المتقدمة. ومن الطريـف أن الشاعر جعفر الحلّي ابتلي بطبيب نجفي اسمه صادق فقال يهجوه:

في كـلّ شيء صـــادق صـــادق إلاّ إذا جـــاء اليـــه العليـل
يقـــول: هـــذا داؤه قـــاتـل ويـــوجب الإفطـــار لا عن دليـل
ليس لـــه في الطب شيء ســـوى نسبتـــه للشيخ مـــرزا خليـل

والمرزا خليل طبيب نجفي شهير طهرانيّ الأصل.

عبد الوهاب الصافي

الشاعر القاضي عبد الوهـاب الصافي ابن عم الشاعر أحمد الصافي النجفي، ينتمي الى الأسرة النجفية المعروفـة، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٩٩ ودرس في معـاهدها. وكلّف في أثناء ثورة العشرين بالإشراف على الأسرى الإنكليـز والهنود في الجعارة والنجف تحت إمرة عبد المحسن شلاش (آب ١٩٢٠).

كان أحـد مؤسسي جمعيـة الرابطـة سنة ١٩٣٢ وتولّى رئاستهـا. ثم انتمى الى سلك القضاء (٢٨ كانون الأول ١٩٣٦)، فعيّن قاضياً شرعياً للبصرة (أيار ١٩٣٨) فالناصرية (١٩٤١) فالنجـف (آذار ١٩٤٢) فالبصرة ثـانية (كـانون الثـاني ١٩٤٣) فبغداد (آب ١٩٤٤) فالعمارة (أيار ١٩٤٥) فالنجف (حزيران ١٩٤٧).

واعتزل القضـاء سنة ١٩٥٠، وخوّل ممـارسة المحامـاة. ثم وظّف في مديريـة ميناء البصرة حيث قضى عدة سنين.

وهو شـاعر أديب، يحسن اللغة الفـارسية وقد تـرجم عنها روائع من شعر شعـرائها نظماً.

أخبرني عبـد الـوهاب الصـافي أنـه اعتـزل القضاء قبل أن يكمل المدة التي تـؤهلـه لاستحقاق راتب التقاعـد، فتشبّث للعودة الى الخدمة الحكوميـة، وعيّن موظفاً في إدارة ميناء البصرة على عهد وزير المواصـلات والأشغال عبد الوهاب مرجـان. ولم يعهد إليه بعملٍ ما، بل أعطي كرسياً ومكتباً في غرفة واحدة مع موظف مرهق بالأعمال يشتغل ليلاً ونهاراً لإنجاز مهامّه. فقال الصافي له: لا يصحّ أن نجلس في غرفة واحدة، أنت تعمل كثيراً وأنـا عـاطل لا أدري كيف أقضي سـاعـات الـدوام. فأعطني جـزءاً من عملك لأساعـدك على قدر إمكـاني. فأجابـه: وهل تعرف اللغـة الإنكليزيـة أو تعلم أوليّات شؤون الملاحة الفنية؟ إذا كنت تعرف شيئاً من ذلك فهلّم ساعدني.

ومضى الصافي إلى رئيس الدائرة وقال له: أعطني عملاً أستطيع القيام به، فلا يصحّ أن أقبض راتباً ولا أنجز عملاً. وبعد لأي عهد إلى الشاعر الصافي بمديرية زراعة الميناء، وكلّف بالإشراف على تنظيم الحدائق والبساتين، فصار يعمل ليل نهار ولا ينجز مهام وظيفته. فقال: ألا يوجد شيء وسط؟ فإما أن تبقى عاطلاً وإما أن تشتغل آناء الليل وأطراف النهار؟

وعيّن اللواء مزهر الشاوي الجندي الشاعر بعد ثورة تموز ١٩٥٨ مديراً عاماً للميناء، فأصبح عبد الوهاب الصافي، على ما حدّثني به، سكرتيراً شعرياً له ينظر في منظوماته.

توفي عبد الوهاب الصافي في بغداد شيخاً هرماً سنة ١٩٨٩.

الشيخ محمد حسن حيدر

محمد حسن حيدر ابن الشيخ باقر بن علي بن محمد علي حيدر من أسرة معروفة في سوق الشيوخ بالمنتفق ومن رؤساء قبائل الأجود. ولد في سوق الشيوخ سنة ١٨٨٨، وكان أبوه من رجال الدين جاهد في الشعيبة في بداية الحرب العظمى، ثم مرض ونقل الى بلده حيث توفي سنة ١٩١٥.

درس محمد حسن العلوم العربية والدينية وحاز على مكانة روحية وأدبية، ونظم شعراً نشر أغلبه في مجلة العرفان وجريدة دجلة والهاتف والغريّ ومجلة الاعتدال. واشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩٢٠. فلما استولت العشائر على بلدة سوق الشيوخ في إبّان الثورة (آب ١٩٢٠) عهد إليه بإدارتها.

إنتخب نائباً عن المنتفق في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) لكنه استقال. وانتخب بعد ذلك نائباً عن المنتفق في مجلس النواب سنة ١٩٢٨ ـ ٣٠و١٩٣٣ ـ ٣٤و١٩٣٤ ـ ٣٥، فنائباً عن العمارة ١٩٣٥ ـ ٣٦، فنائباً عن المنتفق أيضاً في شباط ١٩٣٧و١٩٣٧ ـ ٣٩و١٩٣٩ ـ ٤٣ و١٩٤٣ ـ ٤٤. وانتخب نائباً ثانياً لرئيس مجلس النواب في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٠.

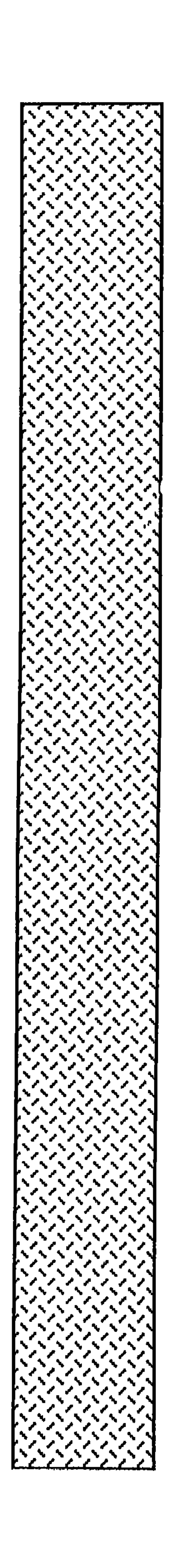
عارض المعاهدة العراقية البريطانية في المجلس التأسيسي عند المذاكرة فيها (١٩٢٤). وقال: إن إعطاء زمام البلاد للأجنبي خيانة، والخيانة خسران الدين والشرف والعيش الحرّ. واضطر بصفته نائب رئيس مجلس النواب في عهد حركة رشيد عالي الكيلاني (نيسان ١٩٤١) الى دعوة المجلس للانعقاد واختيار الشريف شرف وصياً على العرش في محلّ الأمير عبد الإله. فلما قضي على الحركة وعاد الأمير الى بغداد لوحق الشيخ محمد حسن وأهين، فاعتذر بأنه كان مرغماً في فعلته غير مخيّر. وبقي منكسر النفس مكسوف الخاطر حتى أدركه الموت في بغداد في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٤.

له مـراسلات شعريـة إخوانية مع إبـراهيم الواعظ والملاعبود الكـرخي والشيخ عبد الغني الخضري وغيرهم. ونشر شعـراً كثيراً في جـريـدة دجلة الصـادرة في بغـداد سنـة ١٩٢١ ـ ٢٢، منه:

هي أمّـــة العـــرب التي نهضت، وقــد رفعت بنهضتهـــا منـــار جـــلالها
نهضت بعبء المكـرمـــات فأحـــرزت عليـــاءهـــا بجـــلادهـــا وجـــدالها
حتى أشـــادت وحـــدة عـــربيـــة في أســـد غـــابتهـــا وفي أشبـــالها
نهضت فنـــالـت دولـــة عـــربيـــة قـــوميـــة قـــد شيّـــدت بـــرجـــالها
نهجت بمنهـــاج الفخـــار فخلّـــدت عـــــزاً لها يبقـى الى أجيـــــالها
مـــا كـــان لـــولا الإتفـــاق تنـــال مـــا رامت بمبـــدأ أمـــرهـــا ومـــآلها
مـــا كـــان لـــولا الإتحاد بسعيهـــا تحظى بســـؤددهـــا وبـــاستقـــلالها
سل أمّـــة الفـــرس الأُلى والـــروم في ذي قـــار مـــا فعلتـــه في أقيـــالها
سل عـن معـــاليهـــا المواضي والقنـــا والخيل يـــوم الحرب عنـــد نـــزالها
بخصـــالها يـــزهـــو الـــزمـــان سنـــاً غـــداً يـــزهـــو الـــزمـــان سنـــاً غـــداً بخصـــالها
بنـــوالها عمّت بني الـــدّنيـــا نـــدى، عمّت بني الـــدنيـــا نـــدىً بنـــوالها
يـــا شرق، تِـــهْ فخـــراً فأنـت مـــؤيّـــد ومعـــــزّز لا زلـت في أبطـــــالها...

وله أيضاً:

أقـــــرارٌ ولا أرى لي قـــــراراً بمحيط فيـــه الخمـــول استـــدارا...
كـم أنـــادي ولا حيـــاة لمن قـــد غـــار في منهـج الخمـــول وســـارا
فـإلى مَ الخمـــول بـــاق، وهـــذي أهل بغـــداد قـــد تســـامت فخـــارا؟
نهجـــت منهـــج الكمال الى أن تخذت أنجـــــم السّماء سمارا...



الشعر العامّي

الملاّ عبّود الكرخي

الشاعر الشعبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في فترة ما بين الحربين، عبود بن الحاج حسين السهيل الكرخي، ينتسب الى فرقة البوطيف من عشيرة البوسلطان الزبيدية، ولد في بغداد في ٢٢ حزيران ١٨٦٩، ودرس في الكتاتيب وحلقات الدرس في مساجد بغداد والكاظمية. ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره انضمّ الى والده الذي كان يتاجر بالإبل والجلود ورافقه في سفراته بطريق القوافل الى إيران والشام والحجاز ومصر والأقطار التركية[1].

واستقرّ في بغداد بعد وفاة والده سنة ١٨٩٦، وتعاطى أعمالاً مختلفة من متاجرة ونقل وأنشأ سنة ١٩٠٨ شركة مع آل عارف آغا لنقل المسافرين بين أمهات المدن العراقية. ثم أصبح متعهداً للبعثة الألمانية التي قامت بمدّ خط السكة الحديد الى سامّراء سنة ١٩١١ وألمّ بشيء من اللغة الألمانية، علاوة على ما كان يعرفه من التركية والفارسية والكردية.

ولما أعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤، رافق الحملة التركية الى إيران ترجماناً ومجهزاً للمواد الغذائية والمواشي والخيول. وأسره الروس في بعض المعارك، لكنه استطاع الفرار والعودة الى صفوف الجيش التركي. وسمع بأخبار الثورة التي أعلنها الشريف حسين في مكة سنة ١٩١٦، فترك القوات العثمانية ولجأ الى بعض القرى والأرياف حتى آذنت الحرب بالانتهاء.

عمل بعد ذلك في الزراعة فلم يؤاته النجاح، وعاد الى بغداد. واندلعت نار الثورة سنة ١٩٢٠، فأخذ ينشد قصائده الوطنية في جامع الحيدرخانة. وطبقت شهرته الآفاق، وتسابقت الجرائد الى نشر شعره العامي الذي لقي من الجمهور إقبالاً. ثم أنشأ

(١) ذكر عبود الكرخي في ترجمة له كتبها سنة ١٩٣٥ انه ولد في ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ويوافق ذلك الثلاثاء ٢٢ حزيران ١٨٦٩. أما في ديوانه فذكر تاريخ ميلاده سنة ١٨٦١. وذكر فائق بطي تاريخ ميلاد الكرخي في كتابه «أعلام في صحافة العراق» ١٩ حزيران ١٨٦١.

جريدة «الكـرخ» في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٧، فكانت من الصحف الشعبيّـة الرائجة. وعطلتهـا الحكومـة فاعتـاض عنها بجـريدة «صـدى الكرخ» (١٧ نيسـان ١٩٢٨) و «صدى التعاون» (٢ نيسان ١٩٣١) و «الكرخي» (٢ تموز ١٩٣٢) و «الملاّ» (٣٠ أيلول ١٩٣٣) و «المزمار» (٤ حـزيران ١٩٣٤). وعادت الكرخ الى الظهـور خلال تلك المدة وبعدها، فقضى في الصحافة نحواً من خمسة عشر عاماً (الى سنة ١٩٤٢).

وأسس مطبعة سنة ١٩٣٣، ونشر في تلك السنة الجزء الأول من ديوانه. ثم نشر بعد وفـاتـه جـزآن من شعـره (١٩٥٥ ـ ٥٦) ونشر الجزء الثـالث سنـة ١٩٦٧، والأدب المكشوف (١٩٦٧) أيضـاً. وساءت صحتـه في سنواته الأخيرة، فلـزم داره حتى قضى نحبه ببغداد في ٩ تشرين الثاني ١٩٤٦.

شعره:

يمثل شعر عبود الكرخي نهجاً خاصاً في الأدب الشعبي العراقي، وقد اتّسم بسّمات المرحلة الانتقـالية التي مـرّ بها العراق خـلال السنين التي عقبت الحرب العظمى الأولى (١٩٢٠ ـ ٤٠). قرض الكرخي الشعر العامي منـذ فجر شبابه، وبرّز فيه تبريزاً، وذاع بعد ذلك على ألسنة الناس وتناقلته الصحف والإذاعة والمجالس الخاصة. وهو يبدع في النقد والهجاء، ولـه في سائر الأغراض كالسيـاسيات والوطنيات والاجتماعيـات والغزل والنسيب صـولات وجولات. وهـو يحسن إستخدام اللغـة العاميـة العراقيـة بمختلف لهجـاتها والقـديم والحديث من عبـاراتها، ويطعّم شعـره بـالقصص والحكم والأمثـال الشعبية، ويرصّعه بالكلمات الفصيحة والكردية والفارسية والتركية والهندية والانكليزية والعبريّة وغيرها ممّا هو مألوف لدى أبناء الشعب.

وكانت للكـرخي مساجلات ومطـارحات شعـرية مع شعراء العـامية في عصره وفي مقدمتهم حسين قسّام.

حظي شعر الكرخي بتقدير شعراء الفصحى وأدبائها، فقال الرصافي:

لله درّك، يـــا عبّــود، من رجـل	يـــا رافعـاً في القــوافي رايــة الــزجلِ
جـريت جـري قـديـر في مـزالقـه،	لم تخش مـن زلـق فيـــه ولا زلـل

وقال الزهاوي:

الشعـر مـا قـالـه الكـرخيّ عبّـود	ففيـه لـلأدب الشعبيّ تجديـد
شعـــر يفيض من القلـب المشعّ لـه	على اللســان، فما إن فيـه تعقيـد . . .
عبـود إن عـدت الأفـذاذ في بلـد	فـأنت في أول الأفـذاذ معـدود
فتحت للشعـر أبـوابـاً، ولا عجب	ففـي يمينك للنظـم المقـاليـد
إذا هجـوت فنيران مـؤججّـة،	وإن شـدوت فـأغـرود وأغـرود

وقال عبد الرحمن البناء :

إن رمت للجمهـــور مـن شـــاعـــر فشـــاعـــر الجمهـــور عبّـــود

وقال محمود الملاح :

من بعـــد عبّـــودِ الكـــرخيّ لا تثقـن بـــالشعـــر يخلب ألبـــاب الجماهير

وشبَّهه بالحطيئة الذي سنّ سنّة الهجاء لما رأى الفضل في الناس منكوراً غير مشكور.

وقال فهمي المدرّس : «جمع أسلوبه بين لغة العوام وما يقارب اللغة الفصحى تدريباً للعوام على الفصيح من القول، وهو أسلوب حديث في الأدب العامي، والأدب العامي في بلاد تتغلب عليها الأميّة لا يقلّ شأناً عن أدب الخواصّ . . . ».

وقال محمد بهجت الأثري : «والشاعر قديـر بلا شك، وهو رافع لواء الشعر العامي في العراق . . . وشعره صورة للمجتمع، فإنّ فيه كثيراً من الحقائق الاجتماعية والسياسية وفّق في تصويرها الى مدىً كبير . »

وقـال رفائيل بطي : « . . . وهـو يكنز في أشعـاره ثروة طـائلة من إحسـاس العامـة وصـور أفكارهـا ونظـراتها الى الحياة، وهـو يمثل عيشـة طبقات الشعب ذات الصبغـة المحلية البحتة . . . »

وقال انستـاس الكرملي يخاطب الكـرخي : «وامتاز شعـرك أيضاً بحفظ لغـة العراق الخاصّة به، بآدابه وأخلاقه وآرائه . . . ».

وقال علي الشرقي : «تفضل عليّ الشاعر الـزجلي الاجتماعي الملا عبود بتقديم نسخة من ديوانه العام . ولما تصفحته وجدتني قد تصفحت العراق كله . نعم، فإنّ بين دفتي ذلك الديـوان عراق الثلث الأول من القرن العشرين، فهـا أنا أتجوّل في شوارعه ونـواديه ومراسحه ومقاهيه، في ريفه وحواضره، أسمع الحوار السياسي والاجتماعي والنقد الأدبي واللـوعة الاقتصـاديـة، والصبر إبتسامـة الأمل، وأسمع أنـّة الألم بلغـة عراقيـة وتمثيل صحيح يقوم به شاعر الجمهور . . . ».

وقـال القـاضي جعفر نقـدي : «إن شعـر الكـرخي يشتمل على أبّهة امـرىء القيس وطرب الأعشى ورغبة زهير واعتذارات النابغة وغضبـة جرير وفخر الفرزدق ومدائح أبي تمّام ومحاسن البحتري ونفسيـة المتنبّي ولطائف كشـاجم وظـرائف ابن الحجّاج وبـدائع بديع الزمان، كلّ ذلك بلغتنا العراقية العاميةالتي يألفها عشاق الأغاني الشعبية . . . ».

وقال عباس العزاوي : «وفي ديوان المترجم ما يعيّن سعة اللغة العامية . . وقد اتفقت كلمة أدبائنا على أن شعره من أفضل الشعر في الأدب العامي، ولم يبخسه أحد حقّه».

والكرخي بعد ذلك ظريف له دعابة حسنة وفكاهة مستملحة . وينقل عنه أنه قال : لم يغلبني أحـد سـوى أعرابيّ لقيتـه في زورق في شط العـرب، وكـان هذا الـزورق يسير

بمحاذاة الشاطىء ويقوم مقام الباص، يأخذ الركاب وينزلهم بين القرى المنبثة على ضفاف النهر. وقد ركبته ذات يوم قاصداً بعض الأنحاء لجمع بدلات اشتراك جريدة الكرخ، فإذا بأعرابي يجلس الى جانبي ويحدثني بأحاديث لقطع الطريق. وسألني الأعرابي: ما اسمك، يا ملاّ؟

ـ ملا عبود.

ـ نعم، ماذا كنّا نقول، يا ملا أحمد؟

ـ إسمي الملا عبود. . . عبود. .

ـ عفواً، عفواً، يا ملا. . .

وناداه الأعرابي في خلال حديثه بكل الأسماء، فتارة ملا حمد وطوراً ملا علي أو جواد، والكرخي يقاطعه قائلاً: إسمي الملا عبود، فيعتذر صاحبنا ويعود الى تسميته باسم آخر في سياق الكلام. وضاق الكرخي ذرعاً بالأعرابي المتغابي، فقبض على ساعده وهزه هزاً عنيفاً وقال: اسمي جرو. . . جرو. . . ألا تعرف ما الجرو؟

وهنا بلغ الأعرابي المكان الذي يقصده وأشار الى صاحب الزورق بالوقوف، فلما خرج الى الشاطىء صاح بملء فيه: «في أمان الله، يا ملاّ جرو!» قال الكرخي: «قاتلك الله، لقد نسيت الملا عبود عشرات المرات، ولم تنس الجرو مرة واحدة!».

حدثني مصطفى علي أن محمد مهدي الجواهري أصدر جريدته «الفرات» سنة ١٩٣٠ وسرعان ما دخل في مهاترات صحفية مع عبود الكرخي صاحب جريدة «الكرخ» ونوري ثابت (جزبوز) الذي كان آنئذٍ موظفاً بوزارة المعارف ويكتب في الوقت نفسه حقلاً هزلياً في جريدة رفائيل بطي «البلاد». وقد هجا الكرخي محمد مهدي الجواهري هجاءً مقذعاً بقصيدة عامية ختمها بأبيات يقرنه فيها بملهى الجواهري (وهو من ملاهي محلة الميدان المعروفة في ذلك العهد)، فلم يكن من الجواهري إلاّ أن أقام عليه الدعوى بتهمة القذف والتشهير.

وكان حاكم جزاء بغداد آنذاك عبد العزيز الخياط، فمثل الكرخي أمامه وقال: إن هذه القصيدة قديمة نظمتها في العهد التركي ولا علاقة لها بالجواهري.

قال الحاكم: وهل كان ملهى الجواهري قائماً في العهد التركي؟

فالتفت الكرخي الى نوري ثابت الواقف وراءه وقال: كيف فاتنا هذا الأمر، يا نوري؟

وقد حكم على الملا عبود بغرامة قدرها ٣٠٠ روبية دفعها عنه ـ على ما قيل ـ عبد الكاظم الشمخاني.

أصبح شعر الملا عبود الكرخي مصدراً من مصادر الفولكلور العراقي واللغة العامية

وصورة المجتمع في النصف الأول من القرن العشرين، وكان في الغالب مجتمعاً راكداً محافظاً على حالته قبل تطوره بدخول الإنكليز وتأليف الحكومة الوطنية. أما العامية فقد تطورت بعد ذلك كثيراً بتأثير الصحافة والإذاعة وانتشار المدارس. وقد استمد الكرخي ثقافته من التراث الشعبي، في حين أن شعراء الفصحى استوحوا أدبهم من التراث العربي الخالد والانفتاح الحديث على الآداب العالمية.

أشيع نبأ وفاة الملا عبود الكرخي في البصرة كذباً فخاطبه معروف الرصافي قائلاً:

أعبود إنك ذو فطنة　　تعيش بها عيش حرّ سعيد
قريحة شعرك فياضة　　لها في الأناشيد مرمى بعيد
أتيت من الشعر بالمضحكات　　وبالمبكيات التي لا تبيد

حتى يقول:

يباهي بك الكرخ أبناءه　　ويثني عليك بها لا مزيد
ولكن حسّاد الخاسرين　　يبيتون منك بغيظ شديد
أشاعوا نعيّك من غيظهم　　يريدون للشعر ما لا يريد
ولما تبيّن بهتانهم لدى الناس　　عادوا بغيظ جديد...

شعر عبّود الكرخي

صوّر الكرخي في شعره حياة الفلاحين والنساء القرويات والمشاكل الاجتماعية، وذكر الأمثال والخرافات العامية. ودعا الى العلم والاستقلال الوطني، حارب السفور مع الحجابيين سنة ١٩٢٤ ــ ٢٥، ورحب بالتجنيد الإجباري، وبكى على نكبة دمشق وفلسطين. نوّه بمتاعب الزراعة وبؤس الفلاح وآلام الصحافة، وانتقد العادات الشعبية المستهجنة ومهازل الانتخابات النيابية وجهل بعض النواب. ونظم شعراً غزلياً على الطريقة القديمة. وله أشعار بذيئة منع نشرها في العراق فطبعت بعد وفاته في بيروت.

المحالات:

قصيدة طويلة نظم فيها الأمور المستحيلة في رأيه. فقال: هل يتزوج وهو الشيخ الفاني بفتاة أم تكون له حورية في الجنّة؟ هل يصعد الى السماء بسلّم وهل يطلب الفرج من المصلوب؟ هل تباع الخيل في سوق الهرج، وهل يحيى الأموات في المقابر؟ هل يجمد النهر في الصيف أم يعود الشيخ الى الشباب؟ هل يأتلف القطّ والفأر أو يتساوى الفحم والماس؟ هل يغلب الحمار الحصان في السباق؟ هل تنشأ السفن من الورق وهل يأكل الأسد التبن والحشيش؟ هل يكون الهندي خطيباً في البدو؟ هل يفترس الحمل الذئب،

وهل يؤكل لحم الكلاب؟ هل يدرس العالم على الأغبياء وهل ينسج البدو القزّ والحرير؟ هل تربط البقّة بالحبل، وهل يسحب النمل السفينة؟ هل يؤسس معمل ورق في الهندية؟هل يكون الصُّلَيبي أعلم من أديسن وهل يكون ماركوني غبياً؟ هل يظهر نبيّ من زرباطية وهل يكون طلاب اكسفورد وحوشاً؟ هل يطيل فورد ذقنه؟ هل يزرع التبغ في الشامية، وهل ينبت جناح للجاموس فيطير؟ هل يصدر الغبار من أمواج البحر، وهل يدخل الفيل في شقّ الإبرة؟ الخ.

حسين قسّام

الشاعر الشعبي الذي نافس عبّود الكرخي فلم ينل شهرته وذيوع صيته، وهوحسين بن عبّود قسّام الخفاجي، ولد في النجف سنة ١٨٩٧، ونشأ في محافلها ومجالسها، وتفتّحت قريحته بوحي المنابر الحسينية. وأولع بالأدب العامي، وهو غضّ العود، ومال الى النظم والظرف والمفاكهة. قست عليه الحياة ومنحته البؤس والحرمان، فلاذ بالسخرية والهزء. نمت في نفسه نزعة الى الدعابة والهزل، فظهر أثر ذلك في شعره كما ظهر في مساخره وحكاياته. وقد زار بغداد مراراً وطوّف في أنحاء الفرات الأوسط، وعرف شعره وانتشر في المحافل الشعبية ومجامع العوامّ، وكانت له مع أقرانه من شعراء اللغة العامية صولات ومساجلات ومفاخرات. وقد توفيّ سنة ١٩٥٨. طبعت مجموعات من شعره، منها: الأفكار المطلسمة (١٩٥٧) سنجاف الكلام (١٩٦٣) قيطان الكلام (١٩٦٣) محراث الكلام (١٩٦٤).

ولعلّ شاعرنا قد أشبه في هزله والقياس مع الفارق الزمني ـ محمد بن دانيال الخزاعي الموصلي المتوفّى بالقاهرة سنة ١٣١٠م، ذلك الشاعر الذي نعت بالأديب الحكيم الخليع وألف «طيف الخيال» وكان صاحب نكت ونوادر ومجون، وقد قال:

قد عقلنا والعقل أيّ وثاق ... وصبرنا والصبر مرّ المذاق
كلّ من كان فاضلاً كان مثلي ... فاضلاً عند قسمة الأرزاق

وقال سعيد الديوه جي أن ابن دانيال تفوّق في فنّ «خيال الظلّ» وكان يضع له القصة وينظم الأصوات ويلحنها ويعيّن الأزياء لها... أما حسين قسام فكان يسخر من السذّج الغرباء ولا سيّما الزوّار الهنود والفرس، ويمثّل في جموعهم مسرحيات يخرجها على قارعة الطريق، ويضفي عليها لبوس الجدّ والصرامة، ويكون في أكثر الأحيان مبدعها ومؤلفها وممثلها الوحيد.

كنّا ذات يوم نزور صديقاً لنا من أصحاب دور السينما، فجاء حسين قسام، ولم نكن نعرفه، فتقمّص دور صاحب دار سينما في بعض الألوية وأخذ يساوم صاحبنا على

شراء أفلام. وظلّ يتكلم في الموضوع كلاماً طويلاً ويجادل ويناقش ويوافق ويعارض، وصديقنا يلاطفه ويداريه ولا يشكّ في حقيقة أمره. ولما كشف أمره أخيراً أحد الحاضرين العارفين له، استذكرنا كلامه فوجدناه سفسطة خالية من المعنى!

ومثّل في يوم آخر دور قرويّ ساذج، فجاء الى دار السينما واشترى بطاقة الدخول، ثم دافع الناس وحاول أن يدخل من شبّاك بيع التذاكر، والناس تضجّ بالضحك ولا تشك أنه جاهل يسير على سجيّته.

ترجمه محمّد هادي الأميني في مجلة التراث الشعبي البغدادية (أيلول ١٩٦٣)، فقال إنه طرق جميع أبواب الشعر الشعبي ونظم فيها، فأبدع في تصوير مشاهد الحياة وآلامها وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها، وأطلق صرخات الأنفس الحرّة التي يعذّبها الظلم ويكويها الألم فلا تخور ولا تستكين. ونظم القصص والحكايات والنوادر والأمثال، وندد عيوب المجتمع، وبرع في فنون الشعر كالموال والميمر والعتاب والأبوذيّة والحزّورات والهوسات . . . وأدخل في نظمه من المصطلحات الشعبية ما هو متداول في أنحاء العراق وسائر الأقطار العربية كلبنان ومصر والمغرب. ومن أمثلة شعره السّاخر وصيّة ريفي معدم لا يملك شروى نقير، فهو يوصي أهله بترك البكاء والتفّجع ويعدّد الأشياء التي خلّفها فإذا هي لا تخرج عن حيوانات هزيلة وخنجر بلا قراب وأثاث محطم ولوازم بيتية عتيقة، ويشدّد على أهله بالعناية بكل تلك الأشياء والمحافظة عليها . . .

ومن شعره الساخر قصائد يحسبها السامع هراء لما حوت من مبالغات وغرائب تفوق حدّ المعقول، ولكنها تظهر لدى التأمّل عميقة المغزى، بعيدة الغور في الهزل القائم على فكرة التناقض والتعجيز والتلميح. فمن ذلك قصيدته التي قالها يواسي صديقاً له سرق اللصوص متاعه القليل، فهو يعده بنصره ومساعدته، ويقول له: إنني لمرسلٌ لك جنوداً من الهنود تكرّ على خيولها في منتصف الليل وعند الظهر، بنادقها من الخشب ورصاصها نارنج، ترجّ البلد رجاً، وقد ساندها جموع العرب والكرد والبربر، رجالهم تمشي على أطراف النخيل وفرسانهم تجول فوق السطوح . . .

***

ذكر جعفر الخليلي حسين قسّام في الجزء الثالث من كتاب «هكذا عرفتهم» عند كلامه على الظرفاء الذين عرفهم، فقال إنه تجاوز الخامسة والستين من عمره فافتقد تلك المقدرة التي كانت تعينه على تمثيل أدوار المساخر المضحكة وضاقت به الدنيا، وأعسر فلم يكن له مورد سوى راتب ضئيل يتقاضاه من دائرة الأوقاف لقاء سدانته لمقام هود وصالح بمقبرة وادي السلام في النجف.

ثم قال إن حسين قسّام نسيج وحده في تمثيل الأدوار الفكاهية والظرف ونسج الأهابيل والنكات ونظم الشعر الهزلي. وهو يجيد تقليد أغلب اللغات ويجيد حكاية اللهجة في أية لغة ولكن بدون معنى. وكثيراً ما يراه الرائي وهو يكلم أحد الهنود أو الترك

أو الإيرانيين أو الإنكليز بلغة لا ينقصها شيء غير المعنى، فيهّزون رؤوسهم أمامه ويضربون عنه صفحاً. وهو يتكلم العربية بهذه الطريقة فلا يدعك تفهم منه شيئاً. وقد يقصد بعض الحكام شاكياً، فينصت لـه الحاكم ويسعى ليفهم شيئاً من كلامه، فلا يفهم إلا النهاية التي يتركها واضحة ليقضي على الشك الذي يبعثه سرعة كلامه وعدم اتزانه. وهو فوق ذلك يحسن تكييف نفسه وقلب سحنته كما يشاء دون أن تبدر منه بادرة تفسر عمله أو تشكك فيه. وقد سيق في أثناء الاحتلال الإنكليزي ليعمل في السخرة ويحمل أكياس الرمل لتقوية سداد النهر. فحمل حسين قسّام أول كيس مكرهاً، فحين عاد مع العائدين، انطوى على نفسه في غفلة من الحرّاس وعوّج إحدى رجليه وصعّد حاجبه الى لأعلى وجعل أعضاءه تهتزّ كمن به رجفة، ومرّ على هذا الوجه بين المراقبين وهم لا يشكّون أنه بعض العاجزين المشلولين المشوّهين. ولم يزل هذا شأنه حتى تجاوز حدود المراقبة فأطلق عند ذلك ساقيه للريح . . .

يذكرنا حسين قسّام المعوز الدائم الذي قلما يجد ما يقيت به أسرته بأبطال المقامات كأبي الفتح الاسكندراني صاحب بديع الزمان الهمذاني وأبي زيد السّروجي صاحب الحريري وميمون بن خزام صاحب الشيخ ناصيف اليازجي، وغيرهم من الذين يحتالون لنيل رزقهم بشتى الحيل الأدبية واللغوية والتمثيلية. وكان حسين قسّام ينتظر قدوم الزوار الهنود والأفغانيين والأعجام الى النجف، فيقيم لهم المآتم الحسينية والعلوية ويستدرّ بكاءهم بخطبه الرنانة الفارغة وتعازيه السفسطائية، وهم لا يفهمون كلامه بل يتأثرون بكلماته وحركاته، ولا يبخلون عليه في آخر الأمر بالنقود، ثم يمضون راضين حاسبين أنهم قضوا واجباتهم الدينية.

أدب اللامعقول

LITERATURE OF THE ABSURD, OR IRRATIONAL LITERATURE

ظهر في أوربة في منتصف القرن العشرين مسرح اللامعقول، وهو تطوّر حديث للرمزية والوجودية والسريالية وما يكتنفها من غموض وإبهام، يرمي الى تجسيم سخافة الحياة وتهافتها واستحالتها. وممّن برّز فيه أوجين يونسكو EUGENE IONESCO والأديب الفرنسي الإرلندي الأصل صموئيل بيكيت SAMUEL BECKETT. وحذا توفيق الحكيم حذوهم فوضع مسرحيته «يا طالع الشجرة».

وإذا دققنا شعر عبود الكرخي وحسين قسّام وغيرهما من شعراء العامية نجد أنهم سبقوا أولئك الأدباء الغربيين في أدب اللامعقول. ومن أمثلة ذلك قصيدة المستحيلات المنشورة في ديوان الكرخي والكثير من قصائد حسين قسّام كتلك التي نظمها يواسي صديقاً له سرق متاعه القليل ووصية الريفي المعدم عن توزيع تركته الهزيلة الخ.

عصر النهضة
النثر



محمود شكري الألوسي

العالم البحّاثة الذي أحيا سنّة جدّه شهاب الدين محمود الألوسي وضرب مثالاً سامياً في الزهد والقناعة والتجرّد للعلم. ولد في بغداد في ١٢ أيار ١٨٥٧ وتوفي بها في ٦ أيار ١٩٢٤. وقد ترجمت له ترجمة وافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

قال الدكتور علي المحافظة الأردني في كتابه «الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩١٤» (بيروت ١٩٧٥): «كان محمود شكري الألوسي مصلحاً دينياً سلفياً جمع بين مبادىء الدعوة الوهابية في الاعتماد على القرآن والسنّة ومحاربة البدع الدينية والطرق الصوفية وبين مبادىء النهضة العلمية العربية الحديثة في الاهتمام بالعلوم غير الدينية مثل التاريخ والفلك».

علي علاء الدين الألوسي

قاضي بغداد علي علاء الدين بن نعمان خير الدين بن محمود شهاب الدين الألوسي، ولد في بغداد في ١٧ شباط ١٨٦١. أخذ العلوم العقلية والنقلية عن والده وعن الشيخ عبد الوهاب النائب وإسماعيل الموصلي وابن عمّه محمود شكري الألوسي. وقد أرسله والده سنة ١٨٨٢ الى الهند، فاجتمع بالسيد صدّيق حسن خان (١٨٣٢ ـ ١٨٨٩) ملك بهوبال وفاتحه في طبع مؤلفات أبيه وجدّه، وأخذ عنه الحديث فأجازه إجازة عامة. ثم قصد الأستانة مع والده سنة ١٨٨٣، فانتمى الى مدرسة القضاة وتخرّج فيها.

وولي القضاء في عدة مدن في فلسطين وبعلبك والعمارة والديوانية. وعهد إليه، على أثر وفاة أبيه سنة ١٨٩٩، بالتدريس في مدرسة مرجان وجامع الشيخ صندل ببغداد.

وانتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب العثماني بعد إعلان الدستور (١٩٠٨) الى حلّه في ١٨ كانون الثاني (١٩١٢). ولما نشبت الحرب العامة أوفد مع محمود شكري الألوسي بمهمّة الى أمير نجد عبد العزيز آل سعود (تشرين الثاني ١٩١٤). وعاد الوفد

في نيسان ١٩١٥ ولم يفلح في مسعاه لحمل الأمير على مناصرة الدولة العثمانية. واختير بعد ذلك عضواً بمجلس الولاية العام.

احتل الإنكليز بغداد، فعيّن علي علاء الدين قاضياً لها سنة ١٩١٧. ثم أصيب بالفالج وتوفيّ ببغداد في ٧ كانون الثاني ١٩٢٢.

ذكره إبراهيم الواعظ فوصفه بالرزانة والخلق المتين، وأشار الى معارضته لسياسة الاتحاديين الأتراك. وقال: «ثم عرفته قاضياً بعد الاحتلال البريطاني، وكان صلباً في رأيه، متمسّكاً بدينه. وقد كلفه ناظر العدلية بونهام كارتر البريطاني بالموافقة على استبدال أموال الأوقاف، فلم يوافق وبقي مصراً على رأيه الى أن توفاه الله».

مؤلّفاته وشعره

ترك علي علاء الدين الألوسي مؤلفات، منها كتاب الدرّ المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر (طبع ١٩٦٧)، ومجاميع ضمّنها نوادر وأخباراً وطرائف من شعره. ونظم الأجرومية وكتب تعاليق وحواشي على كتب كثيرة. وقد آلت معظم تصانيفه المخطوطة الى عبّاس العزاوي تلميذه وكاتب المحكمة الشرعية في عهده.

ونشر كتباً منها: نقد مقامات الحريري لابن الخشّاب (١٩١٠) والحباء في الإيصاء لنعمان الألوسي (١٩١٠) وسيرة الرسول لعبد الباسط زين الدين الملّطي القاهري الحنفي المتوفى سنة ١٥١٤م (١٩١٠) وكتاب التوحيد للإمام جعفر الصادق (١٩١٢).

ونقل عن الفارسية رسالة للطوسيّ في معرفة التقويم.

كان ينظم الشعر مقلاً. وقد نظم ارجوزة في سور القرآن وقصائد في مدح جمال الدين شيخ الإسلام سمّاها «روضة الإفهام».

ومن شعره رثاؤه لصديقه مصطفى نور الدين الواعظ، قال:

أسفاً لقد حلّ الحِمام بفاضِل ... من فقده الرُّزْءا بأمر باهظِ
قد كان في علم الشريعة حافظاً ... ولسنة المختار جِدّ محافظ
وله اليراع العضب يرعف ثغره ... للدين خير موازر وملاحظ
فقضى حقوق العلم غير مقصّر ... بكتابة وخطابة ومواعظ

وقال في السمر والبيض:

قالوا: جعلناك فيما بيننا حكماً ... في السُّمر والبيض، قلتُ: أصغُوا لتعريضي
كلا الفريقين عندي حبّهم حسن ... لكنّ في السّمر معنى ليس في البيض!

وذكر إبراهيم الواعظ أنّ محمد رشيد رضا صاحب المنار زار بغداد سنة ١٩١٣ فحلّ

ضيفاً على بعض وجهائها . ولم يتمكن علي علاء الدين الألوسي من زيارته لبرود كان بينه وبين الوجيه صاحب الدار، فأرسل إليه بالأبيات التالية معتذراً :

أهلاً ببدر دنا، والدار نائية، والقلب من أهلها ـ حاشاكَ ـ نفّار
إنّي أحيّيك من بعد على ثقة بالودّ منك ودون القرب أعذار
قد يترك الماءَ محتاج اليه وقد تُعاف للهون أوطان وأوطار
لو كانت النار ما عاقتني ثانيةً عن الزيارة، إلاّ أنّه العار

***

ولي علي علاء الدين القضاء أعواماً طويلة في العهد العثماني وعهد الاحتلال، وكان يرى فيه رسالة سامية لإعزاز الحقّ ونصرة الضعيف. قال في ذلك :

إنّ القضاء هو البلاء، فلا تكن متعرّضاً فتصابَ من سوء القَضَا
وإذا ابْتُليتَ به على كُرْه فخذ نهج العدالة إنّها سبب الرّضا

وقال متشوّقاً الى بيروت :

لإخوان الصفاء محضت ودّي فأغنوني بهم عمّن عداهم
ترى عيني جميع الناس فيهم وإنّي لست في المعنى سواهم

وقال يحنّ الى العراق :

أومض البرق من ثنايا العراق فاستفاضت له شؤون المآقي
وبدا لامعاً فأجج ناراً تتلظّى بين الحَشَا والتّراقي
ليت شعري، وللزمان شؤون، هل يضمّ الأحبابَ شملُ التّلاقي؟
وديـاري كما أحبّ ديـاري ورفـاقي كما أحبّ رفاقي؟

وقال :

روحي وجسمي لمّا بنتُمُ افترقا فالروح في بلد والجسم في بلد
بالله جودوا بطيف من زيارتكم كي تجمعوا لي بين الروح والجسد

عبد المجيد الشاوي

الأديب البغدادي الظريف صاحب الكلمات اللاذعة والاشارات البارعة . ولد في بغداد سنة ١٨٦٢ وتوفي في بيروت في ١٦ أيلول ١٩٢٧ . وكان في العهد العثماني نائباً في مجلس المبعوثان. وأصبح في العهد الوطني وزيراً بلا وزارة ورئيس بلدية بغداد ومتصرف لواء الدليم ونائباً. وعين عضواً بمجلس الأعيان وقد اشتدّ عليه المرض، فقال

لما بلّغ بالإرادة الملكية :

أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية، ورويت طرفاً من أدبه ونوادره. وقد ذكره أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» فقال إنه حضر مأدبة في البلاط الملكي بثوب افرنجي عادي ولم يرتدِ اللباس الرسمي. وصفه بأنه ذلك العربي الحرّ الجريء الجامع بين محاسن البدو والحضر، ذلك الفيلسوف الذي نثر الحكم وما كتبها. وقال: كان له رأس كرأس سقراط شكلاً ومعنى ولسان كلسان صموئيل جونسن سقراط الإنكليز بفصاحته ولواذعه.

سمع الريحاني عبد المجيد الشاوي يقول في تلك الليلة: «وهذا الاستبداد الحديث العهد، استبداد «الموضة» جاءنا كذلك من الغرب. أما نحن العرب فلا نضيع وقتنا ومالنا وتعقّلنا في سبيل «الموضة»، فقد كان، ولا يزال، خلاصنا في بسيط عاداتنا وسذاجة طباعنا. أنتم تبدأون حيث يمكنكم أن تنتهوا. أقول: يمكنكم ولا أقول: يجب أو يجوز أن تنتهوا بهذه الرسميات، بهذه الترّهات».

فقال رستم حيدر: ولكنك أنت أيضاً خاضع لسلطة الموضة في ثوبك الإفرنجي هذا، قابل باستبدادها. فأجاب الشاوي على الفور: وأنا أيضاً حمار!.

رويت عدداً من النوادر المحفوظة عن الشاوي في كتابي المذكور. وأروي هنا بعض الطرائف الأخرى:

وقف وزير المالية ذات يوم في مجلس النواب وقال في معرض كلامه: أبشركم بزيادة الضرائب في الميزانية المقبلة. فقال النائب ثابت عبد النور: يا لها من بشرى سعيدة يبشرنا بها معالي الوزير! ولم يكن من عبد المجيد الشاوي إلا أن قال: النائب معذور، فإنه لم يقرأ قوله تعالى: وبشرّ الذين كفروا بعذاب أليم (سورة التوبة).

وكان الشاوي النائب إذا خرج من الجلسة مرّ بكتّاب الضبط وقال لهم ما معناه: «هنيئاً لكم، يا أولادي، تخرجون كلاماً منمقاً من الأحاديث السخيفة التي تسمعونها في المجلس». وقيل إن بعض النواب كانوا يمرون بكتاب الضبط فيلاطفونهم ويرجونهم أن يصلحوا من الخطب والكلمات المرتجلة التي كانوا يلقونها في قاعة المجلس قبل إثباتها في المحاضر.

وكان الشاوي في مجلسه عصراً يحفّ به رجالات بغداد ولفيف من أبناء الأسرة الشاويّة، فإذا به يسمع منادياً في الطريق ينادي على حمار ضائع ويعد بالحلوان لمن يدلّ عليه. فأمر بإدخال الرجل وقال له: هل حمارك حساوي أم شاوي، يا ولدي؟ فقال: إنه شاوي، يا سيدي.

وأشار عبد المجيد بك الى أفراد أسرته وقال له: دونك هؤلاء الشاوية، فاختر واحداً

منهم بدل حمارك، والعوض على الله.

قام الملك فيصل الأول ذات مرة بزيارة للألوية مصطحباً بعض وزرائه وخواصّه ومنهم عبد المجيد الشاوي. ولما وصل الموكب الملكي الى العمارة، وكان متصرف اللواء عبد الله الدليمي، نزلوا في دار المتصرف الذي وقف وموظفيه في خدمة الملك. وكان الشاوي يكره الدليمي ويعلم أن هذا الضابط العسكري السابق والإداريّ اللاحق قد تزوّج من مطلقة الأمير زيد، فأسرّ الأمر في نفسه.

وفي الصباح بينما كان الملك وحاشيته يتناولون طعام الفطور والمتصرف واقف في خدمتهم، قال الشاوي: أليس من المناسب، يا سيدي صاحب الجلالة، أن نقرأ شيئاً من القرآن الكريم؟ وعجب الملك، وهو يعرف مخاطبه لا يعبأ كثيراً بأمور الدين، فقال له: تفضل اقرأ. وقرأ عبد المجيد الشاوي في سورة الأحزاب ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها**..﴾، فخجل المتصرف وانصرف.

والأسرة الشاوية التي ينتمي إليها عبد المجيد من أسر العراق القديمة تنتسب الى شاوي الشاهري الحِمْيَري رئيس قبيلة العُبَيْد من عشائر زُبَيْد، ورد ذكره لأول مرة سنة ١٧٠٧ حين ذهب مع والي بغداد حسن باشا لتأديب قبائل زبيد والدليم. وكان ابنه عبد الله بك الشاوي «باب العرب» أي مدير شؤون العشائر في مقرّ الولاية، قتله الوالي عمر باشا سنة ١٧٦٩. وعلى أثر ذلك نهض ولداه سليمان بك وسلطان بك فحشدا عشيرتهما في ناحية الدجيل وأحدثا اضطراباً.

وكان سليمان بك بن عبد الله بك أديباً شاعراً تولّى منصب «باب العرب» أيضاً، وقد قتله الوالي سليمان باشا سنة ١٧٩٤. وانتدب محمد بك بن عبد الله الشاوي في حملة أرسلها الوالي سليمان باشا الى الأحساء لمحاربة الأمير سعود بن عبد العزيز. واتهم إثر عودته بالميل الى المذهب الوهابي فقتل سنة ١٨٠٢.

وعرف من متأخري أبناء الأسرة الشاعران أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ــ ١٨٩٩) وولده عبد الحميد بك المتوفى في البصرة سنة ١٨٩٨، وأحمد توفيق بك بن سالم بك (١٨٤٤ ـ ١٨٩٥) وكان موظفاً إدارياً تولى قائمقامية أقضية الشامية والسماوة والديوانية وخانقين.

***

رثاه إبراهيم صالح شكر عند وفاته فقال: «شعلة ذكاء متقدة عصف المنون بها فانطفأت وتركت في جوانب النفوس كآبة مظلمة ولوعة مدلهمّة».

وصف نفسه الممراحة التي لم يلاطفها غير الأدب الغضّ وروحه اللطيفة الجذابة التي ملؤها الظرف والكياسة. وذكر دعابته الحلوة اللذيذة والبداهة الحافلة والحديث الطلي

الشهي المملوء عظة وعبرة والروعة اللامعة المبتسمة. ونعته بشيخ الشباب النابه وفتى الشيوخ الأفاضل.

إغناطيوس أفرام الرحماني

إغناطيوس مار أفرام الثاني الرحماني بطريرك أنطاكية على السريان الكاثوليك ومن علماء التاريخ واللغات الشرقية، ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٤٨، وكان اسمه لويس بن إبراهيم رحماني. درس اللاهوت في روما ورسم كاهناً (١٨٦٣) ثم عاد الى مسقط رأسه واختير نائب أبرشية الموصل سنة ١٨٨٠. ثم كان أسقفاً للرها (١٨٨٧) وبغداد (١٨٩٠) وحلب (١٨٩٤) واختير بطريركاً لطائفته في ماردين (ت١ ١٨٩٨).

وقد نقل مركز البطريركية الى بيروت سنة ١٩٠٢ وأصدر مجلة الآثار الشرقية سنة ١٩٢٦. واختاره البابا بنديكتوس الخامس عشر مستشاراً للمجمع الشرقي في روما.

كان يحسن لغات متعددة قديمة وحديثة منها العربية والفرنسية والإيطالية والسريانية واليونانية واللاتينية والعبرية، وله معرفة بالخطوط المسمارية والكوفية. وقد توفي في القاهرة في ٧ أيار ١٩٢٩ ودفن في لبنان.

من مؤلفاته: مقالة في سوريا (١٩٢٦) مقالة في مملكة أشور (١٩٢٦) المباحث الجليّة في الليتورجيات (الطقسيات) الشرقية والغربية (١٩٢٤) مختصر التاريخ القديم (١٨٧٧) مختصر تاريخ الأجيال الوسطى (١٨٧٧) مختصر التاريخ المقدس (١٨٨١) الخ. ووضع عدا ذلك قاموس اللغة السريانية ومصنفات باللاتينيّة والفرنسية والسريانية.

قال يوسف أسعد داغر في الجزء الثاني من كتابه «مصادر الدراسة الأدبية» إن البطريرك رحماني «استخدم معارفه الواسعة في علوم الدين والدنيا في حرث البحث العلمي الدقيق وأمدّ الثقافة والتاريخ المدني والكنسي بهذه الدراسات المخدومة التي نشرها بمختلف اللغات وبتلك المقالات المستفيضة البحث التي دبّجها في شتّى العلوم والموضوعات التاريخية واللغوية والكتابية...».

أدّي شير

المطران أدّي شير إبراهينا ولد في شقلاوة في شماليّ العراق في آذار ١٨٦٧، ودرس بمدرسة الآباء الدومنيكييّن في الموصل، وتعلّم اللغات العربية والكلدانية والتركية والعبرية والفارسية والكردية واللاتينية والفرنسية. ورسم مطراناً على سعرد سنة ١٩٠٢،

وقتل في بعض قراها في أوائل الحرب العامة في آب ١٩١٥ خلال المذابح التي تعرض لها أبناء أبرشيته .

وضع مؤلفات كثيرة منها : الألفاظ الفارسية المعرّبة (١٩٠٨) التاريخ السعردي (لمؤلف نسطوري مجهول ، حققه وترجمه الى الفرنسية في جزءين ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) تاريخ كلدو وآثور (في جزءين ١٩١٢ ــ ١٩١٣) . مدرسة نصيبين الشهيرة (١٩٠٥) . ومن مؤلفاته الفرنسية المطبوعة في باريس : حوادث من تاريخ كردستان (١٩١٠) تاريخ محمد باشا المعروف بمير كور (١٩١٠) دراسة إضافية عن الكتاب السريان الشرقيين (١٩١٠) الخ . وعرّب كتاب «شهداء الشرق» في مجلدين (١٩٠٠) .

كان المطران أدّي شير في مقدمة العلماء الباحثين الذين تحرّوا أصول الكلمات واجتهدوا في إرجاعها الى مصادرها . وقد قال اللغوي الدكتور إبراهيم السّامرائي الأستاذ في كلية الآداب في جامعة بغداد :

«أظنّ أن تجربة أدي شير صاحب «الألفاظ الفارسيّة المعّربة» وتجارب الآخرين . . . غير موفّقة ، لأنهم جاروا على العربية . فقد زعم غير واحد من هؤلاء الآباء الموقرين أن «كتب» و «قرأ» من المواد السريانية وهي دخيلة في العربية . ولا أدري كيف فاتهم أن هذه المواد العربية هي ساميّة الأصول ، فوجودها في العربية والسريانية والعبرانية والأكدية والأشورية وغير هذه من وجود اللغة الساميّة الأم .

على أني لا أنكر أن يكون في العربية دخيل معرّب اقتبسته العربية في عصور مختلفة من لغات عدّة لسبب من الأسباب ، وقد أشار الى ذلك القدماء والمحدثون» .

انستاس ماري الكرملي

البحاثة اللغوي والمؤرخ المحقق الأب انستاس ماري الكرملي ، واسمه قبل أن يترهب بطرس ميخائيل ماريني ، ولد في بغداد في ٥ آب ١٨٦٦ وتوفي بها في ٧ كانون الثاني ١٩٤٧ . أصدر مجلة لغة العرب الشهيرة وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام عند تأسيسه سنة ١٩٢٠ وعضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة .

وضع قاموساً ضخماً بعنوان «المساعد» ، طبع منه جزآن سنة ١٩٧٢ و١٩٧٦ بعناية وزارة الإعلام العراقية وتحقيق كوركيس عوّاد وعبد الحميد العلوجي ، وهما يتناولان حرف الهمزة وقسماً من حرف الباء فقط . والمساعد إنما هو قاموس القاموسيين ، فليس هو بالمعجم الاعتيادي الذي يفيد منه القارىء والمتعلم والأديب ، بل هو ثبت للكلمات الغربية والأصول اللغوية وقياس اللغات واللهجات مع جولات في الجغرافية والتاريخ وأساطير الأمم وتتبّعات في الكتب القديمة والحديثة ومناقشات للآراء والأسماء والأقوال والأفعال واستطرادات أدبية وعلمية وفكرية وشعبية عامية . . .

وعني الأب انستاس بتحرّي تطور معاني الكلمات ودلالاتها وإن كان يشدد على المعنى الأصلي ويعدّ المعنى الجديد في كثير من الأحيان غير فصيح. وقد ناقشته مراراً في هذا الموضوع وقلت إن اللغة كائن حيّ يتطور بتطور الزمن وظهور حاجات التعبير عن معاني العصر. فلا بدّ إذن من الاعتراف بأن الكلمات في جميع اللغات تتحوّر وجوه استعمالها: مثال ذلك أن (القهوة) في العربية كانت تطلق على اللبن المحض والخمرة ثم اتخذها المولّدون علماً للبنّ. و (القرن) يعني حقبة من الزمن ثم اختص بمائة سنة فقيل: القرن التاسع عشر والعشرون... و (الوجدان) مصدر للوجود ثم أطلق خصيصاً على الضمير والنفس. و (المقارنة) في الأصل المصاحبة والاقتران والجمع ثم أخرجت الى معنى المقايسة والمفاضلة. و (الثقافة) أتت بمعنى التقويم والحذق فصرف الى معناها الحاضر وهو الحضارة الفكرية وتهذيب العقول والأخلاق، لتنظر الى معنى كلمة (كولتور) الألمانية والفرنسية و (كلشر) الإنكليزية. وهذه الكلمة الغربية نفسها (كولتور) كانت تعني في بادىء الأمر الزراعة والعبادة والتحسين ولم تطلق على مفهوم الثقافة الحاضر إلا في أوائل القرن التاسع عشر.

ولا يزال الكتاب والمتكلمون يخرجون للكلمة معنى جديداً على صواب أو على خطأ فيشيع ويعمّ استعماله ويعسر على الفصحاء استئصاله. وليس ذلك بدعاً في العربية: فقد نبّه الدكتور مصطفى جواد على كلمة (الصمود) وقال إن العرب لم تعرف الصمود مصدراً وإنما المصدر (الصَّمْد) كالقصد وزناً ومعنى. فإذا كان العرب قد استعملوا الصمد في حروبهم للقصد والسير الى العدوّ، فكيف يستعمل للثبات والقرار وهو عكس معناه؟

ونبّه الدكتور جواد أيضاً، وهو تلميذ الكرملي، على كلمة (الاستهتار) فقال إن معناها الغرام والولوع بالشيء وأخطأ المحدثون في استعمالها بمعنى التهاون بالشيء والاستهانة به، كأن يقال: فلان مستهتر بالقانون. وقالوا (الهاوي) وجمعها (الهواة) بمعنى المحبّ وغير المحترف كالموسيقيّ الهاوي والمصارع الهاوي وهواة الطوابع وفصيحها (الهوي) بلا ألف، إذ معنى الهاوي لغةً: الساقط والجراد الخ. وكرّر مصطفى جواد تنبيهه وبحّ صوته في «قل ولا تقل»، لكن جمهور الكتاب والقراء لم يبالوا بذلك التنبيه واستمروا على أخطائهم لا يرضون عنها بديلاً.

وقد ترجمت للكرملي ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية» فليرجع اليها.

الأب أوغسطين مرمرجي

من علماء اللغة العربية الراهب الدومنيكي أوغسطين مرمرجي، وهو أوغسطين سِبَسْتيان ابن يوسف المعروف بالمرمرجي ابن جرجَس بن شمعون الحائك الموصلي الأصل. ولد ببغداد في ٣١ تموز ١٨٨١ من أبوين موصليين ودرس في مدرسة الإتفاق

الكاثوليكي . ثم أرسل الى الموصل وانتمى الى المدرسة الأكليركيّة الدومنيكيّة ، ورسم قسّيساً سنة ١٩٠١ .

عاد الى بغداد سنة ١٩٠٦ وعيّن معلّماً للعربية في مدرسة الطائفة السريانية . وأخذ يكاتب المجلات الشهيرة كالمشرق والبشير البيروتيّتين والمقتطف والهلال المصريّتين . وبعد ستة عشر عاماً مضى الى فرنسة واعتزل في بعض أديرتها سنتين . واختير سنة ١٩٢٥ مدرّساً في المعهد الكتابيّ والآثاريّ الفرنسي بالقدس الشريف . وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة .

إختصّ الأب مرمرجي بدراسة العربية ومقايستها بسائر اللغات الساميّة ، ووضع مؤلفات في هذا الموضوع ، منها : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنيّة الساميّة (١٩٣٧) هل العربية منطقيّة؟ (١٩٤٧) معجميّات عربيّة ساميّة (١٩٥٠) .

وألّف أيضاً : بلدانيّة فلسطين العربية (١٩٤٨) ، [وقد ترجمه الى الفرنسية أيضاً وطبعه في باريس] ، العلاقات بين الأسرة والألفة الاجتماعيّة ، محاضرات مختارات في الدين والفلسفة والاجتماع (١٩٤٧) ، الخ .

وكانت له مناقشات لغوية مع الأب أنستاس ماري الكرملي والبطريرك إغناطيوس أفرام برصوم .

أدركته الوفاة في القدس في ٢٩ نيسان ١٩٦٣ .

يعقوب سركيس

أمضي فتبقى صورتي، فتعجبوا : تمضي الحقائق والرسوم تدوم

أهداني يعقوب سركيس صورته قبل سنوات فكتب عليها هذا البيت من نظم ناصيف اليازجي . ولم تمض على ذلك أشهر قليلة حتى أعياه الصمم وأوصاب الشيخوخة فاعتكف في داره منقطعاً عن أصدقائه مخلداً الى وحشته وانفراده . ووافته منيته ببغداد في مساء الأربعاء ٢٣ كانون الأول ١٩٥٩ قبيل منتصف الليل . وكذلك انطوت صفحة ناصعة من صفحات الحياة الإنسانية ، صفحة حياة شيخ وقور انصرف الى البحث والتحقيق ودقق صحائف مجهولة من تاريخ وادي الرافدين وجمع خزانة كتب فريدة حافلة بنفائس المخطوطات والمطبوعات .

ولد يعقوب نعوم سركيس في بغداد في ٢١ آب ١٨٧٦ من أسرة حلبية الأصل ودرس في مدرسة اللاتين فتعلم العربية والفرنسية والتركية . ولما تخرج في مدرسته عهد إليه بالتدريس فيها أمداً وجيزاً في محل أحد المعلمين الغائبين . ثم ألحقه أبوه بعمل كتابي في

بعض البيوتات التجارية ليتعلم المراسلة والمعـاملات . ولم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى توفي أبـوه نعوم سركيس، وكان ملتزمـاً لمقاطعات في أنحاء المنتفك ومـلاكاً فيها، فتعهده عمه بولس وأخذه معه الى الشطرة للإشراف على مزارع الأسرة . ومنذ ذلك الحين أمضى أربعين سنـة أو نحوهـا يخرج في كل سنـة الى أنحاء الشطـرة والحي وقلعة سكـر والناصرية ليعيـش أشهراً في الخيام أو الدور القـروية متعهداً أملاكـه وزراعته . ولم يشذ عن تلك القـاعـدة إلا في سني الحرب العـالميـة الأولى وبعض السنـوات الأخـرى، ثم انصرف عنهـا بعد أن اجتـاز سن الكهولـة . وكثيراً ما كـان يبتهج بأنه نصف بـدوي أو فلاح لقضائه معظم أيام حياته في القرى والأرياف واعتياده معيشة الخيام وركوب الخيل ومجالسته للزراع ورجال العشائر ومعرفته بعاداتهم وآدابهم وأهازيجهم . وكان محافظاً يلزم نفسه بالتقاليـد القديمة ويقول في كل مناسبة تعـرض : «قطع الخشوم ولا قطع الرسوم» يريد بـذلك وجوب التقيد بالأصـول والرسوم ولو أدى الأمر الى جـذع الأنوف والإرهاق والأذى . وكـذلك أصبح يعقوب سركيس قطعـة من تـربة الـوطن وجزءاً لا يتجـزأ من تاريخه قبل أن يتصدى لتدوين صحائف من أحداثـه وشؤون رجاله وبقاعه . وقد ورث عن آله ميلاً الى جمع الوثائق والرسائل والمخطوطات، فانصرف الى هذه الهواية منذ نعومة أظفاره . ثم استبدت به هذه الهوايـة فجمع خزانة كتب ضخمة ضمت نفائس لم يتيسر اقتناؤها إلا ببـذل المال الوفير وإنفاق سنين تربو على الخمسين . وقـد حدثني مراراً عن المتـاعب التي لقيها في شراء الكتب، لا سيما في صـدر شبـابه في أثنـاء عهد الاستبـداد الحميدي . فلقـد كان بيع عـدد كبير من الكتب ودوائر المعـارف محظوراً لاحتـوائها على مباحث في الحرية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية . واضطر الشاب يعقوب سركيس أن يكلف صـديقـاً لـه زار أوربة في مطلـع القرن الحاضر ــ وكـانت تلك الـرحلـة من الأحداث النـادرة آنذاك ـ كلفـه بتهريب نسخـة من دائرة المعارف الفرنسيـة ليضمها الى مكتبته، وبقي بحاثتنا يحتفظ بهذه النسخة ويحرص عليها الى آخر حياته .

وقد أشرف بحـاثتنا على الأربعين من عمـره دون أن تخطر الكتابـة ببالـه . ثم أصدر الأب انستاس مـاري الكرملي مجلتـه «لغة العـرب» فشجعه على تـدوين معلومـاته عن المنتفك، فكتب نبذة عنوانها «خواطر في المنتفق وديارهم» بتوقيع مستعار. لكن يد الأب تناولت هذه النبذة بالتنقيح والتصحيح حتى «شوهتها» فطواها يعقوب سركيس وأغفل نشرها في مجموعته .

بيد أن تلك النبـذة كانت فاتحة عهـد جديـد في حياة الأستاذ يعقـوب، فقد واصل الكتـابة منـذ سنـة ١٩١٣ ونشر مقالاتـه وبحوثـه الممتعـة في مجلات وصحف عديـدة كمجلة لغة العرب وغرفة تجارة بغداد والنجم الموصلية والاعتدال النجفية والأدب والفن اللندنية ومعـالم الغد والبيان والجزيرة وسـومر والنور والمجمع العلمي العراقـي وجريدة البلاد والـزمان والعراق والأخبار والشعب والطـريق والأوقات العراقية الخ . وقـام بعد

إلحاح شديـد من أصـدقائه بجمع مقـالاته في كتـاب «مباحث عـراقية» في الجغـرافية والتـاريخ والآثار وخطط بغـداد الخ , فأصدر القسم الأول سنـة ١٩٤٨ بتقديم محمـد رضا الشبيبي، وأردفـه بالقسم الثاني سنـة ١٩٥٥ وقد قدمـه رفائيل بطي ومير بصري. تضمن هذان الجزآن أغلب كتاباته التي تستوعب مجلدين آخرين.

واختاره المجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٤٩ عضواً فخرياً فكتب مقالات نفيسة في مجلة المجمع أهمها بحثه في النقود العـراقية الذي جاء بشكل تعليق على كتاب الأب انستـاس الكرملي في النقـود العربيـة وعلم النميات، وهـو بحث مسهب يشكل كتابـاً متوسطاً قائماً بـذاته. وترجم يعقوب سركيس في أخـريات أيامه الفصـول المتعلقة ببغداد من رحلة أوليا جلبي، نقلها عن اللغـة التركية وشرع بكتابة الحواشي والتعليقات مما قدر له أن يتجاوز المتن، لكن الزمن لم يسعفه لإنجازها.

وطريقته في الكتابة والبحث أن يـراعي الدقة ويتحرى التفصيل، لكن قلمه لم يكن يطاوعـه ـ على مـا كان يقول ـ فكان يصرف في كتـابة البحث أو المقالـة أيامـاً وأسابيع يـراجع المصادر وينقل النصـوص ويزن كل كلمـة وعبارة خشيـة مجانبة الحق أو إسـاءة التعبير. وكان قلما يعنى بطـلاوة الأسلوب وجمال الصياغة، فلـم يكن يعتبر نفسـه أديباً وإنما كان يـرمي الى الإفادة دون أن يهمـه الإمتاع. وكنت أعرض عليـه أحيانـاً شيئاً من شعري أو كتابـاتي الأدبية فكان يقرأهـا بإمعان ثم يقول متواضعـاً في صراحته المعهودة: «لعل هذا جيد، ولكنني لا أستطيع الحكم». أو ما كان في هذا المعنى. ومن أمثلة دقته أنه كتب ذات يوم يرد على أحد الأدباء في مـوضوع تاريخي فأشار الى إسم الكاتب «فلان الملقب نفسه بالفلاني». فلما سألته لماذا لم يكتب «فلاناً الفلاني» كما هو المألوف قال «إن هذا الـرجل يدعي الانتساب الى قوم مضـوا، فإذا ذكرت اسمه على عـلاته حسب مني ذلك إقراراً بنسبه».

ولقد تحدثت قبل سنوات طويلـة عن يعقوب سركيس البحاثة المؤرخ فقلت: حظي يعقوب سركيس بالصفات المطلوبـة في المؤرخ المحقق، فأولع منذ حداثته بتتبع الأخبار واستقصـاء الأنباء، وأوتي جلـداً على التمحيص والتنقيب، ومعـرفة بلغـات تعين على الإستطلاع والاستقراء، وبصيرة نقادة تحاكم الـوقائع وتميز بين المعقول والمختلق، وغيرة على الحقيقة لا ترضى عن الصدق بديلاً، وروحاً علمياً ينزع الى التدقيق والتحقيق يذلل الصعاب ويهزأ بالنصب والعناء. ورزق الى جانب ذلك قلما إن يكون رزين العبارة غير مشرق الديباجة، فإنه واضح الأسلوب قريب المتناول بعيد عن التعسف والتكلف لائق بالبحث العلمي التاريخي.. إختص سركيس بعهود مجهولة من تاريخ هذه البلاد وأتيح له أن يجمع وثائق ومخطوطات نادرة ثمينـة ذات صلة بهذه الحقبة من الزمن وأن يرث من أسرته أوراقـاً يرجع أقدمها الى نيـف ومائة سنة، ويحوي بعضها معلـومات ذات شأن لم ترد في مرجع معروف ويفسر وجودها هذا الميل المتأصل في نفسه الى التحقيق والتدوين.

ومن أثمن ما ضمته خزانة كتبه مجموعة كبيرة منقطعة النظير من الرحلات الى العراق لمختلف الرحالين الـذين أتوا هذه البلاد منذ أقدم العصور حتـى عهدنا الحاضر. وهذه المجمـوعة التي بـذل صـاحبها في سبيل الحصـول عليهـا جهداً ومـالاً وفيرين، كتبت بلغـات مختلفة وفيهـا المطبوع والمخطـوط، ومعظمها نـادر عسير التطلاب. وإذا كـان بحاثتنا قد جـد في طلب هذه المصادر القليلة الشهيرة وأنعم النظر في ثنايـاها، فلا بدع أن جاءت أبحاثه غزيرة المادة طريفة الموضوع كـاشفة لمناح مجهولة من تاريخ هذه البلاد في الأزمنة الأخيرة. ولا شك أن هذه الأبحـاث سوف تبقى أسانيد تاريخيـة جليلة القدر كبيرة القيمة.

لقد عرفت الراحل الفاضل عشرين سنة ونعمت بصحبته وتمتعت بأحاديثه وأخذت من علمه وفضلـه وطالعت من مكنونـات خزانته مـا شئت ورغبت، فوجدتـه، على ما بيننا من فارق السن، نعم الصديق الوفي الكريم والرجل المهذب الوقور والعالم المتخلق بأفضل الأخلاق والمتبع لسنن العدالة والحق والمتسم بالرصانة والصراحة والصدق. لقد كان عصامياً بالرغم من ثروته وجـاهه، وكان معتدلاً في كل أمـوره مبتعداً عن التفريط والإفراط، وكان حليماً واسع الصدر متواضعاً للصغير والكبير، فيا لأسفي على فقده ويا للوعتي وأسـاي على وفاته. إن الجيل الذي أنجبـه قد مضى وانطوى في ذمـة التاريخ، وقد بقي فقيدنا الى آخـر أيامه مثالاً حياً لآبائنا الجادين الأخيار البسطـاء وأنموذجاً طيباً لأحسن صفاتهم وشمائلهم. فيا أيها الشيخ النبيل والـراحل الفاضل الجليل، لقد آلمني المصاب وأخـرسني الحزن والشجن، فماذا أقول في تأبينك وكيف أثني عليك وأعـدد ما شهـدت من مزايـاك وسجايـاك؟ إنك حي في نفوس عـارفيك، مأثور الفضل منشـور الذكر، وقديماً قال المتنبي:

كفل الثنـــاء لـــه بـــرد حيـــاتـــه لما انطـــوى فكأنـــه منشـــــور

آثاره ومصادره:

إن أبحاث يعقوب سركيس ودراساته سـوف تبقى مصدراً من مصادر تاريخ العراق في العهد العثماني الأخير يـرجع اليها مؤرخ المستقبل في تحقيق مـوضوعه وتدوينـه. وقد كان فقيدنا مولعـاً بمباحثه يحبها حباً جماً ويتلذذ بكتابتها وتـدقيقها وإعادة النظر فيها. وكان يقـول: «أظن كتاباتي جيدة، ولكنني كـالأب يحب أولاده في جمالهم ودمامتهم». وكان يتبجح ـ وهو الرجل المتواضع الذي يـؤثر العزلة ويتحاشى الظهور ـ فيقول: «إن المصادر التي هيئت لي قلما هيئت لغيري...».

إن دراستنا لسيرة البحـاثة الـراحل لا تكون كاملـة إذا لم نردفها بنظـرة عامـة في آثاره ومـراجعـه. إن كتـابات يعقـوب سركيس التي دونها ونشرهـا خـلال حقبـة تنيف على

الأربعين سنة تتناول مواضيع شتى وتستند جميعها الى مراجع مخطوطة أو نادرة. ومن أهم هذه المواضيع:

١ ـ تاريخ المنتفق وآل السعدون، وقد كتب في هذا الموضوع صفحات كثيرة اعتمد في أغلبها على وثائق ذات شأن وصلت إليه من أبيه الذي كان وثيق الصلة بآل سعدون.

٢ ـ خطط بغداد وآثارها كمنارة سوق الغزل وجامع الخلفاء والمدرسة المستنصرية وجامع قمرية والمدرسة العمرية ودار المسناة والقصر العباسي وخان جغالة زادة المعروف بخان جغان الخ.

٣ ـ بحوث أثرية كموقع خرائب تلو (تل هوارة) وواسط وطاق كسرى.

٤ ـ بحوث في طائفة من مدن العراق كالبصرة والنجف والعمارة والكوت والبغيلة وآلتون كوبري.

٥ ـ بحوث في الملل والنحل كاليزيدية وعقائدهم.

٦ ـ تراجم أشخاص كنظمي وآله وإبراهيم يحيى العاملي وحكيم زاده البغدادي.

٧ ـ شؤون العشائر كآل قشعم وقبيلة العزة.

٨ ـ طرائف تاريخية كرحلة أول عراقي الى العالم الجديد وظهور حوت في دجلة والأسود في العراق واشتداد الحر وسقوط الثلج ومقاييس الماء وظهور أول سيارة وأول طيارة في بغداد وهلم جرا.

٩ ـ مباحث في تاريخ العراق الاقتصادي. وضع يعقوب سركيس دراسات ذات قيمة في هذا الموضوع. وقد سألته ذات مرة أن يجمع هذه الشذرات والمقالات بين دفتي كتاب يطلق عليه اسماً ذا دلالة على الموضوع، فقال إنه يؤثر إدراجها في محلها من مجموعة مقالاته بحسب تسلسل تاريخ كتابتها. وقام فعلاً بذلك فنشرها في القسم الثاني من مجموعته «مباحث عراقية» فاستوعبت زهاء ١٦٠ صفحة من القطع الكبير. ويصح أن يضاف إليها بحوث أخرى منها «بعثة جسني رائد الفرات» بصدد الملاحة في هذا النهر (مجلة دار المعلمين العالية ـ ١٩٤٨) ورسالة مطولة في «النقود والنميات» (مجلة المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٥٠) الخ.

وأستطيع أن أقول إن إقدام يعقوب سركيس على تدوين مباحث في التاريخ الاقتصادي قد كان بطلب وإلحاح مني. فقد تعرفت عليه في مجلس أنستاس الكرملي في سنة ١٩٤٠ فلم ألبث أن دعوته الى الكتابة في مجلة غرفة تجارة بغداد التي كنت أشرف على تحريرها، كما دعوت فريقاً من أفاضل الكتاب والعلماء أمثال انستاس الكرملي وعباس العزاوي ويوسف غنيمة ومصطفى جواد وداود الجلبي وهاشم جواد وعبد القادر رشيد وشيت نعمان وغيرهم.

وقد واصل يعقوب الكتابة في هذه المجلة من سنة ١٩٤٠ الى ١٩٤٤، فتناول في مواضيعه مبدأ زراعة بعض الثمار والخضر في وادي الرافدين، وتاريخ التبغ والقهوة والنقود العثمانية وآخر العهد بضربها في بغداد، وواردات العراق بين عهدين، ورسم الاستهلاك في القرن التاسع عشر، وكمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع، وتعرفة الاحتساب، وواردات المنتفق، وتجارة البصرة في صدر المائة الماضية وهلم جرا. وفي وسعي أن أقول إن كل كلمة خطها وكل رقم ذكره يستند الى مصدر من كتاب قديم أو رحلة نادرة أو وثائق وأوراق خطية عثر عليها في الزوايا والخبايا. ومن المعلومات التي حققها أن زراعة الطماطة والفاصولية والبطاطة حديثة عهد في هذا القطر، وإن التتن قد عرف في العراق منذ مطلع القرن السابع عشر وعرفت القهوة قبل ذلك، وقد بني أول مقهى في بغداد سنة ١٥٩٠ م. وكانت واردات ولايات العراق الثلاث في أواخر العهد العثماني قبل الحرب العظمى الأولى ـ على ما خمنه ـ لا تزيد على ٩٠٠ ألف ليرة. وكان والي بغداد مفوضاً بسك النقود في دار الضرب (السكة خانة) ثم انقطع الضرب في سنة ١٨٣٥ على عهد الوالي على رضا باشا اللاز.

أما مصادر يعقوب سركيس التي كان يرجع إليها في تدوين مباحثه فأهمها، بلا ريب، رحلات الرحالين الذين أموا العراق في القرون الماضية. وقد جمع في مكتبته من هذه الرحلات الشيء الكثير ولا سيما كتب الرحالين الإفرنج الذين جاؤوا الى بلاد الرافدين منذ سنة ١٥٦٥ الى أوائل القرن العشرين. وهذه الكتب بلغات مختلفة كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية والتركية، ومعظمها مطبوع قبل مئات السنين، وهي تجلو صفحة خفية من تاريخ هذا القطر وأحواله المعاشية والاقتصادية والسياسية.

ومن المصادر النادرة التي هيئت لبحاثتنا وثائق آل سعدون التي سبق الإشارة إليها وأوراق ورسائل لآل عبود أسرة والدته ـ وترجع هذه الأوراق الى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ وقد استخرج منها فوائد كثيرة تتعلق بأخبار العراق وتجارته في ذلك العهد. وقد رأيت لديه سجلات يومية مخطوطة لعدد من الأشخاص باللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية، منها ما يعود الى أوائل القرن الماضي وكان يرجع إليها بين الحين والحين لاستخراج معلومات طريفة وأخبار فريدة. ولا ريب أن أهم تلك السجلات يوميات يوسف زفوبودا البغدادي المتوفى سنة ١٩٠٨. كان هذا الرجل كاتباً في باخرة شركة لينج التي كانت تمخر عباب دجلة بين البصرة وبغداد، وقد حرص على تدوين مذكراته يوماً فيوماً باللغة الانكليزية خلال ٤٦ سنة فجاءت في ٦١ دفتراً وقع أغلبها في يدي يعقوب سركيس. كان زفوبودا يدون يومياً ما يسمعه من الأخبار والوقائع وما يحدث له من الأمور غثها وسمينها، وقد كتب آخر كلماته قبل يومين اثنين فقط من وفاته.

إنني لأذكر هذه الدفاتر جيداً فهي على وفرة عددها بحجم واحد تفتح طولاً ومجلدة بجلد أحمر وقد كتبت بخط دقيق ظهر عليه الضعف واضحاً في الدفتر الأخير. ولغة الكاتب الانكليزية تتسم بالركة والخطأ، وأكثر مدوناته لا تعدو أخباراً شخصية أو عائلية تافهة، حتى ليحتاج قارئها الى حظ وافر من الصبر والجلد. ومع ذلك عكف يعقوب سركيس على مطالعتها سنين طويلة ووضع لها فهارس وجداول واستخرج من آلاف سطورها طائفة من الأخبار والوقائع والطرائف. وحري بالذكر أن معظم هذه الدفاتر آلت الى بحاثتنا قبل أعوام طويلة، ثم وجد في السنوات الأخيرة عدداً من الدفاتر الناقصة فكان فرحه بها عظيماً أشدّ من فرح الطفل بدمية جديدة يعثر عليها. وكانت معرفة سركيس باللغة الانكليزية ضئيلة فكان يستعين بي وبغيري من الأصدقاء لترجمة ما يريد من أخبارها.

يعقوب سركيس ومخطوطاته

خلف لنا أناتول فرانس، أديب فرنسة الفذّ، في بعض رواياته شخصية حيّة عجيبة هي شخصية «سلفستر بونار» عضو المجمع العلمي الذي يمثل البحاثة المدقق المنصرف الى التنقيب والتحقيق، المعتكف بين كتبه وأوراقه، الناظر بروحه وفكره الى زمان سالف. أولع الأستاذ بونار في صدر شبابه بالتحقيق التاريخي حتى انشغل به عن الزواج. واختص بتاريخ القرون الوسطى التي حجبتها سدل من الظلام كثيفة، فأكبَّ على دراسة مظانّها وتحرّي أخبارها وكشف مجاهلها.

وقف صاحبنا اتفاقاً، في بعض المراجع القديمة، على ذكر مخطوطة فريدة في بابها تضمنّت طرفاً نادرة من أنباء الحقبة التي أنفق عمره في تحقيق تاريخها، فهام بها وهو لا يدري أباقية هي في إحدى الزوايا أم قد ذهبت بها يد الحدثان. أصبحت هذه المخطوطة العدمليّة منية فؤاد أستاذنا، يحلم بها في يقظته ومنامه ويتغزل بها ويشتاق إليها، والأذن تعشق قبل العين أحياناً. ومرت السنون وهو على عهدها مقيم، حتى أتيح له ذات يوم أن وجد اسمها في فهرس لأحد الكتبيّين الإيطاليين. فطار لبه فرحاً بها، وشدّ الرحال الى صقلية في سبيل شرائها، وهو الشيخ الذي مضت عليه ثلاثون سنة في دار واحدة لا يكاد يبرحها. لكنه تجشّم مشاقّ السفر الى ذلك البلد البعيد ليجد مخطوطته الحبيبة قد انتقلت الى نفس باريس التي خرج منها، فعاد اليها على عجل، والمخطوطة تمعن في الفرار منه، وهو يجدّ في أثرها، حتى حظي بوصلها، ولأياً ما فعل، إذ أهدتها إليه، بعد أن يئس من اقتنائها، جنّية من بنات الإنس راعية للجميل.

لم يدر في خلدي أن آنس ذات يوم بلقاء «سلفستر بونار» بشراً سوياً حتى هيء لي التعرف بيعقوب سركيس المؤرخ المحقق والتنعم بصحبته الكريمة وصداقته النبيلة. أنفق سركيس سنين طويلة في جمع خزانة كتبه التي تضمّنت كل ما استطاع حيازته من مصادر تاريخ العراق، وفي مقدمتها رحلات الرحالين الشرقيين والغربيين الذين زاروا

بلاد الرافدين خلال الأعوام الألف الأخيرة، من ابن جبير وابن بطوطة وسيدي علي وأوليا جلبي ودرّي أفندي ومصطفى الصدّيقي وأبي طالب مرزا، الى بالبي وتكسيرا وديلا فالي وتيفنو وتافرنية ونيبوهر وروسو وشيزني وجونس ولوفتس وسون وجرترود بل.
لكن هذه المجموعة الفريدة في بابها قد أعوزتها مخطوطة لا تقوّم بثمن: فقد علم الأستاذ سركيس في أثناء مراجعاته، بوجود رحلة مخطوطة لرحالة برتغالي قديم مجهول الاسم زار العراق في نحو سنة ١٥٥٤، وكانت هذه المخطوطة النادرة في حوزة الميجر مارتن هيوم الانكليزي في مطلع المائة العشرين. أشار الى هذه الرحلة البرتغالية المستشرق غاي لسترانج في هامش كتابه «أراضي الخلافة الشرقية» مستنداً في ذكرها الى ما كتبه عنها مالك نسختها الفريدة نفسه في صحيفة «الأثينيوم» في عددها المؤرخ في ٢٣ آذار ١٩٠١. ولم يقرأ بحاثتنا العراقي خبر هذه الرحلة في هامش لسترانج حتى ملكت لبّه وشغلت باله، فشرع يبحث عن عدد الصحيفة الانكليزية التي وصفتها. لكن هذا العدد نفذت نسخه، وقد مرّت على صدوره عشرات الأعوام، فلم ينل ذلك من عزيمة البحاثة المحقق، بل استمر على طلبه حتى وفّق للحصول على نسخة منه ـــ بعد بضع عشرة سنة! وقد سرّه أن يجد على صفحات هذا العدد رسالة من الميجر هيوم يصف فيها مخطوطته المجهولة المؤلف ويسأل القراء أن يرشدوه الى صاحبها الذي خرج من لشبونة في منتصف القرن السادس عشر، وجاب أوربة غربيّها وشرقيها، ثم عرج على الأناضول وسورية وفلسطين ومصر ووصل أخيراً الى وادي الرافدين والخليج العربي. وقد كتب البرتغالي الذي غمر اسمه وشخصه حجاب النسيان يصف البلدان التي زارها والمغامرات التي خاضها في رحلته الطويلة الشاقة، فكانت مدوّناته بعد مئات السنين سجلاً رائعاً لعهود بعيدة وأقطار مغمورة.

يا لسرور الأستاذ بالعثور على وصف مخطوطته الحبيبة بقلم من حاز نسختها الوحيدة! لكن هذا الوصف لم يكن ليبلّ الغلّة، بل إنه لم يكن إلا ليزيد الظمأ الى الرحلة الموصوفة كما يشتدّ جوع الجائع عند ذكر الطعام السائغ المريء. فكيف الحصول عليها وأين الوصول إليها؟ لقد امتلكها ضابط انكليزي في مطلع القرن، فماذا فعل الدهر بهذا الضابط وماذا حلّ بمخطوطته الثمينة؟ أهي لا تزال في قيد الوجود خبيئة في بعض الزوايا، أم قد ذهبت بها يد العبث والإهمال فزال أثرها وزال بزوالها آخر سجلّ لمغامرات عجيبة شائقة؟ أم لعلها قد وقعت في قبضة هاوي كتب متبلّد الذهن، فعضّ عليها بالنواجذ وضمّها في خزانة مغلقة ينفس عليها نور الشمس وأعين الناس... لقد نقب بحاثتنا وأمعن في التحقيق والتدقيق، وراجع فهارس دور الكتب وقوائم الكتبيّين والهواة، وكتب الى «لوزاك» وأمثال «لوزاك» من قنّاصة الآثار الشرقية النادرة... ولكن هيهات أن يجد الى ضالته المنشودة سبيلاً...

وقد أهديت كتب يعقوب سركيس ومخطوطاته بعد وفاته الى جامعة الحكمة في

بغداد، فعهد الى كوركيس عوّاد بوضع فهرست للمخطوطات صدر سنة ١٩٦٦ . ثم نقلت الى مكتبة المتحف العراقي في تموز ١٩٧١ .

كان ليعقوب سركيس دائرة معارف بريطانية تتألف من عشرات الأجزاء مطبوعة قبل سنة ١٩٠٠ ، وكان يعتز بها كل الاعتزاز. وقد اشترى طبعة جديدة بعد ذلك، لكنه بعد أن أهدى الطبعة القديمة عاد فاسترجعها وضمّها الى مكتبته . وقد سألته عن السبب فقال : إن طبع الكتب والجرائد واستيرادها كان ممنوعاً في عهد الاستبداد الحميدي يعاقب عليه بأشدّ العقوبات، لا سيّما تلك التي تذكر الحرية والحقوق المدنية والثورة والتاريخ الحديث . وقد سافر صديق له الى أوروبة سنة ١٩٠٠ فكلفه بجلب دائرة المعارف له، فتحمل مشقة كبيرة في إدخالها الى ميناء البصرة وحملها الى بغداد خوفاً من الكمارك والرقباء . ووضعها يعقوب سركيس في مكان خفيّ من داره حذراً من العيون يطالعها سراً، حتى إذا ما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وتم تحرير المطبوعات، أخرجها الى النور بلا وجل .

كان يعقوب سركيس يمتلك مخطوطاً في تاريخ آل سعود والوهابيين كتبه أحد كتابهم في نحو سنة ١٨٧٥ . وقد ترك المؤلف خدمتهم والتحق بخدمة آل سعدون في المنتفق، فأجرى في مخطوطته بعض التصليحات .

وكان يعقوب سركيس يحرص على هذه المخطوطة ويعدّها فريدة في موضوعها، وقال لي إنه يرضى ببيعها الى الحكومة السعودية إذا دفعت فيها ثمناً كبيراً، لا سيّما أنها تقبض إيراداً جسيماً من مواردها النفطية .

ودعونا الشيخ عبد الله الخيّال سفير المملكة العربية السعودية في بغداد ورفائيل بطّي لفحص المخطوطة، فأبدى السفير اهتمامه بها ووعد أن يكتب الى حكومته حاثاً إياها على شرائها . ولكن لم يحصل أي نتيجة .

ولما توفي يعقوب وقام أخوه يوسف بإهداء مكتبته الى جامعة الحكمة، أخبرته بقيمة المخطوطة، فآثر الإحتفاظ بها ولم يهدها مع الكتب والمخطوطات الأخرى التي آلت بعد ذلك الى الحكومة العراقية عند تأميم الجامعة .

هذا وقد جمعت مقالات سركيس في كتابه «مباحث عراقية : في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ . (الجزء الأول ١٩٤٨ ، الثاني ١٩٥٥) . وله أيضاً : تلّو أي تل هوارة (١٩٣١) شهداء حلب (١٩٣٤) التتن والقهوة في العراق (١٩٤١) كمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع وخلفه السلطان إبراهيم (١٩٤٢) واردات العراق بين عهدين (١٩٤١) . وعني بنشر الجزء الثالث من «مباحث عراقية» معن حمدان علي سنة ١٩٨١ .

أصيب يعقوب سركيس في السنتين الأخيرتين من حياته بمرض الشيخوخة فصار

ينسى الحوادث القريبة. سألته يوماً عن الجزء الثالث من مباحثه العراقية الذي جمع مقالاته وهيأها للنشر فقال لي لا أذكر ذلك. ثم سألته عن مجيء سليمان البستاني مترجم الإلياذة الى العراق قبل سبعين سنة، فانبرى يذكر التفاصيل بدقة وقال إن البستاني جاء الى بغداد والبصرة وأقام فيهما ثماني سنين ومارس التعليم والتجارة واقترن بفتاة عراقية . . . ولم ينس بحاثتنا الشيخ الأحداث التي مرت قبل عشرات السنين.

رشيد السعدي

محمّد رشيد بن داود السعدي، كان أبوه الشيخ داود من علماء بغداد وعيّن مدرساً ومفتياً للمنتفق سنة ١٨٥٥. ثم تولّى إفتاء الجيش في الاحساء وألف رسالة في «طريق الحج من الاحساء الى الرياض فالحجاز» طبعت سنة ١٨٧٢. وتوفي ببغداد سنة ١٨٧٦.

درس محمد رشيد على علماء عصره وأنشأ مطبعة في بغداد سنة ١٩٠٣. وألف كتباً منها: غاية المراد في الخيل والجياد (١٨٩٦) قرّة العين في تاريخ الجزيرة والعراق وبين النهرين (١٩٠٧)، ونشر من الكتب: سبائك العسجد لعثمان ابن سند (١٨٩٧!) وديوان الشيخ كاظم الأزري (١٩٠٢)وقد طبعت تلك الكتب جميعها في بومبي بالهند.

قال إبراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون»: «كان هذا الرجل أعجوبة في قوة الحجة وبعد النظر والاطلاع الواسع على قياسات أغلاط أهل المنطق، يناظر ويبحث في علوم الملل والأديان فلا يجعل للخصم حجة ولا يبقي له كلاماً. كان آية في عرض الكلام في معارض بلاغية متنوّعة . . ».

كان له شعر، وتوفي ببغداد سنة ١٩٢١.

الدكتور سليمان غزالة

الطبيب الشاعر الأديب الدكتور سليمان غزالة، وهو عبد الأحد سليمان بن جرجس بن يوسف غزالة، ولد ببغداد في ٢١ أيلول ١٨٥٣ ودرس فيها. ثم قصد الموصل لمواصلة الدراسة، وعاد الى مسقط رأسه سنة ١٨٧٠، وعيّن معلماً في مدرسة الأليانس الأهلية (١٨٧٣)، وشدّ الرحال بعد ذلك الى بيروت سنة ١٨٧٩ فكان معلماً بمدرسة اليسوعيين، لكنه أكبّ على الدرس في الوقت نفسه.

وسافر الى باريس في السنة التالية فانتمى الى كلية الطبّ (١٨٨١) وتخرّج طبيباً سنة ١٨٨٦. واختصّ بالقبالة وطبّ العيون والبكتريولوجية ثم عاد الى الاستانة سنة ١٨٨٧ وحصل على وظيفة طبيب صحة العراق.

وقد وصل الى البصرة في حزيران ١٨٨٨ ، وجعل مقرّه في الحلة ، وعهد إليه بمكافحة وباء الهيضة والطاعون في الألوية الجنوبية . وفي سنة ١٨٩٣ أوفد بمهمة صحية الى طور سيناء ، ورحل منها الى الاستانة وسيواس ونواحي الأناضول وحلب في سبيل أداء أعماله الطبية .

عيّن طبيباً في طرابلس الغرب في كانون الأول ١٨٩٥ ، ثم نقل الى دمشق سنة ١٨٩٧ . وتوفيت زوجته الأولى صوفي كرومي ، فسافر الى باريس مجازاً . وتعرّف بالأديبة الفرنسية جان التي اشتهرت باسمها المستعار غي دافلين GUY D'AVELINE واقترن بها في العاصمة الفرنسية في ١٢ آب ١٨٩٧ ، وعمرها آنذاك نحو ٣٠ سنة .

وعاد الدكتور غزالة بزوجته الى الأستانة فأعيد تعيينه الى طرابلس الغرب (شباط ١٨٩٨) . وظلّ فيها الى الاحتلال الإيطالي ، فغادرها الى مالطة (تشرين الأول ١٩١١) ، ومن ثمّ قصد الأستانة فعيّن طبيباً للسفارة التركية في طهران . وقد وصل إلى إيران في آذار ١٩١٢ ، واختير رئيساً لمجلس الصحة الدولي في العاصمة الفارسية في تشرين الأول ١٩١٤ الى كانون الثاني ١٩١٦ .

وقد رجع الى بغداد بعد غياب طويل في كانون الثاني ١٩٢٠ . واتخذ مقامه في البصرة وانتخب نائباً عنها في المجلس التأسيسي (أيار ١٩٢٤) ، وبعد ذلك في مجلس النواب (١٩٢٥ ـ ٢٨) . وأدركته الوفاة في بغداد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٩ .

مؤلفاته

وضع سليمان غزالة مؤلفات كثيرة بالعربية منظومة ومنثورة ، منها : رواية لهجة الأبطال (١٩١١) سوانح الفِكَر (١٩١٥) سوانح الكَلِم (١٩١٥) السّبيل الأقصد (١٩١٧) سبب الموت الطبيعي (بالعربية والفرنسية) ، القصيدة الفيصلية (١٩٢٤) الحرية فلسفياً (١٩٢٤) الاعتماد على النفس (١٩٢٧) المعضلة الأدبية (١٩٢٧) حياتي الشخصية والوظائفية (١٩٢٩) الخ .

وصنّف «الوضيعة في الحكمة الخلقية في ١١ كتاباً (١٩٢٤ ـ ٢٧) ، وهي تتناول : الحياة الاجتماعية (١٩٢٤) منهاج العائلة (في جزءين ١٩٢٤ ـ ٢٦) خلاصة أركان الاقتصاد السياسي (١٩٢٦) العشق الطاهر (١٩٢٥) القصيدة الفردوسية (١٩٢٤) تاريخ الحرية البشرية (١٩٢٦) الهوى (١٩٢٦) الحبّ البشري (١٩٢٦) خلاصة الأدب الرياضي العملي (١٩٢٧) الاقتصاد السياسي (١٩٢٧) الأدب النظري العمومي (١٩٢٧) .

أما زوجته الثانية الفرنسية فكانت روائية معروفة ولها مشاركة في الفنّ كالرسم بالزيت على قماش الكتان . ولدت سنة ١٨٦٧ ، وعاشت مع قرينها في طرابلس الغرب وطهران والبصرة وبغداد وتوفيّت بعده . ونشرت باسمها المستعار «غي دافلين» روايات لطيفة باللغة الفرنسية أشهرها «أتيلا» ملك الهون الذي دمّر الحضارة الأوروبية في القرن

الخامس الميلادي، وكان يقال إنّ العشب لا ينبت حيث وقعت سنابك خيله. وقد قال الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في هذا الفاتح الطاغية:

إنّ آتيـــلا، ومـــا كـــان ســـوى ... نقمـــــــــة الله وسيـف الغضـب
مـــلأ الأيـــام هـــولاً ودمـــاً ... فحَشَـــاهـــا خـــافـق من رهـب
وهـــو المأثـــور عنـــه قـــولـــه ... في سبيل الفخـــر فـــاسمع واعجب:
«لم يغـــادر بي جـــوادي تـــربـــة ... وعليهـــــا أثـــــر للعشـب !»

ومن رواياتها الأخرى: رسّام السيّدة، سكن بيننا، كنز علي خوجه، نجم بزغ، وردة الشواطىء، مريم المجدليّة (١٩٢٧) الياقوت القتّال (١٩٢٧)، الخ.

وكان للدكتور غزالة وقرينته، بعد إقامتهما في بغداد سنة ١٩٢٤، مجلس يؤمّه رجال البلد وتبحث فيه موضوعات العلم والأدب والفن والاجتماع.

أغا بزرك الطهراني

الشيخ محمّد محسن بن علي الرازي المؤرخ البحاثة المعروف باسم «أغا بُزُرْك الطهراني»، ولد بطهران في ٧ نيسان ١٨٧٦ ودرس على علمائها.

قدم النجف سنة ١٨٩٥، فتتلمذ على يد الشيخ محمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمّد طه نجف وغيرهم. ثم قصد سامرّاء ولازم محمد تقي الشيرازي أعواماً. وعاد الى النجف سنة ١٩٥٥ فانصرف الى التأليف والتصنيف. وجمع خزانة كتب حفلت بنفائس المطبوع والمخطوط، وقد وقفها على طلبة العلم سنة ١٩٥٥. ورحل الى إيران والهند وسائر الأقطار الإسلامية والعربية بحثاً عن المصادر للموسوعة التي عكف على وضعها في تصانيف الشيعة.

توفي بالنجف في ٢٠ شباط ١٩٧٠.

قال فيه سلمان هادي الطعمة: «إنّ هذا المفكر الذي عرفته عالماً بارعاً وأديباً فذاً ورجل بيان أمضى حياته بالتتبّع والدراسات العميقة، أوتي مكانة فريدة في الثقافة الجامعة وأحاط بأسرار اللغتين العربية والفارسية...».

وضع مصنفات كثيرة أهمها: الذريعة الى تصانيف الشيعة (صدر منه ١٨ جزءاً في ٢١ مجلداً، ١٩٣٧ ـ ٦٧)، الكرام البررة (في جزءين ١٩٥٤ ـ ٥٨)، نقباء البشر في القرن الرابع عشر (٤ أجزاء ١٩٥٤ ـ ٦٨). وله أيضاً: حياة الشيخ الطوسي (١٩٥٧) ذيل كشف الظنون (١٩٦٧) المشيخة (١٩٣٧) مصفّى المقال في مصنّفي علم الرجال (١٩٥٩) الخ.

اسماعيل باشا البابان

من فضلاء الأسرة البابانية اسماعيل باشا المعروف بالبغدادي أو النوري ابن محمد أمين باشا بن سليم باشا، ولد ببغداد ودرس في استانبول. وكان من رجال الجيش التركي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، نال رتبة أمير لواء. وكان آخر مناصبه مديرية الشعبة الثانية لدائرة الضبطية (الشرطة) في استانبول قبل أن يعتزل الخدمة وينصرف الى التأليف.

إشتهر بكتابه «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون» (طبع في مجلدين سنة ١٩٤٥ ـ ٤٧)، وقد أنفق في تأليف هذا الذيل نحواً من ثلاثين سنة وفرغ من تصنيفه سنة ١٩١٢. وألف أيضاً «هدية العارفين» في أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين (في مجلدين ١٩٥١ ـ ٥٥).

توفيّ إسماعيل باشا في استانبول سنة ١٩٢٠.

قال عباس العزاوي إنه كان دؤوباً على العمل، عارفاً بالكتب والمخطوطات، وكان الى ذلك خطاطاً ماهراً يشار اليه بالبنان.

يوسف رزق الله غنيمة

الوزير البحاثة الأديب يوسف رزق الله غنيمة ولد في بغداد في ٩ آب ١٨٨٥ وتوفي في لندن التي قصدها مستشفياً في ١٠ آب ١٩٥٠. كان وزيراً للمالية والتموين وعضواً بمجلس الأعيان ومديرا عاماً للآثار الخ.

من مؤلفاته: تجارة العراق قديماً وحديثاً، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، محاضرات في مدن العراق، الحيرة: المدينة والمملكة العربية الخ.

أسهبت في ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

***

نشر المحامي حارث ابن يوسف غنيمة كتاباً في سيرة والده: يوسف غنيمة من أركان النهضة العلمية في العراق الحديث (طبع ببغداد، ١٩٩٠) وكان قد نشر أيضاً قبل ذلك «يوميات يوسف غنيمة: رحلة الى أوروبا ١٩٢٩» (بغداد، ١٩٨٦).

ذكر حارث ان الجدّ الأعلى للأسرة القسّ يشوع بن الشماس غنيمة كان من النساطرة متزوجاً حسب عادة الكهنة الشرقيين، وكان يقيم في بغداد في النصف الأول من القرن السابع عشر. وانتمى حفيده عيسى بن الشماس غنيمة الى الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٧٤٣. أما والد يوسف، وهو رزق الله غنيمة، فكان رئيس كتاب المكوس في بغداد

وتوفي في الثامنة والثلاثين من عمره. ولما ولد يوسف سمي يوسف نعمة الله قرياقوز لكنه عرف باسمه الأول. وتوفي والده وهو في الخامسة من عمره فكفلته والدته ورعاه عمّاه شكر الله ونصر الله.

درس في المدرسة الكلدانية الابتدائية ثم انتقل في أوائل سنة ١٨٩٨ الى مدرسة الأليانس وتخرج فيها سنة ١٩٠٢، وقد تعلم فيها اللغات العربية والفرنسية والانكليزية وشيئاً من التركية والعبرية إضافة الى العلوم والرياضيات والجغرافية والتاريخ. وألم بعد ذلك باللغة السريانية، ودرس العربية على الأب انستاس ماري الكرملي. وافتتح سنة ١٩٠٦ محلاً تجارياً وحصل على وكالات لاستيراد المضخّات والمحرّكات الخ.، وأسس فندقاً عصرياً بعد الاحتلال البريطاني. وأنشأ سنة ١٩٠٩ بالاشتراك مع المعلم داود صليوا جريدة «صدى بابل».

انتخب عضواً في مجلس إدارة لواء بغداد (شباط ١٩٢٢)، وتولى تدريس تاريخ المدن العراقية في مدرسة المعلمين العالية المؤسسة في كانون الأول ١٩٢٣. وانتخب نائباً في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) وكان مقرراً للجنة تدقيق لائحة القانون الأساسي. وأصدر جريدة «السياسة» اليومية في ٣ آذار ١٩٢٥، الى ٣ تموز ١٩٢٥، وانتخب نائباً عن لواء بغداد (حزيران ١٩٢٥) ثم أوقف صدور جريدته.

أصبح وزيراً للمالية (١٩٢٨ ـ ٢٩) و ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ـ ٣٥ و١٩٣٥، ووزير التموين (١٩٤٤ ـ ٤٦) ووزير المالية (١٩٤٦) مع وكالة وزارة التموين، ووزير المالية (١٩٤٧ ـ ٤٨).

غادر العراق بإجازة مرضية في تموز ١٩٢٩ قاصداً الاستشفاء فزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر وإيطالية وفرنسة وانكلترة وعاد عن طريق فرنسة وايطالية وتركية وسورية ولبنان في تشرين الأول ١٩٢٩.

أعاد إصدار جريدة السياسة بعد تعطيل جريدة نداء الشعب لتكون لسان حال حزب الإخاء الوطني (٣٠ كانون ثاني ١٩٣١) ثم عطلتها الحكومة في ٢٤ آذار ١٩٣١. ثم عين مديراً عاماً للواردات (٢٤ كانون أول ١٩٣٢) فمديراً عاماً للمالية (١٦ حزيران ١٩٣٤) فوزير المالية (٢٧ آب ١٩٣٤) نائب بغداد (كانون أول ١٩٣٤) الى نيسان ١٩٣٥. وزير المالية (٤ آذار ١٩٣٥) الى ١٦ منه. عين مديراً عاماً للمالية للمرة الثانية (٢٧ حزيران ١٩٣٥). تولى مديرية الأملاك والأراضي الأميرية العامة أيضاً بالوكالة (تموز ١٩٣٥) ثم عين مديراً عاماً للمصرف الزراعي الصناعي بالوكالة (آذار ١٩٣٦). ثم نقل من مدير المالية العامة مديراً عاماً للمصرف أصالة (١٢ كانون أول ١٩٣٦). الى ١٩ تشرين ثاني ١٩٤١ حين نقل مديراً عاماً للآثار مع بقائه مديراً عاماً للمصرف بالوكالة الى ١٧ آذار ١٩٤٢. ثم تولى مديرية المصرف بالوكالة أيضاً من ٢٧ تشرين أول ١٩٤٣ الى ١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ بالإضافة الى مديرية الآثار وبعد ذلك مديرية

التموين العامة . وقد قام المصرف بإمداد الزراع بالسلف والتدخل في الأسواق لرفع أسعار المحاصيل كالقطن وبذر الكتان والمساهمة في المشاريع الصناعية كشركة السمنت العراقية وشركة استخراج الزيوت النباتية وشركة تجارة وطحن الحبوب ومشاريع أخرى تتعلق بنسج القطن وأهراء الحبوب ودباغة الجلود وصيد الأسماك .

عين مديراً عاماً للآثار القديمة (٢٠ تشرين ثاني ١٩٤١) وكان نائب رئيس لجنة التموين الاستشارية أيضاً (نيسان ١٩٤٢) . ونقل مديراً عاماً للتموين (٢٥ حزيران ١٩٤٤) وأصبح وزير التموين (١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ الى ٢٣ شباط ١٩٤٦ . وعين عضواً بمجلس الأعيان خلفاً للبطريرك يوسف عمانوئيل الثاني المستقيل (١٤ أيار ١٩٤٥) . ودخل في وزارة أرشد العمري وزيراً للمالية ووزير التموين بالوكالة (١ حزيران ١٩٤٦) . وقد استقال من وكالة التموين في ٣١ تموز ١٩٤٦ . واستمر في المالية الى استقالة الوزارة في ٢٠ تشرين ثاني ١٩٤٦ . وتقلد وزارة المالية أيضاً في وزارة صالح جبر (٢٩ آذار ١٩٤٧)، وتم في عهده تأسيس البنك المركزي الذي عرف باسم المصرف الوطني العراقي (تشرين الثاني ١٩٤٧) . واستقال من الوزارة بعد أحداث الوثبة المعارضة لمعاهدة بورتسموث في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨ .

تكلمت عن أدبه ومؤلفاته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» . وقد ذكرت مقالاته التي نشرها سنة ١٩٢٩/ ٣٠ عن «حقوق الفلاح والعامل في العراق» . وقد قال هاشم جواد عنه إنه سبق الصحفيين والتقدميين في ميدان المطالبة بحقوق الفلاح والعامل وأشار بكل قوة وحماس الى ضرورة العناية بالطبقة العاملة في المعامل والمزارع . وذكر ما كتبه يوسف غنيمة سنة ١٩٢٩ إن من واجب العدل ومقتضيات النظام الاجتماعي الراقي أن تضمن راحة كل أفراد الأمة وتكفل طمأنينتهم مدى الحياة، فضلاً عن وجوب الاهتمام بإعالة ذويهم بعد موتهم، وذلك بتحديد ساعات العمل وتوفير شروط الصحة في محلات سكناهم وأعمالهم وأمان ومستقبل كل فلاح وعامل وغيرهما ويفكر في وسائل معيشتهم عند العجز والهرم وحلول العاهات، ويقام بإعالة أيتامهم وأراملهم بعد موتهم .

وتساءل هاشم جواد هل قال لورد بيفيريج أكثر مما قاله هذا الرجل العراقي قبله بستة عشر عاماً؟

وقال يوسف غنيمة إن مطالب الفلاح يجب أن تشمل بقاء الحكومة مالكة لرقبة الأرض، وتفويض الأراضي للفلاح والعامل بيده وترجيحه على من سواه، وتشجيع الملكية الصغيرة والحدّ من مساحة الأراضي التي يملكها الشخص الواحد، وتأليف مصرف زراعي ونقابات زراعية، وحماية الإنتاج الزراعي وإيجاد الأسواق له، الخ .

أما مطالب العمال فلخصها في تحديد سنّ العمل وساعات العمل والأجرة الصغرى، وضمان العمال في حالة المرض وعند وقوع الحوادث المهنية وعند الشيخوخة

والعجز، ومعاونة العمال في أيام العطل، ومكافحة البطالة، والمساعدة في إيجاد مساكن صحية ورخيصة، ورفع مستوى التهذيب، الخ.

طـه الـراوي

الكاتب المحقق اللغوي «معلم الجيل» طه الراوي ولد في بلدة عانة المقابلة لراوة على الفـرات (كما أعلمني بذلك ولـده حارث) سنـة ١٨٩٠ وتوفي في بغـداد في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٦. كـان أستاذاً في جـامعـة آل البيت ودار المعلمين العـالية ومـديـراً عامـاً للمعارف وعضو المجمع العلمي العربي في الشام ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر. نشرت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

كتب الشاعر المصري علي الجارم إلى طه الراوي يقول:

«هذه والله، يا طه، صلة الـروح التي لا تنفصم وإن بعد المكان وتعاقبت الأزمان. ماذا أكبر فيك؟ والله لا أدري. أهو علمك؟ أهو أدبـك؟ أهو كريم خلقك، أم هؤلاء جميعاً؟ أم هناك أخوة بعيدة المدى منذ خلقت الأرواح لا أعرفها. رأيت كثيراً من العلماء وعاشرت عديـداً من الأدباء وخالطت جمهرة من ذوي الخلق الكريم. فما كـانوا لك نداً ولا لشخصك العظيم في نفسي ظلاً. . . »

وقال توفيق السويدي:

«وقد أحببت صديقي الفقيد لميزة زادته في نظـري إعجاباً، وهو أن تفكيره كان بعيداً عن تفكير بعض المعمّمين. وأريد بهذا أن الراوي لم يكن يتسّم بالجمود بل كان يريد أن يساير الزمن ويواكب تطوراته، ولكن تقدّميته هذه كانت تقف عند حدود معيّنة بحكم النشأة والتربية التي نشأ وتربّى عليها.

«وفي رأينا أن المرحوم الراوي كان يعتقد برسالة روحية سامية دأب على التغنّي بها منذ حداثته الى اليوم الذي ودّع فيه الحياة، رحمه الله».

وقال عباس العزاوي:

« . . . ولا أخـالني مبـالغـاً إذا قلت أن الفقيـد استكمل أدب النفس، وهـو أصل التهذيب الحقّ وأداة العلم الـوافر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل خدم بها عنـده مدارك الأمة في تعليمها وتلقينها، ولا زال على ذلك الى أن لفظ نفسه الأخير. فهو أستاذ معروف، وفاق أكثر في تـوجيه اللغة العـربية، وكان وافـر الاطلاع فيها، عـارفاً بحقائقهـا، مشبعاً في حبها. . . ».

وقال الدكتور مصطفى جواد في رثائه:

أرى الموت لم يترك لــذي اللّبّ مفــزعــاً — غــداة رمى طـــه فأصمى وروّعـــا . . .
فقـــدنـــا عميـــد الألمعيّين ذا النّهى — وذا الــرأي، محمــود المفــارس مــونعــا
هــوى كهـــويّ العبقـــرّيين لم يكن — لقلبهــم صبر على حمل مــــا وعــى
قضى عمـــره في نصرة العلم ســالكــاً — سبيل خـــلال الخير مــا حــاد إصبعــا
أبـا هــاشم، أضحى مصــابك شــامـلاً، — فكيف التـأسي والأسى قــد تــوزعـــا؟
لقـــد كنت لـــلآداب والعلم مـــوئلاً — فــلا غــرو أن أضحى ممـــاتك مفــزعــا
وقـــد كنـت قـــوّالاً بحقّ وآمــــراً — بعــرف ومـــدعـــاة الى الخير مقنعـــا
تســاميـت عن جهل التعصّب مبغضـــاً — لأربـــابـــه، عن خبثهــم مترفّعـــا
طــوتك يــد الأقـــدار سفــراً مكــرّمــاً — ستقـــرأه الأجيـــال أجلى وأنصعـــا

وقال الدكتور زكي مبارك :

فجعـت بـألطـف العلماء روحـــــــاً — وأفصحهــم إذا اشتجـــــــر الجدال
أديـب لا يســـــاميــــــه أديـب — لـــــه في كل معضلـــــة مقـــــال . . .

***

كتب أحمد حسن الزيات الى طه الراوي سنة ١٩٣٨ رسالة جاء فيها :

«لا أحب أن أتحدث في هـذه الرسـالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثـر، وأكنّ لك في نفسي من عظيم التجلّة، فإنّ معرض ذلك في خطاب يشبـه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي. فلأترك ذلك إذن الآن . . .» .

قال طه الراوي :

أميـل مع الحقيقـــــة حيث مـــالـت — وأجعـل ظـلّ رايتهـــــا شعـــــاري
وأدمغ بـــــالـــدليل هـــــراء خصمي — فـإن مــــــارى فـإني لا أمـــــاري

وكتب معروف الرصافي الى طه الراوي يقول :

أبلغ أبـــــا هـــــاشـم عنّي مغلغلـــــةً — يعجّ فيهـــا القــريـض الغضّ شكــرانــا
إنّي عهــــدتك حــــرّ النفس متخـــذاً — لك العـــلا مـأربــاً والصـدق ديـدانــا
نماك جـــدّ كــــريـم للعلى، فلـــذا — زكــوتَ نفســاً كما قــد فقت تبيــانــا
ظننتني قــد هجــرتُ الشعــر مُــذ زمنٍ، — وهل أطيـق لحبّ النفس هجـــرانـــا؟

***

طه الـراوي كاتب مشرق البيان، جميل الأسلوب. وقـد كتب في المواضيع الاجتماعية

فدعا الأغنياء الى التنبّه لموجة السخط من الطبقة الكادحة الفقيرة وترك البذخ وإنفاق جزء من ثرواتهم في التخفيف مما يعانيه إخوانهم في البشرية وبناء المشاريع المفيدة كالمستشفيات والمدارس والملاجىء. وقال :

«تنبّه البشر اليوم الى ما لم يكن يحلم به البشر القديم. وتكتسح العالم اليوم موجة سخط من هذا التفاوت الهائل بين الإنسان والإنسان: فألوف من الناس لا يصلون الى قوتهم اليومي وإلى ما يستر أبدانهم من الكساء والى ما يأوون إليه من المسكن إلا بعد الكدح المضني والكدّ المجهد . .

وقد قام أولئك الألوف يطالبون بالمساواة الاجتماعية ويقولون لأصحاب التكاثر: نحن وأنتم في البشرية شرع، ولولا جهودنا لما أصبتم هذه الكنوز. فنحن نريد المساواة، نريد العدل الاجتماعي . . .».

وارتأى لذلك وجوب النزول على حكم الواقع ورفع مستوى العيش بين الفئات الكادحة وتخفيف الضنك عن تلك الطبقات البئيسة لتهدئة سورة الغضب التي كادت توقد حرباً شعواء بين الفقراء والأغنياء. فإذا أراد الأغنياء أن يخففوا من حدة هذا الغضب الذي أخذ يتطاير شرره حولهم فما عليهم إلا أن يعالجوا ذلك بالأفعال لا بالأقوال.

هذا ولقد قلت في ترجمة الراوي أن تلامذته خير آثاره. وقد سئل المؤرخ المصري الأستاذ محمد شفيق غربال عن أهم مؤلفاته فأشار الى تلامذته المتحلّقين حوله في مجال الجواب على ذلك السؤال.

طه الراوي

عتب طه الراوي على معروف الرصافي في كانون الثاني ١٩٤٢ هجره للشعر بقصيدة أرسلها الى راويته مصطفى علي مطلعها :

أمصطفى بن عليّ، يا أخا ثقتي، ... إنّي عهدتك للإخوان معوانا
أبلغ مليك القوافي كلّ خالصة ... من التحايا تمجّ العطر ألوانا
ما باله، حرس الرّحمن مهجته، ... قد أوسع الشعر إعراضاً وهجراناً؟

فأجابه الرصافي بقصيدة منها :

أبلغ أبا هاشم عني مُغَلْغَلَةً ... يعجّ فيها القريض الغضّ شكرانا :
أحسنت ظنّك بي إذ جئت تمدحني ... بما به زدت حسن الظنّ إحسانا
ظننتي قد هجرت الشعر مذ زمن ... وهل أطيق لحبّ النفس هجرانا؟
ذاك الحبيب الذي أوسعته مِقَةً ... منّي، وصيّرته للمجد عنوانا . . .

ومضى الرصافي يقول أن حبّ الشعر قد شفّه حتى هجر له طيب المنام، يصحو بصحوته وينتشي بنشوته، يسلّيه إذا اعتلجت همومه، ويشدو به في المحافل مفتخراً. وختم قصيدته في لهجة حزينة مشفقاً أن يبوح بشعره في معشر الطغاة الذين لا يقيمون وزناً لحرية الفكر.

منير القاضي

العالم الفقيه الحقوقي منير القاضي ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٦٩. كان رئيس المجمع العلمي العراقي وعضو مجمع دمشق وعميد كلية الحقوق ورئيس ديوان مجلس الوزراء ووزير المعارف. ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

كان منير القاضي لطيفاً حسن الدعابة على وقاره. ذكر جعفر الخليلي في الجزء الخامس من كتابه «هكذا عرفتهم» أنه جرى في الندوة الأدبية لصبيحة الشيخ داود بحث الطلاق وهل يجوز للمرأة أن تمنح حق الطلاق. وكانت المناقشة عنيفة، وارتأت صاحبة الندوة وجوب تعديل قانون الأحوال الشخصية لمنح المرأة هذا الحق. وكان منير القاضي يخالف هذا الرأي ويرى فيه خروجاً على الشريعة الإسلامية.

وقال الخليلي إن المذهب الجعفري يجيز منح المرأة حق تطليق زوجها إذا نص عقد الزواج على هذا الحق. وأراد منير القاضي أن يمزح فقال: لو أردنا أن نجعل الطلاق بيد المرأة لما غبن أحد غيري في عالم الرجال، لأنني سأكون أول من تطلقه زوجه لإنعدام المزايا التي تتطلبها الزوجة في زوجها في شخصي.

وضجّ المجلس بالضحك.

عباس العزاوي

مؤرخ العراق عباس العزاوي ولد في أنحاء ديالى سنة ١٨٩١ وتوفي في بغداد في ١٧ تموز ١٩٧١. كان محامياً معروفاً وعضواً في المجمع العلمي العراقي ومجمع دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع القاهرة وعضواً في جمعية الدراسات التاريخية المصرية ومجمع اللغة التركية في أنقرة. إشتهر بمؤلفاته عن تاريخ العراق وفي مقدمتها «تاريخ العراق بين احتلالين في ثمانية أجزاء». نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية».

عين العزاوي معلماً في بعض المدارس الابتدائية في بغداد سنة ١٩٠٨، لكنه واظب على الدراسة. ونقل بعد ذلك معلماً أول في كربلاء، وكان جندياً كاتباً خلال الحرب العامة. وعيّن سنة ١٩١٧ كاتباً في المحكمة الشرعية، لكنه استقال من الوظيفة حين تخرجه في مدرسة الحقوق (١٩٢١) وانصرف الى المحاماة. وتولى التدريس أمداً غير

طويـل في المـدارس الأهليـة .

جمع عباس العزاوي مكتبة ضخمـة تعدّ عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات . وقد رأيتـه يومـاً يستعير كتاباً من مكتبـة المتحف العراقي لمراجعتـه . فقلت : أليس هذا الكتاب في خزانتـك؟ قال : بلى ، لديّ عدة نسخ منـه مخطوطة ومطبوعـة ، لكنها كلها ليست في متناول اليد ، وأيسر عليّ أن أراجع الكتاب في مكتبة المتحف! .

حين ابتنى عبـاس العـزاوي داره الجديـدة على شـاطىء نهر دجلـة خصّص الـدور الأسفل جميعه لمكتبته العظيمة . لكن الكتـب بقيت تتوارد وتتراكم وتملأ الغرف الأخرى حتى وصلت الى غرفة النوم . فقالت له زوجته : «آن لك أن تختار بيني وبين كتبك!» .

وقد روي عن الشاعر الانكليزي جون درايدين (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) John Dryden أنه كان مكباً على كتبه حتى ضاقت زوجته بالأمر ذرعاً وقالت له : «ليتني كنت كتاباً فأجد في رفقتك وقتاً أكثر» . فقال لها الشاعر الشيخ : «يا عزيزتي ، إذا أصبحت كتاباً فلتكوني تقويماً لأستطيع استبداله كلّ عام» .

حاولت جـامعة بغـداد شراء مكتبة عبـاس العزاوي وفـاوضته على السعـر ، وكانت مستعـدّة لدفع مـائة ألف دينار أو دون ذلـك لجميع المطبوعـات والمخطوطـات . لكن العزاوي رفض العرض وقال : لا أقبل بيعها بأقلّ من ٢٥٠ ألف دينار .

وزاره ذات يـوم وفـد أدبي مصري بصحبتـه سفير مصر وبعض الأدبـاء العـراقيين . وتناول الكلام بيع مكتبته الى الجامعة أو الحكومة فقال إنه ليس على استعداد لبيعها مهما دفع لـه من ثمن . وقال السفير المصري : ألا تخشى أن تـؤممها الـدولة وتأخـذها قسراً؟ فقال العزاوي مشيراً الى نهر دجلـة الذي يطلّ عليه من شرفة داره : إننـي أرميها كلها في النهر قبل أن يستولي عليها أحد!

وتوفي مؤرخ العراق . وكنت سائراً ذات يوم على شاطىء دجلة فرأيت موظفي مكتبة المتحف ينقلـون الكتب والمخطوطـات الثمنية من دار العـزاوي ويضعونها في سيـارات الحمل بلا عناية ولا اهتمام . أما الثمن الـذي قدّر لها فلم يتجاوز ، على ما أذكر ، ١٧ أو ١٨ ألف دينار .

طريقة العزاوي في تدوين التاريخ :

طريقة عباس العزاوي في تدوين التاريخ هي كتابة تسلسل الوقائع حسب السنين ، بعد الـرجوع الى المصادر المتيسرة . وكانت أكثـر مصادره للحقبة التي بدأت بـالاحتلال المغولي مخطوطـة ومكتوبة بالتركية القـديمة أو الفارسية . وكثيراً ما شكـا من قلة المصادر لفترات معيّنـة . لكنـه استعمل مصـادره الى أبعـد مـا استطـاع ، وسرد الحوادث التي سجّلتها دون تمحيـص في معظم الأوقات ، نـاقلاً أخبـاراً متضادّة أو متنـافرة حينـاً بعد حين .

ومما يروى أن أحمد حامد الصرّاف قال عند صدور بعض أجزاء «تاريخ العراق بين

احتلالين» وفيها نقل عن كتاب «كُلْشَنَ خلفا»: «وهل يعرف العزاوي اللغة التركية القديمة العويصة لنعتمد على ترجمته لما جاء في «كلشن خلفا؟»».

فقال العزاوي حين نقل إليه ذلك الكلام: «وهل رأى الصرّاف مخطوطة «كلشن خلفا» ليستطيع الحكم على ما جاء فيها ونقل عنها؟»».

ثم لما بلغ العزاوي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتيسّرت له مصادر كثيرة عربية وتركية، مخطوطة ومطبوعة، وصحف منشورة تذكر الأخبار والأحداث على علاّتها. فقال:

تكـاثـرت الظبـاء على خـراشٍ فما يـدري خـراش مـا يصيـد!

وخراش كلب صيد كان لا يجد ما يصيده، ثم تكاثرت عليه الظباء فحار أيّها يصيد.

قال العزاوي في مقدمة الجزء الثامن من «تاريخ العراق» بين احتلالين: «تزايدت المراجع وتكاثرت بسبب تكاثر المطبوعات. وتأسست خزائن الكتب فوصلت الى درجة الإشباع. وصرتُ في حالة تردّد أو حيرة في الاختيار. . .»

ثم يقول: «وعهدنا هذا أدركنا الكثير من أيامه وذقنا حلوه ومرّه. شاهدنا أيام الاستبداد وزمن الدستور وأوقات الحرب بما فيها من غوائل وآلام ومحن وما فيها من أفراح وأتراح. وصفحات هذه الحقبة تدعو الى تنقّل الكاتب تنقلاً عير مطّرد، بل تضطره الى تحوّل مضطرب. يرى المرء نفسه في حاجة ماسّة الى تدوين صفحات قد يكون شاهد عيانها أو من المطلعين على كثير من أوضاعها. ولكن المرء تعوزه المعرفة التاريخية المتقنة الصحيحة أو الى ما يذكّر بالحالة المشهودة والتبصّر بها لم يكن من شهوده. . .».

لقد اكتفى العزاوي بتدوين الوقائع خطِيرها وتافهها، صارفاً النظر عن المحاكمة والغربلة والتحليل، تاركاً مهمة المؤرخ لمن يأتي بعده فيستعمل المادة التي جمعها له بجهد كبير وعناية فائقة خلال عمر كامل.

قال الشاعر كمال عثمان:

رأيت الـرجـال بـآثـارهـم وتـاريـخ «عبّـاس» آثـاره. . .

فمن كـأبي فـاضل في الـرجـال وأصـل التـواريخ أسفـاره

نشر عباس العزاوي سنة ١٩٥٣ «سمط الحقائق في عقائد الاسماعيلية»، وهو منظومة لداعي الدعاة علي بن حنظلة أصدرها له المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. وعلى أثر ذلك تلقى كتاباً من أحد المستشرقين المقيمين في حيدر آباد بالهند ـ وأظنه فريتز (سالم) كرينكو ـ يدعوه الى الانتماء الى الجمعية الاسماعيلية، وهي جمعية علمية تضم المؤرخين والعلماء المهتمين بتاريخ الاسماعيلية وعقائدهم، ولا ينتمي هؤلاء

بطبيعة الحال الى فرقة الغلاة .

قرأت الكتاب للعزاوي ـ وكان باللغة الإنكليزية ـ فقال العزاوي : يريدني أن أصبح إسماعيلياً؟

قلت : إنها جمعية علمية لا شأن لها بالعقيدة . ولما نشرت سمط الحقائق أصبحت أهلاً للانخراط في سلك أعضائها .

فهزّ رأسه وقال : كلا . من ذا يصدّق أن العزاوي قد أصبح من أعضاء الجمعية الاسماعيلية ، وهو لا يؤمن بالفكرة؟

وزار المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسّينيون بغداد في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وأتى يوم الجمعة الى دير الأب أنستاس الكرملي ، وكان هناك فريق كبير من رجال العلم والأدب والفضل . ولم يكد يستقر به المقام حتى أخذ كعادته يتكلم عن الحلاج ويشرح مأساته ويسأل هل عثر على آثار أو مخطوطات جديدة له؟ فقال عباس العزاوي : «ما قيمة الحلاج وأية مأساة حلت به؟ لقد كان كافراً زنديقاً فكفّره علماء المسلمين واستحلّوا دمه . وأنا ، كفقيه إسلامي معاصر، لو جيء به اليّ الآن بعد ألف عام ، لأفتيت بتكفيره وقتله عوداً على بدء!» .

وكان هذا الكلام مثار دهشة الحاضرين وإشفاق ماسّينيون .

نوادر العزاوي :

كان عباس العزاوي يطبع الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الأدب العربي في العراق» . وكان على عادته يجلس في غرفة المحامين أو المقهى أو إحدى المكتبات ويسأل أوّل قادم أن يساعده في تصحيح مسوّدات الطبع .

وجلس ذلك اليوم في المكتبة العصرية ، فجاءه ولده فاضل بآخر مسودات الكتاب ، وقد تناولت مبحث الشعر في العهد العثماني الأخير. وألقى بعض الجالسين نظرة عليها فقال للعزاوي : إنك لم تفِ الحبوبي حقه ولم تذكر شعراء لهم مكانتهم كحيدر الحلي وجعفر الحلي . . .

فغضب العزاوي وصاح بابنه فاضل : إحذف هذا الفصل برمته ، أخرج هؤلاء الشعراء من الكتاب ، أخرجهم! .

فضحكت وقلت : يا أبا فاضل ، هل أنت رضوان خازن الجنان وهل كتابك فردوس الأدب لتدخل من تشاء وتخرج من تشاء؟

وضحك المؤرخ واحتفظ بذلك الفصل من كتابه وأشار في آخره الى الشعراء الذين أغفل ذكرهم من أصحاب الدواوين .

كنت ذات يوم في زيارة لمنير القاضي رئيس ديوان مجلس الوزراء في دائرته ، فجاء

عباس العزاوي، وقد طبع كتاباً جديداً له، فأهدى نسخة منه الى السيد منير. ثم دفع اليه نسخة ثانية ورجاه تقديمها هدية الى رئيس الوزراء، فاستدعى رئيس الديوان أحد موظفيه وقال: هذا كتاب الأستاذ العزاوي يهديه الى رئيس الوزراء فقدّمه الى فخامته.

وخرج عباس العزاوي، فلم تمض هنيهة حتى عاد الموظف يحمل الكتاب وسأل رئيسه: كم أعطي للعزاوي، ديناراً أو دينارين؟ فقال منير القاضي: إنك على ما يظهر لا تعرف أقدار الناس، وعباس العزاوي محام ومؤرخ جليل، وهو يهدي كتابه تفضلاً منه لا طلباً لمبلغ زهيد أو كبير. . .

وخرج الموظف الجاهل وهو يجرّ أذيال الخيبة.

***

كثرت المداعبات مع عباس العزاوي في المقهى الذي اتخذه منتدى له أعواماً طويلة على شاطىء دجلة وفي نادي القلم وغرفة المحامين.

وقد قال له بعض الأدباء: إنّك لا تحسن الأدب ولا تعرف كتابة التاريخ، ولكن لديك مصادر من المخطوطات والمطبوعات النادرة، مناجم زاخرة بالمعلومات الثمينة والعوائد والفوائد، فأعرنا طائفة من هذه المراجع لنفيد منها وندوّن جوانب من تاريخ العراق وأدبه في عصور الانحطاط.

فغضب العزاوي وقال: إنني حصلت على هذه المخطوطات والمطبوعات بالجهد الجهيد، وبذلت في سبيلها النفس والنفيس، وسعيت أجمعها آناء الليل وأطراف النهار، ولم تأتني عفواً ولا هيّأتها لي الدولة أو أية مؤسسة عامة. فلماذا أنتم قاعدون متقاعسون، تعضون على الفلس والدّانق بالنواجذ وتريدون الشيء بلا بذل ولا جهد؟ والله لأحفظنّ هذه النوادر في الخزائن المغلقة وأنفس عليها النور والهواء، لأرجع إليها في مباحثي دونكم وأجيئكم كلّ يوم بالأخبار الغريبة والآثار التي يجهلها عالمكم وجاهلكم.

وقد مضى العزاوي الى الرفيق الأعلى وآلت مكتبته الى خزانة دار الآثار، فأين الذين حلموا بتقليب صفحاتها والنهل من ينابيعها الصافية؟ لقد مات أكثرهم ولاذت بقيّتهم بالعزلة والخمول.

وأخبرني عباس العزاوي أنّ في الاجتماع الذي عقده نادي القلم لتأبين جميل صدقي الزهاوي عند وفاته، قال محمد رضا الشبيبي: رحم الله الزهاوي، هل كان شاعراً، أو أنه لم يكن شاعراً؟ ولعلّ الشبيبي قصد الإشارة بذلك إلى ما قاله النقّاد الأقدمون من أنّ أبا تمّام والمتنبّي حكيمان والشاعر البحتري.

وكان عباس العزاوي وأخوه علي غالب كثيراً ما يمرّون بدارنا عند عودتهما من المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه مساء، فأقول لهما: تفضّلا واشربا القهوة، فيعتذران بتأخر

الوقت. وأجيبهما مداعباً ببيت الشاعر القديم:

تمرّون الديار ولا تعوجوا، كلامكمُ عليَّ إذن حرامُ!

والبيت من شواهد النحو على حذف الخافض لاقتضاء الضرورة، فقال الشاعر «تمرون الديار» بدلاً من «تمرّون بالديار».

وكان العزاوي يقسو أحياناً في مداعبته لأصدقائه وزملائه فيردّون عليه بالمثل. وقد سألوه بعد يوم تسجيل النفوس: كم سجّلت عمرك؟ فقال: دون التسعين! وقالوا له: إنك قد شخْت وهرمت وبلغت من العمر عتيّاً، فأجاب متمثلاً بقول الشاعر البدوي:

شايب وعايب والهوى ما نسيناه!

وذلك أن فتيات الحيّ رأين شاعر القبيلة الشيخ وهنّ يجلبن الماء، فقلن له: قد كبرت! فقال: أجل، قد شخت ونحلت، لكنني لم أنسَ الحب.

وقد قال جميل صدقي الزهاوي:

ليس الحديث عن الهوى من شاعرٍ شيخٍ جريرة

وروى عبّود الشالجي في كتابه «الكنايات العاميّة البغدادية» أن المحامين في غرفتهم كانوا يقسون في مداعبة عباس العزاوي ويعيرونه بأنفه وقسمات وجهه. وفي ذات يوم دخل الشالجي فوجد المحامي محمد جواد الخطيب جالساً بين عباس العزاوي وعباس عبد اللطيف البلداوي فدسّ في يده رقعة كتب فيها:

إنّي رأيتك جالساً في مجلس حلو ظريف

ما بين عباس اللطيف وبين عباس «الكسيف»

يريد بالكسيف الكثيف أو الثقيل أو الغليظ المعاشرة.

انتخب عباس العزاوي عضواً بالمجمع العلمي العربي، فقال صديقنا إبراهيم الواعظ: إذا لم يكرّمه الأدباء فنكرمه نحن المحامين. وسعى لدى نجيب الراوي نقيب المحامين فأقام للعزاوي حفلة تكريم شائقة.

تأخر افتتاح الحفل حتى جاء فاضل العزاوي بمعروف الرصافي وأجلسه في الصفّ الأمامي، وكان يلبس الكوفية والعقال والعباءة وتبدو عليه آثار الشيخوخة.

وتكلم الواعظ فداعب المحتفى به دعابة ثقيلة لم يكن مناسباً، ويا للأسف، ورودها في خطاب تكريم.

ثم تكلمت ووفيّت مؤرخ العراق حقّه على ما أعتقد. وأشرفت، وأنا أستهلّ كلامي، على الحفل فوجدت النادي يغصّ بالرجال وليس بينهم سوى سيّدة واحدة، فقلت: سيّدتي وسادتي، وكان ذلك مثار بهجة الحاضرين وضحكهم.

كان عباس العـزاوي يكثر من التنادر بأخبار عشيرتـه ، فيقول إن العزاوي يخرج على فرسه ويدور بين مضارب العشائر وقرى الريف سنة واحدة ، ويقضي في كل مكان مدة الضيافة المألوفة ، وهي ثلاثة أيام . فإذا ما عاد الى ديار قبيلته واستشرف خيامهم ، قال : واأسفاه ، عدنا الى مهجّات أهلنا ! .

وكان عباس العزاوي يتوكل في الدعاوى في كربلاء والنجف وكركوك وبعقوبا وسائر أنحاء العراق ويذهـب للمرافعة أمام محاكمها . فيقول لـه موكّله : ماذا تحب أن نحضر لك في الغداء؟ فيعدّد العزاوي أصنافاً مختلفة مـن الطعام ، ثم يقول : هذه بالإضافة الى ما تعدّونه عادة للضيف ! .

وقال إن عزاويـاً تطوّع في الجيش التركي وخدم فيه عدة سنين . وعاد إلى أهلـه فقالوا له : هل تعلّمت التركيـة؟ قال : نعم ، لقـد أتقنتها . فقالـوا : إذن ، يا مسيعد ، تفيـدنا حين يأتي موظفوا الكودة (ضريبة الأغنام) فتتفاهم معهم وتخفّف عنّا عبء الضريبة .

وفي ذات ليلـة جاءت الخيل تحمل مـوظفي الكودة ، فصـاح رجال القـرية : اليـوم يومـك ، يا مسيعد ، فتعـال وكلّم الجماعة . لكن مسيعـد هرب واختبأ في بعـض الخيام قائلاً : إنني أحسن التركية في النهار ، فكيف تريدونني أن أعرفها في الليل؟

قرر مجلس أمانة العاصمة تسمية شوارع بغداد ، فاختار لها أسماءً بعضها لأشخاص مغمورين ذكرتهم الكتب الصفر القديمة وعثر عليها عبد اللطيف ثنيّان .

قال عباس العزاوي : أقترح أن تسموا شارعاً باسم هولاكو ، فإنه على طغيانه ، أشهر في الأقل من النكرات التي أطلقت أسماؤهم على بعض الشوارع .

عاد عباس العزاوي من فينّا سنة ١٩٦٢ وقد أجرى جراحة لعينيه فقال :

وجـدت في مستشفى العيـون بعـاصمـة النمسـا رجلين عـراقيين أعميين من أهل الكاظمية ، وقد جاءا لمعالجة بصرهما . وقاما بناءً على إشارة الطبيب بابتياع قرنيتين لترقيع باصرتيهما من عجوزين فقيرين مشرفين على الموت .

وكان الـرجلان يقيمان في المستشفى وينتظران مـوت صاحبيهما لكي يتمكن الطبيب من قلع قرنية المتوفى فوراً وتركيبهـا خلال ساعات معدودة على شبكة عين الأعمى فيتاح له أن يبصر النور .

لم يكن للـرجلين من حـديث سـوى التمنّي على الله أن يعجّل بقبض روح الشيخين اللذين اضطرتهما الفاقة على بيع عينيهما بيعاً آجلاً . وبعد أيام توفي أحد البائعين ، فهرع صاحبه إلى غرفة الجراحة وغـرزت قرنية عين الميّت في عينه ، فلم تمض أسابيع حتى تمّت المعجزة .

أما الثاني فانتظر طويلاً، ولم يمت صاحبه، بل انتعش وعادت قواه وحسنت حاله. وكان يقول كل يوم: ربّاه! أليس لهذا الليل من آخر؟ كم أنتظر وقد عددت لهذا الرجل قيمة عينيه نقداً، وهو يرفض أن يموت! ربّاه، أنقذني من هذه الحال التي لا تطاق وعجّل بخلاصي! . . .

وعاد العزاوي إلى بغداد، والأعمى لا يزال يبتهل إلى الله أن يميت صاحب عينه ليستردّ البصر.

ذكّرتني هذه القصة بما كتبه الأديب الفرنسي دنيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) عن طبيب كان بحاجة إلى جثّة لتشريحها. فسأل الممرّض الذي قال: لقد جئت في الوقت المناسب حقاً، فلدينا رجل محتضر لن يعيش ساعتين.

قال الطبيب: ساعتين؟ لا، إنّ هذا لا يفيدني، فأنا ذاهب هذا المساء في رحلة قصيرة لن أعود منها قبل مساء الغد.

ـ لا بأس امض لطيّتك. وسنحاول إطالة عمر المريض قليلاً في انتظار أوبتك.

وذهب الطبيب، أما الممرّض فمرّ بالصيدلية وجلب دواءً منعشاً ناوله إلى مريضه فنام نوماً هنيئاً طوال الليل. وجاء الممرض صباحاً فوجد صاحبه جالساً يسعل ويبصق، وقد خفّت وطأة الحمّى وسكن الألم. وشكره المريض قائلاً: لا أدري أي دواء أعطيتني، ولكن يحقّ لك أن تفخر بأنك أعدتني إلى الحياة.

قال الممرض: حسناً، حسناً، ولكن ماذا سيقول الطبيب؟

ـ ماذا سيقول الطبيب؟

ـ لا شيء، لا شيء.

واستمرّت حال المريض على التحسّن. وعاد الطبيب في المساء فبادر الممرّض قائلاً: أين الجثة؟

ـ ليس هناك جثة.

ـ كيف، ألم يمت المريض؟

قال الممرض: إنها غلطتك، فقد كان مشرفاً على الهلاك، غير أنك ذهبت وتركته يبدّل رأيه ويتمسّك بأهداب الحياة.

فقال الطبيب: لا بأس، اترك الأمر إلى فرصة ثانية.

ومن قبيل ذلك ما حدّثني به أحد الاصدقاء قال: كان في الكوت حفّار قبور شيخ فقير مختلّ الشعور يعيش من تكفين الأموات ودفنهم ولا يكاد يصيب كفافاً من القوت. وكان، إذا شحّ الرزق، يجيء إلى مقهى التجار فيرفع يديه ضارعاً إلى الله تعالى وصائحاً

بأعلى صوته: يا ربّ، ألا يموت أحد من الناس؟ هل أموت جوعاً لأن عبادك في خير وعافية؟ اللهم، افتح علينا ووسع لنا . . .

فما يكاد يمضي في استغاثته وشكواه حتى يبادر التجار إلى نفحه بالدراهم واسكاته وصرفه.

العزاوي في أيامه الأخيرة:

لقي عباس العزاوي في أعوامه الأخيرة معارضة واضطهاداً. لقد أصبح النشر والطبع يكاد يكون محصوراً في أيدي وزارة الاعلام، فقدم كتاباً له عنوانه «برج الأولياء» إلى الوزارة لنشره، فقيل له إنه يجب أن يعرض على لجنة للنظر فيه وإقراره. فغضب وسحب مخطوطته وقال: وأية لجنة تنظر في مصنّف لرجل وضع ونشر عشرات الكتب؟

وقد سلق موظفي وزارة الاعلام بألسنة حداد، فامتنعوا عن نشر مقالاته في مجلات الوزارة وحالوا دون إعادة انتخابه عضواً بالمجمع العلمي العراقي. واضطرّ على نشر بحوثه في المجلات السعودية ومجلة المجمع العلمي الكردي في بغداد. وظل متألماً إلى أن أدركه الحمام، لكن ولده فاضل واصل شنّ الحرب الكلامية على المؤسسات الثقافية الرسمية وشهد الاستيلاء على مكتبة أبيه الفريدة ونقلها إلى المتحف العراقي. ورفض تسلّم حصته من المبلغ الضئيل الذي قدّر ثمناً للمكتبة التي أنفق والده سنين طويلة من حياته وأموالاً وفيرة حصّلها بعرق جبينه لانشائها وتوسيعها.

وكان عباس العزاوي يضيق ذرعاً بالنقد الذي يوجّه إليه، فيقول: الانتقاد سهل والتأليف شاقّ عسير. ثم يقول: لا بأس، من ألّف فقد استهدف.

الدكتور مصطفى جواد

العلامة اللغوي المحقق المؤرخ مصطفى جواد ولد في بغداد سنة ١٩٠٤ وأدركته الوفاة فيها في ١٧ كانون الاول ١٩٦٩. كان استاذاً في دار المعلمين العالية وكلية التربية وعميداً لمعهد الدراسات الاسلامية العليا وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ونائب رئيس المجمع العراقي وعضواً مراسلاً لمجمع القاهرة. ترجمت له في «أعلام اليقظة الفكرية».

ألف الدكتور مصطفى رسالة في «جاوان القبيلة الكردية المنسية» نشرت في مجلة المجمع العلمي العراقي، ثم نشرها المجمع العلمي الكردي سنة ١٩٧٣. وترجمت إلى اللغة الكردية.

أخبرني مصطفى علي أنّ مصطفى جواد كان في أثناء دراسته في دار المعلمين الابتدائية ينشر نظماً ونثراً في مجلة «التلميذ العراقي» التي أصدرها سعيد فهيم في تشرين

الاول ١٩٢٢ ، وكان توقيعه «مصطفى جواد الدلتاوي».

وقال مصطفى علي ايضاً: كنت كاتباً عدلاً في بغداد سنة ١٩٣٤ ، فجاءني مصطفى جواد لتصديق كفالته حينما أوفدته وزارة المعارف للدراسة في باريس. ومن غريب الاتفاق أن المكفول كان مصطفى (جواد) والكفيل السيد مصطفى (من أهل الكاظمية) والكاتب العدل مصطفى (علي)، وكذلك كان اسم الكاتب في دائرة الكاتب العدل الذي أنجز المعاملة مصطفى ايضاً!.

كان مصطفى جواد، وهو طالب في باريس، يقضي معظم أوقات فراغه في المكتبة الوطنية. وقد نقل بخطه اللطيف عشرات الدفاتر من المخطوطات القديمة النادرة والمجهولة وأطلق عليها عنوان «أصول التاريخ والأدب». وصار بعد ذلك يرجع إليها في كتاباته ويشير إليها في الهامش، فيذكر «الأصول» ج (كذا) ص (كذا) دون أن يصرّح بالمصدر الأصلي. وقد سألته يوماً لماذا لا يذكر المرجع المخطوط عنه مع الإشارة إلى رقمه في المكتبة الوطنية، فقال: لقد أجهدت نفسي وأفنيت أيام شبابي في البحث عن مصادر لم يلتفت إليها أحد، ونقلتها بخط يدي حرفاً حرفاً، ومحصّت معروفها من مجهولها وصحيحها من مغلوطها، ثم أصرّح بعنوانها ورقم تسلسلها ومحلّ وجودها، ليطلبها كل طالب ويفحصها كل راغب؟ ذلك ما يأباه العقل وينكره الفضل ولا ترضى به المروءة! وليذهب من شاء وليبحث ويحقّق ويدقّق، وليهنأ بما يعثر عليه بكدّه وتعبه، ولا يكون كلاً على السابقين ولا عائلاً على العاملين.

قال ذلك مصطفى جواد، لكنه لم يكن بخيلاً على السائلين والطلاب، بل كان يدلّهم راضياً مسروراً على المراجع التي يرجعون إليها والمصادر التي تيسّر لهم مواد بحوثهم وكتاباتهم. وكان عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني الكاتب قد صنّف «الألفاظ الكتابية»، فقال الصاحب ابن عباد: «لو أدركته لأمرت بقطع يده! فقد جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدّبين تعب الدرس والحفظ الكثير».

عرفت مصطفى جواد في باريس سنة ١٩٣٧ مع حقي الشبلي ونفر من الطلاب العراقيين الذين كانوا يدرسون فيها. لكن صلتي به لم تتوثق الا بعد عودته إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ ، وكان صلة التعارف بيننا أحمد حامد الصراف.

وقرّر سنة ١٩٣٨ إنهاء بعثة مصطفى جواد، فجاء إلى بغداد وراجع وزير المعارف الشيخ محمد رضا الشبيبي وكلّمه في استئناف دراسته. ونصحه الشيخ بمراجعة رئيس الوزراء جميل المدفعي، فنظم مصطفى قصيدة في مدح المدفعي نشرها في جريدة الزمان، يتوسّل فيها بالحصول على عطفه. وأثمر مسعاه، فأوعز الرئيس إلى وزارة المعارف بإعادة ايفاده للحصول على شهادة الدكتوراه.

وكان مصطفى جواد قد تزوج في بغداد قبل ايفاده إلى القاهرة وباريس، لكنه ترك

قرينته وأولاده في بلد الرشيد. وتعرّف في باريس بفتاة فرنسية ساعدته في كتابة أطروحته عن الناصر لدين الله العباسي باللغة الفرنسية ـ على ما رواه لي ـ فصاحبها طوال إقامته في ربوع السّين وأنجبت له ولداً. ولما عاد إلى بغداد ترك لديها كتبه، وكثيراً ما كان يشكو لنا في أثناء الحرب أنها باعت كتبه وتصرّفت في الاشياء التي أودعها لديها. فقال له الصرّاف: وهل أرسلت لها ولابنها بشيء من المال تستعين به على العيش؟ فصمت ولم يجب.

وعلمنا منه بعد ذلك أنها توفيت هي وولدها بداء السلّ خلال سني الحرب العجاف.

وحريّ بالذكر أنّ مصطفى جواد أنهى دراسته الجامعية ووضع أطروحته وقدّمها إلى «السوربون». ونشبت الحرب العالمية قبل أن يهيّأ له مناقشتها وقبولها وتسلّم شهادة الدكتوراه، فترك فرنسة عجلاً خوف انقطاع الطرق مع طلاب آخرين كانوا يدرسون في باريس.

ولمّا جاء إلى بغداد، لم تعترف وزارة المعارف بشهادته. وظلّ يراجع أشهراً محتجاً بالظروف الاستثنائية التي حالت دون مناقشة أطروحته وحرمته إعلان حصوله على الدكتوراه رسمياً، فقبل الوزير صالح جبر عذره أخيراً وأوعز بتعيينه للتدريس في دار المعلمين العالية في الدرجة التي تؤهله لها الشهادة.

ودعي مصطفى جواد على أثر عودته من باريس إلى الالتحاق بدورة ضبّاط الاحتياط (١٩٣٩) مع احمد حامد الصراف وغيره من خريجي الكليات والمدارس العالية. وقد داوم أياماً، وكان ينتقد العريف الموكل بالتدريب على الأخطاء اللغوية في ايعازاته العسكرية. وظهر بعد ذلك في الفحص الطبيّ أن قدمه رحّاء (أي منبسطة لا أخمص لها) فأعفي من الخدمة.

مصطفى جواد وشكيب أرسلان

حدثني الدكتور مصطفى جواد أنه، حينما كان يدرس في باريس، نشر نقداً لمقال كتبه الامير شكيب أرسلان الذي كان يقيم آنذاك في جنيف من أعمال سويسرة. وردّ الامير على منتقده ساخراً من الطالب العراقي المغمور الذي يتطاول على أمير البيان ويتصدى لدحض آرائه.

ولم يكن من مصطفى جواد الاّ أن كتب رسالة شخصية إلى شكيب أرسلان، يؤيد انتقاداته ويسندها إلى مصادر لا يرقى اليها الشك. ثم قال ما معناه: انكم، أيها الأمير المجاهد الجليل، ترفعون نسبكم إلى التنوخيين ملوك الحيرة وإلى النعمان بن المنذر اللخمي ابن ماء السماء، وليس لديكم سند تاريخي يؤيد هذا النسب. ثم ذكر له

المراجع الكثيرة التي تفسد هذا الادعاء وتخرجه عن إطاره التاريخي الصحيح وتجعله بعيد الاحتمال غير معزّز بالأسانيد المعتبرة.

وقرأ الارسلاني رسالة مصطفى جواد، فكتب إليه معتذراً، مقراً بفضل الطالب العراقي، معترفاً بعلمه وطول باعه. ثم سأله أن لا ينشر رأيه في نسب آل أرسلان ولا يطعن فيه، وقال: لقد اضطربت حين قراءة رسالتكم اضطراباً شديداً، وكنت مزمعاً السفر فأسقط في يدي وفاتني موعد القطار!...

كان مصطفى جواد آية من سعة المعرفة وقوة الحافظة وشمول الاطلاع. وقد أفاد من دراسته في باريس وألمّ بأساليب البحث المنهجية الحديثة وطرق التأليف والتصنيف. لكنه، وقد كتب مئات بل آلافاً، من المقالات والمباحث في التاريخ واللغة والأدب والخطط والتراجم، وأضاع أوقاتاً ثمينة في الردّ على المؤلفين والكتّاب وتغليطهم وتعرية جهل جاهليهم وخبط عالميهم، لم يتفرّغ لتأليف كتاب مستقلّ جامع في بعض تلك المواضيع يدلّ على نبوغه وتتبعه ويبقى أثراً للأجيال الآتية وشاهداً على فضله ومبرراً للشهرة التي حازها في حياته.

لقد وضع عباس العزاوي تاريخه وعشائره وسائر مصنفاته التي أصبحت مراجع في بابها بالرغم من ضعف أسلوبها وجمعها للغثّ والسمين. وهيّأ عبد الرزاق الحسني مصادر ووثائق لا تقدّر بثمن للباحثين في تاريخ العراق الحديث. ووضع انستاس ماري الكرملي معجمه «المساعد» فكان خلاصة وافية لجهود حياة كاملة...

أما مصطفى جواد وأكثر الباحثين والمؤرخين المعاصرين له فبعثروا جهودهم وشتتوا أبحاثهم، وقلما نسّقوا ثمار علمهم في مؤلف جامع في موضوعه تحتفظ به الاجيال الآتية وترجع اليه. ومع ذلك يجد الكتاب والباحثون في كتابات مصطفى جواد وبحوثه المبعثرة في الكتب والمجلات والصحف وفي الأصول والمراجع التي نقل عنها ونوّه بها موادّ دسمة تغذّي المواضيع التي وقف عليها حياته.

أوفد مصطفى جواد إلى انكلترة في حاشية الملك فيصل الثاني حين أرسل للدراسة سنة ١٩٤٧، وكان معه ايضاً الأميرة عبديّة بنت الملك علي واللواء عبد المطلب الامين الهاشمي مدرّس التاريخ والجغرافية وبعض رجال الحاشية.

حدّثني مصطفى جواد أنّ المدرسة كانت بجوار بلدة سالسبوري، فاشترت العائلة المالكة داراً نزل فيها الملك، أمّا مصطفى فاستؤجرت له غرفةً في بعض الفنادق. وكان يذهب مرتين في الاسبوع إلى دار الملك لتدريسه اللغة العربية. كان أول الأمر يذهب بسيارة أجرة، ثم طلب منه أن يتعلم السياقة فتمرن عليها في دروس قليلة وأعطي سيارة يتنقل بها ويسوقها بنفسه.

وذهب الملك وحاشيته في السنة التالية الى سويسرة للتزلّج في جبالها، فحاول مصطفى ممارسة تلك الرياضة وسقط وأصيب برضوض وكسور بسيطة.

بين مصطفى جواد
ومحمد رضا الشبيبي

أولع مصطفى جواد منذ عهد شبابه بالمؤرخ البغدادي كمال الدين عبد الرزاق ابن الفُوَطي المتوفى سنة ١٣٢٣م. وقد حقق كتاباً في التاريخ ناقص الأول مغفل العنوان ظنه ـ كما ظنه غيره ـ كتاب «الحوادث الجامعة» لابن الفوطي وأصدره سنة ١٩٣٢. واهتم الشيخ محمد رضا الشبيبي ايضاً بالمؤرخ نفسه ووضع مقدمة للكتاب المنسوب اليه.

ولابن الفوطي كتاب آخر اسمه «تلخيص مجمع الألقاب» وجدت نسخة مخطوطة من المجلد الرابع منه في الخزانة الظاهرية بدمشق، لكنها نسخة مشوّهة. فصفحاتها على شكل جداول ذكر اسم الشخص في الصفحة اليمنى وجاءت ترجمة موجزة له في اليسرى، لكن الصفحات تفرقت وتداخلت، ثم أعيد جمعها وتصحيفها بغير ترتيب لعدم ترقيمها، فظهرت التراجم على وجه مضحك. فربّ شاعر نشرت أمام اسمه ترجمة قائد أو فقيه، وربّ رجل عاش في المائة الثالثة نقل إلى المائة الخامسة أو السادسة، وهلم جراً.

عاني مصطفى جواد جهداً كبيراً في إعادة ترتيب التراجم وإلحاق كل ترجمة بصاحبها مستدلاً بمعلوماته الواسعة في التاريخ ومستعيناً بكتب التراجم والرجال لحلّ الألغاز والمعميّات في هذه المخطوطة الغريبة. ولما فرغ من عمله وأيقن أنه صحّح النسخة وأعطى كلّ ذي حق حقه، تقدم إلى المجمع العلمي العراقي ملتمساً نشر كتابه المحقق. لكنه فوجىء بأن الشيخ الشبيبي يقوم بنفس العمل ويرغب أن لا يسبقه أحد في نشر الكتاب. وكظم مصطفى جواد غيظه، لكنه كان يقول لأخصّائه أنه لا يحق للاستاذ الشبيبي أن يحول دون نشر كتابه وأنه يعتقد أن الشبيبي على سعة علمه وفضله لا يستطيع أن يعيد المخطوطة المشوّهة إلى أصلها الصحيح.

وأخيراً نشر الشبيبي الجزء الأول من كتابه «مؤرخ العراق ابن الفوطي» سنة ١٩٥٤، وقد باشر طبعه قبل أربع سنوات وتلكأ في إكماله وإصداره خوفاً من مصطفى جواد. ثم أصدر الجزء الثاني بعد خمس سنوات. فجرّد مصطفى قلمه وكتب في نقد الشبيبي مئات الصفحات نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي خطّأه تخطئة فاضحة وأحصى عليه أغلاطه التاريخية وجهّله تجهيلاً ولكن بأسلوب أدبي جميل واحترام غير قليل.

وقد سكت الشبيبي على مضض ولم يردّ على النقد بكلمة، ـ عالماً أنه، ولا ريب، شاعر كبير وأديب قدير، لكنه لا يداني مصطفى جواد في التاريخ ولا يلحق به.

رثاء سعد زغلول :

رثى سعد زغلول عند وفاته سنة ١٩٢٧ بقصيدة مطلعها :

نــاشـــدتك الله قُلْ مـــا حـلّ في مصرا ... من المصـــائب إذ لم استطـــع صـــبرا

قال منها :

أمــات سعــد حبيب الشعب عن عُمــرٍ ... منــزّه عـــاش فيـــه مخلصـــاً حـــرا؟
أمــات سعــد رئيس الــوفــد؟ واحَــرَبي ... على الــذي كــان في مصرٍ لها ذخــرا . . .
عليك ، يــا سعــدُ ، أبنـاء العــراق غَـدَوا ... حمّال حـــزن يـــزيل الصبر والفكـــرا
أودعت حبّـك في كل القلــــوب ، ومـــا ... أبقيت قلبـــاً يكمن الحقـــد والنكـــرا
إن العـــــراق ليبكـي آسفـــــاً كَــــدِراً ... حـزنــاً عليك ، وقـد ســاءت بـه البشرى

كان مصطفى جواد يقيم في محلـة شعبية ، وقد وضع على باب داره لـوحاً كتب عليه «الدكتـور مصطفى جـواد» . وفي ذات ليلة طرق البـاب عليه طـرقاً عنيفـاً في منتصف الليل ، فقام إلى الباب وفتحـه ، فإذا بامرأة عجوز تقول له : إن ابنتي مـريضة وفي حالة شـديـدة من الألم . ونحن جيرانك ، يـا دكتـور، فتعـال افحصهـا لعل الله يمنّ عليهـا بالشفاء على يدك المباركة .

فقال مصطفى : لست طبيباً ، يا خالة ، وإنما أنا استاذ ودكتور في التاريخ .

وعبثاً حـاول اقناع المرأة انـه ليس طبيباً . وأخيراً قـالت له بغيظ : إذا لم تكـن طبيباً ، فلماذا تغرّ الناس وتضع على دارك لافتة باسم دكتور؟

وفي الصباح بدّل مصطفى جواد اللافتة ورفع عنها كلمة الدكتور .

ومما يروى من قبيل ذلك أن ممثلي الدول العربية في الجامعة بالقاهرة كانوا في حين من الأحيان الدكتور فاضل الجمالي (العراق) وفارس الخوري (سورية) والدكتور فوزي الملقي (الاردن) . وكانوا يحترمـون الخوري لكبر سنّه ويدعونه بـ «العمّ» . وكـان الدكتور الملقي بيطاراً ، لكن الجمالي كان يظنه طبيباً .

وفي ذات يوم شعر فارس الخوري بوعكة ألزمته الفراش ، فعاده الجمالي وقال له : لماذا لا نستدعي الـدكتور فـوزي الملقي لفحصك؟ فردّ عليه الخوري مـن فوره : وهل عمّك حمار؟

كنت سـائراً مع الـدكتور مصطفى جـواد في شـارع الرشيـد فقـرأنـا على باب أحـد الـدكاكين عبـارة مكتوبـة بخطّ قبيح غير متناسق : «هنـا تنباع البـوال» ، فلم يكن من الدكتور إلا أن دخل وخاطب صاحب الدكان العامي قائلاً :

ـ هل تبيع الطوابع؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ أجل، ولديّ منها أنـواع نادرة شرقية وغربية . . . ماذا تـرغب أن أريك؟ هل تريد «البوم»؟ . . .

ـ لا ، يا عزيزي، لا أريد شيئاً منها، ولكن . . .

ـ ولكن لدينا كل ما تريد . . . إصدارات خاصة لا يوجد مثلها . . .

ـ يا سيدي، أنا لا أريـد الشراء، ولكن يحسن بك أن تكتب على باب الدكان قطعة بعربية صحيحة : «هنا تباع الطوابع».

واغتاظ البائع وقال:

ـ إذا كنت لا تريد الشراء فلماذا تـدخل وتعترض على الناس؟ وماذا يهمّك أن نكتب بعربية صحيحة أو غير صحيحة . . .

وأسرعنا بالخروج إلى الشارع. وقد ذكرتني هذه الحادثة بقصة الشاعر الفرنسي Mal-herbe ماليرب (المتوفى سنة ١٦٢٨). كـان محتضراً يعالج سكرات الموت، والراهب إلى جنب سريـره يلقّنه التعاليـم الأخيرة. وفتح عينيه بعـد غفوة قصيرة، فسمع ربّـة الدار تكلمـه بكلمات لم تكن آية في الفصـاحة، فقـال: «يجدر بك، يـا سيدتي، أن تـراعي قواعد اللغة . . .».

فقـال الراهب: «الأولى أن تهتم بـآخرتك». وأجـابه الشـاعر على الفـور: «انني لا أستطيع، ولو في مقام الموت، أن أغضّ النظر عن فصاحة اللغة الفرنسية!».

وروي عن اللغوي الفـرنسي دومنيك بوهـور (١٦٢٨ ـ ١٧٠٢) Dominique Bou-hours إنه قال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «إنني مشرف على الموت، أو أنا أموت، يصحّ استعمال كلا العبارتين»:

وقال نحويّ عربيّ قديم: أموت وفي نفسي شيء من «حتّى».

كـان لنـا صديق أديـب لا يحسن النظم ولا يكـاد يفرق بين الشعـر والنثر. وأعلن الملحق الصحفي للسفـارة البريطانيـة في بغداد خـلال الحرب العـالمية الثـانية، وأمّتـه تخوض غمار حرب ضارية يتوقف عليه بقاؤهـا، عن مسابقة شعرية تتعلق بمواضيع لها صلة بانتصار الحلفاء وعدالة قضيتهم، وخصّص لها الجوائز، واختار لجنة التحكيم من شعراء وأدباء معروفين في طليعتهم الدكتور مصطفى جواد.

وجاء صديقنا الأديب إلى مصطفى جواد وقال: رغبت في الاشتراك في هذه المسابقة، وقد نظمت قصيدة أرجو أن تنظر فيها قبل الارسال بها. فتناول الدكتور القصيدة ونظر فيها فقال: اسمح لي أن أصارحك، يا عـزيزي. فهذه ليست شعراً ولا يستقيم لها وزن ولا قافية ولا معنى. قال صاحبنا: فهل تصلحها؟.

قال: لا سبيل إلى إصـلاحها، ولكنني أنظم لك قصيـدة تقدمهـا إن شئت إلى لجنة التحكيم.

ووافق الصديق شاكراً، فنظم الدكتـور مصطفى قصيدة على لسانه في الموضوع المقرّر وقدمها الأديب المتشاعر إلى لجنة المباراة باسمه، فنال بها الجائزة الثانية أو الثالثة!.

حين توفي الشيخ محمد رضا الشبيبي عضو مجمع اللغة العربية بمصر رشح مصطفى جواد وعبـد الرزاق محيي الـدين لملء الكرسيّ الشاغـر في المجمع. وقد اختـار الأعضاء مصطفى جـواد، لكن عبد الـرزاق محيي الدين، وهـو آنذاك وزيـر الوحـدة، أسرع إلى مقابلة جمال عبد النـاصر ورجاه أن يؤيد ترشيحه، ففـرضه الرئيس المصري على المجمع وصدر الأمر باعتماده.

وقد بلغ ذلك مصطفى جواد وهو في بغداد فآلمه الخبر ألماً شديداً.

كان مصطفى جواد يدّعي معرفة علم الفراسة، فإذا نظر إلى رجل في الطريق يقول: هـذا فارسيّ وهـذا كردي وهلم جـراً. فإذا سألناه: كيف علمت؟ يقـول: سيماؤهم في وجوههم... وقال إنـه كان، وهو طالب في بـاريس، يدخل إلى بعض المخازن لشراء حاجة لـه، فينظر إلى وجه البائع فيعـرف انه يهودي أو أرمني، فيحدثه بحـديث قريب من نفسه يحصل منه على سماح أو مهاودة في الأسعار.

وذهب مصطفى جواد إلى طهران مع جعفر الخليلي بدعوة من الحكومة الايرانية ونزلا في بعض الفنادق الـراقية. وكـانت موظفة الاستقبـال في الفندق لطيفـة لم تنِ جهداً في خدمة الأديبين ورعايتهما، فـانتحى مصطفى جواد ناحية بصاحبه وقـال له: أترى هذه الفتاة الجميلة، إنها يهودية.

قال الخليلي: كيف عرفت؟

ـ إن ذلك ظاهر في سيمائها!

ومضى الخليلي إلى مدير الفندق وكلمه بالفارسيـة قائلاً: إن موظفة الاستقبال بذلت جهدهـا في خدمتنا، فهل لك أن تـدعوها لنشكـرها؟ فصاح المديـر: علوية فـاطمة، تعالي إلى هنا فالسيد يريد أن يشكرك.

وضحك الخليلي وقال لمصطفى جواد: أين فراستك؟ إنها علويّة وفاطمة!

ظل مصطفى جواد يتحـدث أعواماً طـويلة في الاذاعـة والتلفزيون. وكـانت برامجه الاسبوعيـة في التلفزيون تجتـذب الناس عامّتهـم وخاصتهم، إذ كان لـه أسلوب محبّب يبسّط به أحداث التـاريخ وقصص الخلفاء والوزراء والشعراء ومـواقع الآثار والبلدان. وإذا كان لي أن أشبّهـه بأحد في هذا المجـال فأنا أشبهـه بأديب مصر الكبير الشيخ عبد

العزيز البشري (١٨٨٦ ـ ١٩٤٣)، فقد كان له مريدوه الكثيرون في نـدواته الاذاعية.
قال الدكتور ابراهيم علي أبو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر»:

«وأنا أذكـر أن أول عهد الناس بـالاذاعة، هنـا بمصر، اختار القائمـون على الاذاعة رجلين اثنين توسموا فيهما أن يربطا الاذهـان والقلوب بها. وكان الرجلان هما الصحفي الظريـف فكري أباظـة والأديب الكبير البشري. وكان تـرقب الناس لكـل واحد منهما يفـوق الحدّ ويتجـاوز المعقول، إلا أن جمهـور البشري كـان أضعـافاً مضـاعفـة...»
ويضيف قائلاً إنك لا تسأل أحـداً إلاّ أخبرك أن الشيخ البشري إنسان جـذاب إلى أبعد الحدود، وقد أكبرته في عيـون الناس خفة الروح والألمعية والـذوق وحضور البديهة...
ولعلّ كل تلك الصفـات تنطبق على مصطفى جـواد في ندواتـه التلفـزيـونية، يضـاف إليها، شخصـه الماثل على الشاشة الصغيرة ببسـاطته وهدوئه ومسبحتـه التي لا تفارق أصابعـه، وعينيه اللتين كثيراً ما يغمضهما للتركيـز على حديثه المتسلسل الـذي يلقيه في أناة وصوت لطيف راتب، مما يضفي على المواضيع الأدبية والتاريخية الجامدة لذة وحلاوة ويقربها إلى أفهام عامّة الناس.

وقد سألته مرة لماذا يغمض عينيه في أكثر الأحيان وهو يتكلم في التلفزيون؟ قال: لو رأيت الاضـوية وآلات التصـويـر الموجهـة إليك وأنت تتكلم لشرد ذهنك واختلّ رأيك وعيّ لسانك!.

المطران سليمان الصائغ

ولد سليمان بن داود الصائغ في الموصل في ١٨ أيلول ١٨٨٦، وانتمى الى مدرسة مار بطرس البطريـركية في مسقط رأسه سنة ١٩٠١، فأتم دروسه الاعدادية والفلسفية فيها في تموز ١٩٠٨ ورسم كاهناً.

وعمل في سلك التعليـم وإدارة المدارس الابتـدائيـة، وعيّن سنـة ١٩١٤ مـديـراً للمدرسـة الاعدادية الكلدانيـة، وكان عضوا في لجنة المدارس الابتـدائية في الموصل على العهد العثماني.

عهد إليه على أثر احتلال الموصل تحرير جـريدة «الموصل» التي أصدرتها الحكومة في ١٤ تشرين الثـاني ١٩١٨، فتولى العمل بها أكثـر من سنـة. ولمّا نظر في قضيـة الموصل وألفت لجنة الدفاع الوطني لضمّها الى العـراق، كلف بكتابة القسم التاريخي من تقرير اللجنة في سنة ١٩٢٥.

وأصدر في ٢٥ كـانون الأول ١٩٢٨ في الموصل مجلـة «النجم»، وهي مجلـة علمـية أدبيـة بقيت تظهـر الى سنة ١٩٤٠. واختير سليمان الصـائغ عضـواً مراسـلاً بـالمجمع

العلمي العراقي في أيار ١٩٤٩ . وقد رسم مطراناً في حزيران ١٩٥٤ وعيّن نائباً بطريركياً للكلدان في الموصل .

وتوفي في تلك المدينة في ١٨ أيلول ١٩٦١ ، وهو يوم عيد ميلاده الخامس والسبعين .

وللمطران صائغ مؤلفات تاريخية ، منها : تاريخ الموصل (الجزء الأول ١٩٢٣ ، الثاني ١٩٢٨ . الثالث ١٩٥٦) ، كتاب يزدان دوخت (صفحة من تاريخ العراق في العهد الساساني ، ١٩٣٤) ، تاريخ الكنيسة الكلدانية (١٩٣٩) . وقد سعى لتنشيط التمثيل في المدارس وألف مسرحيات ، منها : الزبّاء (١٩٣٣) مشاهد الفضيلة (١٩٣١) الأمير الحمداني (١٩٢٨) ، وترجم مسرحية هوراس لبيير كورناي (١٩٥٢) .

شكري الفضلي

شكري بن محمود بن أحمد آغا ؛ من رؤساء عشيرة الكروية ، ولد في بغداد سنة ١٨٨٢ ، وقضى في السليمانية أربع عشرة سنة برفقة خاله صالح أفندي إسماعيل الذي كان رئيس كتاب الحامية العسكرية ، ودرس فيها دروسه الإبتدائية . وعاد الى بغداد سنة ١٩٠١ ، فانتمى الى المدرسة الرشدية العسكرية ودرس اللغات العربية والكردية والفارسية . وعيّن بعد ذلك معلماً في مدرسته الرشدية ومدرسة القديس يوسف .

شدّ الرحال الى الأستانة سنة ١٩٠٨ فأمضى فيها عامين ، ثم عاد الى بغداد ، وحضر دروس الشيخ عبد الوهاب النائب ، وألمّ بشيء من الانكليزية والفرنسية . واطلع على الثقافة التركية الحديثة ، ومن طريقها على الأدب العصري الغربيّ ، فتأثر بمبادىء الحرية والتقدم الاجتماعي ، ولقي في سبيل ذلك عنتاً وإرهاقاً . فقد سجنه الفريق رفيق باشا في كركوك ، ثم ألقي القبض عليه مع فريق من رجال العراق المناوئين لحزب الاتحاد والترقي ، وطلب إرساله الى الأستانة لمحاكمته أمام ديوان الحرب العرفي بأمر من طلعت باشا وزير الداخلية التركية ، لكن أطلق سراحه مع رفاقه بشفاعة الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني .

ولما احتلّ الإنكليز بغداد وجلا عنها الأتراك ، عيّن سنة ١٩١٧ رئيساً لكتاب محكمة الصلح ، ثم اختير عضواً بلجنة ترجمة القوانين العثمانية على عهد ناظر العدلية بونهام كارتر . وحرّر في الوقت نفسه في صحيفة «العرب» وبعض الصحف الفارسية والكردية التي أصدرتها سلطات الاحتلال . وكتب في الجرائد الصادرة في بغداد كجريدة الشرق والعراق والاستقلال . ونقل في سنة ١٩٢١ رئيساً لكتاب ديوان مجلس الوزراء . وأصيب بالسلّ ، فتوفيّ ببغداد في أول حزيران ١٩٢٦ . ورثاه جميل صدقي الزهاوي قائلاً :

حـــال بيني وبين شكـــري التراب إذ قضى نحبـه، فجـلّ المصـاب . . .
قـــد بكتـه الأقـــلام منكسرات وبكتـــه الأخــــلاق والآداب

وكان شكري الفضلي نفسه قد حيّا الزهاوي بقصيدة قال فيها :

لقـد قلـت شعـراً، بل نظمـت شعـوراً نـــذيـــراً لقـــوم تـــارة وبشيرا
يغيّر منهــاج الحيـــاة بسرعـــة ويحدث من بعـــد الأمـــور أمـــورا
يكلم جهــراً في الجبـــان شجـاعـــة ويجعـــــل همس الخائفين زئيرا
يـــريك شحيح القـــوم يبسط كفّـــه ويشرك في مـــــال الغنـيّ فقيرا
يثقف أحـــلام الـــرجـــال ليتّقـــوا بها الـــدهـــر خطبـــاً منكـــراً ونكيرا
يـــوحّـد غـــايـــات الهداة ليـدركـــوا نعيماً وملكـــاً لا يـــزال كبيرا
فـدونـك شعـــراً للـزهـــاويّ خـــالـداً تـــريك قـــوافيـــه الشعـــور بحـــورا

مؤلفاته وشعره :

نشر شكـري الفضلي بحوثـاً في مجلة «لغـة العـرب» وغيرها من المجـلات والجرائد . ووضع كتباً في تـاريخ العراق قديماً وحديثـاً، وذيل جغرافية العراق التـاريخية، وفلسفة الخيام، ونظـرات سياسية واجتماعيـة . وله ديوان شعـر ومؤلف بـاسم «مكتبة الفضلي» يبحث في العلـوم المختلفـة كـالحكمـة الطبيعيـة والكيميـاء والفلك وطبقـات الأرض الخ . وقد بقيت آثاره متفرقة في الصحف والمجـلات وأوراقه المخطوطة لم يقدر لها الجمع والطبع .

وأدب شكري الفضلي كثقـافته مـزيج من القديم والحديث، وقـد أطل على الآداب العصريـة من نـافذة الأدب التركي الجديـد . وأفقـه واسع شأن الأدبـاء المخضرمين من أقرانه، فهو ينظم وينثر ويبحث في التاريخ والجغرافية والاجتماع وهلم جراً .

ومن شعره في «المستنصرية» :

نهضنـا، وكـــان الـدهـر تترى كتـائبـه، يحاربنـــا طـــوراً وطـــوراً نحـــاربـــه
فكم قـــد قتلنـــا الـــدهـــر خُبْراً فـزادنـــا ببلـــواه علماً حينما نـــاح نـــادبـــه
وكم قـــد حلبنـــا أشطـــر الـــدهـــر دربـــة وفـــزنـــا بَـــدرّ الحقّ، لله حـــالبـــه!
وكم قـــد علـــونـــا هـــام أسـود يـــومـــه بأبيض عـــزم فـــاستنـــارت غيـاهبـــه . .
فهـــــذي هـــي المستنصريـــــة تشتكـي بـــلاهـــا وبـــالصمت البليغ تخاطبـــه
ألا دولـــة المستنصر اليـــوم قـــد علت بـــدولتكم واعتـــزّ بـــالعلـم طـــالبـــه
إذا مـــا اتخذت العلم للشعب ســاعـــداً ضربت بسيـف لم تخنك مضـــاربـــه . .
الى العلم، يـــا أهل العـــراق، فـإنـــه لموردُ عـــذبٍ لم تعكّـــر مشـــاربـــه

صدّيق الدملوجي

البحّاثة الإداري صدّيق بن سعيد الدملوجي ولد بالموصل سنة ١٨٧٧، وكان موظفاً إدارياً في العهد التركي. وعلى أثر تأليف الحكومة العراقية، عيّن في أيلول ١٩٢٣ قائمقاماً للشطرة فالقرنة (تموز ١٩٢٥)، وكان أيضاً قائمقاماً للأقضية الشمالية العمادية والشيخان وسنجار وتلعّفر.

إنصرف الى البحث والتأليف بعد اعتزالة الخدمة الرسمية. وأدركته الوفاة في مسقط رأسه الموصل في ١٥ نيسان ١٩٥٨. من مؤلّفاته التاريخية: الأنقاض، الموصل (١٩٤٩) اليزيدية (١٩٤٩) إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية (١٩٥٢) مدحت باشا (١٩٥٣).

وهو أخو الدكتور عبد الله الدملوجي وفاروق الدملوجي.

رزّوق عيسى

ولد رزوق بن عيسى بن زكـرّيا الموصلي، في بغداد في ٦ حزيران ١٨٨٥، ودرس في المدرسة الانكليزية الثانوية ونال شهادتها سنة ١٩٠٠. وعمل موظفاً في بعض الشركات التجارية في البصرة، لكنه لم يلبث أن عاد الى بغداد وقام بالتدريس في المدرسة الانكليزية (١٩٠١ ـ ١٤).

وأصدر مجلة العلوم في أول تشرين الثاني ١٩١٠ فلم يظهر منها سوى عددين. وأعلن النفير العام في أواخر سنة ١٩١٤ فجنّد، ثم اعتقل في آذار ١٩١٥ بتهمة الخيانة وحكم عليه بالسجن ستة أشهر. وعيّن على أثر الاحتلال الانكليزي سنة ١٩١٧ مترجماً ومعاوناً للحاكم السياسي في العزيزية والنعمانية. لكنه استقال من منصبه بعد أمد وعاد الى التعليم في المدارس الأهلية عدة أعوام. وأصدر مجلة المؤرخ في كانون الثاني ١٩٣٢، فاستمرت سنة واحدة.

وقد وضع مؤلفات متعددة منها المطبوع والمخطوط، منها: بغية الأنام في لغة دار السلام، تاريخ العراق قديماً وحديثاً، تاريخ التمدّن العراقي، حضارة بابل وأشور، تاريخ مدن العراق القديمة والحديثة، حضارة العرب في الجاهلية والإسلام، تاريخ الصحافة في العراق، جغرافية العراق الخ. وألف روايات وكتباً مدرسية، ونشر مقالات وبحوثاً كثيرة في الصحف والمجلات.

ومن رأيه أنه لا يصلح العالم إلا المذهب الإشتراكي المعتدل الذي بشّر به الأنبياء، وقال به الفلاسفة، وأقرّه الساسة والمشترعون في كل العصور. ومن رأيه أيضاً أن الدكتاتورية لا يطول عهدها لأنها عدوّة حرية جماهير الناس. وقد قال: «أليس من

الظلم أن تكون حياة الأمة تتوقف على كلمة ينطق بها فرد من أفرادها؟ أليس من الظلم أن يكون الضعيف سنداناً لمطرقة القويّ؟».

وقد توفي في ٢٣ أيلول ١٩٤٠ في بغداد.

محمّد جواد البلاغي

من رجال العلم والتأليف الشيخ محمد جواد بن حسن بن طالب البلاغي، ينتمي الى أسرة معروفة تنسب الى قبيلة ربيعة، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٦٤، ودرس على محمد طٰه نجف ورضا الهمذاني وغيرهما. ثم انتقل الى سامرّاء ولبث فيها عشر سنين درس فيها علي محمد تقي الحائري الشيرازي الذي اشتهر في إبان الثورة العراقية. وغادر سامراء حين احتلتها الجيوش البريطانية سنة ١٩١٧، فأقام في الكاظمية سنتين، ثم عاد الى النجف.

أكبّ على التأليف والتدريس واشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠. وكان يعرف الفارسية وشيئاً من اللغة الانكليزية. قال جعفر محبوبة في كتابه «ماضي النجف وحاضرها» (الجزء الثاني) إنه كان لجواد البلاغي اليد الطولى في الدعوة الى إنقاذ الدار التي اتخذها البهائيون محفلاً لهم في جانب الكرخ من بغداد، وقد اشتدّ النزاع على هذه الدار ورفعت الشكاوى بشأنها الى عصبة الأمم سنة ١٩٣١.

توفيّ بمسقط رأسه النجف في ١١ كانون الأول ١٩٣٣.

كان عالماً شاعراً أديباً وضع مؤلفات عديدة، أهمّها: آلاء الرحمٰن في تفسير القرآن (طبع منه ٣ أجزاء ١٩٣٣ ـ ٣٤) أنوار الهدى، أعاجيب الأكاذيب (١٩٢٧) البلاغ المبين (في الإلهيات)، التوحيد والتثليث، الرحلة المدرسية (١٩٢٤) العقود المفصّلة (في الفقه) نسمات الهدى، مسألة في البداء (١٩٥٥) الهدى الى دين المصطفى (في جزءين، ١٩٦٥) الخ.

ردّ على الماديين والطبيعيّين والدهريّين ورمى بسهامه أرباب الالحاد ودافع عن أركان الدين. ونظم الشعر، فمن نظمه رثاء محمد سعيد الحبّوبي، ومطلع قصيدته:

شاقك البرق فأسرعت سِباقا   وتركت الصبّ يلتاع اشتياقا

ومعارضة قصيدة ابن سينا الشهيرة في النفس، قال:

نعمت بأن جاءت بخلق المبدع   ثمّ السعادة أن يقول لها: ارجعي

محمد صادق الأعرجي

الصحفي الكاتب المدرس محمد صادق الأعرجي، ولد سنة ١٨٨٣ ودرس علوم العربية والدين في المعاهد القديمة. ومال الى الكتابة في شبابه، فأصدر في بغداد جريدة الرصافة (١٧ حزيران ١٩١٠). وعطلتها الحكومة بعد سنة واحدة، فاعتاض عنها بجريدة الصاعقة التي أنشأها عبد الكريم الشيخلي في ٨ حزيران ١٩١١. وأدّت به جرأته في الكتابة الى السجن، ولم يفرج عنه إلا بأمر من استانبول بعد مراجعة برقية من بعض الوجهاء. وأصدر في نيسان ١٩١٣ مجلة الرصافة، لكن لم يبرز منها سوى عدد واحد. واختير الأعرجي بعد ذلك عضواً في مجلس ولاية بغداد (١٩١٤) على عهد الوالي جاويد بك.

وامتهن التعليم على أثر الاحتلال الانكليزي فعيّن مدرساً (أول تشرين الأول ١٩١٧)، وزاول هذه المهنة في المدارس الثانوية الرسمية للبنين والبنات أكثر من ثلاثين سنة.

وتوفي ببغداد في أوائل شهر آب ١٩٦٠.

كان الأعرجي شاعراً، قال من قصيدة له في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠:

أسد العراق، بلغتم شأو عزكمُ ... ونلتم بعلاكم أرفع الرتب
في باب روض علاكم آية كتبت: ... حمالة المجد لا حمّالة الحطب
هذا العراق حماكم، وهو خير حمى، ... فعالجوه لكي يشفى من الوصب
عار عليكم، بنيه، أن تمدّ يد ... إليه مالم تعالجها يد العطب
إن لم تذبّوا حفاظاً عن حريمكمُ ... فمن يذبّ وينجيه من الرهب؟

***

أرض العراق بأهليها محصّنة ... محمّية بهمُ من سالف الحقب
كم قام فيها مليك جيشه لجب ... وحلّها خير جيش باسم خير نبي
شبانها لحماها خير مدّخر ... أنتم فجدّوا فليس الوقت للّعب
ألقوا على الشعب ضوءاً من بسالتكم ... كي ينجلي عنه ليل الشكّ والريب...

حتى يقول:

لا تخضعوا لعداكم في مساومة ... عار على الرأس أن ينقاد للذنب
صبّوا عليهم جحيماً من مدافعكم ... وأحرقوهم بنيران من الغضب
روّوا صعيد حماكم من دمائكُمُ ... كيما يجيد ثمار العزّ والنشب
واسقوه ماءً نميراً من مكارمكم ... كيما يجيد ثمار العلم والأدب

علي ظريف الأعظمي

الصحفيّ المؤرخ علي ظريف الأعظمي ولد بضاحية الأعظمية من بغداد سنة ١٨٨٣ وتوفي سنة ١٩٥٨ . عمل في التدريس . وأصدر مجلة الأقلام (شباط ١٩٢٨)، فاحتجبت قبل أن تكمل عامها الأول . وقد عين رئيساً لبلديةالأعظمية سنة ١٩٢١ .

وضع كتباً منها : دروس التجويد (١٩١٣) الدرّ والياقوت في محاسن السكوت (١٩١٣) دروس الصحّة، تاريخ ملوك الحيرة (١٩٢٠) تاريخ الدولة اليونانية في العراق (١٩٢٣) مختصر تاريخ بغداد (١٩٢٦) مختصر تاريخ البصرة (١٩٢٧) تاريخ الدولة الفارسية في العراق (١٩٢٧) .

ولده : الشاعر حسين الظريفي، ولد بالأعظمية سنة ١٩٠٩ . وعيّن مدرساً في البصرة (١٩٢٨)، لكنه انتمى في السنة التالية الى كلية الحقوق في بغداد وتخرّج فيها سنة ١٩٣٣ . وعيّن حاكماً في المحاكم المدنية (١٩٣٥)، ثم انصرف الى مزاولة المحاماة .

من مؤلفاته : حاكم التحقيق (١٩٣٦) البيّنات العامة (١٩٤٥) في سبيل الوطن (مسرحية شعرية، ١٩٤٨) جميل صدقي الزهاوي في بعض مجالسه (شعر روائي) . وله أيضاً : أناشيد (١٩٢٢)، ظرائف الأعظمي (١٩٢٥) .

قال الظريفي من قصيدة له بعنوان «من وحي الفنّ» .

للنفس في فنّ الغناء إذا وعت ... ما تشتهي من طاعم أو كاس
وإذا أمضّ الحزن في قلب امرىء ... واساه من حسن الغناء مواسي
ولطالما أحيا به ميت الهوى ... من كان قد واراه بالأرماس
وبه لدى الجُلّى يذبّ عن الحمى ... كالماء من حجر تفجّر قاس . . .
قلم الأديب كنغمة الشادي به ... ينجاب ما يضنيه من إيلاس
ويبثّ من مرّ الهوى حرّ الجوى ... وصنوف ما قاسى به ويقاسي
ولقد يبيت به الفتى وكأنه ... يحيا على عرس من الأعراس
كم لذة لي في الحياة غنمتها ... ويراعتي بيدي على قرطاسي
أملي عليها من بنات خواطري ... ما هنّ كالريحان أو كالآس
إنّي لأغفل عن حياتي ساعة ... فيها أعبّر عن مدى إحساسي
لي من بياني صورة ليست على ... شيء من الإغماض والإلباس

عبد الحميد عبادة

من الكتاب الباحثين، ولد في خانقين سنة ١٨٩١ ، واستقرّ في بغداد حيث توفي سنة ١٩٣٠ . مال الى البحوث التاريخية والتحقيقات العمرانية شاباً وكتب مقالات في مجلة لغة العرب وغيرها من المجلات والصحف .

وألف كتاب مندايي أو الصابئة الأقدمين (١٩٢٧)، وترك مصنفات مخطوطة منها «العقد اللامع في ذكر الآثار والمساجد والجوامع»، و «شجرة الزيتون في نسبة آل السعدون» .

قال عبد القادر البّراك : «من يستعرض أمّهات المجلات العلمية والأدبية والتاريخية التي صدرت في العراق وبعض الأقطار العربية في أوائل القرن العشرين ، يجدها حافلة بالعديد من المقالات والبحوث التاريخية القيّمة التي تحدّد مواقع بعض معالم الحضارة وتعرّف بالعديد من الملل والنحل والمعتقدات والآراء، للمؤرخ البغدادي المرحوم عبد الحميد عبادة ، صاحب أهم مصدر عن تاريخ «الصابئة» ومعتقداتهم ، لكونه قد كتبه بعد أن سكن في قراهم وعايش أقطابهم . . . » وقال البرّاك أن الدكتور مصطفى جواد كان يعتمد على آرائه فيما كان يكتبه عن خطط بغداد القديمة وغير ذلك من المواضيع .









